



البوابات الجنوبية لجزيرة العرب

رحلة إلى حضرموت عام 1934 م

تأليف: فرياستارك

ترجمة: وفاء الذهبي

تحرير وتعليق: د. أحمد إيبش



روّاد المشرق العربي

البوّابات الجنوبيّة لجزيرة العرب رحلة إلى حضرموت عام 1934

للرّحالة البريطانية

فريا ستارك

ترجمة

وفاء الذّهبي

تحرير وتعليق

د. أحمد إيش



© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية.
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر.

DS94 .B412 2013

Bell Gertrude Lowthian 1868-1926.

[desert and the sown]

البوابات الجنوبية لجزيرة العرب: للترخالة البريطانية: فريا ستارك ترجمة: وفاء الذهبي
تحرير وتعليق: د. أحمد إيبش. ط. 1. - أبوظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار
الكتب الوطنية، 2013.

ص. : سم. - (رواد المشرق العربي)

The desert and the sown : ترجمة كتاب :

تدمك : 978-9948-17-164-5



هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

إصدارات
esdarat

دار الكتب الوطنية

© حقوق الطبع محفوظة
دار الكتب الوطنية
هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
«المجمع الثقافي»

© National Library
Abu Dhabi Tourism &
Culture Authority
"Cultural Foundation"

الطبعة الأولى 1434 هـ - 2013 م

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي
هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة - المجمع الثقافي
أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380

publication@tcaabudhabi.ae
www.tcaabudhabi.ae

البوآبات الجنوبيّة لجزيرة العرب
رحلة إلى حضرموت عام 1934

سلسلة

رؤاد المشرق العربي

تقدّم «هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة» للمكتبة العربية بوجه العموم، ومكتبة تراث جزيرة العرب بوجه الخصوص، كتاباً جديداً من هذه السلسلة الثقافية التراثية تحت عنوان: «رؤاد المشرق العربي». وهي من خلالها تعكس اهتمامها بتراث الآباء والأجداد، كمصدر فخر لشعب الإمارات وإلهامهم وعنوان أصالتهم وهويتهم الوطنية، وذلك من خلال الحرص على جمع كافة المصادر المتعلقة بتراث منطقة الخليج العربي وجزيرة العرب والعالم العربي في آن معاً.

فإذا استعرضنا تاريخ الحركة العلمية بنشر التراث العربي المخطوط، الذي يصل مجموعه إلى قرابة 3 ملايين مخطوطة في مكتبات الشرق والغرب، نجد أنّ جامعاتنا ومعاهدنا العلمية ومؤسساتنا الثقافية على امتداد الوطن العربي، أسهمت بنصيب وافر في خدمة هذا التراث ونشر أصوله، وخاصة خلال القرن العشرين. فتألّفت من خلال ذلك مكتبة تراثية عريقة ثمينة وواسعة للغاية، حفظت تراث لغتنا العربية في مجالات شتى، منها على وجه المثال: الأدب العربي، الشعر، النحو، الحديث الشريف، الفقه، التاريخ، الفلسفة والفكر الإنساني، الفنون، وسائر العلوم عند العرب من فلك وطب وهندسة ورياضيات وصيدلة وكيمياء. ومنها أيضاً الأدب الجغرافي العربي وأدب الرحلات.

وما دُمنّا بصدد ذكر تراثنا الجغرافي، فلا بُدّ أن نؤكد على أنّ ثمة تياراً موازياً له، يضارعه ويستقي منه ويتمّمه، يُضفي بالغ الفائدة والمتعة على تراث العروبة، ألا وهو:

أدب رحلات الأوروبيين إلى مشرقنا العربي! هذا المبحث مع الأسف لم يتم التركيز الكافي عليه حتى الآن، رغم ما يستحقّه وما يقدّمه من فوائد لمثقفني العربيّة ودارسي تراثها وتاريخها الحضاري والسياسي والاجتماعي.

هذه الرّحلات لم تتوقّف أبداً منذ أقدم العصور وإلى انبلاج دعوة الإسلام الحنيف، فطفقت جموع الرّحّالين تتناوب على زيارة المشرق منذ عصر حضارة الإغريق (كرحلات هيرودوتوس ونيارخوس، ورحلة الأناباسيس لكسينوفون الأثيني)، وكذلك في عصر الرّومان (كرحلة إيلوس غالوس، وتطواف البحر الإريثري). ثمّ في القرون الوسطى حلّ الطّمع محلّ الفضول، واجتاحت جحافل الغزو اللاتيني مشرقنا الإسلامي في موجة الحملات الصليبيّة، فمكثت فيه على الشّريط السّاحلي لبلاد الشّام مدّة 200 سنة، وحاولت احتلال مصر وتونس لكنّها أخفقت وارتدّت على أعقابها.

فلما أطلّ القرن السّادس عشر، بدأت مرحلة جديدة في هذه الملحمة الثّقافيّة والحضاريّة من علاقات الشّرق بالغرب، فتضاعف إلى حدّ كبير عدد الرّحّالين الأوروبيّين، الذين قصدوا المشرق إمّا للتّجارة أو المغامرة أو الاستطلاع، أو لمجرّد الخروج بمؤلّفات إبداعيّة فريدة. أمّا جزيرة العرب، معدن العروبة وأرومة قبائلها، ومهبط الوحي وموئل لغة القرآن الكريم، فلا غرو أنّها نالت من اهتمام رّحّالي الغرب وجهودهم المُضنية ومغامراتهم الشّائقة الشّيء الكثير، عبر خمسة قرون (من القرن السّادس عشر إلى القرن العشرين).. فجابوا بواديها وفيافيها ومجاهلها، ناهيك عن مدنها وبلداتها وقراها ومضارب بدوها.

هذا الإرث الإنساني الثّمين والممتع والمفيد، الذي يضمّ المئات من نصوص الرّحلات النّادرة، تتابع «هيئة أبوظبي للسياحة والثّقافة» اليوم نشره بالعربيّة، في مشروع طموح يهدف إلى نشر أكبر عدد منه، وتقديمه للقارئ العربي بأرقى مستوى علمي من التحقيق والبحث، وأجمل حلّة فنيّة من جودة الطّباعة وتقديم الوثائق والخرائط والصّور النّادرة.

هيئة أبوظبي للسياحة والثّقافة

هذا الكتاب

فريا ستارك كاتبة بريطانية مثقفة وجريئة، يغلب عليها الطابع الإنساني العاطفي ورهافة الحسّ واللّباقة، زارت حضرموت في ثلاثينيات القرن العشرين برحلة شائقة، يسرّنا أن نضيفها اليوم إلى ما سبق أن نشرناه لمغامرات من النساء: الألمانية دوروتيا فون لينكه (الكونتيسة المينياتي)، والبريطانيات ماري تَشْب، مارغريت مري، غرتروود بِل، مايبل بنت. كما سوف نرى منهنّ المزيد قريباً: الليدي آن بلنت، دورين إنغرامز، روزيتا فوربز.

أبحرت الرّحالة البريطانية المثيرة للجدل في البحر الأحمر في نوفمبر 1934، ونزلت في عدن المرفأ الرئيسي للمحميّة البريطانية في جنوبي جزيرة العرب. كانت المكتشفة النّشطة الجذّابة الصّغيرة قد حازت على شهرة، واختارت اليمن وبشكل خاص وادي حضرموت الثّاني مسرحاً لمغامرتها التالية. وكم ثار من جدل كبير حولها في لندن، فتوقعوا أنها ستهبط بطايرتها الخاصّة، أو ربما تأتي وهي تقود قافلة جمال. كان بعضهم على ثقة من أنّ وصولها لم يعنِ أيّ شيء سوى المتاعب، ولكن مع ذلك احتشد الجميع للقائها في مقرّ الإقامة البريطاني.

كان هدفها أن تجد مدينة «شَبوة» الخفيّة، عاصمة مملكة حضرموت القديمة (حبس الموت) كما تسمّى في الأسفار، شَبوة التي ذكرها پلينيوس باسم «سابوتا» المدينة التي زوّدت بالمؤن قوافل البخور التي تمرّ عبرها، وكتب أنها احتوت على ستين معبداً وثروة لا توصف. لم يحصل أن بلغ مستكشف أوروبي تلك الواحة المفقودة منذ

عهد بعيد في رمال البادية، وكانت نية فريا أن تكون أول من يصل إليها. كانت خطتها أن تتسلق الجول العالي، وهو جرف فسيح يفصل ساحل المحيط الهندي عن وادي حضرموت، وهو الأطول والأخصب في جزيرة العرب، تطوّقه جُروف نمت على جوانبها نباتات البخور. فكانت حصيلة ذلك كله مغامرة ممتعة شائقة، لم يكن أفلها وقوع فريا في عدن بحبّ تاجر فرنسي ستذكره في كتابها مراراً وتكراراً.



ولدت فرياستارك عام 1892 وعاشت عمراً مديداً ترحل بين المدن والحضارات.. أبصرت النور في باريس ونشأت في إيطاليا والتحقّت بالحرب العالمية الأولى كمبرّضة على الجبهة التماسوية، لكن ولعاً خفياً وفضولاً نحو المعرفة والاكتشاف قادها الى تعلّم اللغة العربيّة وهي في الثامنة والعشرين من عمرها على يد راهب إيطالي من الكيوجيين عاش في بيروت قرابة ثلاثين عاماً. كما تتلمذت على يد اثنين من المستشرقين الكبار هما توماس آرنولد وهاملتون غِب.

تخرّجت فريا من مدرسة اللغات الشرقية في لندن وقرأت القرآن الكريم، وفي العام 1928 بدأت رحلتها الى الشرق لاكتشاف قيمه الروحية والانسانية، وأثناء الحرب العالمية الثانية عملت في العديد من المدن العربية مثل القاهرة وبغداد وعدن على شرح مواقف بريطانيا. كانت فريا ابنةً روحية لكلّ المدن في الهند، كندا، الصين، أفغانستان، كشمير، إيران، أميركا.. تزور وتجول وتدوّن ما يلفت نظرها ثم تعود إلى بيتها في مدينة أسولو Asolo (تلفظ أزولو) في شمال إيطاليا، لتسجّل خبرتها الحية في كتب ومقالات بأسلوب يتسم بالواقعية وروعة التصوير وصدق العاطفة.

أثناء وجودها في حضرموت وبكونها امرأة، استطاعت ان تخترق كل الحواجز المقامه حول نساء العرب هناك، وتعمّقت في هذا المجتمع ناقلة لنا صوراً كثيرة ومختلفة من جوانب عدّة عن المجتمع النسائي الحضرمي قبل ما يزيد عن خمسة وسبعين عاماً. وتكلّمت عن أمور كثيرة في حضرموت ابتداء من السياسة وانتهاء بالاحاديث النسائية في داخل البيوت الحضرميّة العادية. وأسلوب هذه الكاتبة ممتع

وتفاعلي تغلب عليه رهافة الشّعور مع تعاطف محبّب مع النّاس الذين قابلتهم وعاشت بينهم فترة خمسة أشهر من الزّمان، وتُشعرك بأنّها فعلاً استطاعت فهم هذا المجتمع وتعاملت معه بكلّ محبّة ومودّة.

وعدا عن المحور الإنساني الذي اهتمت به فريا في حضر موت، انصبّ تركيزها أيضاً على تاريخ طريق اللّبان (أو البخور) الذي كان في العصور القديمة بمثابة ثروة نادرة اختصّت بها هذه الزّاوية من العالم في جنوبي جزيرة العرب، وكانت مادّة ثمينة للتّجارة والتّنافس الدّولي، وحتى أثارت أطماع روما القديمة فقامت من أجلها حملة كبيرة بقيادة القائد الروماني الشهير إيلوس غالوس، كما أثارت انتباه واهتمام جميع من تعاطوا التّجارة آنذاك، كما نجد في كتاب «التّطواف في البحر الأريثري» الذي ألفه ملاح يوناني مجهول في القرن الميلادي الأول، وهو قيد الإعداد أجهّزه حالياً للنّشر في هذه السّلسلة.



أول طبعة صدرت للكتاب كانت في لندن عام 1936 عن دار جون مري John Murray ورافقتها طبعة دار دتون Dutton النيويوركيّة، ثم تلتها طبعة ثانية عام 1946 وثالثة 1957. رجعنا أولاً في ترجمتنا هذه إلى طبعة حديثة صدرت بنيويورك عام 2001، ثم قمّت بمراجعتها على طبعة لندن 1957 من نسخة الجامعة الأميركيّة في بيروت، وأخذت عنها الصّور التي أقدمها في نهاية الكتاب. ولكن مع إعداد هذه المقدمة وتجهيز الكتاب للطباعة وصلّني من أميركا نسخة نادرة جداً لطبعة نيويورك الأولى 1936 فوجدت بها صوراً أكثر بكثير من الطبعة الثّالثة تتجاوز المئة، فضلاً عن ملحق وتعداد لمراجع قيمة، لعلّي أستدركها في طبعة قادمة. والواقع أنّ فريا كانت بارعة في فنّ التّصوير، وتستعمل كاميرا لايكا Leica الألمانية الشهيرة (من الطراز القديم المعروف بالركاب اللّولبي Schraubgewinde)، وزيّت كتبها بالكثير من الصّور النّفيسة.

أخيراً، أوّد الإشارة إلى أنّ الأغليّة السّاحقة من المصادر المرجعيّة التي تذكرها فريا

في نصّها قد حصلتُ عليها، مثل كتب هيرش وفون فريده وفان در مولن وفون فيسمان وهانز هلفريتس وتطواف البحر الإريثري، أمّا كتاب ثيودور ومايبل بنت الثمين فقد نشرناه في أواخر العام الفائت وكذلك رحلة الإيطالي رنزو مانزوني، ونعد بتقديم عدد أكبر من فرائد نصوص الرّحلات عن اليمن، ضمن السّياق التّالي: لودوفيكو دي فارتيمّا، جون جوردن، كارستين نيبور، يوزف فولف، توما جوزيف آرنو، أيليز إروين، هنري روك، أولريخ ياسپر زيتسن، حايم حبشوش، أدولف فون فريده، ليو هيرش، إدوارد غلازر، هرمان بورخارت، هاينريخ فون مالتسان، مايبل بنت، فان در مولن وفون فيسمان، والتر هاريس، جورج وايمَن بُري، آرثر جون وافل، هارولد إنغرامز، هانز هلفريتس، واثنين من بقيّة كتب فريا هما: «مشاهدات في حضر موت»، «شتاء في جزيرة العرب»:

Seen in the Hadhramaut (1938), A Winter in Arabia (1940).

نرجو أن يكون في عملنا هذا ما يفيد ويمتع. والحمد لله على ما وفق وأعان.

جبيل، 19 فبراير 2013

د. أحمد إيش

نقاط حول الترجمة

عند ترجمة الحروف والاسماء الأجنبية، يواجه القارئ العربي دوماً خلاً كبيراً لم تتمكّن مجامعنا اللغوية من حسمه إلى اليوم. لكن بما أنّ هذا الأمر يحتاج إلى بحث مستفيض، أقصر هنا على ذكر سبع نقاط:

1 - بخصوص حرف الجرّ الفرنسي de أو du لا أتبع أبداً طريقة مثقفينا بلبنان بتعريبه: دو، ولا طريقة مثقفينا بمصر بتعريبه: دي. إنما الأفضل برأيي اتباع طريقة اللغة التركية العثمانية القديمة: (دى) بالمطلق. هذا في الاسماء الفرنسية، أمّا في الاسماء الإيطالية والإسبانية فأتركه: دي.

2 - الحرف (چ) يُلفظ: تش، كما في اسم: چركس، لاچين، سَلچوق. وهو ليس بحرف عربي، ويمثله في الإنكليزية ch كقولك: chuck, church. وأيضاً ch في الإسبانية كقولك: leche, mucho, chica. وكذلك يمثله في الإيطالية حرف c المتبوع بحرفي الة e أو i كقولك: ciao, Cesare. ويمثله في التركية حرف ç كقولك: çay, çok, çınar. لكن مع أنني أكتب بعض الأسماء: چستر، فرانچيسكو، چيكو، بحرف (چ) فثمة أسماء تستعصي لشهرتها بصيغة (تش)، مثلاً: تشارلز، تشرشل، تشيلي. وحرف (چ) ما زال يستخدم في العراق، كقولك: أحبّج، شلونج، پاچه. لكنه يُستخدم في مصر بشكل مغلوّط جداً (فيكتبون: چورچ) لترجمة الجيم المُعطشة المرقّقة، التي يُعبّر عنها في التركية العثمانية والفارسية والأوردية بحرف: ژ، ويمثلها في الفرنسية والبرتغالية j والإنكليزية zh والروسية ж والبولونية z والچيكية ž.

3 - أمّا عقدة التّرجمة الكبرى فهي حرف G الذي أعجز مجامعنا اللغويّة، فاسم Google يُكتب بمصر: جوجل، وفي الشّام: غوجل، وفي العراق: گوگل، وفي السّعودية: قوقل، وفي المغرب بكاف موسومة بثلاث نقاط، وفي تونس: فوغل، وفي فلسطين: چوجل، إذ يعرّبون لوحات الطّرق: چلعداد، چدعون، چدّول، رامات چان (علماً أنّ ٦٨ هي ذاتها جَنّة بالعربيّة أي حديقة). المجموع: 7 طرق لكتابة الحرف G! ومنذ مدّة قرأتُ على شبكة الإنترنت نزاعاً طريفاً حول كتابة اسم Lady Gaga: أهى ليدي غاغا أم جاجا أم قاقا؟ وكم أشعر بالغربة عندما أقرأ: لقزس، قوديز، كلوقز، قلف. ومن مظاهر التّشويش الذي يفرضه الأمر أن بعض الكلمات صارت تُلفظ مغلوطة بجيم شجريّة: جَلنط Galant، كتالوج Catalogue جندول Gondol.

هذا الحرف تصنّفه اللسانيات العربيّة باسم (الجيم اللّهيّة) تميّزاً له عن (الجيم الشّجريّة) المُشبعة، ويقع لفظياً بين الجيم والكاف والقاف. وعلى الرّغم من أنّ أصله في لهجات العربيّة القديمة جيم (وبقي بلفظه في اليَمَن ومصر) فأرى الأجدى والأدق (في الوقت الحاضر) اتّباع أسلوب أجدادنا العرب في الأندلس بترجمته غيناً، كما عربّوا مثلاً: غرناطة، البرتغال، بُرغش، أراغون. لكن على أن نسمّه بثلاث نقاط: (غ) تميّزاً له عن الغين العربيّة المُشبعة.

لكن مع ذلك، علينا أن نبتدع لهذه الأزمة حرفاً جديداً لا يلتبس: أي جيم موسومة برمز مميّز: وليكن بقلم المُسنَد الحِميري اليماني، أو جيماً كنعانيّة، تحتها أو فوقها على طريقة حروف لغة الأردو. لكن متى ترانا نفعل؟! ولماذا الجيم دون الغين أو الكاف؟ لأن «اللسانيّات التّيمانيّة» تحتمل الإقلاب بين الجيم المُشبعة وهذه الجيم اللّهيّة، التي حافظت عليها القبطيّة بمصر كاليونانيّة γ المفتقرة إلى جيم مُشبعة، وبقيت في لهجة اليمن عن أصل العربيّة الجنوبيّة القديمة، وما زالت في العبريّة والسريانيّة كالجيم المصريّة.

الواقع أنّ الفرنسيين كانوا أكثر حدقاً منا عندما حلّوا مشكلة لفظ حرف G بين جيم شجريّة وجيم لهويّة، بأن أضافوا إليه ببساطة حرف u كقولهم: guérir (غيرير) أو كما

في اسم: Guillaume (غِيّوم). وكذلك حلّ الطليان المشكلة بإضافة حرف h كقولهم: Ghisi (غيزي). وهذا طبعاً في الاسماء التي يتبع الحرف G بها حرفا العلة e أو i، أما عندما يتبعه حرف ساكن أو حرفا العلة a أو o فلا مشكلة، ويُلفظ جيماً لهويّة. والأمر ذاته مع حرف C في الإيطالية فأضافوا إليه h حتى لا يُلفظ (تش)، كقولهم: chiaro (كيارو)، Chievo (كِيِفُو).

وأما الأتراك، فأيضاً حلّوا الأزمة بشكل حاسم قديماً وحديثاً: فبالعثمانية القديمة تُكتب الجيم الشجرية كالعربية ج، وأما اللهوية فاستعاروها من الفارسية گ. وفي التركيّة الحديثة بالأبجدية اللاتينية جاء الحل بشكل سهل وذكي، فخصّصوا حرف g للجيم اللهويّة، كقولهم: gerçek (غِرْجَك)، وحرف c للجيم الشجرية، كقولهم: geceler (عِجَلار)، Avcı (أوجي)، Cem (جم).

أما الألمان فقد ارتاحوا من عناء هذه المشكلة، إذ ليس لديهم جيم شجرية أصلاً بل لهويّة فحسب، كما في: Gewehr (غِفِير)، وإن أرادوا رسم الاسماء العربية لقوا التّباريح، كقولهم في «جبل»: Dschebel، حيث أن حرف J (يوت) هنا لن يفيد، فهو يُلفظ ياءً بالمُطلق. وأما لدى الإسبان، فحرف G له أحكام يطول شرحها، فالأصل في القشتالية أن يُلفظ جيماً لهويّة (غ)، وإن تلاه e أو i يلفظ خاءً، ولذا يضيفون u عند اللزوم كما في: Miguel ميثيل. ومن الناحية الصوتيّة اللفظيّة ثمة مناطق تلفظه غيناً لهويّة، وسمعتُ بأذني في غرناطة من يلفظ اسم Aragon: «آراغون»، وليس آراغون. هذا عدا عن أنّ حرف G يلتبس لفظياً مع J الذي يُلفظ أيضاً خاءً مع كل حرف صوتي، كقولك: Jerez, Jiménez, Jaén, Juan, Jordi.

لكنّ التّعبير في العربية عن حرف الجيم اللهوي بكتابته جيماً (كما في مصر) أو بقاف (كما في السّعودية) يمكن حسم بطلانه بلحظة واحدة: احتكموا إلى لغة القرآن الكريم، ففيها الجيم حرف شجري مُشبع لا يحتمل تأويلاً ولا تفسيراً، والقاف حرف لهوي مُشبع، وكلاهما من حروف القلقلّة. ثم إنّ الجيم لا تصلح للتّعبير عن جميع الكلمات الأجنبية، وحتى في مصر لا يمكن لأحد أن يكتب: جرناطة، بُرْتُجال،

بلجاريًا، مجنطيس، إجرىق، شيكاجو.. أم هل نسمّى البُرغل مثلاً: بُرْجُل؟ (وهي كلمة معرّبة عن التّركيّة bulgur).

4 - ثمة أسماء في اللغة الفرنسيّة تنتهي بكسرة مُمالة ممدودة، على غرار اسم: Colet أو René أو Garnier أو Gervais، ونظراً لانعدام وجود الكسرة المُمالة في العربيّة (كما هي في السّريانيّة والعبريّة مثلاً) فإنّ التباساً ينشأ في طريقة نقل الاسم إلى العربيّة. وفي المغرب العربيّ تشيع طريقة غير صحيحة البتّة باستخدام الياء وحدها كقولهم: لويّز كولي (وهي أدبية ورخالة فرنسيّة)، رغم أنّ اسمها هو: Louise Colet والياء هنا لا تؤدّي المنطوق الصّحيح أبداً. كذلك نلاحظ في أسماء الأرمن مثل: Vahé, Shahé أنهم يكتبونها بالعربيّة في لبنان وسوريا: واهي، شاهي.

فإذا عدنا إلى عهد عظماء كتاب العربيّة في العصر العبّاسي، نجد أنّ هذه المعضلة التي واجهتهم في الأسماء الأعجميّة قد حلّوها على نحو أدقّ باستعمال ياء وهاء، كقولهم: سيويّه، خسرويّه، حُمارويّه، خالويّه، نفطويّه. وهذا يضارع أسلوب زمرة اللّغات الكنعيّة باستعمال الكسرة والهاء، كقولك: أرييه، موشيه. وهو قطعاً الحلّ الأمثل للمعضلة، وستتبعه فنكتب الأسماء الفرنسيّة: كوليّه، رُنيّه، غارنييه، جِرقيّه. والأسماء الإسبانيّة: خوسيه، بيكيّه.

أمّا في الأسماء الإنكليزيّة، فرغم تشابه حرف a أو ثنائيّة ay مع الكسرة المُمالة، تبقى مدّتها طويلة، ولذا نكتب Gray: غراي، Mabel: مايبل.

أمّا في الأسماء التي تنتهي بكسرة مُمالة قصيرة، فتكفي بالعربيّة كسرة وهاء، كما في الاسم الإسباني Condé كوندّه، أو Enrique إنريكه، والألماني Porsche پورشه، أو Pritzke پريتسكه، والهولندي Goeje خويّه، والبولوني Tyskie تيسكه، والإيطالي Simone سيمونه، أو Michele ميكيله.

5 - نصرّ في هذه السّلسلة على كتابة الأسماء الأجنبيّة كما ترد في لغاتها، لا كما تمّت قولبتها بالإنكليزيّة والفرنسيّة. فالأصحّ بالألمانيّة: مدينة لايتسيك وليس

لاييزغ، زولنغن وليس سولنجن، كولن وليس كولونيا، فلهلم وليس وليم، ريخارد وليس ريتشارد. ثم نكتب أميركا وليس أمريكا، فارشافا وليس وارسو، پراغا (پراها) وليس براغ، بيجينغ وليس بكين. وفي البرتغالية الأصح لفظ: كريستيانو، كوشتا، جوزيه، جواو. ولكن ثمة أسماء رسخت بشكل مغلوط في الأذن العربية مثل: برشلونة (وصوابها بالقطلائية: بارثيلونا)، دون كيشوت (وصوابه بالقشتالية: دون كيخوته)، باريز أو باريس (وصوابه بالفرنسية: پاري)، لويس (لوي)، ملك القدس جاي أوف لوزجنان (غي دي لوزينيان)، وليم الصوري (غيتوم)، برج إيقل (وصوابه: آيفل).

لكن أعجب ما أسمعه هنا في لبنان، أن أحفاد كنعان العاشقين للفرنسية يصرون على لفظ الكنى الأرمنية المنتهية جميعها بلاحة: ian بلفظ فرنسي فيه غنة، كما لو كانوا يلفظون اسم Evian أو Christian، حتى لم يسلم من ذلك الاسم التركي إردوغان Erdoğan الذي بات وكأنه فرنسي ابن فرنسي، علماً أن ثمة شيئاً في التركية يسمى: Yumuşak Ge أي الجيم الطرية، تلفظ كمدة مكبوتة لا كغين، كقولك: Doğan دوآن، أو: Ağaç آج.

6 - حرف H يكتب ولا يُنطق بجميع اللغات اللاتينية: الإيطالية والإسبانية والبرتغالية والفرنسية والرومانش والرومانية، ما خلا حالة في البرتغالية بآخر الكلمة مع الألف والواو فيلفظ ياء، مثل: Covilhã كوفيليا، filha فيليا، ilha إيليا، Mourinho مورينيو. وعلى ذلك، فمن الخطأ لفظ الاسم الفرنسي Henri هنري بل أنري، وهو بالإيطالية إنريكو، والإسبانية إنريكه. وأيضاً فيكتور أوغو Victor Hugo وليس هيجو أو هيغو.

7 - وأغرب الأمثلة هي الأسماء العربية التي ترد على ألسنة المسلمين من غير العرب، فنستوردها بصيغ لفظية مختلفة دون انتباه لأصولها العربية، كالاسم التركي ميرفت Mervet الذي ترنمت به الأسماع دون إدراك أن أصله: مروّة. أو اسم فتاة الشاشة التركية Tuba الذي يكتب لدينا بالعربية «توبا» على أنه اسم تركي فريد، وما هو إلا اسم من القرآن الكريم: طوبى.

وثمة كنية عريقة في لبنان: جانيّته، يطيب للناس أن يلفظوها بلكنة فرنسيّة: Jean-Bey بينما الاسم تركي قديم يعود إلى عصر المماليك، ولفظه بالتركيّة: Can-Bey (جان بيه)، ومعناه: رُوح أو نفّس. وكذلك اسم قَبْلان، وصوابه: Kaplan ومعناه بالتركيّة: نمر.

والأعجب من هذا وذاك اسم سوريا، الذي هو صيغة هيلينيّة (إغريقيّة) Συρία (سُوريّا) مقولة لاسم «آشور» الدّولة العظيمة في بلاد الرّافدين، سُمّيت بها بلاد الشام الواقعة على البحر الأبيض بما يشمل اليوم سوريا ولبنان، على اعتبارها كانت في وقت مضى تتبع لها. غير أنّ المضحك أنّ حرف الشّين لا يوجد في الألفباء اليونانيّة، فأقلب سيناً وما زلنا إلى اليوم نلفظه مغلوطاً بعد 27 قرناً من الزّمان. وكذلك فمن الخطأ كتابته: سورية، لأنّ الهاء بآخر الكلمة ترد بالتّسميات العربيّة والكنعانيّة، لا اليونانيّة. وللبحث صلة..

د. أحمد إيبش

FREYA STARK

THE
SOUTHERN
GATES
OF
ARABIA

*A Journey in the
Hadbramaut*

E. P. DUTTON & CO., INC.

نموذج عنوان طبعة نيويورك الأولى، 1936

*THE SOUTHERN
GATES OF ARABIA*

A JOURNEY IN THE HADHRAMAUT

FREYA STARK



LONDON
JOHN MURRAY, ALBEMARLE STREET, W.

نموذج عنوان الطبعة الثالثة، لندن 1957

CHAPTER XII

KHURAIBA AND ROBĀT

هجبت من منع امرئى جاهد ما منع من يهتدى ولم يفرم
يظن وفر المال اطاره لكن وفر لجاه لم يعلم
(ابن الرومي)

*"I wondered that one so noble as he should withhold;
Why should he withhold who, by giving, loses nothing?
The money-hoard is diminished by its gifts:
But the store of honour is not diminished."* (IBN ER-RŪMĪ.)

THE two governors used to come to eat in my room, fluttering the ladies in flight before them. They would come in without ceremony, Muhammad with a straw table-mat, and Ahmad with a plate or two in his hand, and settle down while Ghaniya did the rest, overcome in the face of so much condescension and as nearly speechless as was possible. She brought us rice, piled high, with fat and peppers; meat cooked in excellent gravy, and the local dish called harisa, of meat and flour pounded smoothly together like a gruel, with a cup of melted butter in the middle to dip each handful in as one took it.

Ahmad and Muhammad meanwhile talked pleasantly, and I liked them more and more. They brought with them the Sayyid Muhammad ibn Iasīn, a charming old merchant who dealt in cotton on the Red Sea coasts and wrote in Arabic to Liverpool. He too had the long face and large pleasant mouth typical of the settled people of these valleys; and their delightful good



فريا ستارك بالثياب العربية، عام 1928



المؤلفة فرياستارك عام 1934 زمن رحلتها

فريا ستارك ورحلاتها

في نوفمبر 1934، أبحرت الرّحالة البريطانية المثيرة للجدل فريا ستارك في البحر الأحمر عبر مضيق باب المندب، المضيق الضيّق الذي يفصل جزيرة العرب عن أفريقيا - ونزلت في عدن مرفأ المحميّة البريطانية الرئيسي في جنوب جزيرة العرب. وإبان ذلك كانت المكتشفة النّشطة الجذابة الصّغيرة قد حازت على شهرة لا بأس بها يجدر بها المحافظة عليها، واختارت اليمن، وبشكل خاص وادي حضرموت النّائي، مسرحاً لمغامرتها التّالية. توقع الموظفون في مركز الحدود الخلفي هذا وصولها بمشاعر مختلطة، وقد ثار جدل كبير عنها في لندن حيث أنّهم توقعوا أنّها ستهبط بطايرتها الخاصة، أو ربما تأتي وهي تقود قافلة جمال. كان بعضهم على ثقة من أنّ وصولها لم يعنِ أي شيء سوى المشاكل، لكن مع ذلك احتشد الجميع للقائها في مقرّ الإقامة البريطاني.

كانت فريا ستارك في ذلك الوقت تبلغ من العمر 42 سنة، وسوف تمنحها الملكة لاحقاً رتبة Dame (المكافئ الأثوي لرتبة فارس) بسبب إسهامها في أدب الرّحلة، وكانت قد أصبحت شخصية بارزة منذ أن نشرت في تلك السّنة كتاباً استثنائياً، هو «وُديان الحشيشيّة» الذي وصف رحلاتها في أماكن لم تكن معروفة حتى اليوم في بلاد فارس بوصف حي مع قطاع الطّرق والدّراويش، وعبدّة الأوثان، والكنز المدفون. وقامت الجمعيّة الجغرافيّة الملكيّة كذلك بمنحها منحة تعويض كتقدير لمساهمتها في رسم خرائط حكومة صاحبة الجلالة في تلك المنطقة النّائية. كان هدفها الآن

أن تجد مدينة «شَبوة» الخفية، عاصمة مملكة حضرموت القديمة، المشار إليها في سفر التكوين باسم Hazarmaveth أو (حبس الموت) وقد ذكر پلينيوس شَبوة باسم: سابوتا Sabota وهي المدينة التي زوّدت قوافل البخور التي تمرّ من خلالها، وكتب أنها احتوت على ستين معبداً وثروة لا توصف، لم يحصل أن وصل مستكشف أوروبي لتلك الواحة المفقودة منذ عهد بعيد في رمال الصحراء، وكان لدى فريا نية تامة بأن تكون هي أول من يصل إلى هناك.

لم تبد الحياة دوماً مبهجة لبطلتنا على الإطلاق، وكانت في الواقع قد بدأت السفر في بدايات الثلاثينيات من عمرها، عندما قررت أخيراً أن تنفصل عن حياة اشمازت منها، حيث تورطت بعمل شاق في إدارة مزرعة زهور على جروف شاهقة في ليغوريا Liguria في جنوب إيطاليا، وأتاحت لها هدية نقدية في عام 1927، بأن تقوم بزيارة مطوّلة إلى لبنان لممارسة لغتها العربية.

ولقد نشط اهتمامها بتلك اللغة من خلال حدث هائل في مدينة سان ريمو St. Remo القريبة في 1920 في نهاية الحرب الكبرى. كان رئيس الوزراء البريطاني دافيد لويد جورج David Lloyd George قد وصل لاجراء محادثات مع جورج كليمنصو الفرنسي الأول لتقسيم الانتداب على مناطق الدولة العثمانية المهزومة بين فرنسا وبريطانيا. وقد فكّرت فريا بأنها إذا استطاعت أن تتقن اللغة العربية فإن ذلك سيحقق بكل تأكيد فرصاً جديدة لشخص مثلها، امرأة ذاتية الثقيف ومتحفزة، عزباء لها اهتمام في الكتابة والصحافة، حسب استطلاعات رأي تم أخذها بأن المطلوب كان رسم الخرائط والإدارة. كان هناك في أوروبا جمهور متشوّق توّاق لمعرفة المزيد عن عالم غريب من مساجد ومآذن ومعين لا ينضب لسلعة النفط شديدة الأهمية.

ولدت فريا عام 1892، وهي ابنة علاقة قامت بين أمريكي هو أوبديا داير Obediah Dyer من نيو أورليانز وامرأة إنكليزية أنيقة فتانة هي فلورا ستارك كانت قد نشأت في إيطاليا. كان زوج فلورا هو ابن عمها البكر روبرت ستارك من بلدة ديقون في انكلترا، الذي كان بدوره فناناً وقد عاشا معاً تعيسين لمدة خمس عشرة سنة دون أبناء، ومن

الواضح أن روبرت أعتقد بأنّ الطفلة كانت ابنته، وقد أحبّها على هذا الأساس تماماً كأختها، التي ولدت لاحقاً بعد سنة ونصف، ولم يُعرف إن كانت فريا قد علمت بأصولها الحقيقية، ولكن حاجتها الماسّة للشرعية واندفاعها للظهور والتّميّز أوحيا لها بأنّ الأمر لم يكن طبيعياً بالنّسبة لها.

قابلت فلورا ستارك عندما كانت فريا في العاشرة من عمرها، كونتاً إيطالياً شاباً سحرها تخطيطه لفتح معمل سجاد في بلدته الأم درونيرو في سفوح الجبال الإيطالية، وقال إنّ ذلك من أجل تأمين العمل لفقراء المنطقة، وانطلاقاً من طبيعة فلورا المندفعة، وضيق ذرعها بزوجها فقد تركت روبرت على نحو مفاجئ وأخذت معها ابنتها لتلتحق بالكونت في إيطاليا، ناقلة إياهما من حياة مريحة في ديثون حيث تنعمان بخدم وحيوانات أليفة، لتدفعهما إلى حياة الفقر - بشكل مأساوي بفرص قليلة لتعليم مناسب لطفلة ذكية مثل فريا. ومما زاد الأمر سوءاً، الحادث الذي تعرّضت له في معمل وهي في الثالثة عشرة من عمرها، وقد تأذى الجانب الأيمن من رأسها، وتمزّق جزء من فروة رأسها، عندما علقت ورفعها دولا ب الموازنة. كان من الممكن أن تُخفى آثار الجرح العادية بإضافة قطع شعر، وعصابات ملونة، وقبعات رائعة، ولكن جرحاً قاسياً وعنيفاً وواسعاً كهذا في عمر المراهقة المبكر قد خلف ندبات نفسية أيضاً. ولقد شعرت طوال حياتها بالحاجة للتّغلب على الخوف عن طريق وضع نفسها في طريق الخطر، ولكن لم يستطع أي شيء تهدئة القلق الكامن في نفسها، وهو ألا تكون جذابة للجنس الآخر. ولكن، ومن طرف مغاير، كانت في نظر الآخرين امرأة كاملة الأنوثة إلى أبعد حد، صغيرة جداً، بأنف مقوّس وبشرة جميلة وعيون ضاحكة وكانت جذابة (مغناجاة) - رغم حذرهما - للرجال المعجبين بها حيث انتزعت إعجابهم بجاذبيتها الهائلة وحوارها المتألق وثقافتها الواسعة.

تمكّنت فريا أخيراً في أواخر عقدها الثاني من إقناع روبرت ستارك بأن يخصّص لها مبلغاً من المال لتلتحق بكلية بدفورد في لندن. وعلى أية حال فلم يكن أسرع من إمكانية حصولها على منحة بجدارة، إلا نار المدافع التي دوّت في أغسطس لتعلن بدء الحرب

العالمية الأولى، وتغلق كلية بدفورد. وبدل أن تحقّق حلمها في الدّراسة، فقد واجهت شبح حرب مربع من خلال التّطوُّع كممرضة وشاهدة على التّفهقر الإيطالي الدّامي في كاپوريتو Caporreto؛ وعادت معيلة لنفسها لينبذها زوجها المستقبلي، الذي كان يعمل طبيباً في المشفى حيث كانت تتدرّب، ولقد عزّز الرّفُض مخاوفها العميقة.

باشرت فريّا العمل المتعب في مزرعة أزهار لتعيل نفسها وأمها، بعد أن حلّ السّلام الذي تبع التّصر، وظلّت تعمل لمدة عشر سنوات مقيّنة، بينما استمرّت تتدرّب على اللّغة العربيّة في اللّيل، وتقرأ لشيكسبير ولجون مينارد كينز John Maynard Keynes وهي تحرّك قدر طعام العشاء، وهي تمثي نفسها بأحلام اكتشاف «مدن مدفونة في الرّمال».

بدأت برحيلها إلى لبنان، بواسطة المال الذي قدّم لها - على الأرجح - من قبل والدها الحقيقي في وصيته، بانطلاقة رائعة من السّفر في مناطق بعيدة في الشّرق الأوسط. وقد انسَلّت إلى سورية عبر حامية عسكريّة تحيط بطائفة الدّروز المتمرّدين في المرتفعات في الجنوب الغربي، وقبضت عليها السّلطات الفرنسيّة. أثارت هذه المأثرة حدثاً دولياً، ولكن عندما كتبت فريّا حول سوء إدارة الفرنسيين في مسؤولياتهم الانتدابيّة فازت المقالات بملاحظة إيجابيّة في دوائر إنكليزيّة مهمّة وأثبتت لفريّا بأن الكتابة والرّحلة يجب أن يكونا حياتها. بعد فترة قصيرة، في بلاد فارس، قامت بالتعرّف إلى بعض القلاع الجبلية للحشيشيّة القدماء، وهي طائفة متطرّفة مارست الاغتيال الطّقوسي بحقّ المجتمعات السّنيّة البارزة، ولقد أنعش الكتاب الذي كتبه عنها اهتماماً بالمجتمعات الإسلاميّة السّريّة، وكان تشریفها من قبل الجمعية الجغرافيّة الملكيّة هو الأول من بين عدّة جوائز وأوسمة ستنالها لاحقاً.

عمّرت فريّا مئة عام وعاماً واحداً، وتمّ تكريمها كمكتشفة وعالمة أعراق بشريّة (أنثروپولوجيا)، وعالمة في فن رسم الخرائط ومصوِّرة فاتنة، الأطول عمراً والمؤلّفة لثلاثين كتاباً، من بينها أربعة أجزاء من السّيرة الذّاتيّة، وثمانية مجلدات رسائل مختارة. فقد كتبت عن القلاع الصّليبيّة في سورية والمدن المقدّسة في بلاد ما بين النّهرين، وقد أبلت بلاءً حسناً لاحقاً خلال فترة الحرب العالميّة الثّانية وتميّزت كخبيرة في الشّرق

الأوسط تعمل لصالح وزارة الإعلام. وفي تركية كانت كتبها في العقود اللاحقة تزود عدداً لا يحصى من السياح في طريقهم إلى الأناضول، ولا يزال الوصف التالي باقياً لبرّ اليمن المؤثر لتتبع طريق البخور إلى شبوة في عام 1934، كواحد من كتبها التي لا تُنسى. كانت كُتِبَ فرياً بارعة دوماً، وواسعة المعرفة، ولكن كان سرورها عارماً منذ اللحظة التي شقّت فيها طريقها للمرة الأولى في هذا العالم الملون من الشيوخ والرجال المقدسين، والحريم البدو ذوات الصباغ الأزرق:

«لقد فكّرتُ بسواحل جزيرة العرب الممتدة على الجانبين - على بُعد ثلاثمئة ميل إلى عدن، فكم ستكون المسافة نحو مسقط في الاتجاه الآخر؟ وضمن هذه الحدود الهائلة، حيث المحيط الهندي قبالي كانت الصحارى الدّاخلية في الخلف. كنتُ الأوروبية الوحيدة... ولقد لف مشاعري النَّاعسة شعور مبهم قليلاً وتساءلتُ لبرهة ماذا يمكن أن يكون قبل أن ألاحظه: هل كان سعادة نقية وروحانية؛ أم استقلالاً لعواطف ومشاعر، أم الجوهر الأثيري للسعادة والبهجة النّادرة جداً والمجرّدة جداً بحيث تبدو غير دنيوية عندما تأتي؟».

وبالنسبة لفرياً فهي لم تفقد أبداً إدراكاً جذلاً بأن الأرض وكل شيء عليها كان مذهشاً. كتبت: «تشير كلمة النَّشوة دوماً إلى نوع من اكتشاف جديد، وحادثة للمشاعر أو الروح، وهي تبحث عن تلك الكلمة في الحب وفي الدين وفي الفنّ أو في السّفر، المغامرة التي تكون جاهزة لمواجهة المجهول».

وقد قدّمت هذه الأرض القديمة تحدياً رائعاً لمؤرخة ورومانسية مثل فرياً، فقد عُرفت للمصريين بأرض پونت Punt، وللعبريين بأرض أوفير Ophir وللملك سليمان كموطن لمملكة سبأ. وقد حضّرت بشكل دقيق، من خلال قراءتها لهيرودوتوس Herodets، وسترابو Strabo، وكتاب «تطواف البحر الأثيري» *The Periplus of the Erythraean Sea* للمؤلف المجهول الذي كشف الأسرار لرياح الرّحلات التّجارية، بالإضافة إلى پلينيوس وبطليموس وديودوروس سيكولوس والقرآن وأسفار العهد القديم. وسافرت إلى لندن وإلى معهد ميونخ في ألمانيا للبحث عن المدن القديمة

التي نافست شَبوة وهي مَعِين ونجران وسبأ وأوسان وقَتَبان وحِمير، ودرست لعدّة أشهر ما كان متاحاً لها من الكتابات القديمة.

لقد كانت خطّتها أن تتسلّق الجُول العالي، وهو جُرف فسيح يفصل ساحل المحيط الهندي عن وادٍ بطول 350 ميل، دُعي باسم وادي حضرموت، هو الأطول والأكثر خصوبة في جزيرة العرب، وقد مُلئ بحقول خضراء من نخيل التّمر والبرسيم، وطوّق بجُروف نمت على جوانبه نباتات البخور. كانت مدن حضرموت التي ستقوم فرياً باكتشافها مبكراً، تقع تحت سلطة أُسرتين متنافستين، هما أسرة القعيطي Qu'aiti وأسرة الكثيري Kathiri اللتان ضمّتا عدداً قليلاً من الموظفين البريطانيين في عدن وكانتا مشغولتين بحفظ السّلام - واللّتان ستعثر فرياً على نحو بريء في حروبهما القبليّة. وعلى أيّ حال فالشيء الذي لم تكن تتوقعه في هذه المغامرة اليمينية، هو أن تقع في الحب.

كانت فرياً قد وصلت مع بعض معارف مهمّين سرّعوا في عجالات مغامرتها، ولكن الأكثر أهمية كان تعرّفها إلى وجيه فرنسي في عدن، هو أنطونان بيس Antonin Besse الذي امتدّت إمبراطورية تجارته من الحبشة إلى شرق آسيا. زوّد بيس فرياً باتصالات جعلت رحلتها ممكنة، وكان تأثيره مهمّاً بشكل حاسم على حياتها لعدة سنوات، عاطفياً وفي عدّة نواحٍ أخرى. كان بيس المتألق، المسيطر، والذي يكبر فرياً بستة عشرة سنة، قد تزوّج مرتين، ونال إعجاب عدة نساء مثل زوجته الحالية المتسامحة. وبما أنه تهيّأ الآن ليفوز بقلب فرياً، فمن الممكن أن يؤدّي ذلك لآثار مثيرة حتى بالنسبة لهذا الرّجل المسيطر الجذّاب.

وفي النّهاية، وعلى الرّغم من أنها حازت على عدّة مغامرات مفعمة بالحيوية في هذه الرّحلة، فإنّ فرياً لم تصل إلى شَبوة مطلقاً. وبدلاً من ذلك، فقد جلبت مرض الحصبة الذي انتشر بين نساء شيخ محلي. وقد قام بيس بإرسال سلاح الجو الملكي لإنقاذها، فقامت فرياً بإهداء رجال سلاح الجو الملكي هذا الكتاب.

وعادت، بعد عدة سنوات، إلى حضرموت كرئيسة لحملة تنقيية، ولكن في غضون

ذلك، فاز مصور ألماني يُدعى هانز هلفريتس⁽¹⁾ Hans Helfritz بسبق الوصول إلى شبوة، التي قام برحلة إلى ضواحيها قبل أن يطرده البدو منها بينما كانت فريا تُعالج في مشفى في عدن. وبعد مرور عام، قام المستعرب العظيم هاري سنت جون فيلبي بتحديد وتوثيق موقع المدينة المتهدّمة، تحت حماية صديقه الملك سعود، الذي كان قد وُحِدَ وسط جزيرة العرب مؤخراً. كانت فريا مغتظة بشكل عميق عندما سمعت الأخبار، ملاحظة أن فيلبي «كان قد ذهب وأخذ شبوة في طريق عودته إلى موطنه من نجران وقد قام بذلك بواسطة السيارة!» وعلى الرغم من ذلك، فإن النصر كان حقاً حليف فريا. وعلى الرغم من أنها لم تكن قد زارت تلك المنطقة مطلقاً، فإن بحثها ونجاتها المثيرة قد ساهما بتصوير شبوة بصورة حيّة للعالم؛ فقد كانت تخصّها روحياً، حيث يمكن للاسم أن يرتبط دوماً بها. وسيقدّم فيلبي تقديراته لجهداتها في تقرير 1940، كان بعنوان «بنات سبأ»، في حين أصبحت رواية فريا الخاصة والتي هي بعنوان «البوابات الجنوبية لجزيرة العرب»، التي نُشرت عام 1936، الأكثر مبيعاً، ولفتت انتباه إليزابيث الملكة الأم، فغدّت المرأتان صديقتين.

أخيراً، ستنفصل فريا عن بيس في جدال عنيف، وتتزوّج بعد الحرب العالمية الثانية من زميل شرق أوسطي كانت قد عرفت في بغداد وعملت معه خلال الحرب. ولقد كانا ملائمين في جميع التّواحي، عدا ناحية واحدة: فقد كان ستيوارت بيراون Stewart Perowne مثلياً. أقلق الزّواج أصدقائهما، ولما لم تستطع فريا أن تغيّر طبيعته فقد أصبح كارثة لكليهما. وبقيت وجهتها العالم الإسلامي، وتابعت التّرحال خلال عمرها الطّويل عبر العالم الإسلامي على قدميها أو على الجمال أو الحمير أو بالسيارات حتى أواخر الثّمانينات من عمرها، وهي تكتب خلال هذه المرحلة للقراء كتاباً صادقة ومسليّة.

عندما وافى فريا الأجل، صرّحت مجلة التّايمز (لندن) عنها: «آخر الرّحالين الرّومانسيين»، بينما أسمتها النيويورك تايمز (رّحالة من الطّراز الأول).

(1) حصلت على كتابين له يخصّان وصف رحلاته في اليمن: *Land ohne Schatten* «بلد بلا ظلال»، والآخر: *The Yemen: a secret journey* «اليمن: رحلة سرّيّة»، وهما كتابان مهمّان ممتعان.

أهدي هذا الكتاب إلى

سلاح الجو الملكي

The Royal Air Force

وبشكل خاص للمقيمين منه في عدن

الذين بفضلهم كان إنجاز الكتاب متاحاً

من خلال حملهم لي بأمان من شبام

شكرٌ وعرّفان

سيجد القارئ أنّه قد بُثَّت في صفحات هذا الكتاب، أسماء العديد من الذين أدين لهم بدين من العرفان: السيّد هاليفاكس Halifax، سير أكبر حيدري Akbar Hydari، مستر مارمادوك پيكثول Mr. Marmaduke Pickthall، صاحب السّموّ سلطان المُكَلّا - الذين بمساعدتهم حظيت بالترحاب عندما وطئت حُرموت للمرّة الأولى.

الأمير سالم بن أحمد بن عبد الله القعيطي، حاكم المُكَلّا؛ سمو السُلطانين علي بن منصور الكثيري حاكم سيئون، وعلي بن صالح القعيطي في القَطُن؛ السّادة الأشراف آل الكاف في سيئون وتَريم؛ حسين وسعيد العجم من شِbam؛ الحاكمان محمّد وأحمد باصُرة في دَوَعَن؛ وأعيان آل العَطّاس في عَمَد وفي المَشْهَد؛ من خلال مساعدتهم المجتمعة ومودّتهم لرحلاتي التي جعلتها ممكنة ومحبّبة.

وفي عَدَن علي أن أشكر المندوب السّامي، السيّر برنارد رايلي Sir Bernard Reilly والكونيل لايك Colonel Lake وكومودور الجو پورتال Air Commodore Portal لتشجيعهم اللطيف من البداية وحُثّهم ومساعدتهم السّخية في نهاية رحلتي؛ أنطونان بيسّ Mr. A. Besse لمساعدته القيّمة وحتى نصيحته الأكثر قيمة في كل نوع؛ وكذلك قائد السّرب هايترون ثوايت Haythorne Thwaite واللفتانت الطيّار غُست Guest لعنايتهم المخلصة في الإنقاذ من شِbam. والأطباء، القيّمة والممرّضات في المشفى الأوروبي العام فيما بعد.

كما عليّ أن أشكر الجمعية الجغرافية الملكية وأمناء جمعيّة پيرسي سلاڤن Percy

Sladen Trustees في لندن لمساعدتهم وتشجيعهم: ومستر روفون غُست Mr. Rhuvon Guest لمساعدته القيمة أثناء تأليف كتابي - وقد شملت مساعدته ما يتعلّق بالعلوم الإسلامية التي تظهر في صفحات كتابي بشكل أساسي.

* * *

مقدمة

طريق البخور

«من هذه الطّالعة من البريّة كأعمدة من دُخان، معطّرة بالمرّ واللّبان، وكلّ أذرة التّاجر؟»
(نشيد الأنشاد لسليمان الحكيم، 8: 5)

كتب زُبّان يوناني مجهول الاسم في القرن الأول من تاريخنا كتاب «تطواف البحر الأريثري»⁽¹⁾ *Periplus of the Erythraean Sea*، لم يكن مثقفاً ولا أديباً ولكنه كتب معلومات عن البحارة والتّجار، وقد بدأ بمرافئ البحر الأريثري في زمنه واحداً تلو الآخر وأسواقها وصادراتها، متّبعاً أولاً السّاحل الغربي ومن ثمّ الشّرقى، للمناطق قرب زنجبار ومن هناك «المحيط غير المكتشف الذي ينحني باتجاه الغرب» وشرقاً نحو ملاكّا Malacca «القسم الأخير في العالم المأهول بالسّكان... تحت الشّمس السّاطعة».

هناك الكثير من الكتب المضلّلة أكثر من كتاب هذا القبطان المُسنّ، وأعتقد أنه - ككهل - من المفترض أنه نال قدراً من معرفة عميقة بالرحلات التي قام بها.

يبدأ من مصر شرقاً، بعد رحلته الأفريقية إلى أراضي البخور التي امتدّت قرب

(1) عنوانه باليونانية: *Periplus Thalassa Erythra* (بيريلوس ثالاسا إروثرا)، انظر حوله كتاب دافيد جورج هوغارث: «ارتياذ جزيرة العرب»، في هذه السّلسلة. هذا ولقد حصلت على طبعته الأصليّة التّادرة المنشورة على يد ولفريد شوف بنيويورك ولندن عام 1912 وقمت بترجمته للسّلسلة وسيصدر في هذا العام، وهو يضمّ معلومات مهمّة عن الخليج العربي وبحر العرب.

Cape of Spices (رأس التوابل) والذي هو الآن رأس قصير Cape Guardafui. ويعبر أرض التجار في پترا (البتراء) Petra حيث جمع ملك الأنباط الثروات، وبيحر على طول ساحل جزيرة العرب، مخبراً كيف «ترقّشت الأرض على حافة البحر هنا وهناك بكهوف آكلي السمك، ويسكن داخل المدينة رجالٌ عُتاة يقيمون في قرى ومخيمات بدوية، كانوا يسلبون المُبحرين خارج المسار المتوسط، وقد تم أخذ هؤلاء الناجين من حطام السفن كعبيد. ولذلك فقد أبقينا طريقنا في وسط الخليج، وعبرنا بأسرع ما يمكن قرب أرض جزيرة العرب، إلى أن أتينا إلى البرّ المحترق (Jebel Tair 15° 35' N. 41° 40' E). متجهين إلى أسفله حيث توجد مناطق من الناس المسالمين، بدو ومراعي ماشية وأغنام وجمال».

ويصل هنا إلى مملكة اليمن الحِميرية، آخر الإمبراطوريات المستقلة لجزيرة العرب، والتي ازدحم مرفأها Muza (والذي هو الآن المُخا Mokha أو Mauza) بمالكي السفن العرب، والملاحين، والمشتغلين بشؤون التجارة...».

توجد هنا جبال اليمن العالية، وهي مظلمة وفيها جُروف هارية وهَوّات، وقمم سامقة مشرفة، خلف واجهة صفراء من الرّمال تستغرق رحلة يومين. وقد تكتلت الرؤوس المستوية المحتشدة على مسافة بعيدة إلى إحدى سلاسل الجبال العظيمة، ولذلك، وكما يقول الهمداني⁽¹⁾: «ليس هناك كثير من الجبال، بل جبل واحد يسمّى السّراة، يمتدّ من اليمن إلى مكة». ولم يكن لون هذه الجبال، التي تُرى من البحر، كلون غيرها من ألوان الجبال المألوفة على وجه الأرض، بل هو دُخاني وقاتم كما لو أن النقاط البركانية السوداء قد اكتست برمال صحراء، وغُطيت حجارة الصّحراء الحمراء برماد البراكين - كحجرات من الفحم الحجري تخمد في أديم الأرض.

ومن هنا أبحر الملاح القديم جنوباً بين مجمع السّواحل. ودخل مضيق باب المَندب،

(1) أبو بكر شهاب الدين احمد بن محمد بن اسحاق بن ابراهيم الأخباري الهمداني وشهرته ابن الفقيه الهمداني (القرن الرابع الهجري / العاشر ميلادي)، أشهر مؤلفاته: «صفة جزيرة العرب»، و«كتاب الإكليل».

حيث تصبح الموجات التي عتمتها أشعة الشمس أقلّ تكراراً قد «أجبره البحر على التّجمّع وأغلقه في مضيقٍ ضيّق، هو مدخل انقسام جزيرة ديودوروس (تسمّى الآن Perim)». وهناك أعلى منها «مباشرة على المضيق عند الشّاطئ قرية العرب تسمى Ocelis... عبارة عن مرفأ ومكان شرب الماء، وتعتبر المرسى الأول لتلك السفن التي تبحر الى الخليج من الجنوب، فقد كان المرفأ الأكثر قرباً من الهند للعرب الذين دافعوا عن أسرار تجارتهم لقرون قبل مجيء الرومان». ولم يكن يُسمح للمراكب الهندية في الشّمال منه. ويأخذ مرفأ أحواض Perim وShell مكان Ocelis؛ ولكن العرق الحالي حول الزّاوية الحادة وسلاسل الجبال الملساء، ومقدمة الأرض التي لا أشجار فيها مازالت توجد هناك دون أن تتغير؛ وفي الخلف «يمتدّ البحر مرة أخرى باتجاه الشرق ليعطي مباشرة مشهداً للمحيط الفسيح». وتابعنا المسير، كما فعل البحار القديم، على ساحل اليمن الجنوبي، وألقينا المرساة في «إنديمون⁽¹⁾ Endaemon Arabia وهي قرية قرب الشّاطئ، من مملكة كُرب إيل Caribael (الملك الحِميري في اليمن) وأصبح لدينا مرافئ قريبة وأماكن شرب ماء، أفضل وأعذب من تلك التي في Ocelis». كانت تلك عدن، مكان التّقاء الشرق مع الغرب.

يوجد خلفها شرقاً «امتداد مستمرّ لساحل وخليج قارة كاملة على طول مئتي ميل أو أكثر، في المكان حيث يقطن البدو وأكلو السمك في قرى؛ وهناك خلف الرّأس (الأرض الدّاخلية في البحر) البارز من الخليج، مدينة تجارية أخرى عند الشّاطئ، مدينة قنا مرفأ اللّبان Frankincense. ويمتدّ من هذا المكان نحو الدّاخل مدينة شاباتا الكبيرة Metropolis Shabbatha [تسمّى الآن شَبُوة] حيث يقطن الملك. كان جميع البخور الذي نتج في المدينة قد أُحضِر على الجمال إلى ذاك المكان ليتم تخزينه، وحُمِل إلى قنا على طوافات جلدية بواسطة أشخاص ضخمين وفق عادة المدينة، وفي الزّوارق... وفي المكان أيضاً تجارة مع المرافئ الأفريقية، مع باريغازا Barygaza [Broach in India] وعمان وإيران».

(1) المقصود بها عدن.

وهكذا، فقد كتب الملاح القديم - وافد جديد إلى تلك البقعة التي حظيت ذات مرة بلقب الأغنى وكانت الأكثر حماية وربما الأقدم بين جميع طرق التجارة في العالم القديم. ولقد تم الكشف عن سرّها قبل سنوات قليلة من زمنه. وفي عام 45 ق.م كان هيبالوس Hippalus، الملاح اليوناني الأوروبي الأول الذي اكتشف كيفية الاستفادة من الرّيح الموسمية (في المحيط الهندي وجنوب آسية). وقد قاد تجارة متوسّطة عبر المحيط الهندي. وجاء بعده الرومان، فاتحو طرق القوافل الشّمالية، ومصر، الذين أُرهبوا بدفع الرّسوم العربية، وقتلوا شيئاً فشيئاً من أجل الحصول على طريق بحري خاصة بهم، ودُفعوا في المياه المضطربة في مراكب جديدة وبأحجام أكبر، تم تحصينها بواسطة التّباله.

ولكن لا أحد يعلم كم من الزّمن مرّ قبلهم، وفي أي يوم من أيام التّاريخ بدأت تلك التجارة، ولا متى بدأت القوارب الدّرافيدية Dravidian رحلتها الفردية، وعبروا في البداية المحيط الهندي بكوئيل عالٍ ومنقوش في ربعه ودقة في المركز، والشّمس والريّح من خلفهم في الفصل الموائم، ومن ثم أفرغوا حمولتهم على شاطئهم العربي. هنا «أحيطت مدينة البخور، الجبلية والوعرة، بغيوم كثيفة وضباب، تنتج البخور من الأشجار»، ولقد انتظر رعاة الإبل العرب تحت غبار خيمهم كما يفعلون الآن، وربطوا البخور العربي والأفريقي معاً في بضائعهم مع اللؤلؤ وقماش الموسلين المجلوب من سيلان Ceylon والحريّر من الصّين، وعصيّاً مصنوعة من عظم ظهر السّلاحفة، ومرهم التّاردين من الغانج Ganges وأوراق قرفة هيمالايا Himalayan، المسماة Malabathrum "coronatus nitentes malobathro syrio capillos."

ومن الهند، الألماس والصّفير (الياقوت الأزرق)، العاج والقطن، النّيلة، اللازورد، وفوق كل ذلك القرفة والفلفل. ومن الخليج العربي التّمر والخمر، الذهب والعبيد، ومن السّاحل الشّرقي لأفريقيا، قائمة طويلة لتجار جزيرة العرب، البخور، الذهب، والمِرّ، وريش التّعام والزّيت.

وأخذت بضائع من محطات الشريط الساحلي الرّملي للبدو والجمال، عبر شُعب الهضاب، على السّهب الواسع إلى وديان داخلية وإلى الأراضي الشّرقية من اليمن، إلى أن وصلت إلى أسواقها عبر صحارى شمالي مكة، وكان البخور العربي يشتعل على مذابح كنائس دمشق، وفلسطين، وطيبة Thebes، ونيوى، أو روما.

لقد كان هذا طريق البخور العظيم الذي ما تزال ذكرى بعيدة باهتة منه تعطي لجنوب جزيرة العرب اسم السّعيد، الذي سيكون وجوده تهيئة لمكانة ومآثر الإسلام اللاحقة. وسيسافر على خطاه أغنياء آسيا، وظهرت على طول مجراه المتواصل البطيء الإمبراطوريات العربية وسقطت: المَعينّة، والسّبتيّة، والقبتانيّة، وحضر موت وحمير. فقد نمت الواحدة تلو الأخرى على خط طريق السّفر الهائل؛ ولقد نوقشت سياستهم من خلال الرّغبة في السّيطرة على أكبر قدر منها، وعلى الأخص السّيطرة على مناطق البخور من الجنوب والمنافذ إلى البحر: وقد أصبحوا بناءً على أرسقراطيين وإمبراطوريين لمدن ضخمة (شاهقة)، واستعمروا أرض الصّومال وإثيوبيا، وجعلوا أنفسهم سادة غابات أفريقيا تماماً كما هم سادة الغابات العربية.

ويمكننا بصعوبة ملاحظة حجم الثّروات التي ساهم احتكارهم بمنحهم إياها في الأوقات عندما كان كل مذبوح وكل جنازة يتم تعطيره بالبخور. وقد حُفِظَت الغُرف المقدسة لتخزنه في هيكل القدس. ولقد تمّ في عام واحد نقل 2,159 جرة و 304,093 مقدار إلى هيكل آمون في بداية القرن الثّاني عشر قبل الميلاد، ولقد قام الكهنة الكلدانيون بإحراق ما قيمته عشرة آلاف طالن سنوياً على مذبوح البعل في بابل Babylon وحدها. واستخدمت عشرات الآلاف من الطّالانات لتدفع كجزية من العرب إلى داريوش. وقام الإسكندر الكبير بعد احتلال غزّة Gaza، بإرسال خمسة آلاف منها إلى معلّمه الذي كان قد أثّب في مقدونيا بسبب غلوّه للآلهة.

«دعونا فقط نأخذ بالحسبان الكمية الكبيرة للجناثر التي يتم تأيينها في كل مكان من العالم كل سنة، والأكداس من العطور التي جُمعت في تشريف الأجساد الميتة». لذا فقد كتب پلينيوس Pliny (VII. 42) واستنتج: «إنها رفاهية الإنسان التي عُرِضت

في ممتلكات الموت والتي وصفت جزيرة العرب بـ «السعيدة»⁽¹⁾. فهو يصف التدابير الوقائية التي أُخذت لحماية السِّلَع النفيسة، وقد فُرِضت عقوبة الموت على حاملها فيما لو انحرفت عن الطريق العام بين البحر وشبوة؛ «تُركت بوابة واحدة مفتوحة من أجل إدخالها» داخل تلك المدينة؛ ووفقاً للدستور في متاجر الاسكندرية يُجرّد العمال قبل مغادرتهم، لذا تُشدّ مآزرهم ويوضع قناع أو شبكة على رؤوسهم. ويبرهن الكلّ على قيمة هذه الحمولة، التي أرسلها التجّار من بحر إلى بحر لمسافة ألفي ميل عبر جزيرة العرب، وبيعت أخيراً في روما، «بمئة ضعف من تكلفتها».

ولا بدّ أن تكون قد أضيفت لعظمة هذه التجارة، ثروات متراكمة عبر الأيام، فالمواصلات لم تكن معلومة بشكل تام في الأيام المبكرة. كانت الحضارة المَعِينِيَّة أولى الأمم التي سمعنا عنها، «التي كانت مدينتها الممرّ الوحيد للبخور، على طول طريق ضيق وحيد» والتي لديها قوائم ملكية ومن المحتمل أنها تعود إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد على أبعد مدى. تعرضها النقوش بشكل ظاهر للعيان مثل منيرفا Minerva، مسلّحة بشكل كامل متحضّرة، ومزدهرة في ذلك الحين غير محققة من خلفية جزيرة العرب، ومن أبجدية تُعتبر جذورها هي جذرونا. أيّ مغامرات من ما قبل التاريخ أحضرتها لهذا البزوغ، أيّة هجرات تقبع خلفها، حيث ومن قبل من اخترعت الأبجدية، كل هذا لم يُكتشف. وما من أحد أبداً ما عدا يوسف هَلِيْفِي Joseph Halévy الذي تنكّر بهيئة يمني يهودي، زار مَعِين، العاصمة المَعِينِيَّة في نجران.

وازدهرت لاحقاً مملكة سبأ، جنوباً – the Sheba of Solomon – بعاصمة في مأرب، وعلى طريق البخور أيضاً وقام بزيارتها كلّ من آرنو Arnaud، وهَلِيْفِي⁽¹⁾ Halévy، وغلّا زَر Glaser. وينتقل مركز القوّة باستمرار نحو الجنوب. وعندما توسع

(1) يعود إلي هَلِيْفِي دور كبير في جمع وترجمة الكتابات السَبِيَّة القديمة، حتى عُدّ مكتشف رموزها، رغم أنّ أول من حل رموزها كان علامة اليمن ابن الفقيه الهمداني في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي). وحول هَلِيْفِي انظر كتابنا الأول في هذه السلسلة: «ارتياذ جزيرة العرب»، للبريطاني دافيد جورج هو غارث. ومن جملة الكتب التي سنضيفها إلى السلسلة كتاب دليل هَلِيْفِي في اليمن حاييم حبشوش.

السَّبْيَتُونَ امتَصَّوا جيرانهم القتبانيين، الذين كانت مدينتهم «تمنع» لم تكن قد عُرفت بعد - التي يجب أن تكون قرب مصنعهم في حَرِيب، وكذلك على طريق البخور؛ ويؤكد بلينيوس Pliny أن «من الممكن أن يكون تم استيراد البخور عبر المدينة من القتبانيين⁽¹⁾ Gebanitae فقط»، الذين كانوا أحفاد القتبانيين في تمنع. وحكمت بعد سبأ، حَمِير - آخر الممالك العربية القديمة، من ظفار Tzafar قرب يريم واستمرت في الأزمنة المسيحية. وكان إمام اليمن لتلك الأيام ينشر غباراً أحمر على رسائله ليُظهر انحداره من قبيلة حَمِير.

ولكن مفتاح التجارة يقع شرقي كل هذه الأمم في الوادي الجُرْفِي الحدودي وفي ممرات حضرموت الضيقة، التي «شاهد سكانها شجرة البخور، وسكانها فقط من بين سكان جزيرة العرب»؛ هم الذين سيطروا على مرفأ قنا والأراضي الساحلية حتى ظفار؛ والذين كانت عاصمتهم شَبُوة، التي يذكرها بلينيوس باسم «سابوتا» Sabota «في جبل شامخ» مع ستة هياكل داخل جدرانها من الممكن فتحها أو إغلاقها عن طريق بوابتها الوحيدة وهي السد الذي زود طريق التجارة الهائل.

لا تزال شَبُوة حتى السنة الماضية لم تُزر بعد. ولقد عُيِّنَت على الخرائط على بعد 60 ميلاً تقريباً غرب شِبام. ودمرت في اجتياح مبكر، لبني كِنْدَة، وفقاً لما ذكره ياقوت، فقد قام السكان بالتخلي عن شَبُوة، وأوجدوا شِبام.

وعلى أية حال فإنه من الممكن أن تكون هذه، بعض قبائل قليلة بقيت تقطن هناك حول آبار مالحة، ورغم بعدها عن الموقع القديم؛ يقال إنهم يعيشون عن طريق اقتلاع الملح الصخري، وقيمون من القرن العاشر على أقل تقدير عندما رآهم العالم الجغرافي الهمداني هناك.

وتبعاً لولع كان لدي دوماً للطرق أو للأنهار، فقد فكرت السنة الفائتة بمحاولة الوصول إلى شَبُوة عبر طريق حضرموت. ومن ثم فيمكن أن أتبع إما الطريق الأساسي

(1) أجمع المؤرّخون في عصرنا على أنّ تعبير القتبانيين ينطبق أيضاً على Gebanitae الواردة في المصادر اليونانية القديمة.

عبر حريب ومأرب إلى مَعين في نَجْران - وهو «الطريق الضيق الوحيد»، الذي يمرّ كما رأينا، عبر عواصم إمبراطوريات جزيرة العرب الأربع؛ أو إذا ثبت أن ذلك مستحيل، فمن الممكن أن أفعل ما أستطيعه بالالتفاف حول شَبْوة وأعود إلى المرفأ القديم لقنا - في مكان ما قرب بير علي على السّاحل - على طول الطّريق الذي يفترض أنه كان ذات مرة الطّريق الرّئيسي عبر الهضاب.

لم يتحقق شيء من تلك الخطط. فقد كانت شَبْوة، ما تزال على بعد ثلاثة أيام بشق الأنفس ولا يوجد حدّ ليحول دون الاقتراب، عبر القدر غير اللطيف، ليكون بعيد المنال كالقمر، وقد مشيت في طريقها الإمبراطوري الفارغ في الأحلام فقط. وعلى الرّغم من أنّ وديان حضرموت التي تقود إليها، والمدن الدّاخلية تمّت زيارتها عدة مرات منذ العام 1843، عندما غامر فون فريده Von Wrede، للمرة الأولى هناك متنكراً، فهي لا تزال تغري المرء لتسجيل بعض أعجوبة جمالها، حتى لو أنه غالباً سيكون تسجيلاً لإخفاق.



ملاحظة - أنا آسفة جداً لأن أسماء التّباتات في حضرموت لم يتم مقابلتها بأسمائها الإنكليزية المرادفة. وذلك لأن الصّحيفة التي تمّ بها جمع التّباتات لمطابقة لاحقة تلفت بالمياه المالحة في المنزل البحري، وفسدت العينة. فلذلك، ولمعلومات دقيقة كثيرة أخرى، أُحيلُ القارئ إلى كتاب السيّد إنغرامز⁽¹⁾ Ingrams الذي سيصدر حول هذه البلاد.



(1) هارولد إنغرامز Harold Ingrams (1897-1973) عسكري وإداري ورّحالة بريطاني شهير، خدم في عدن بمثابة ضابط سياسي 1934-1937 ومستشار للمقيم البريطاني في المُكَلّا 1937-1940، ثم أضحى حاكماً لعدن عام 1940 ووزيراً أول 1940-1942. وخلال هذه الفترة قام ومعه زوجته دورين برحلات متعدّدة عبر حضرموت، فكانا أول أوروبيين يستكشفان مناطق قبيلة الصّيعر والبرّ الدّاخلية لقبيلة المَهْرة. حصلتُ على أحد كتبه بعنوان: *Arabia And The Isles* (1942).

الفصل الأول

السّاحل العربي

«رأيتها، ترمي ظلالها البهية في السّحر،

صورتها تهتزّ على خليج متشع باللون الوردي

سفينة مترنحة من أيام قديمة خلّت».

(«السّفن القديمة»، تأليف فليكر (Flecker))

لطالما كنت أتساءل لماذا تظهر سفينة لتكون بمجملها مُلكاً أثيراً، أكثر من امرأة. من المحتمل أن هذا بسبب كونها شيئاً ضعيفاً تتوازن بين أجزائها بشكل محفوف بالمخاطر، ويدرك حتى أكثر الرّجال بلادة الحاجة للحذر والبراعة في التّعامل مع دفتها. ولكن النّساء، على الرّغم من أنهن رقيقات مثلها إلى حدّ بعيد، فقد جثمن على حواف أشبه بموسى الحلاقة إلى حدّ بعيد، على الرّغم من كونه دقيقاً إلى درجة لا تُلاحظ، بين أبديات أكثر خطورة، لا بدّ أنها تقدّم بشكل واضح انطباعاً مزيفاً عن الاستقرار، وبما أنّ أشخاصاً أغبياء متأخرين وشاردي الذّهن غالباً ما يأخذون اليد النّاعمة على ذراع الدّقة التي تحافظ على مسار السّفن والبشر على حدّ سواء. ولهذا السّبب كانت السّفن هي التّفصيل الطّبيعي غير المنطقي للرّجال المحبّين للسلام.

ومن المفترض أن تكون تلك الظّاهرة ملاحظة بشكل أكبر في المحيط الهندي عنها في أي مكان آخر، حيث تهبّ الرّيح الموسمية المفيدة من هنا في الاتجاه نفسه بشكل

ثابت بعدد الأشهر نفسها من كل سنة لتضيف تعويلاً أكثر على الأشياء العامة؛ والتي هي أكثر ما يمكن أن يقال عن أي ربح تُخضع المراكب المحلية المتوسطة، ولذلك فعند المقارنة اليقينية فقد أبحرت الأساطيل الصغيرة من دون شك من الشواطئ الأفريقية وجنوب الجزيرة محملة بخوراً ومِراً، كما كانت عبر القرون، وتفرغ حمولاتها في مخازن عَدَن من التوابل باقتراب موسم عيد الميلاد.

تم تصدير ما يقارب 1,200 طناً من ظُفار في العام 1934، و 800 طن من الأراضي الصومالية. حيث يستنتج جميع البخور في العالم في هاتين المنطقتين. وتُنتج الأراضي الصومالية الإنكليزية بمعدل 400 إلى 500 طناً والأراضي الصومالية الإيطالية من 500 إلى 600 طناً. ولكن تعتبر النوعية من جزيرة العرب أفضل، ويصدّر ساحل ظُفار ما يقارب 1,000 طن، وهي المقاطعة الوحيدة التي لا تزال تجمع الحصاد مرتين في السنة، كما كان الحال في زمن پلينيوس Pliny حين تميّز جمع البخور الأبيض في «الصيف» و«الأحمر» في الربيع بشكل عام.

المرافئ والقرى الرئيسية لساحل ظُفار هي: السودة Saudah التي تصدر ما يقارب 250 طناً من البخور؛ ومِرباط Mirbat من 150 إلى 200 طناً، ورخيوت، 200 طناً؛ Jadib من 100 إلى 150 طناً، Hadhbarm، و Damghat، Dhabut، وكل واحدة منها تصدر 100 طن، والغیضة AlGhaidha 50 طناً، وقِشن من 200 إلى 250 طناً. وتأتي النوعية الأفضل من السودة Saudah، وحضبرم Hadhbarm، ومِرباط Mirbat، والأسوأ يأتي من قِشن. ويجمع الحصاد القديم من أشجار من مجموعة متنوعة تنتمي إلى فصائل Boswellia Carteri، Burseraceae، و Boswellia Bhuadajiana، ويقوم العرب بتقسيمها في أربعة أصناف، منتجات الصمغ الأفضل من Hoja'i، وتعتبر أنواع الشحري، Samhali، والرسمي Rasmi التوعيات الأدنى.

يقول القبطان المسنّ: «لا تعدّ أشجار البخور من الأشجار العالية أو ذات الثخانة الكبيرة، وهي تحمل البخور ملتصقاً في قطرات على اللحاء، تماماً مثل الأشجار التي لدينا في مصر والتي يقطر صمغها». وينمو أفضل أنواع البخور في مكان يبعد عن

الشّاطىء ثلاثة أيام على ظهر الجمل؛ والنّوعيات المتوسطة من المنحدرات وقمم الهضاب، ويُجمع النّوع الرّديء قرب شاطىء البحر.

وتحدّد الشّروط الأخرى أيضاً قيمة الصّمع: لونه الذي أشير إليه فيما مضى في مخزون رعمسيس الثالث، والذي يتنوع بين قطرات داكنة من الكهرمان، أو أخضر مائل للزرقة باهت ومضىء كضوء القمر، إلى خليط حصى بلون بني مختلط كقاع جدول دارتمور Dartmoor؛ وبالتّظر إلى حجمه، ونسبة الحصى المتألّثة الصّغيرة معها والتي حاول العرب وبشكل غير واضح زيادة وزن بضاعتهم بها، فكل هذا يحدد قيمة البخور، والتي تتراوح بين 80 جنيهاً و10 جنيهاً للطّن الواحد.

ويقوم العرب بثلم أشجارهم ما بين شهر مارس إلى أغسطس بشقوق صغيرة تُقطع في اللّحاء: وتأخذ العصارة اللبّنية ما بين ثلاثة إلى خمسة أيام كي تجفّ وذلك تبعاً لحالة الطّقس؛ فإذا لم تكن الشّمس حارّة كفاية، فإن الصّمع يجب أن ينهي جفافه على الأرض. ويحفظ الجُمع في زمن پلينيوس Pliny في طبقة صغيرة؛ «ولا يتجاوز عدد العائلات التي تمتلك حق هذا الامتياز من قبل سلسلة متوارثة الثلاثة آلاف. ولهذا السّبب يُدعى هؤلاء الأشخاص مقدّسين، ولا يُسمح لهم، في فترة تقليم الأشجار أو جمع الحصاد، أن يتعرّضوا لأي تلوث إما عن طريق أيّة علاقة مع نساء أو ملامسة أجساد الموتى؛ وهذه الطّقوس الدّينية هي التي زادت في سعر البضاعة». وفي الوقت الحالي يؤجّر حق الحصاد هذا غالباً للصّوماليين الذين يأتون من أفريقيا لهذه الغاية. ولقد وُجد الوصف المقدس القديم للشّجرة ذاتها لدى عدة كتّاب: يشير هيرودوتوس Herodotus إلى أفاع مجنّحة تحميها وتطير إلى مصر كل ربيع - تتبعها أرواح الشّجر التي فصلت عن جوانبها الحيّة القطرات الثّمينة.

ولكنّ طريق القافلة مهجور الآن، وتضاءلت منطقة البخور من حدودها العربيّة، وهذا على الأغلب بسبب نقص في الطّلبات أكثر من أيّ دافع طبيعي. وما تزال الأشجار تنمو وتُحصد بشكل محليّ في قرى منعزلة من حضرموت، وتظهر النّقطة الغربيّة الأكثر من التّصدير أنها الغيضة؛ واختبأ المرفأ القديم من قنا، على بعد 160

ميلاً أو أكثر نحو الغرب، ضاع في الرَّمْل. وتمرّ أساطيل العرب المبحرة، والتي تشبه هياكلها القديم كقدم تلك الآثار المطمورة غير المرئية، دون رغبة من سوق الأشباح التي تعانق الشواطئ البركانية عندما تنسحب الرياح الموسمية في فترة هدوء الشتاء في طريقها إلى أرصفة ميناء عَدَن.

وهنا في ظلال معتمة مع غبار معطر، وعطر التوابل الرقيق، حيث تنتشر أشعة باهتة من ضوء شمس على أصماغ نصف شفافة، تحني النساء رؤوسهن المغطاة على السلال المسطحة، ويفرزن بأصابعهن الصغيرة المحنّاة مستويات متنوعة. بينما تقوم الأساطير البحرية، قاصدة الوطن، بتحميل عنابرهم القديمة مع براميل الكازولين.

غرق أحد هذه القوارب الدّاؤ من الكويت، في يناير الفائت تماماً خلف جُرف بير علي. وقد تم إنقاذ معظم كمية الكازولين، ونظر سلطان بير علي إلى تلك الحادثة على أنها هدية من الله، حيث قام البدو بسحب البضاعة إلى الشاطئ بشكل عفوي، ولا يتم تسليمها إلا بدفع النّقود. وليس عندنا هنا في عَدَن معاهدة مع بير علي في موضوع غرق السّفن ولكن لدينا معاهدة مع السّلطان المجاور الذي يحتفظ بثالث القيمة من أي شيء يرسله له عرض البحر. ولم يكن سلطان بير علي قد حاز بعد هذا المستوى الرّاقى للقرصنة، فطالب بربع القيمة. وتحت تلك الظروف، فقد وصل A.B.⁽¹⁾؛ الذي حاز على الحمولة، إلى القرار بأنّه من الممكن أن تثبت المفاوضة الخاصة أنها تكلف أقل من المعونة الحكومية، وأخبرني بأنه يمكن لسفينته التجارية «الأمين» أن تنقلني إلى المُكَلّا في طريقها إلى الشّحر، وذلك بعد أن تُودع سفيره على رمال قنا المنسية، حيث يبذل قصارى جهده هناك.

ذهبت في مساء الثّاني عشر من يناير على متن سفينة A.B.، وأخذتني مريم إلى الخارج: تأرجحت أضواء السّفن مثل التّجوم في شريط البحر الواسع الضّحل لخليج عَدَن. ولقد أعطت الصّداقة الدّافئة التي كنت أتركها عند حلول الليل، حدة

(1) ترمز ستارك بهذا الاسم إلى التاجر الفرنسي أنطونان بيس Antonin Besse، الذي أحبته واعتمدت عليه في كثير من شؤونها في رحلتها باليمن.

لنلك الرحلة القصيرة، كما لو أنها رحيلٌ عن الوطن. فقد كانت عَدَنَ لطيفة. ولم أتأثر بتلك الإشاعة الشريرة عنها بين رحالي حضرموت الأوائل والتي لم تؤيّد من قبلي، فقد وجدت ودّاً ومساعدة من المقيمين فيها في كل مكان. وقد فكّرت بتلك الأشياء في قمرتي المريحة، بخلاف الدّاء الذي استخدمته في البداية لأتجول في السّاحل الجنوبي، واستيقظت في السّاعة الثّانية صباحاً، لألاحظ أننا أصبحنا بعيدين، بسبب هبوب الرّيح، وتضيء المنارة الجنوبية لنا، بنظرة مشؤومة متقطعة عبر مياه منحدرّة، كانت تلك «الأمين»، التي كانت مؤخّرتها المرتفعة تشبه فرس البحر، وكانت قمراتها على كل قَمّة فيها، ذاهبة لتمضي أتعس وقت مع المحيط الهندي.

واجهنا طوال ذلك اليوم موجة قصيرة، وشعر كل واحد منا فيها بنسب متفاوتة. صعدت على سطح المركب في فترات متقطعة، وشاهدت الشّاطئ الصّحراوي المستوي ذاته، وخط الجبل خلفه - خليج آكلي السمك، على الرّغم من أن أكواخهم لم يكن من الممكن مشاهدتها. وجاء السّفير من الباب المجاور، يترنّح في مواجهة الرّيح، كان شاله وغطاء رأسه يتنفخان في دوائر حول وجه مستدير مماثل مبتسم هادئ مزين بسنّ ذهبية؛ وصدح صوت ثرثرة نسائية من مقصورته فأوضح أنها عمّة أرملة عائدة إلى المُكّلا. قمتُ بزيارتها فوجدت امرأة جميلة على نحو استثنائي لِتكون عمّة، التفت بأغطية رقيقة من قماش الشّيفون المزهر، وقد استلقت على أريكة ضيقة من الواضح أنها وجدتها أقل راحة بكثير من أرض عربية.

كانت لها ملامح وجهٍ مألوفة في حضرموت، وجه طويل جداً ودقيق، وفم كبير ولكن دقيق وابتسم بسهولة، وعينان بَنيتان متألقتان كبيرتان غامقتان، عنق طويلة وقلادة من خرزات ذهبية. رَحّبت بوجودي كأخت في هذا العالم الواسع وغير الماتع من المياه، وكانت تحاول تلطيف نتائجه عن طريق فطيرة بالزّبدة؛ قالت بأنها شعرت بالحاجة لشيء ثقيل في داخلها ليحفظ الأشياء من أن تدور وتدور. وشعرت بالتأكيد بأن الفطيرة ستدور في الحال مع شاهدة القبر المتحرّكة، وغادرت قبل حلول الكارثة، بعد إقناعها بالمخاطرة بالحشمة عن طريق فتح إنش من كوة السّفينة. مشيتُ

في مقصف نظيف مفتوح في الهواء الطلق الخارجي أفكر في المفهوم الأنثوي الرائع للسفر في صناديق مغلقة عبر العالم، لترى هي ويراها أقل عدد ممكن من الناس. وتبدو تقريباً أنها تعصب عالمي ولكن يختلف هنا وهناك في الدرجة، كانت السيدة X تخشى أن تخرج لدقيقة واحدة خارج دائرتها، والتي تشمل أقل من عشر من مليون جزء من عدد سكان كوكبنا السّاحر المثير للاهتمام، يتصرّفون وفق المبدأ ذاته مثل العمة العربية، في مقصورتها المعتمدة والضيقة.

خيّم في الصّباح التّالي هدوء وصمت مفاجئان حيث أننا كنا في المرسى. وكان الذّراع الشّرقى للخليج الواسع المهجور قرب المقدّمة، وافترض بعضهم أنه خليج قنا القديم. تلمع كئيبانه ومروجه المنحنية في أشعة شمس الصّباح التي غطّت سفوح الهضاب البركانية الصّغيرة السّوداء المغبرّة، التي بلغت متون الجبال المستوية، وتلاشت في وادٍ فسيح متجه شمال الطّريق العام إلى شَبوة، وحتماً إلى مكان واحات غير مرئية، لعدم وجود إشارة للزّراعة في أرض واسعة ومتنوعة في مجال الرّؤية. وتوجد هناك فقط ثلاث أعمدة متهدّمة وحصن مربع أو برج تدلّ على ماهيّة المكان الموحش قديماً. رسا مركب الدّاؤ في المرسى، وهو المرتحل وحيداً كرفيق وحارس لحطام السّفينة التي أتينا لزيارتها، عكست صواريه وزخرفته المشجّرة الدّقيقة بشكل مرتجف أكاليل أزهار نُقشت على كوئله العالي، وبان علم الكويت المنقط بالأحمر والأبيض المتدلّي بوضوح كروسم في الجو المضاء.

يوجد هناك شيء أكثر إثارة من مجرد عزلة طبيعية في الآثار المهجورة للنّاس: وكان الموضوع الأكثر عزلة في ذلك الشّاطئ هو حمولة A.B.⁽¹⁾، وهي رابية مهجورة غطيت بقماش التّربولين والحبّال، سُحبت عليها إلى ارتفاع رملي بعيد عن خطر البحر، وتبدو أشبه بمغامرة تجارية تساوي ألفي باوند يمكن لشخص أن يتخيلها.

لم نشاهد كائناً بشرياً، ولا أيّ شيء نهائيّاً فيما عدا بهجة فرح النّهار الصّامت لعالم غير مسكون. ولكن كانت هناك عيون فوقنا، وتوّأ بدأت ترتفع على قمّة البرج

(1) أنطونان بيسّ Antonin Besse.

المربع مثل كثيب نحل لأشخاص وشالات سوداء رفرفت على المتراس في إشارة سلام. وعندما نزلنا بقاربنا، ومعنا القبطان وموظف، وسفير وكاتب وثلاثة من العرب مسافرين، وهياكل أسرة وأطفال بدينين بأقراط في آذانهم، متجهين إلى حَبان في الدّاخل وأنا - ومع وقت حدوث كل هذا كان حراس حطام السفينة قد جاؤوا لتوّهم لمقابلتنا في قارب مجوّف من خشب وفي قارب هوري⁽¹⁾ طويل كان يقف فيه أربعة أو خمسة منهم. وللهوري نهايتان حادثتان، لذا فبإمكانه الإبحار في الاتجاهين على حدّ سواء، ويرتفع في الأمواج مثل عروس، بينما يقف طاقمه في مؤخرة السفينة، ويجرفون المياه بأقراص خشبية مثبتة على سوار تعتبر أجداد المجاذيف. وقد انزلق قاربنا مثل سنونو حول ذبابة، عندما وصلنا مياهاً ضحلة، انقض في الحال: لقد اختار كل عربي راكبه، أمسك به دون كلام زائد، وحمل الأقدام والأذرع في حزمة محكمة خبيرة، وأسندها على اللون التيلي والزيتي من صدره، وأودع الحزب المفاوض على الرّمل.

ينتمي سلطان بير علي إلى قبيلة الواحدي التي يعود نسبها إلى قبيلة قريش، وفقاً لروايتهم الخاطئة بشكل جلي. ويعتبرهم وايمان بُري⁽²⁾ Wyman Bury من ضمن عرب الجنوب ومتميزين بشكل صرف عن مهاجري الشّمال، وهكذا بدا النّظر إليهم. كان تعدادهم حوالي أربعة آلاف، ولقد أُخبرت أنهم قرّروا مؤخراً، وربما بشكل غير نهائي، بأنّ التّجارة أكثر ربحاً من القتل، وأنّ الطّريق عبر مدينتهم، الطّريق المباشر إلى شَبوة، التي قطعها فون فريده Von Wrede في منطقتها المنخفضة في العام 1843، ما تزال غير معروفة بشكل كبير وتعتبر خطيرة وفاسدة.

(1) الهوري من أبسط أنواع القوارب في اليَمَن والخليج العربي، ولا يعدو كونه مجرد جذع شجرة منقور بشكل قارب.

(2) جورج وايمان بُري (1874-1920) ضابط بريطاني قام بمحاولة جدّية لاكتشاف المناطق الدّاخلية لجنوبي جزيرة العرب. ويعدّ أول أوروبي يشاهد أجزاء كثيرة ممّا أصبح يُعرف فيما بعد بمحميّة عدن الغربية، وقد سافر تحت اسم عبد الله منصور. قمنا بترجمة كتابه *Arabia Infelix* (اليمن غير السعيد) وسنشره قريباً.

بدّوا هم أنفسهم خطيرين فيما لو وضعوا فيها، لكنهم ملائمون. جاء ثلاثة زعماء أو أربعة من مجموعتهم ليصافحوا بلطف مهيب بغير ابتسام. وقليل منهم فقط يلبسون عمامة، ويلبس معظمهم مآزر وحزام ملتفّ، أحكم بشكل جيد وتميمة مملوءة تماماً حول العنق - وعصابة رأس مدهنة لتربط الشعر وفق زي عارضة الأزياء الأحدث وسوار مجدول من الفضة، فوق المرفق الأيمن. كان معهم بنادق مرصعة بالفضة، وخنجر حصرمي جميل أو اثنان، بغمد يلتف تقريباً على شكل حرف U، مزخرف بعقيق خام، وضع في المثز في زاوية ليكون في متناول يدهم. كان جمالهم يتمثل في الجذع العاري، وعضلاتهم متموجة بحرّية تحت الجلد الذي أعطاه معالجته المستمرة بالنيلة، مع الشمس والزيت تورّداً لا بنياً ولا أزرق، ولكن شيئاً ما أشبه بلون أرجواني داكن. ولقد بدوا أسياد الموقف بشكل كبير، وكان قبطاننا في عجلة، ولم يكونوا هم كذلك، وذلك دائماً موقف قوي في الدبلوماسية. وعندما سُئلوا قالوا إن سلطانهم كان في الدّاخل في بير علي عبر الخليج. جال قبطاننا بعينيه الزرقاوين المستديرتين برُعب، عبر ذلك الاتساع الممتدّ دون أية وسائل للسفر. فقام أحد مضيفينا، بطمأنينة إنسان متحرّر من الأدوات، بتطويق خواصره، وذلك بعقد المثز وبدأ السير.

سأل القبطان: «كم من الوقت سيستغرقه كي يصل إلى السلطان؟».

التفت أبناء قبيلة الواحدي وقد قاطعهم بفضاظته غير الملائمة، في بداية ثرثرتهم المؤدّبة مع السفير، لينظر إلى منظرهم الطّبيعي برؤية جديدة، ولم يتأكّد فيما لو كانوا قد فكّروا من قبل كم استغرق منهم السير عبر خليجهم.

اقترح أحدهم ولكن دون قناعة قوية. «ربما سيأتي السلطان اليوم بعد ساعتين».

بدأ ذلك كل ما أهمّهم، ولقد عادوا إلى مواضيع أكثر متعة تاركين القبطان لينظر بعينين أوروبيتين حائرتين إلى المنظر الطّبيعي الجامح وليتكهن كيف أن «الأمين» تكلف في اليوم 75 \$ عندما تقف ساكنة.

كان من المفترض أني وددت تفحص الحصن، والأعمدة الثلاثة التي تعود إلى جامع

خَرِبَ استُخدم قبل تلاشي الماء من الرّعن⁽¹⁾، ويدفع أواخر السّكان نحو الدّاخل. في الحقيقة، من المفترض أنّي وددت أن ننزل جميعاً ونأخذ الطّريق العام القديم، على الرّغم من الكلمات المقيّنة لكتاب «التّطواف» *Periplus*، التي أقرّها مسافرون متأخرون: «لأنّ تلك الأماكن خطيرة إلى حدّ بعيد، ومهلكة حتى لهؤلاء الذين يبحرون على طول الشّاطئ، ولكنها في الغالب مميتة دائماً لهؤلاء الذين يعملون هناك، والذين يهلكون أيضاً بسبب الحاجة للطّعام غالباً».

كانت رسائلي إلى المُكلّا، ومع ذلك لم يكن القبطان ميالاً لسماع اقتراحات للتّمهل في الطّريق. قال: من الممكن أن نعود إلى «الأمين» على أمل أن نرى السّلطان يخرج من خلف كثيب رملي عندما يحين الوقت.

وهذا ما فعلناه، حصرنا مناظيرنا لساعات باتجاه ذاك الخليج الصّامت، بينما تزايدت عتمة هضابها وقطعانها ووديانها المغطاة بأشجار خفيضة وتزايد بياضها في حرارة الصّباح المتزايدة.

كان اثنان أو ثلاثة من قبيلة الواحدي قد جاؤوا على متن السّفينة وتجوّلوا بحذر شديد حول ظهر المراكب، وهم يلمسون الصّباغ الأبيض مع تساؤل مشوب بالشّك، كما لو أنّها يمكن أن تعود للحياة تحت أيديهم. خطأ واحد منهم عبر باب قمرتي، وجثم بطلاقة العرب الطّبيعية، مطلقاً عينيه تطوفان بصمت حول التّجهيزات الغريبة للغرفة والمراوح الكهربائيّة والمغسلة والمرآة والنّور وستائر الغرفة، واستقرّت أخيراً بارتياح على لحاف سريريّ الأبيض المفهوم نسبياً، وبدأ يضرب عليه بأصابع مُعجبة. كان شخصاً طويل القامة، أسود تقريباً، مع مزيج أفريقيّ فيه، قسّات وجهه صغيرة مألوفة ولحية قصيرة مجعّدة، وشعر مزيت بشكل تام، مربوط خلف أذنيه. «وشدّ خصل شعره بعصابة رأس مثل امرأة» مثل بطل ملحمة جلجامش. كان الانسجام الجميل لجميع أطرافه قد فسد بإبهامين ضخمين. شاهد بعد دقيقة أو أكثر، إبريق الماء، ووصل إليه ليرفعه، وبدأ يشرب.

(1) قُتّة الجبل الخارجيّة منه والدّاخلّة في البحر.

علقتُ قائلة: «مياه جيدة».

«الحمد لله، لم أذق مثلها أبداً، إنها عذبة».

سألتُ: «هل آباركم مالحة؟».

«أجل».

«بالكاد يمكننا تخيل ماذا يعني شرب المرء طوال حياته من آبار مالحة. شخصياً لم أعانِ أبداً من ظمأ شديد وما زال لديّ حسب ما أذكر، متعة طبيعية، وإقرار بالفضل لأنهار جارية ونقية». قلت: «ليس هناك شراب يعادل ماء نقياً».

قام خمسة أو ستة أشخاص من قبيلة الواحدي الذين اجتمعوا حول رفاقهم الذين كانوا يجثمون عند الباب المفتوح، بإدارة رؤوسهم فجأة بموافقة متحمسة؛ يكمن سحر البدوي في فهمه للحقائق، وانعزاله الأصيل عن زخارف الحياة:

وعلى الرغم من العالم الغريب المتحضر الذي تقابلنا فيه، فقد وجدت أنا والواحديون قاسماً مشتركاً. ابتسم صديقي الأول، وقد جلس الآن بشكل مريح على اللحاف الأبيض، الذي يمكن أن يصبح أزرقاً بسبب النيلة عندما ينهض عنه وهو مبتسم.

قدّم اقتراحاً: «لماذا لا تأتين وتبقين في بير علي؟».

«ربما أفعل ذلك في طريق عودتي».

قال أحدهم - وهو رجل مضيء البشرة بعمامة صفراء مُترفة من الكشمير على رأسه: «لكنك نصرانية، وستُحرقين في نار جهنم».

كان واضحاً، أن الجميع لم يستطع إلا الموافقة على صحّة هذا التصريح، ولكنهم استنكروا بشكل قاسٍ طريقة التعبير عنه. لم أكن مستعدةً لأوافق على ذلك، ونوّهت إلى أن النصارى هم أهل الكتاب. قلت: «سيجتمعون يوم القيامة مع نبيّهم، يسوع الإله؛ وسيتم جمع اليهود مع موسى؛ وسيجمع رسول الله، صلى الله عليه وسلّم، المؤمنين

وسيدهبون جميعهم إلى الجنة. إنها حقيقة بأن تعاليمكم تقول بأن نبيّنا سيدخل متأخراً قليلاً عن رسول الله - ولكن الخلود طويل جداً، وأرى أنه ليس هناك اعتراض كبير في أن أبدأ متعتي به متأخرة قليلاً عنكم».

استقبل الجميع هذا الاعتذار العقلاني بارتياح باستثناء الشخص ذي العمامة الصفراء، الذي استمرّ يدمدم وبصوت منخفض مع نفسه، عندما طرد خادمٌ مرتاع ضيفي بعيداً عن اللحاف كما لو كان خنفساء، وفرّق الاجتماع إلى سطح أخفض بطريقة أئدت، بلا شك، رأيهم حول مصيرنا النهائي. حضر القبطان في الوقت نفسه وأخبرني بأن السلطان قد أرسل مراسيل، وقد أخبره الحراس عن وصولنا فجاء مسرعاً نحونا على جمل؛ ولكن ما يزال لا وجود لإشارة عن أي شيء يتحرّك، ولو انتظرنا أطول فالمفروض أن نصل المُكَلّا في وقت متأخر جداً للرّسو في تلك الليلة.

لقد كان ذاهباً كي يودع السّفير على الشّاطئ، تاركاً إياه للقيام بأفضل ما يمكنه فعله، ثم يُقلّه في طريق عودته بعد يومين.

وبناءً عليه فقد أنزل السّفير في القارب، مع الموظف الرّئيسي وبرميل ماء صغير وبرميل ويسكي ولفافة فراش وبعض حقائب الطّعام. تفاجأ البدو الواحديّون لنفاد الصّبر هذا، ولكن استقرّوا بصمت في قاربهم الهوري لمرافقته في عودته إلى الحصن. وعندما سحبّت سفينة «الأمين» مرساتها واتجهت إلى جزيرة البركة في الشّرق، كان آخر ما رأيناه من خليج قنا هو فرقتنا المفاوضة متروكة على شاطئها والحصن المربع الصّامت، حيث لا حياة ولا نوافذ فيه خلفهم، والخليج الكبير، براكينه التي تكاد تُطمّر، وأسواقه المظمورة، وحكاياته الدّفينّة، لا يظهر للخارج أكثر من واحدة بين عدّة مراحل من الوحدة على طول شواطئ جزيرة العرب.

* * *

الفصل الثاني

رسو السفينة

«كذلك بالنسبة لأولئك الذين أبحروا، إلى ماوراء رأس الرّجاء، وأصبحوا الآن مقابل موزمبيق، وتهب ريح الشمال الشرقي في عرض البحر محملة بالعطور السبئية من شاطئ التوابل في جزيرة العرب المباركة».

(الفردوس المفقود، الفصل الرابع، 156)

أصبح مقابلنا الآن، على يسارنا، الساحل الجبلي المقفر لأرض البخور، ذاك الخليج شديد العمق الذي يُدعى ساخاليتيس «Sachalites» - الكلمة نفسها مثل الشّحر وسواحل Sawahil وصيغة من عبارة سهل العربية Arabic Sahl، أو أرض السّهل. ولا يزال بخور الساحل يُسمى الشّحري⁽¹⁾، وتخلّد مدينة الشّحر الاسم الذي يبدو أنه استُخدم دوماً عبر القرون الوسطى للشريط الساحلي غرب عُمان كشيء واضح من داخل حضرموت إلى الشمال منها.

سميت هذه البلدة كلها بين قنا و«التّوء الكبير مواجه الشرق المدعوراس فزتك Syagrus (15 36' N. 52 12' E) وكانت ذات مرة جزءاً من أرض البخور.

وكان هناك حصن على الرّعن ذاته، ميناء ومخزن، وحُمّل اللّبان من هنا على الأرجح إلى قنا على «طوافات عوّمت بجلود منتفخة وفي قوارب»، أو أخذت عن طريق وادي

(1) يشتهر الاسم لدى العطارين بصيغة: لُبّان شحري، ومن أنواعه الأخرى: لُبّان ذكر، ولُبّان مستكا.

عَدَم، أو من سيحوت عن طريق وادي حضر موت، إلى تريم وأخيراً إلى شَبْوة - الممرّ الطّبيعي حتى هذا اليوم. ومع ذلك فلم تُذكر الشّحر كمدينة من قبل أي من الشّعوب القديمة، ولكن جاءت لتحلّ مكان قَنَا فيما بعد، وذكرها الرّحالة البندقي ماركو پولو Marco Polo باسم «الشّير» Escier وكذلك ذكرها ياقوت. ولا تقع المُكَلّا على أيّ منفذ سهل طبيعي نحو الشّمال، ويبدو أنها جاءت إلى الوجود في وقت متأخر أكثر. كان الذّكر الأوّل لها أورده ابن المُجاور في القرن الرّابع عشر، وبقيت غالباً في إغفال متواصل حتى 1829، عندما جاء البريطانيون بعد هجرهم عَدَن، وحتى 1834 عندما اختبر هاينز Haines بدقة كلاً من المُكَلّا وسُقْطرى وهو يبحث عن قاعدة بحرية.

وتُظهر إشارات مبهمّة وقليلة لتلك المدينة كم تُركت لوحدها عبر قرون الإسلام كلها. فقد حمل ملوك وسلاطين اليمن سيادة اسمية في فترات منفصلة، ولكن وصلتنا مرّة واحدة لمحات مشرّفة عنها، عندما انتقل السّلطان المظفّر مع ثلاثة جيوش من الغرب لاجتياحها في القرن الثّاني عشر. ولقد كان سلب السّفينة من قبل رجال ظُفّار وهي مبحرة على طول شاطئهم غير المضياف سبباً أو ذريعة للحرب، مثل الاحتلال البريطاني لعَدَن لاحقاً. وقرّر السّلطان المظفّر الذي كان أحد حكام اليمن الأقوياء أن يستولي على المدينة وحدّد ملتقى لجيوشه الثّلاثة عند ريسوت في ظُفّار. وللأسف فقد وردت تفاصيل قليلة جداً عن الجيشين، حول محطاتهم والتي كانت دون أي شك، واحدة من طريق البخور القديم، وكان من الممكن أن ينقذ وصفهم الشّك الذي استمرّ يحجب الأرض بين حضر موت وظُفّار. كل ما أخبرنا به هو أن ذلك الجيش الشّمالي استغرق خمسة أشهر من صنعاء في اليمن إلى ريسوت، وهو يتقاتل على طول الطّريق مع أبناء المنطقة الإباذهيين Habudhis.

سار الجيش الثّاني على طول السّاحل، تعترضه عقبات طبيعيّة هائلة، ولكنه استمرّ على اتصال مع الأسطول، الذي شكّل القوة الغازية الثّالثة، متبنياً نفس الدّرب الذي سار عليه ابن سعود في حملته الأخيرة من الحجاز إلى اليمن. كانت مؤن كل يوم تُنزل ويُقام سوق على الشّاطئ، إلى أن تم الوصول أخيراً إلى الهدف، وتقاتلت الجيوش الثّلاثة في سهل

ظُفَار، وأقاموا هناك الدَّولة المظفَريَّة ذات السَّيادة. وبات الطريق مفتوحاً للمظفّر ليشرف على إخضاع حضرموت الشَّاق ويتزعمها بالتدريج. ولقد استغرق ذلك منه شهراً ليصل إلى شَبام من ظُفَار، ولكن لم يتم تسليم الطَّريق، حتى ظهور دليل آخر إلى المدينة، واتجهتُ إلى التَّفكير بأن الطَّريق الطَّبيعي لا بدَّ أن يمتد داخلياً عند وادي حضرموت إما من سيحوت أو الشَّحر وكانت تلك المنطقة الواقعة بين سيحوت وظُفَار تقطع بواسطة البحر. كان البخور في الحقيقة قد تَمَّت حمايته بشكل قوي جداً في مستودعات في قَنَا و Syagrus، حيث تخرج الطُّرق البرية، كان يُترك بأكوام في جميع أرجاء الأرض السَّاحليَّة في ظُفَار وفقاً لرواية كتاب «التَّطواف» *Periplus* مكشوفة وغير محمية، كما لو أن المكان كان تحت حماية الآلهة؛ إذ لا يمكن تحميله، لا بشكل مكشوف ولا خلصة، على ظهر سفينة من دون موافقة الملك؛ وفيما لو حدث وحُمِلت حبة واحدة دون هذه الموافقة، فإن السَّفينة لن تستطيع الخروج من الميناء». ويسهل العمل بهذا التَّنظام في المرفأ البحري حيث يمكن فحص كل مركب مغادر، ولكنه يكون متعذراً تقريباً على الطَّريق البري، حيث يمكن أن تُنهب في أية ليلة مظلمة بعض حمولات الجمال دون أن يلحظها أحد.

كنا في أيامنا الأولى هذه، قد غادرنا منطقة قَنَا، وسافرنا شرقاً واستمرَّ الموج يتقاذف السَّفينة بشكل عنيف، ونظرنا خلال فترة بعد الظَّهر إلى الحواف البركانية لخليج الحَلَّاتيات⁽¹⁾ Sachalitic. استطعت هناك وفي مخيلتي، رؤية جيش القرون الوسطى، حفاة الأقدام، داكني البشرة، ذوي العمائم الزَّاهية، مبعثرين بحريَّة قرب تلك المرتفعات الصَّخرية غير السَّالكة المشرفة على البحر. ولا يمكن تخيُّل ساحل أكثر وعورة منه. فالجبال حادة مجردة بشكل واضح في لفائف سوداء من ظلمة الأرض، وحيدة قاسية كالموت بجَمالٍ ملتبسٍ مُهمَل. كانت وجوه جروفها تندفع واحدة تلو الأخرى باتجاه البحر، الذي بدت موجاته المتحرَّكة الوضاء تعيد فوضى انعزال صدوعها وسلاسلها بشكل أكثر انسياباً وأكثر حيوية.

(1) تقع جزر الحَلَّاتيات ضمن محافظة ظُفَار بَعُمان، واسمها السابق: «جزر خوريا موريا»، وما تذكره فرياستارك هو اسمها اليوناني القديم: Σαχαλίτης κόλπος «ساخاليثيس كولبوس».

بدا القبطان قلقاً مع انقضاء فترة ما بعد الظهر، وأصبح توقع بلوغ المُكَلَّا قبل الليل أضعف أملاً. أقبل الغروب وألقى تألقاً وردياً على المنحدرات الغربية للبحر والشاطئ، وألقى ظل «الأمين» أمامنا على الماء. وقامت جارتني التي كانت لا تزال ملتفة بطرحتها في قمرتها، بالضرب بشدة على جدارها في فترات الاستراحة المتكررة، تطلب صيحة، وجلستُ معها، طالما استطعت مقاومة تحمّل الجو العام، وأنا أنظر بإعجاب إلى العقد الذهبي المعقود حول رقبتها. تمّ صنع العقد في دَوْعَن وقد وضعتُ في المنتصف منه نوع من حجر مخطط وأخبرتني بأن البدو يحضرونه «من الصّحراء»؛ ويدعى «الصّوّانة» Sawwama، وتحبّ كل امرأة من تلك الوديان أن تلبس واحداً، ويمكن أن تدفع ثمنه ما يعادل 100 روبية، معتبرة إياه كنوع من تعويذة.

انتشر الليل في السماء مثل ذيل طاووس مفتوح، وتلاشى الضوء الأخضر الغربي، مروحي الشكل من الغروب، شفافاً كماء بهت ليصبح لونه الأزرق بارداً في أعلى قبة السماء؛ وتحول خط الساحل إلى صورة ظلية، وكذلك تحولت صورة مدير الدّقة الهندي الواقف عند العجلة. يوجد هؤلاء الأشخاص السود مدوّرو الرّؤوس، من سورات⁽¹⁾ Surat في معظم سفن الساحل البخارية، متحفّظين ومبتهجين، ينتقلون من هنا وهناك بأردية زرقاء من صنعهم، مطرّزة بأزهار وأعلام تقليدية تنفذ حسب نموذج بشكل موجة بيضاء، ويضعون على صدورهم أحزمة حمراء. اشترت واحدة بروبية واحدة، بينما كنت منحنية على ظهر المركب بإرهاق مضني، حتى ظهرت أخيراً حوالي الساعة الثامنة مساءً أضواء قليلة خافتة في الجدار الأسود للساحل وأظهرت لنا المُكَلَّا.

وانسللنا فوقها بالكاد على حين غرة ورسوينا في انتفاخ مضطرب، وذلك بسبب عدم وجود مرفأ هنا لأي شيء أكبر من قوارب الدّاؤ؛ وبدت المدينة بالفعل في ذلك الظلام أنها ستلتصق مثل البرنقيل⁽²⁾ barnacle بسطح جرفها. وامتدّ فوقها كتفا هضبة

(1) سورات (تعرف قديماً بسورياپور) هي العاصمة التجارية لإقليم گوجرات في الهند، وثاني أكبر مركز تجاري في غربي الهند من بعد مومباي.

(2) البرنقيل حيوانات بحرية قشرية من رتبة هُدايات الأرجل تعلق بالصخور.

أجردان غير مستويين نحو ضوء القمر، مع سلسلة صخور في الأسفل، لم أستطع رؤية إن كان فيه خضرة أم كان مجرد ظلام، وكانت تحمي الحديد أربعة أبراج مربعة، مهجورة الآن. وسطعت في الأسفل، في ظل عميق، أضواء هنا وهناك؛ ليست مثل الأضواء المكشوفة المرحبة في مدننا، ولكنها أشياء عابرة، نصف مخبأة، حيث يمكن لأحدهم رؤيتها، عبر مصاريع النوافذ والأسوار العالية، ولقد أعطى تنوعها هذا للمدينة غموضها، انفجار نار مضيئة هنا، وضوء ساطع قليل هناك، دون وجود صفوف لأضواء الشوارع في الطرقات، ولكن كان حول المئذنة وميض خافت يظهر زخرفتها البسيطة في الأسفل. كان الطبل يقرع؛ وتحرك مصباح في فترات متقطعة، يحمله عبدٌ أمام سيده عبر شوارع متعرجة. ساد ظلامٌ دامس خارج الأسوار، وإلى اليسار وإدٍ منخفض باهت في ضوء القمر؛ وشاطئ متألق من الرمال. تأرجحنا ونحن مقيدون في مياه متلاطمة. وقد طغى علينا انطباع انعزالها في المسافات المحيطة أكثر من المرفأ الغريب وسرّه والحياة غير الواعية أماننا بانعزال غير محدود في الليل الهادئ.

اتخذت آراء القبطان منحى آخر.

قال مكرراً مرات ومرات، وقد وقف ينتظر ليؤخذ إلى الشاطئ: «إنهم رجال همجيون». كان عليه إيجاد قوارب داو لإنقاذ حمولة حطام A.B. ⁽¹⁾ عندما تمكنوا من حث سلطان بير علي للتخلي عن الحمولة، وعندما يعلم مالكو مراكب الدّاو بأهمتهم لمرة واحدة فسوف يساومون بقوة قدر استطاعتهم، كانت عينا القبطان أكثر انفراجاً وزرقة عن ذي قبل حين تنبأ بما يمتد أمامه فتذمر قائلاً «إنهم يثرثرون عنك بلغتهم العربية» ففكرت مع ذلك بأن تفكيره غير منطقي لأن اللغة العربية هي لغة الدّاو العربي. وكانت فكرة إنزالي وحيدة على شاطئ غير انكليزي غير مقبولة لديه، ولكنه وعد أنه سيفعل أفضل ما لديه ليرحلني تلك الليلة، ضد كل تنظيمات الغروب، وشق طريقه في الماء في زورقه من سفينتنا المُنارة بضوء القمر ودخل في ظل المدينة.

بقي بعيداً لساعات، وانطفأت أضواء المَكَلّا واحداً تلو الآخر. تأخر الليل وقوي ضوء

(1) أنطونان بيس Antonin Besse.

القمر وظهر شكل المدينة الذي يشبه الشَّج - طويلاً، تجمّعت الجدران المستقيمة مع بعضها، مبنية مثل حصون ماء بيضاء. وظهر خلال السَّكون الشَّدِيد صوت قعقة خشب من الظِّل في المرفأ؛ نشر قارب داو أشرعته. كان يظهر بصعوبة مقابل المياه المضئية، حيث انتفخ مثلثٌ جميل باهت بيننا وبين المدينة، وتحركَّ بهدوء في ظلمة البحر.

ثم اقتربت الشرطة في قارب هوري يهسهس مثل سمك قرش أسود في طريق ضوء القمر، وقدموا أنفسهم - موظف جواز السَّفر ببدلة بلون كاكي وأربعة زنوج بشباب نظامية زرقاء بياقات خمريّة اللون، وطربوش على رؤوسهم، وبندقية على أكتافهم. سألوني إذا كنت أرغب بالتَّزول إلى اليابسة. قلت لقد فعلت، وسببتُ ذعراً واضحاً. يمكن أن يمنحوني زورقاً، أشرت بأن هوري الشرطة كان جيداً بما فيه الكفاية. ولكن كان هذا أمراً مستبعداً. قالوا بأنه يجب أن أُمْنَح زورقاً أكثر جودةً.

لقد كان تخيلاً لطيفاً، ولكن لم يكن هناك شيء لي سوى الإذعان؛ اختفى الشرطي: وعاد خليج المُكَلَّا إلى الهدوء في ضوء المقيمر، إلى أن جلب اضطراب أضواء وأصوات القبطان المنهك إلى البيت.

«رجال همجيون، يتكلّمون جميعهم العربية»، لا يزال عبء محنته. كان أصحاب مركب الدّاو يطلبون مبالغ هائلة؛ ومن الممكن ألا يسمح لي أمير البحر؛ أو بعارة أخرى سيّد الماء، بالتَّزول إلى اليابسة بوقت متأخر في الليل. كان الحاكم في قصره بعيد المنال، وكنا ذاهبين مباشرة نحو السَّاحل إلى الشَّحر، ومن الممكن أن نغادر المُكَلَّا ومشاكلها إلى حين عودتنا غداً.

لقد كنت مرتبكة جداً بسبب المحيط الهندي، وهذا ما جعلني لا أبذل ثيابي تلك الليلة، كنت قادرة على التَّجول خارجاً بشكل ثابت تقريباً في الصَّباح التَّالي وأرى سفينة الأمين تفرغ حمولتها من الأرز في الصَّباح الباكر. لقد تغيّر السَّاحل إلى أرض مسطّحة رملية، مع تلال بعيدة وغائمة، أما الشَّحر فهي مدينة واسعة الامتداد، بيضاء ورملية اللون، بأربع مآذن وخمس قباب، وفي وسطها ساحة متواصلة لقصر السُّلطان،

كانت تُرى خلف خط الموج المتكسّر وشاطئ القوارب. ينتصب جبل ضبضب⁽¹⁾ شرقه، وأخبروني أن فيه مدينة برتغالية (؟) قديمة مع أبراج وكهف، من المفترض أنه ما يزال يموت فيه المغامرون كما في أكثر الكهوف الشرّقية.

لم نرسُ بعد وكانت السفن تذرّع المكان جيئةً وذهاباً، وقد ربطت مع بعضها بليف جوز الهند من دون استخدام مسامير، بطريقة رواها ابن بطوطة وماركو پولو Marco polo اللذان يصفانها على أنه لا يوجد لها ظهر مركب، ولكن فقط غطاء من جلود اعتادوا نقل الخيول عليها إلى الهند. تلك هي زوارق الشّحر اليوم، عريضة مدبّبة في مقدمتها وخلفيتها، ويوجد قطعٌ تحت مقدّماتها، عليه نموذج بألوان خضراء وسوداء وبيضاء، وتصميمات لأسماك، وشئ يبدو كالقناع، وعظام متصالبة رسمت عليهم، ورصفت بعييد أفارقة كان النّظر إلى أجسادهم مفتولة العضلات ووجوههم المنبسطة أقلّ لطفاً من النّظر إلى هزال أهل بير علي الواحديين.

استغرق من وقتي أربع ساعات لأبحر من الشّحر إلى المُكَلّا، وكنا عائدين إلى مرفئنا القديم باكراً في فترة بعد الظّهر، كانت البيوت المقابلة الآن مبهرة في نورها مقابل جدار الجُرف الأحمر، والأربعة حصون البيضاء في الأعلى. يحظى بياض المُكَلّا بنوعية مميزة جميلة، رائعة وتشبه حمامة السّلام مقابل خلفيتها الحارّة، فلها فخامة مزخرفة حولها، تبدو عظمية من البحر، ولكن إلى حدّ ما متهدمة في الأماكن قريبة.

كانت الآن تشزّ بوصولنا، وتجسّد الآن قارب المرفأ خارجاً من اضطراب يشبه فوضى النّمل، مع عامل A.B. ومندوب الحاكم في الكوئل، بطرايش تحت مظلة سوداء. كان طربوش العميل أحمر اللون؛ وظهرت عباءة فضفاضة من الصّرج الأزرق وظهرت في الأسفل حدود ممثلة على المستوى الغزير المتطابق ذاته وسنّ ذهبي،

(1) يقع جبل ضبضب إلى الشّمال الشرقي من الشّحر على بعد نحو 4 كم، وعلى قمة هذا الجبل توجد آثار لبقايا مباني الحصن، يعود تاريخها إلى الفترة الإسلامية ولم يتبق من هذا الحصن سوى بعض الأساسات لمبانيه وصهريج كبير كان يحتفظ بمياه الأمطار، وفي أسفل الجبل توجد مغارة وقبر إسلامي.

وكان يحمل عصا فضية الرأس مثل صولجان، إنه هندي يعيش مع مجلس باعة حوله قرب المرفأ. تعرّفت بعلي حكيم مندوب الحاكم بشكل أفضل، وأصبحت ملتصقة به خلال فترة إقامتي، لقد كان في ما مضى صيدلاناً في عدَن، ولكنه استقرّ الآن كنوع من A.D.C. في المُكَلّا ويتبخر حول أعمال الحاكم التجارية حاملاً مقدمته البدينة أمامه، مزرّة بشكل ناقص في معطف بني فوق عباءة قطنية مخططة، يسير بصعوبة شديدة مثل إله الفيل الذي أجبر على المسير، عانت عيناه مرضاً جعلهما بلون أبيض تقريباً؛ في صوته بحّة عميقة عندما يتكلم بالعربية بسرعة، ولقد كان الألفظ، والأبسط والمراقب الأكثر تدقيقاً لراحة يمكن أن يرغب أيّ شخص بها. وقد اعتذر الآن خمس مرات من دون فاصل بسبب التأخيرات في الليلة الفائتة.

قُدّم لنا الطّبيب، وهو شاب هندي يرتدي تويّة⁽¹⁾، مع جامعة خلفها وراءه، ثم ضابط الشرطة ببدلة عسكرية أنيقة، كان قد تعلّم بعض المهارات العسكرية مع قوات عدَن المجنّدة، تدبّر أمر صناديقي الاثني عشرة بيد بينما في اليد الأخرى تعامل مع أمير البحر، وهو رئيس المرفأ، الذي يرتدي عباءة خضراء وعمامة صفراء، وكان يطالب بأسبقية من نوع خاص.

حصل خلاف على الممرّ، وكانت أمتعتي تنزل بسرعة من خلال تشابك أذرع وأرجل سمراء أفعوانية. صُبغت المياه في الأسفل باللون الأخضر، وانطلقت قوارب هوري صغيرة خشبية داخلية وخارجة بمجاديف مدوّرة: جلستُ في زورق ضحل بين حُماتي الجدد، مستظّلة بحذر تحت المظلة السوداء، بشعور بهيج لكوننا في البيت وسعيدة في هذا الصّخب كله. بينما كان القبطان، يتكئ على متراس السفينة، ووجهه صورة من الأسى والأسف، قال لي بصوت واضح: «ليحكم الله بسلام»، مع دعوات يمكن ألا تفاجئ أحداً بشكل كبير كما فعلت بالحشد الودود والمضياف من «الرّجال الهَمَج» الذين كانت أجسادهم البنية، وهم يصيحون وينحنون على مجاذيفهم، تنزلي على برّ موطن جزيرة العرب.

(1) قُبعة هندية من فلّين.

الفصل الثالث

معسكر البدو عند بوابة المُكلا

«كم هو جميل السّير من الآبار قُدماً في المساء
عندما تمرّ الظلال العملاقة على الرّمال
وتتردّد عبر السّكون ضربات الأجراس
طوال الطّريق الدّهية إلى سمرقند».

(«حَسَن»، تأليف فليكر Flecker)

يوجد قصر سلطان المُكلا عند التّهاية الغربية للمدينة، قرب البوابة المحصّنة التي يتوجّب على جميع القوافل أن تعبرها سواء أكانت من الشّحر أو من الشّمال. ويقع القصر ذاته الأبيض الجديد على البحر وله زجاج ملون يشبه مقصورة برايتون Brighton ويحظى بأفضل مشهد في ضوء القمر. تقع ثكنات قصر الحاكم كلها وأبنية متعدّدة خلف القصر، طوّقت كلها في مساحة مسوّرة حيث نمت بعض أشجار التّخيل - الشّيء الأخضر الوحيد في المُكلا. وبيت الضّيافة داخل السّياج ذاته، المبني إلى سور المدينة؛ يتسكّع القليل من الجنود اليافعيين، ويدخّنون في بيت الحراسة في المدخل، ويستمرّون في مراقبة المجمّع كله.

أمضيتُ هنا خمسة أيام، ونظرت من نافذة غرفتي التي تقع في سور المدينة إلى مكان مخيمّ القوافل خارج البوابة.

يمتدّ الساحل في الورا إلى امتداد الهضاب، حيث يندفع راس بُروم بعيداً نحو البحر. يمسك الغروب تموجات الخليج، فهي ترتطم في منحنيين طويلين من أمواج مرتدة. يمتدّ «شاطئ مرتفع» من رمال بيضاء تجمعت بفعل رياح موسمية مقابل التلّة، حيث أن كثبانها باهتة في ضوء الليل مثل الغيوم، ويتألق الغروب بأشعة تشبه انحناءات الصّدف على الدّخان الذي يرتفع من الأكواخ، والتلال البعيدة عن المكان، وللمياه لون الحمامة ذاته، منير فقط. وكل ما عدا ذلك بني وقاتم: كتلة التلّة؛ الأكواخ الخيزرانية مقابلها بمسجد ومثذنة مثل كنيسة قروية في إنكلترا؛ ثلاث أكوام من سمك صغير مجفّف ارتفاعها بطول رجل، تسمّى العيد 'Aid أو الوزيف Wuzif. ويبيع سلة ممتلئة لعلف جمل؛ كانت ألوان طليعة الرّمال الواسعة عند مصبّ النّهر معتدلة، تجمّعت بتحفّظ في صورة سمر حي وحلقات لجمال منيخة.

هناك ما يقارب ستة من هذه القوافل الهاجعة، تتألف كل واحدة من عشرين أو أكثر من الجمال والبشر. وحمولتها (التي تبدو بشكل رئيسي) موجودة في الدّاخل بينهم، وأشخاص هنا وهناك، وحمير برؤوس متدلّية تشكل دائرة خارجية؛ وتستمرّ الحياة العائلية في الدّاخل بين حيواناتها الكبيرة والصّغيرة. كان مصبّ النّهر ممتلئاً بالنّاس بالكامل تماماً مثل الازدحام في «هايغات هيث» Highgate Heath في صباح مشمس؛ ودائماً عندما ينظر أحد ما باتجاه البحر، فإن شخصاً ما يكون قد حدّد بشكل قاتم اللون مثل شجر الأبنوس مقابل المياه السّاطعة، يعتبر النّظر إلى مشيته المتحرّرة متعة، وقد ربط شعره المجعّد بعصابة حول الجبهة، والمئزر القطني الرّقيق قد تشربّ لون التّيلة بشكل كبير، حيث صُبغ هو نفسه بلونها بحيث لا يحدث تغيّر في اللون يشوّه تناسق الحركة.

أمضيّت عدة ساعات عند نافذتي على الجدار أراقب هذا اللون من الحياة في الأسفل؛ حتى أن بنيات البدويات اللواتي يملأن جلود الماعز من التّبع لورحن لي مبتسمات، وقد أخفين وجوههن وهنّ يرحن بحمل على ظهورهن بعباءاتهن الصّفراء أو السّوداء، التي تصل إلى الرّكبة في الأمام وتتدلّى خلفهن.

ويمكن لأي شخص مشاهدة سبيل متواصل من الناس عبر البوابة، وخاصة عند المساء، وبدا البدو عندما أحضروا عشاءهم من المدينة؛ ودخلوا عبر البوابة الواحد تلو الآخر، ومؤنهم في أيديهم، أشبه بموكب الأضرحة في مصر، حاملي الطعام للميت: ثلاث سمكات على خيط، أو شريحة من سمك قرش أحمر بزعانف سوداء، أو سلّات تدلت برباط في نهايتي نير من خشب حملوه من كتف لآخر من أكتافهم. تبدو آية قطعة صغيرة واضحة عندما لا تلبس أي شيء من الثياب إلا مئزرًا، وسوار ذراع فضي، وخصلة من صوف تربط أسفل ركبة واحدة أو الركبتين كليهما لجلب الحظ.

يوجد لباس أكثر تعقيداً للشباب المدينة عندما يرتدون ثياباً كاملة، حيث يطرحون شالاً من الكشمير بشكل أنيق على كتف واحد، ويضعون النهايتين إلى الأسفل في الخلف. وعندما كانوا يأتون ليلعبوا كرة قدم خلف البركة حيث تشرب الجمال، أو ليمشوا يداً بيد في طريق الوادي في برودة المساء، كانوا يلبسون مآزرهم، التي طولها بطول الوزرة Kilt أو حتى تنورة ملونة بحاشية متباينة، وفوقها معطف من طراز أوروبي، وبعض الألوان الأخرى الزاهية على حد سواء - أو ثوب قطني قصير، من النوع الذي يمكن أن نصنّفه كثياب داخلية. وبين حين وآخر يمكن أن تقعع شاحنة آتية من الشحر، أو يهرول حمار تحت أجمة (أغصان مقطوعة)، وشخص عجوز عارٍ خلفها، أزرق اللون بشكل كامل بالثيلة، وكذلك لحيته القديمة. حملت النساء رزمهن على رؤوسهن، ومشين مثل دليلة Delilah عليها كل شجاعتهما، وعدّة الحبال.

ملئت بالأشعة، والأعلام المرفرفة في أقمشة متموجة ولكن بحرية في الحركة محسوسة تحت طياتها الكثيرة، إذ لا يلبس أحد في ذلك العالم المتحرّك المشغول أحذية أو مشدّات، واستتجت أن هذا هو الذي منحهم هذا التناسق وخفة الحركة مثل السنونو، وجمالاً هليئياً مُفعماً بالحياة.

أذكر بوضوح رجلاً، وقف ليصلي بعد أن قرفص على الرمال بجانب جماله من أجل أن يغسل ذراعيه وقدميه ورأسه وفمه. لا يمكن لأحد أن يرى أنه يرتدي شيئاً على الإطلاق في عتمة الليل (على الرغم من أنه في منتصف الصلاة أتى بحركة كما لو

أنه في الحقيقة يفك مئزره ويربطه). وقف هناك بوضعية جميلة وواثقة، وتحدّد قوامه ولحيته وشعره مقابل الصّحراء والبحر - مجرد رجل، بوقار لا يوصف لرجولة يافعة في هيئته. وعندما انحنى ليضع جبهته على الأرض، انتصب مرة أخرى بانطلاقة واحدة لجسده، كما لو كان قد صُنع من معدن.

حلّ الظلام في هذه الأثناء؛ كان اللون الأحمر الأخير لغروب الشّمس مثل لون نار المعسكر الأولى ذاته؛ وأصبحت الجماعات المتفرّقة عند الوادي والشّاطئ أقل؛ واجتمعت القبائل في دوائر جمالها من أجل الليل. كنتُ قد جلست لمدة طويلة جداً ولبثت صامتة عند نافذتي حيث دخل عاوز مع مصباح دون أن يراني، وكان قلقاً لأن الأمير طلبني وقيل له بأنني كنت في الخارج.

كان عاوز قد قدّم لي كخادم. كان وجهه مثل الأبنوس، بملامح حادة - وبشكل رئيسي نتيجة الجدري؛ خصلة شعر أسفل ذقنه مع عينيّه لوزيتين أعطته شكل المثلث، وقد اتّسع وأصبح فجأة فاتناً عندما ابتسم.. ونادراً ما كان يفعل ذلك عادة، وعندما سألته أشياء حول الوديان الداخلية التي جاء منها، قال إنه كان خادماً لأكثر من عشرين سنة لدى البيت الملكي، وزارهم مرة ثانية، مرّة واحدة، عندما اجتاز السلطان في الخريف الماضي وادي حضر موت.

تتدمّر النّساء الأوروبيات اللاتي يعشن في الشّرق غالباً من الخدم العرب ويمكن أن يفاجأن من سماع الثّبرة المخلصة التي يكتنّها هؤلاء النّاس لساداتهم المحليين. فهم يدخلون منزل الأسرة ويصبحون جزءاً منه، ولا يفكرون بأية حياة خاصّة فيما عداه؛ وإذا حصل وكان سيئاً في أشياء مثل المساعدة في ارتداء الثّياب أو الخدمة على الطّعام، فإن هذا يؤخذ وكأنه تدبير رباني، وكأنه ابن أو ابنة ولد وفيه النّقص المؤسف، ولا علاقة له بتعاطف القرابة.

لم أسمع أبداً بعربي يتكلم بفظاظة مع خادمه، حتى تحت تأثير المحن التي تتطلب الصّبر. عندما كنت في العراق، كان لدى ملكة العراق، طباطبائي سيي، إلى حدّ أن الملك فيصل عرض إرسال طباطبائي الخاص الممتاز بدلاً عنه، ولكن الملكة رفضت المبادلة،

وهي امرأة لطيفة وساحرة، كان قد تعلقت بزوجة الطباخ واعتادت على الذهاب معها إلى السينما بين حين وآخر. وفي حضرموت، يعطى رقيق صغير أو خادم لكل عضو صغير من أية عائلة غنية، ويشبّون معاً بإخلاص.

كان عندي بالإضافة إلى عاوز نوع من كبير خدم، وهو شيخ جليل ملتج من خريضة اعتاد أن يأتي كل صباح، ينظر إليّ بلطف بعيني عجوز فخورتين، من تحت عمامة حمراء وبيضاء ويضع قماشه القرمزي بشكل ملكي فوق كتفه، ويسأل ما الذي أرغب في تناوله على الغذاء.

لقد تمّ الاعتناء بي بشكل ساحر في منزل ضيافة السلطان. تم إحضار الماء من قناة من الوادي الغربي، لتتدفق في حمام أوروبي. كان لدي سرير وله ناموسية، ومزينة مع مرآة. كان في غرفة الطعام طاولة طويلة، وستة كراسٍ مصقولة، وأفضل كرسيين في النهاية منجّدان بنسيج فاخر بورود زهرية اللون. تمرّ عبرها إلى غرفة الاستقبال التي هي أشبه بغابة مخططة بتنجيد بالأحمر والأصفر، بأهلة منجّدة من اللون البهيج ذاته، تساعد على تثبيت ظهر من يجلس عليها. ومنفضة السجائر من عرق اللؤلؤ وتمثال فارس من البرونز، وجمّلت الجدران صور لحفلات ملكية - وولي العهد الألماني السابق في مقدّمة إحداها - أو برزت على طاولات إضافية. ونشر الشرق فوق كل ذلك ستاره غير الرّسمي؛ طرح الغبار وأعقاب سكاثر هناك، تركها ضيوف سابقون؛ ورفرفت خفافيش داخلاً وخارجاً؛ وقرضت فأرة ثياب أحدهم في خزانة الأدراج. إنّ الشرق فسيحٌ وتلك التّوافه الصّغيرة تغوص في صدره الواسع ولا تُقلق إلا الأوروبيين المنمّقين.

عندما حلّ المساء، وتوقفت صرخات الطّيور الجارحة العذبة التي ملأت وضح النهار، ظهر عاوز ومعه ثلاثة فوانيس نبط بيضاء، وزّعها على الأرض في عدّة أماكن، وأعطاني عشائي، وغادر إلى بيته. زُرعت ساحات أرض التّجمّع الرّطبة ذوات الجدران الدّاكنة، بالخضراوات وبعض الأشجار، ونمت وفيرة وجميلة في سكون القمر. أغلقت بوابة المدينة الآن؛ وشوهد وهجٌ ضعيف في بيت الحراسة الذي أمضى

فيه الحراس حراستهم ومعهم نرجيلة؛ وضربوا في فترات تكاد تكون متواصلة جرساً تدلّى بين عمودين، وأعلنوا بهذه الطريقة عن الوقت. وعندما شعرتُ بالتعب، انسحبت من الشرفة، جمعتُ المصاييح غير الضرورية وأطفأتها، واختليت بنفسي في غرفتي. لم أهتم بإغلاق الأبواب التي لم يكن سهلاً إغلاقها؛ ورفضت عرض حارس في أن ينام عند عتبة غرفتي، كان الحذر غير ضروري بشكل واضح.

فكرتُ عندما أغلقت عيني في هذه الطمأنينة والسكون، بالسواحل العربية التي تمتدّ على كل جانب: ثلاثمئة ميل إلى عدن؛ وكم من مئات الأميال إلى مسقط في الاتجاه الآخر؟ المحيط الهندي أمامي، الصحراء الداخلية في الخلف، وفي تلك اللحظة وداخل هذه الحصون الجبّارة كنت الأوروبية الوحيدة. ولفني شعور غامض قليلاً تسلّل عبر مشاعري الناعسة، تساءلت للحظة ما الذي كان يمكن أن يكون قبل أن ألاحظه.. لقد كان شعور سعادة، صافياً غير مادّي، مستقلاً عن المشاعر والعواطف، هو جوهر أثيري من السعادة، بهجة نادرة جداً ومجهولة إلى حدّ بعيد، حيث أنها عندما تأتي لا تبدو دنيوية أبداً.



الفصل الرابع

الحياة في المدينة

«تجّار شَبا Sheba ورَغَمَة Raameh هم تُجَارُك: بأفخر كلّ أنواع الطّيب وبكلّ حجر كريم والذهب أقاموا أسواقك...».

(سفر حزقيال، 27، أصحاح 22)

لم يفعل الوكيل الهندي الذي عُهد بي إليه الكثير لمصلحتي. قابلته قرب مكتبه عند بيت الزّيون بعد يوم أو يومين من وصولي، وبزّر سبب عدم مجيئه. قال: «مات لي طفل».

حزنتُ لسماع هذا، لكنّه دفع الموضوع بعيداً غير مباليّ بعكازه فضي الرّأس. قال: «لا يهّم، لقد كان صغيراً، وعندي الكثير. تهتاج التّساء حول ذلك».

بدت التّعزية في غير محلها. تركّته وتابعته لاكتشاف المدينة مع سائق أفغاني وضعه كرم الحاكم في خدمتي هو وسيارته. اعتاد أن يقود ببطء على طول الطّريق الرّئيسي، ويقف ليتيح لي الفرصة كي أنظر في الأبواب المظلمة للمتاجر، حيث عُرضت بضائعها مقابل الجدار الخارجي.

لم يكن هناك أشياء كثيرة تُشتري في المُكَلّا، أغلبها طعام من صنف ما، عُرض في سلال مكشوفة أصبحت مخفية عن الأنظار بالذّباب. لا توجد صناعة محلية باستثناء الخناجر المنقوشة و سلال كبيرة مصبوغة بشكل زاهٍ. تتألّف صناعة المدينة من تجفيف

السّمك، بزّاقة البحر (رخوية البحر)، *Holethuria edulis* وزعانف سمك القرش للصّين، والصّبغ بالثّيلة، وعصر زيت السّمسم. إنّ طريق المحيط الهندي طريق عام جيد، وتأتي معظم الأشياء عبر البحر؛ وتتمركز الأعمال الصّغيرة هناك حول المرفأ، حيث تعرض مراكب الدّاؤ تجهيزاتها وكوائلها العالية مقابل خلفية الجُرف، ويستلقي العبيد السّود بأطرافهم الضّخمة العارية نائمين على رزم الجمر ك ينتظرون تحميلها.

المدينة كلها عبارة عن شارع واحد مزدحم متوازٍ مع البحر، نهايته الغربية سوف تصبح شارعاً عريضاً تكتنفه الأشجار، ولكنه ما زال لا أكثر من طريق عقبات من الحفر وكتل حجارة على طول واجهة البحر. ترتفع الشّوارع الجانبية بزوايا قائمة إلى هذا الشّارع الرّئيسي وتنتهي في الغالب مقابل الجُرف مباشرة. تلتصق المنازل هناك واحداً فوق الآخر، بيضاء ورمادية، بأبواب ونوافذ منحوتة، ولكنها مهتدّمة غالباً عند معاينة أقرب.

هنا معاصر الزّيت، بُنيت حوالي اثنتي عشرة سقيفة من أجل تأمين ظلّ، حيث تقوم جمالٌ معصوبة العيون - بسلة صغيرة تغطي كل عين - بالمشي ببطء في دوائر لعشر ساعات كل يوم، وتسحب عموداً حُمّل بصخور مدوّرة، ويقوم حجر الرّحى الأعلى بطحن البذور بواسطته. توضع البذور في قمع في المركز، التي تحمل ما يقارب 36 ليبرة وتعباً خمس مرات في اليوم. يواصل الجمل مهمّته الدّائرية الكثيرة ببطئه المعتاد وخطوته الثّابتة ورأسه المتوازن بشموخ، كما لو كانت أمراً طقوسياً أسمى من فهم الرّعاع؛ وهو يريح نفسه من دون شك من ملل الحياة بإحساس الفضيلة، مثل الشّكليات المتعدّدة الأخرى بجانبه.

يقع قصر السّلطان القديم قرب المرفأ، وهو الآن بناء حكومي حيث يعقد الحاكم اجتماعه، ويعطي القضاة حكمهم، وتودع فيه وزارة المالية ومكاتب مشابهة. يأتي الدّخل الحكومي من جمارك وضرائب الأرض في الدّاخل، ولا توجد في المُكلا ذاتها أرضٌ خاضعة للضّريبة. أمّا القانون فهو شريعة الإسلام، والسّلطان هو مرجعيته المطلقة.

قامت بزيارة السّجن حيث تنكشف المدينة إلى الشّرق على جرف صغير خلف المقبرة. لقد كان بناءً عادياً مألوفاً مطلياً بالكلس في الخارج، وله باب منقوش، وباهت

اللون بفعل الشمس. عندما طرق سائقي الأفغاني الباب فتح لنا حارسٌ عجوز أذرد، ظلل وجهه التحيل بعمامة كبيرة، ووضع مفتاحاً في حزامه. كان مسروراً لأنه سيرينا سجنه، على الرغم من أنه لم يستطع أن يتذكر كم كان عدد السجناء فيه. قال لي إنه لم يدخل بينهم. كان طعامهم يُدفع عبر فتحة تحت الباب، ويمكن لشخص أن يراهم من السطح في الأعلى. صعدنا، ونظرنا من على متراس منخفض داخل ما يشبه نوع من حفرة، مدعّمة ومظلمة، حيث يجثم عشرة أو اثني عشر بدوياً وعدّة أطفال وسط أكوام الكدر. قفزوا عندما ظهرت أشكالنا مقابل مساحتهم الزرقاء من السماء.

قلنا: «السلام عليكم».

ردّوا كلهم في آن واحد معاً، وبدؤوا يتجادلون بصخب لدى رؤيتهم الكاميرا في يدي، بين مؤيّد للصورة ومعارض. شوهدت أشكالهم السوداء بصعوبة مقابل الخلفية المعتمّة، ووثب الأطفال هنا وهناك مثل عفاريت الظلام يصيحون: «خذي، خذي صورة!» مدّ بعضهم أذرعهم وتظاهر بأنه يوجه إلينا بنادق. قالوا «أطلقني الآن»، وأخذت صورتي دون انتظار أكثر. كان جميع الأطفال ومعظم الرّجال رهائن، أخذوا من قبائل سيئة السلوك؛ ويتم تبديلهم كل شهر أو شهرين. ووضعت حالات المرض (التي يمكن للمرء أن يتخيل أن يكون مستمراً تحت تلك الظروف) في مشفى. مرة في الأسبوع تُقتاد جميع المؤسّسة لتغتسل في البحر قبل أن تؤدّي صلاة الجمعة. لا تعتبر المُكلاً إحدى الولايات التي ترسل مندوبين إلى مؤتمر السّجن الدّولي، وربما تكون كذلك أيضاً، لأنني شعرت بالتأكيد أن هؤلاء البدو يفضلون بؤسهم غير الصّحي المشترك، عن راحة منعزلة في زنزانة حديثة.

بالنسبة لنظام الرّهائن أيضاً، فليس من السّهل اقتراح بديل في مدن حيث يجب أن تطبّق إرادة الحكومة عبر القفار. قبل أربعين سنة، عندما سافر هيرش Hirsch في حضرموت، اعتاد البدو فرض ضريبة لبوابة المُكلاً ذاتها وكسبت ما يقارب 550 دولاراً في السّنة؛ أمّا الآن فإنّ تباين النّظام والتّجارة المسالمة كبير جداً. ولكنني تأثرت بقية النّهار بذلك المشهد من الظّلام والكدر وأرسلت اقتراحاً ليتم توزيعه في الصّباح

التالي - تم الترحيب بالمحاولة مع الاستحسان من قبل أصدقائي في المُكَلَّا، الذين يعتبرون أن آلام الفقر هي جزء من المتاع الضروري للعالم، نوع من مبنى ألعاب مستمر حيث يمكن للأغنياء ممارسة الفضيلة عندما يشعرون بميل شديد لذلك.

بدأ الأشخاص المختلطون من الطريق العام، عند نهاية إقامتي في المدينة، من البدو والعرب والزّنوج، بالاعتیاد على رؤيتي بشكل أكبر، لكن حتى ذلك الوقت كانت الإثارة هائلة تكفي لجمع حشد كلما ابتعدت عن حماية السيارة. لقد كانوا ودودين، ولكن طولي لا يتجاوز خمسة أقدام وإنشين، ويجب أن يكون الطريق مفتوحاً كلما رغبت في رؤية أي شيء خلف ملامح وجوههم الشديدة الحادة. ذهبت مرة واحدة فقط إلى المدينة سيراً على الأقدام، ثم تخلّيت عنه كعمل سيئ وعدت إلى الجُرف في بحث عن العزلة؛ لحقني ما يقارب خمسين طفلاً، وهم يصيحون «نصرانية» بطريقة رتيبة ولكن ليست مهينة، إلى أن قطع التسلّق أنفاسهم. كان الجُرف شديد الانحدار؛ وعند وصولنا الحَيْد، حيث يوجد أربعة حصون، تخلف ضعيفو البنية بعيداً، وطوّروا الذين بقوا صداقة الشّركاء بعمل جريء.

قدمنا إلى أحد الحصون الصّغيرة، قرب مدفع صغير غير ذي جدوى. فُتح باب منحوت في منتصف الطريق إلى الأعلى، انتهت جدران الهرمية المائلة بشرفة مزخرفة في كل زاوية. تدعى أبراج المراقبة هذه «الكوت» (بصيغة المفرد) Kuts. صُفّت كلها على حَيْدٍ مستوٍ لا بدّ أنه كان مسكوناً لفترة قريبة جداً، لأنه ما زال يحمل آثار حقول مربعة وقد غطيت قمم الهضاب فوقه بحفر مهملة، ليست قديمة جداً. لقد تطلّب الأمر بعض البراعة والإقناع لجعل العبد الصّومالي الذي كان يخدمني يصل إلى أعلى هذه التلّة، ومن الأحد عشر صبيّاً الذين ما زالوا ملتصقين بنا لم يكن أيّ واحد منهم قد وصل لهذا البعد من قبل؛ على الرّغم من أن التسلّق كله يستغرق ساعة ونصف فقط. والحقيقة لم تبدُ رياضة تسلّق تلك الجبال كمتمعة على طول ساحل جنوب جزيرة العرب - فهناك الكثير من قمم التلال الفارغة في القرب منتشرة حولنا.

كان لدينا من الأعلى مشهدٌ جميل، ولكن قاحل على تموجات بلون الصّدأ لمنظر

طبيعي، يذهب أهل المُكَلَّا في الصَّيف إلى قرى صغيرة إلى الشَّمال منا فيها نخيل من أجل برودة الصَّيف، وإلى الوديان التي تؤدي عن طريق سلسلة جبال طويلة إلى دَوْعَن. وهناك إلى الشَّرق منا تَلَّة تشبه رابية من الشَّحر، وواديا بواش ورُكَب في الوسط؛ وإلى الغرب منا فُؤة، حيث يوجد في أرض مهبط سلاح الجوّ الملكي، وأسفل منا البحر، حيث تلعب الدَّلافين فيه. كانت تَلَّتنا ذات قمة عريضة مستديرة؛ بدا السَّطح القرنفلي المتعرج لصخرها كما لو أنه صُقِلَ بمسحاج ضخَم فقد كانت حواف التَّجويفات الشَّبيهة بقرص العسل حادة جداً؛ ومع أني لست جيولوجية، فإني أتخيَّل بأن هذا السَّطح الغريب هو من صنع رياح دوامات رمل قوية تجرف وتحت الصَّخر مثل ورق الزَّجاج. وهي على أية حال قاسية شديدة الصَّلابَة، وقد أصبح جماعتي الحفاة متعبين بسبب ملاحقتنا أخذوداً صغيراً أجرداً أسفل المنحدر الشَّمالي، وأتينا إلى الطَّريق الدَّاخلي حيث يقوم حصنان بحراسة الطَّرق إلى البحر ويظهران بشكل جيد في الممرِّ المتعرج للتلال، حيث لأسوارهما لون الهضبة ذاته. وفوقهما خزان مياه القرية وحديقة السُّلطان، وسياج أخضر وحوض بارز في الوسط منها وقصر صيفي خرب.

سرت هنا في يومي الأول في المُكَلَّا، وتجولت تحت الأشجار بين ساحات من خضار - باذنجان، بامية، فلفل، أشجار البدن بأوراق كبيرة وفاكهة تشبه البندقية التي يأكلون اللَّب الأحمر منها وشجر الرِّمان والموز والكرمة وأشياء أخرى لم أتبيَّنْها - ولكن لا وجود لأزهار. تبني بستانين صغيران داكنا البشرة في عدة مواطن، مثل أشباح لا تزال تمارس براعة ما قبل التَّاريخ، والتي مارسها السَّكان الأوائل لهذه البلدة - ربما بالطَّريقة ذاتها تماماً، بالتَّسلُّق بأقدام حافية في الأراضي المرتفعة الصَّغيرة من الأرض التي تفصل جدول مياه عن الذي بجواره.

وعندما ابتعدنا التقطنا راكباً شيخاً شاباً طويلاً وهزياً خارجاً للتَّزَّه وكان سعيداً لتوصيله معنا: قال يانه كان يدعو كي يعثر على سيارة.

قلت معلقة: «لا بدَّ أن الله أرسلنا»..

وافق متردداً، فهو لم يكن واثقاً جداً بامرأة غير مؤمنة كواسطة من الله. ولكنه استرخى تدريجياً، وأخبرني أنه يرغب في السفر، ولكنه كان فقيراً.

قلت: «هذا، لأنك تعلّمت. فكل المتعلّمين فقراء. ولو لم يكونوا فقراء، يمكن أن يمتنعوا عن كونهم متعلّمين».

وافقني على هذه الفكرة أيضاً، ولكن على مضض وبحزن. ولم يكن مؤهلاً للكتب، ويمكن أن يكون أكثر سعادة لو عمل جندياً. أشرت بأني زرت الجامع الأزهر في القاهرة وأن مدة الدراسة هناك هي ثلاث عشرة سنة - حيث صرّح بشكل واضح جداً بأنها مدة طويلة جداً.

سأل: «لقد درست، وحياتك - أين هي؟».

شدّ انتباهنا بعيداً عن هذا الاستعراض الحزين نسبياً بحصة التلميذ منظر ثعلب كثيف رائع تحت الصخرة؛ لم يتحرك، ولكنه انتظر، وراقبنا ونحن نعبّر، جاهزاً لأن يركض، كان جسده متيقظاً وذكياً - إنه مخلوق محظوظ، لم يخلق ليتبع حياة ضد إرادته. وضع الشيخ الشاب شاله القطني بشكل مُحكم حول كتفيه في برد المساء البسيط، كان ضعيفاً وشاحباً. تركني عند بوابة المدينة، متلهفاً حتى لا يعرض نفسه للشبهة بمثل هذه الصّحبة المريبة. ثم اختفت الومضة البشرية الصّغيرة، وعاد أسلوبه المشايخي ومضى بعيداً بخطى واسعة مع كلمات رسمية ووجه يشبه القناع، نموذج ديني بكليته باستثناء طريقة مشيه التي ما زالت حرّة جامحة كطريقة سير حيوان فتّي تحت رداء أخرق.

أخذني خادمي الأفغاني ذات يوم إلى قُوة لأرى أرض مهبط طائرات سلاح الجو الملكي R.A.F.، وهي واحدة من عدة أشياء حدّناها حول سواحل جزيرة العرب، وهي تقع في مكان طبيعي واسع مكشوف يؤدي إلى وادي الخبرة والحجر في الشمال. كان ركام الحجارة البيضاء غير الثابتة التي تميّزه قد توضح داخل المنظر الطبيعي العام ذي اللون الأحمر والبني، وستصبح في النهاية من خلال التطور الطبيعي للتاريخ

أضرحة مقدسة لإحياء ذكرى ثواب سماوي، بعد أن تنسى الطائرات الحقيقية بمدة طويلة. يقع المكان على مسافة ثلاثة عشر ميلاً من المُكَلَّا، ويمتد الطريق بشكل جزئي عند حافة الماء على الرمال وجزء آخر داخلي في وديان حجرية، جرداء وحمرء، حيث نمت أشجار سَمُر مروحية الشكل في الأماكن المستوية، رمادية مثل الأشنة أو الغرائيت، ومزركشة بطريقة قاحلة. ونمى هناك أيضاً نباتات euphorbias, statice جاف ومغبرّ، وأجمة متشابكة من أشواك، ولكن لا وجود لشيء بشري باستثناء بيت صغير واحد وحديقة محتضرة، والنساء اللاتي أتين من المُكَلَّا - مسافة ثمانية أميال أو أكثر - ليجمعن الأشواك بأفخاذ عارية وعباءات مثناة، وعيون تلمع أعلى غطاء الوجه السميك الذي يسترهنّ.

لا يوجد بين المُكَلَّا وبير علي على مسافة تقارب 70 متراً - أي شيء إلا هذه، وقرية بُروم على الساحل. إنه مكان صغير فقير لا توجد فيه بيوت جيدة، طُبع السكان على الكرم بسبب التأثير اللطيف لسلاح الجو الملكي R.A.F. وقد بدوا أكثر اختلاطاً مع الأفارقة، وتجمّعوا حولنا، ولم يستطيعوا التفكير بأي شيء يمكن أن يرونا إياه في منطقته ما عدا المدرسة - وهي عبارة عن قبو ترابي دون شبايك حيث جلس اثنا عشر صبياً في ظلمة جزئية يقرؤون بشكل عشوائي من مُصحف أحمر. بعضهم يقرأ، وبعضهم تظاهر بالقراءة، بضجيج رتيب (بصوت دندنة رتيبة)، وجسد يتمايل، كان معلمهم الزنجي يقف عند الباب يهوي جذعه العاري ولحيته البيضاء القصيرة، وهو فرح وسعيد بدندنة التعلّم. وعندما سألته أيّ طالب هو الأفضل، أشار في الحال إلى الأقبح من بين الكل.

في عودتنا على طريق البحر، على طول أرض من رمال رطبة على حافة الأمواج، ارتفعت طيور نورس مثل شريط رمادي خفاق أمامنا وغاصت مرة أخرى خلفنا، وهي تعيش هنا بأعداد لا تحصى، وتظهر عندما تحلّق مقابل المياه بلون أبيض وأسود مثل قطرات المطر. وتبدو على الرمال البيضاء مثل اللؤلؤ الأبيض، ومثل اللؤلؤ الرمادي على الرمال البنية، وتسبح وقد انتظمت على شكل سلسلة مثل اللؤلؤ على الأمواج.

وشكّلت الآن، وقد ارتفع وابلها وانخفض، مظلة من ظلّ بأجنحتها، فقد ارتفعت قليلاً فقط بما يكفي لتفسح لنا، تدور وتكاد أن تلمسنا؛ وأخطأ واحد منها مسافته وارتطم بي وسقط فاقد الصواب في حجري. التقطته، منقبضاً من الخوف؛ وعيناه فقط هما اللذان تحرّكتا، محاطتين بزخرفة سوداء دقيقة مثل نظارة منمنمة؛ كان منقاره أحمر اللون، وقسمه العلوي منحني فوق السفلي؛ كانت قدماه ذواتي أغشية وشاحبتين، وعندما تركت جسده يتحرّر، بدا ريشه الرمادي بارداً وناعماً، مثل البحر الذي يعيش عليه.

وقبل أن أغادر قمت بزيارة ثلاث مدارس أخرى في المُكَلّا. تمّ تمويل المدرسة الجديدة والكبيرة، التي بُنيت قبل خمس سنين فقط، من قبل السلطان وتوفّر ست سنوات من الدّراسة مجاناً لكل من يرغب بذلك؛ وأخبرني الأساتذة أنهم نادراً ما يستطيعون إقناع أولياء الصّبي بأن يتركوه لأكثر من أربع سنوات، بسبب عدم وجود فائدة ماديّة من الثّقافة (العلم).

كان الأساتذة شباباً ومتحمسين بحب التّعلّم لذاته الذي لم يخجل الشّرق منه بعد. كان يوجد منهم ثلاثة عشر، لما يقارب ثلاثمئة صبي في ستة صفوف. جلس الصّفان الأصغر حجماً على الأرض متربعين؛ وكان لدى الطّلاب الأكبر مقاعد، واستطاع الكل - من الأصغر - تقديم قصيدة ترحيب تلفظوها مع ايماءات مناسبة وإشارات حادة تدل على البؤس، ولكن بإحساس يدلّ على الالتزام الاجتماعي خلفها. كان الأطفال شعث الهيئة، وغير أذكاء في هيئتهم، كما هي طريقة المدن غير الصّحية، وكانت الكتب التي تأتي من مصر قليلة. كانت الثّروة العظيمة عبارة عن مجسّم كرة أرضية على حامل، حُفظ في حقيبة لمناسبات عظيمة؛ وخريطتين كبيرتين، وعدد قليل من قراء، وعدّة مصاحف تم توفيرها؛ كانت خمسة من المواضيع التي دُرّست لجوانب متعدّدة من القرآن، والبقية كانت: قراءة، قواعد، إملاء، إنشاء، رسم، حساب، هندسة، جغرافيا، تاريخ، وعلم الإشارة بالأعلام - وهي ذروة التّعليم، وتركّت إلى الصّف الأخير والأكثر تقدماً، بمثابة ذروة يتطلّعون إليها بلهفة لاجتياز مسافات قاحلة من خمس سنوات تمهيدية. كان السيّد عمر، المدير المساعد، والذي أخذني هنا وهناك،

لطيفاً ودمثاً ومغرمّاً بأطفاله. وهو ذو وجه طويل، وذقن صغيرة ملتحية، وعينان لوزيتا الشكل وكبيرتان وفم كبير حسن الشكل هو نموذجي في حضرموت - نموذج أرستقراطي من الممكن أن يكون قد رسمه فان ديك Van Dyck؛ وقد أعطى شعوراً ساراً للمكان بفضل حماسه هو والشيخ عبد الله، الذي عمل أمين سجل للمدرسة، على الرغم من فقر الطلاب والمهمة الهائلة الملقاة على كواهلهم بوسائل ضئيلة وغير وافية.

كانت مدرسة الحكومة القديمة على الخطط ذاتها، ولكن الثالث كان مشروعاً خاصاً يديره مبشر مسيحي هندي، وكان لديه خمسة وخمسون تلميذاً، وكانوا أنظف وملابسهم أفضل من مجموعة سيد عمر، وتأثروا كلهم تقريباً على نحو بالغ بذاك المرض من الاعتداد بالنفس، والذي غالباً يبدو أن المسيحيين الشرقيين يتبنونه من دون قصد من الفريسيين Pharisees.

لم يرغب أحد بالتبشير في المُكَلَّا، التي تفتخر بعدم السماح لليهود وبالكاد للمسيحيين، وكان عليه أن ينتظر عدة أشهر قبل أن يُسمح له بالإقامة هناك بأية حال؛ وكان هنا الآن بوجه مؤدّب لطيف وأسنان صفراء ونظارات، وراتب 60 روبية في الشهر من السلطان من أجل إدارة مدرسته، وهو يمدّ طلابه بالقرطاسية وكل ما يمكن أن يحتاجوه، وبكل ما يبقيه هو وأسرته بصحة جيدة. وكان لديه في مسكنه في الطابق العلوي صقّان من الكتب بليت تماماً لترشده في طريقه، وله زوجة نحيلة صغيرة حاولت ما أمكن أن تستغلّ الأشياء على أفضل وجه ولا تأسف على عدن بشدة، وبنات صغار قالت الزوجة أنهن نسين دروس البعثة في التطريز بشكل كامل. رأيت التطريز ولم أفكر أنّ هذا سوء محض، فنسيان بعض الأشياء يكون أفضل. ولكنني أكبرت البطولة التي غدّت روح التحدي، بصراع وحيد لنقل حضارة غير مفهومة في أرض غير مستعدة. قامت الصفوف المتجمعة بالغناء لي «حمى الله الملك» بالإنكليزية، ثم بالعربية. استمعت مع بعض الزبّية، متساءلة ألا يمكن تكون هذه واحدة من فنون الدعاية البريطانية اللطيفة التي أسىء تفسيرها والتي نسمع دوماً عنها - ولكنني تعلّمت

بعد ذلك بأن جملة «حمى الله الملك» God Save the King عبارة عن ماثرة يفخر كل أهل المُكَلَّا بها، ولا تحوي أي معانٍ ضمنيّة إقليمية.

كانت أكثر فعالية مسلّية في المدرسة هي الحوار بالإنكليزية بين اثنين من أصغر التلاميذ، حول كرسي. قال أحدهم: «لقد اشتريتُ كرسيًا». سأل الآخر: «كيف يبدو؟».

«مصنوعٌ من الخشب»..... الخ الخ.

بدا حواراً هادئاً ودياً، ولكن احتدم الغلامان فيه كما لو كانا في معركة، بأعلى صوتيهما وبعنف لا يُصدّق، يميلان باتجاه بعضهما كما لو أن الحاجز المكوّن من ثلاثين تلميذاً وتيف هو وحده ما منعهما عن الانقضاض على رقبة بعضهما، ولم أتأكد من أنّ الأمر مجرد وصف للكرسي إلا بعد الانصات باهتمام.

لقد أتيتُ من تلك الواحات الواقعة تحت تأثير غربي حزين قليلاً، أشعر بشعور نصير حيادي يرى فقر آرائه الخاصة التي تعتبر مثل الذهب الخالص ويهتم بها بدرجة ثانية ولا يستطيع التّدخل لصالحها، وكنت سعيدة عندما وقف سائقي الأفغاني خارج نوع من سرادق صنّع من سطح من قصب وسألني إذا كنت أرغب في النّظر إلى عُرس يقام داخله. أخذني إلى الباب وتركني، وانسللت إلى الدّاخل بين جماعة ووجدت نفسي في فوضى نسائية، ازدحمت في وقت الغسّق الحار والكثيف، وفي حالتهم الممكنة قد ابتعدن عن أي شيء يتعلّق بالثقافة العصرية.

وقفت النّساء الرّقيقات في حشد خارجي؛ بينما قرفت السيّدات على كعوبهن في الوسط ملاصقات ركبهنّ بينما كانت تقرع الطّبل إحداهنّ. دُفِعْتُ إلى الوسط، وارتفعت جَلْبَة.. ووجدت نفسي مقابل سيّدة ساخطة ذات شفاه زرقاء وطريحة صفراء سألت يُمْنَة ويُسرة ما الذي جاء بالنّصرانية إلى هنا. تكلمتُ معها بطلاقة وبشكل مباشر، وبكل الأدب في مفرداتي. توازن الوضع لبضع ثوان؛ ولكن الوضع كان أكبر من أن تستطيع التّعامل معه، لأنها كانت تحاول التّكلّم بأدب معي وهي غاضبة مني،

وتنَحَّتْ مخنقة، وجلست القُرفصاء مرّة أو اثنتين، بين فضول ولُطف، وبدأت تبدو أكثر ودّاً، واستطعت تفحص غرابة التّجمّع.

لقد كانت حديقة روضة مؤنّثة داخلية متألّقة ورائعة، تحلّق فيها حشدٌ من عبادات سود. كانت الثّياب مقصّبة أو لماعة، مقسّاة بصفائح صدر مزينة بالفصّة وصفوف قلادات أساور ذراع ثقيلة، وأساور وأطواق، وستة أو سبعة حلقات في كل أذن. جاءت السيّدات للدّاخل بوشاح أصفر رُبط على رؤوسهن، ولكن تم نزعة في الحال، ثم عرضن الأعمال المتقنة من الفن - وأبدن وجوههن وأيديهن وشعرهن. ولقد وضعن ما يقارب المئة صغيرة صغيرة شدّت إلى الرّأس من فرق مستقيم أملس بلون برتقالي من الحنة؛ وكان الشّعر ملتصقاً على جبينهن في نقطة تلمع بالزيت.

كانت ذقونهن صفراء زاهية؛ وراحات أيديهن بنية اللّون ضاربة إلى الحمرة بحتّة معطرة بشكل كثيف وزيت، ورُسمت من الخارج بنماذج مزركشة بنية اللون، تشبه قفازاً. كانت حواجبهن قد رُسمت بلون بّني وزركشة بنية مجعّدة حادة خرجت من كل صدغ؛ وامتدّ خط بين أسفل الجبين والدّقن. كان البعض منهن جميلات جداً، بوجوه دقيقة وذقون طويلة وصغيرة؛ لم يكن كباقي البشر ولكنهن كن أثريات؛ ولسن نساءً عاديات بل تجسيدات غريباً للمرأة، بدائياً وثابتاً. وأكثر من ذلك عندما وقفن للرّقص، واحدة أو اثنتين في وقت واحد لم يحركن أقدامهن، ولكن ألقين رؤوسهن والقسم الأعلى من أجسادهن بتصنّع إلى الأمام، وقمن بحركات مثل دواليب في الهواء بصفائهن. وانتشرت رائحة نفاذة من أجسادهن؛ وقُرعت الطّبول، وجلجلت الأساور والأحزمة؛ وكان الحرّ لا يُحتمل. وعندما تظهر إحداهن، مثل زهرة خزامى متعدّدة الألوان، تفتتح وهي تنسلّ من شارعها المظلم بعد أن كانت مغطاة وتقف لتعرض ملابسها وحليّها المبهرجة، بلا مبالاة ولكنها كانت تصغي لهمهمة المديح المتميّز.

بالطبع كانت العروس محجوبة في غرفة علوية. تابع المزيد من الضّيوف بالتّوافد، وبدا من المستحيل للمكان المهيأ أن يستوعبهن. استمرّ الطّبل بقرع إيقاعه المثير

الرّقيق الرّتيب؛ وقامت المزيد من الرّاقصات، وركبهن غارقات في البحر الأنثوي.
وانسللتُ خارجةً بهدوءٍ قدر ما استطعت، مثقلةً بـلغزٍ قديمٍ جداً وجوهري، جذوره
العالمية المبهمة متشبّثة حتى الآن، أكثر من الجهود العابرة لذلك المخلوق التّربوي،
الإنسان.



الفصل الخامس

مغادرة إلى البرّ الداخلي

«سأصل بنفسي إلى جبل المرّ، وإلى هضبة اللبان»

(أناشيد سليمان)

ينقسم جيش سلطان المُكلّا إلى حرس خاص من العبيد يسمى التّظام، ومن العسكر الذين هم جنود نظاميّون تطوّعوا من قبائل يافع التي تنتمي إليها سلالة القعيطي عندما نزل رجال القبيلة للمرة الأولى متصرّين في السّاحل قبل بضع مئات من السّنين، يوجد ثلاثة إلى أربعة آلاف منهم متفرّقون في السّلطنة، ويُدفع لهم عشرة إلى خمسة عشر طالرّافي الشّهر (أي ما يقارب خمسة عشر إلى عشرين شلنًا)، وقد كُلفوا بتأمين طعامهم.

كانوا رجالاً حسني الهيئة، عضلاتهم قوية مثل الأفاعي، ووجوههم طويلة نحيلة، وثيابهم مختلفة الألوان ويضعون على رأسهم أيّ غطاء رأس يفضلونه، لباسهم التّظامي الأساسي عبارة عن حزام ملفوف وبندقية. وهذا ما جعلهم يقضون صباحهم بالتّدريب العسكري، ويقومون به مرتين في الأسبوع خلف معسكر البدو في الوادي، مرحين مثلهم كمثّل مسكبة نبات زينة في الصّيف. راوحت السيّقان العارية في مكانها؛ ورفرفت التّنانير القصيرة التي تشبه تنانير راقصي الباليه في تشكيلة زاهية. واستعجل أفراد الفرقة الموسيقية التي عزفت لهم طوال الطّريق من البوابة بنغمات أوروبية على ثمانيّ آلات موسيقية نحاسية، ليضعوا آلاتهم على الأرض قرب بُرك الجمال

ويشاركوا بالمرح؛ بينما قام أربعة ضباط نشيطين تدرّبوا في القوات المجنّدة في عَدَن بتوجيه العمليات، كانوا شديدي الأناقة بثيابهم العسكرية، وسوّط الرّكوب بأيديهم ويردّدون كلمات حيرتني: لِفراي «LefRy, lefRy» إلى أن اكتشفتُ معناها.

كان «النّظام» السّوديسيرون، وتسير جماعات أخرى باتجاه مضاد لاتجاههم، ولكن ليس بالاندفاع والانضباط نفسه تماماً. إنهم مُلك السّلطان الخاص، كانوا عائلات مستعبدة في أفريقيا، لكنها استقرّت من عدة أجيال في القصر الملكي، وكانوا يشكّلون منظّمة اجتماعية في القصور العربية منذ فترة ما قبل الإسلام، ولذلك عُرفوا في مكّة إيّان العصر الوثني باسم Ahabis. شكّل أفرادهم الأصغر سناً، عشرة أو اثني عشرة صبيّاً صغيراً، فيلقاً صغيراً بعلم أحمر في كل يد، وأدّوا ما يشبه رقصة المُرّيسة في إحدى الزّوايا.

تحرّكت الجمال وسائسوها المصبوغون باللّون الأزرق التّيلي ببطء عبر أرض الموكب، نحو الدّاخل والخارج في طريقهم الصّباحي باتجاه الهضاب، بين هذه المجموعات الموّارة من الألوان زاهية؛ وانتشرت الرّائحة اللاذعة للمعسكر ومياهه الملوثة في السّاعة المبكرة الرّطبة الكثيية. عدتُ إلى بوابة المدينة لأشاهد عودة الجيش إلى موطنه. وجدت هناك مدفعية السّلطان، مدفعين وأربعة سُرج جمال مبطنة لحملها، تم إخراجها إلى الهواء الطّلق. ونظفت من الغبار بمرأى من ضابط مُسنّ مهيب بعمامة صوفية خضراء، وسلسلة ساعة تزخرف مقدّماتها المستديرة جداً.

عندما انتهى تنظيف الغبار استقرّت المدفعية هنا وهناك: تظاهرت دجاجات الحامية الفضولية بأنّها تبحث على حبوب بأقرب مكان ممكن من فوهتي المدفعية اللتين كانتا تسخنان في الشّمس؛ وقادت الآلات الموسيقية النّحاسية الثّمانيّة التي تعزف بشدّة، الجند في عودتهم إلى الثّكنات عبر مدخلهم ذي الشّرفات المفرّجة، بعقصات شعورهم الملتفة وطرايشهم أو عماماتهم وبندياتهم المائلة بمتعة ظهرت لكل المهتمّين، وحتى النّاس المسالمون اندمجوا في ذلك الجو الحماسي من المفخرة العسكرية.

كان هذا صباحي الأخير في المُكَلَّا. أحضر لي في اليوم السالف رجلان بدائيان قصيرا القامة من عالم أقدم من عالمنا كمرشدين وَحَمالين. بدا كَأَنَّهُما في قفص، مثل مخلوقات يمكن أن تضرب نفسها بالأثاث كي تخرج. كان كلاهما بلون نيلي تماماً، والقطعة القصيرة حول خصريهما باللون ذاته، ومهما كان ذلك ذات مرّة فقد برزت منه قبضة خنجر معقوف قرب الزاوية اليمنى، حتى لا يضيع الوقت في سحبه. كانت بعض هذه الخناجر جميلة جداً، بقطع نقود ذهبية بندقية (فينيسية) قديمة عُزِرت عليها عند المقبض وعقيق أحمر مغروز في الفضة، والتفت عصا الغمد إلى ما يقارب ارتفاع المقبض، مع عقدة مفلطحة عند الطرف. ولكن بدا هذان الرجلان فقيرين إلى حدّ ما، على الرّغم من أن خنجريهما كانا متينين، مع سكين تامة تُبَتَّت في الخلف وإبرة ربط إلى جانبها. كان لديهما سوار ذراع على المرفق الأيمن، ووُضع عقيق أحمر في خيط من الفضة ورُبط بحبل أسود حول رقبتيهما، قالاً إنها توقف نزيف الجرح؛ ورُبط سلك مجدول من صوف داكن أسفل كل ركبة. كانت شفاههما، وكذلك وجهاهما، زرقاء بفعل التيلة، وتجوّلا حول غرفتي بأقدام حافية راقصة، وهما يحملان صناديقي بصمت ولطف ليقدرّا وزنها.

قالا إنه من الممكن أن تكون هناك حاجة لثلاثة حمير، وواحد لي لأركبه. طلبوا مني أن أخفّف صندوقاً واحداً وأقصّر لفة فراشي، ثم أمسكا الصناديق الصغيرة القصديرية التي وجدتها مريحة للسفر، وكنت قد اشتريتها من سوق عدَن وقد تم صنعها في بافاريا Bavaria، وقاما بإقحامهما في خُرج من خيش. وافقنا على بدء رحلة الأسبوع بعد ظهر الغد إلى وادي دوعن، مقابل مبلغ خمسين روبية، وخمسة إضافية لطعامهم.

وقام واحد منهما، لدى المغادرة، بقرع الأهلة الحمراء والصّفراء المنجّدة في غرفة الاستقبال، فعل ذلك بلطف بأصابع متعجّبة - كأنك تتلمس مظهراً هشاً لعالم غير مألوف.

دُعيت في الصّباح التّالي لأشكر الأمير سالم بن أحمد بن عبد الله القعيطي الذي يحكم الآن نيابة عن ابن أخيه السّلطان الذي كان وقتها في حيدر أباد. كانت رحلتي

ممكّنة في البداية من خلال رسائل السلطان، التي تمّ الحصول عليها بمكرمة من اللورد هاليفاكس Lord Halifax بواسطة سير أكبر حيدري Sir Akbar Hydari والسيد مارمادوك بيكتول Mr. Marmaduke Pickthall وجعلت ضيافة الأمير الكريمة في المُكّلا إقامتي هناك ومشروعي في الدّاخل ممكّناً وسعيداً. ولقد جاء ليزورني، فأخفي بلطفه المفاجأة التي لا بدّ أنه أحسّ بها من طريقة سفري دون خادم. وبالنسبة لعائلة القعيطي فتقريباً غلبت عليها الصّبغة الهندية Indianized بكل معنى الكلمة، وفقدت ذاك الفهم للعوز المستقلّ والذي يجد دائماً صدىً في قلب العرب، مهما كان معقداً.

يقود السّلاطين من آل القعيطي النّظام لحراس حيدر آباد، الذين تطوعوا لعدة سنين وحتى الآن يتطوّعون من حضرموت. وفي الأغلب فإنهم يقضون أوقاتهم، وزيجاتهم تعقد غالباً في الهند، وحتى الأمير سالم لم يكن مستثنى بشكله وسلوكه، يداه الصّغيرتان التّحليلتان وأصابعه الدّقيقة اللّاتي لعبت بعضاً ملتوية من العاج، وشاربه الطّويل الذي لفّت نظري حيث لم ألّفت إلى بقية تقاسيم وجهه، كل هذا كان هندياً أكثر من كونه عربياً. ولكنه كان محتفظاً بالبساطة اللطيفة لعرقه؛ أخبرني بأنّه فضّل المُكّلا عن حيدر آباد، بسبب قلّة الحياة الرّسمية هنا؛ وتكلّم بقبول عن رحلتي المستقبلية، مع علامات من الاستغراب والأسى فقط عندما اعترفْتُ بأنّي أحببت المشي لعدة ساعات كل يوم. أخبرني بأن السلطان كان قد ركب إلى وادي حضرموت لأول مرة في حياته في الخريف الماضي؛ وما زالت متاعب الرّكوب تسبّب له المرض. شرحتُ معذرة بأننا نشأنا لتحملّ الجهود المؤلمة من زمن طفولتنا.

تأمّلتني زوجة الأمير بعيون ناعمة (مخملية) ممثلة بالجمال، وكانت جميلة ممثلة الجسم ولطيفة مثل الرّغبة وخجولة جداً من أن تتكلّم كلمة بحضور زوجها؛ أعتقد أنها لم تنل تعباً جسدياً طوال فترة حياتها القصيرة. نظرنا إلى بعضنا بلطف عبر هذه الفجوة التي يستحيل التّغلّب عليها أو شرحها.

ذهبت أمتعني مسرعة في اليوم التّالي عند السّاعة الثّالثة من بعد الظّهر على ظهور ثلاثة حمير. وكان عليّ اللّحاق بها بالسيارة إلى مكان الاستراحة الأول.

وقد وفر لي شيخني المسن مؤونة في حُرِيضة:

3 لبيرات من الأرز.. 4 أنات

4 شرائح من الخبز.. 4 أنات

5 لبيرات من التمر.. 5 أنات

ليبرة ونصف من السكر.. 2 أنة

4 لبيرات من الشاي.. 8 أنات

دستتان من البيض.. 9 أنات

دستتان من الموز.. 8 أنات

18 ليمون حامض.. 4 أنات

4 طيور حية.. 24 أنة

بلغ الإجمالي ثلاث روبيات ونصف، وأضاف إليها عاوز قدراً للطبخ وإبريق شاي. كان ينبغي أن تبقى هذه الأشياء معي لمدة أسبوع، إلى أن أصل دوعن.

جاء عدة أشخاص لوداعي. وقف الأمير على سطح الدّرجات وأعطاني يده تحت شال قطني وليس بالضرورة بسبب عدم رغبة خاصة لكوني امرأة، ولكن ربما لأنّه قد توجّه لتوّه لصلاة العصر، ومصافحة عرضية يمكن أن تجعله يعيد الضوء مرة أخرى.

تركته وتركت بيت الضّيوف الأبيض عند الجدار بمشاعر الامتنان، وفكرت بأني إذا كنت سأقوم بشهر غسل، فمن دواعي سروري أن أقضيه على شواطئ المكّلا المتعرّجة، حيث ينذر الإحساس بدوران العالم، مع قارب خشبي يحمّلي طوال اليوم مع أيّ كان في الخارج بين الدّلافين وطيور الثورس.

* * *

الفصل السادس

مَنْسَبِ ثَلَاثَةِ

طريق عام وطريق، ليس من الصعب عبورهما؛
لا يخطئ فيهما المسافر المغرم بالمشير.

(دبليو. پ. كِر)

تأثرت حكومة المُكَلَّا برغبتي بالسفر دون خادم أو مرافق. وكان السبب الذي قدَّمته، بأنَّ الأمن والسَّعادة مع البدو تعتمد على كونك وحيداً معهم، ولست مُداناً بشيء. كنت المرأة الأوروبية الثالثة التي تزور داخل البلاد، والأولى التي تذهب هناك لوحدها - أيَّ اختلاف كان ممكناً لا بل وحتى محتملاً، لكن كان من الصعب التَّعامل مع تلك الاختلافات لعدم حدوثها قبل ذلك. ولم يكن عليّ أن أمتلك طريقتي في مسألة المُرافق، فقد سلَّموني لجندي عبد نظامي أسود، حمَّله مسؤولية حياتي، وأن يوفِّر لي راحة وسلامة تامتين.

كان الرَّجل مثلي متردداً تجاه تلك المهمة ومضطرباً، ولكنه كان أكثر عناية بالتفاصيل. كانت عيناه صغيرتين، مسطحتين وحمراوين عند طرفيهما، وله عظام خدَّ عالية في وجه مسطح. ظهر في لحظة المغادرة، مرتدياً فوطة قطنية أرجوانية اللون، وصدرة وعمامة حمراء اعتاد أن يبدلها في مناسبات رسمية بقبعة بيضاء مُحَاكَة من نوع يستخدم لرياضات الشَّتاء.

كان حزام الخرطوش هو الشيء العسكري الوحيد لديه، الذي عُلق وهو ممتلئ تماماً، ومنحَلَّ عند وركه. استقرَّ هو وبندقيته على مسند السيارة التي كنت فيها سلفاً أنا وعلي حكيم وصديقان آخران أتيا لأطول من أبعد مسافة في الطريق. كان ذلك على بعد عشرة أميال أو أكثر، في قرية ثَلَّة، إلى الخلف من جبل المُكَلَّا، وتلَوَّينا حول منحنيات حُتت بفعل الرياح، شمالاً ومن ثم شرقاً بين وديان منعزلة، يذهب سكانها في الصيف ليجلسوا في مساحات صغيرة من أشجار النَّخيل المطوَّقة بالصَّخور.

اجتزنا أسفل حديقة السُّلطان، بعيداً نحو اليسار، وقطعنا حصنين بلون التراب يسيطران على الطريق، والحرشيات، وهي خيط أخضر في وهدة - وحصون أخرى، قلاع مربعة «بقايا»، قال علي حكيم «إنها من أيام الخوف»، ولكنها لا تزال تستخدم من قبل العسكر. كان المنظر الطَّبيعي كله عبارة عن حجارة مع شجر سَمُر نما في شقوقها. وفي حال نظر أحدنا عن قرب، فستظهر له براعم أوراق خضراء خلف غشاوة من أشواك تحاول غصونها عبثاً حماية نفسها ضد شفاه الجمل التي تلتهمها؛ ويشاهد بصعوبة على بعد مسافة هياكل أشجار رمادية؛ وإذا نظر الإنسان إلى الأفق تمكن من مشاهدتها على الهضاب فقط، حيث تقف أشكالها الصَّلبة جاهزة لأن تصبح فوراً خضراء بعد المطر.

عبرنا في الجهة اليسرى طريقاً يؤدي إلى دَوَعَن قافلة من الجمال المحمَّلة بالقصب من تلك المدينة؛ ثم التففنا حول كتلة الجبل، وأتينا إلى منظر طبيعي متموِّج منخفض للشَّحر، غادرنا طريق الشَّحر وعلامات الدَّواليب، ووصلنا سلسلة جبال منخفضة تطل منها منازل ثَلَّة الطَّينية على بحيرتها من شجر النَّخيل.

انتصبت منازل ثَلَّة الثلاثة الجيدة معاً أعلى من بقية القرية في موقع استراتيجي، وهي تعود إلى المَنَسَب وعائلته. لم تكن الجدران مطلَّية باللون الأبيض مثل بيوت المُكَلَّا الغنية، ولكنها بُنيت من الطَّين وثُبَّت بمتانة على علو خمسة طوابق.

وقفتُ على سطح أقرب البيوت امرأة وراقبت مجيئنا؛ كان ذراعاها ووجهها سوداً مثل عباؤها، وتتمتع بوقار بيزنطي في الخطوط الضَّيقة التي لَمَّتْها. لاحظتُ كم أضيف

لجمال صورتها بسواد الوجه والذراعين، كما لو أنه تمثال منحوت بشكل كامل من قطعة أبنوس واحدة، كل واحد لا يتجزأ في جماله، بدلاً من الظهور، كما يفعل غالبيتنا، بقطع هنا وهناك من خلال أغطيتنا. ما الذي يمكن أن يكون أقل تناسقاً من نصف ساق تظهر في لون متباين تحت تنورة حديثة الطراز؟ - أو ذراع ثوب، قام الخياطون بقطعه من الكتف، وتركه ليتدلّى وكأنه موضوع مستقل خارج التصميم العام لإبداعاتهم؟ لم يكن لدى تلك المرأة مثل هذا التنافر.. لقد كانت كلاً واحداً، ووقفت مقابل السماء مثل عذراء تورجيلو Torcello مقابل الفسيفساء الذهبية لقبّتها.. إلى أن شاهدتنا وصرخت، مصفقة بذراعيها السوداوتين بطريقة متهتكة، غير لائقة بفسيفساء بيزنطية.

يعتبر منسب ثلّة، الشيخ محمّد بن أحمد باعمر، واحداً من أكثر الناس الموقرين في حضرموت، وكلمته مطاعة بين قبائل منطقته وأبعد. وهو من أحفاد الشيخ سعيد بن عيسى العمودي المدفون في قيدون بين الهجرين وصيف، وتعتبر الزيارة إلى قبره الاحتفال الديني في أربعة أيام من رجب أحد أهم الأحداث في المدينة. كاد هذا الاحتفال الديني أن يتسبب بمقتل فون فريده⁽¹⁾ Von Wrede، الرّحالة الأوروبي الأول في حضرموت؛ فقد بلغ قيدون في اللحظة الخطرة، حيث اشتبه به على الرغم من تنكره، وكان من الممكن أن يُقتل من قبل بدوي نائر، لولم يقوم أحد رؤساء القوم المهمّين بالتوسط وإرساله آمناً إلى الساحل ولكن لا يملك فلساً.

عندما أرسلنا إشعاراً بوصولنا كانت سلالة هذه الولي المشهور، المنسب Mansab الحالي، أي الزعيم الديني للعشيرة، في بستان نخيل في الأسفل. جاء رجل مسنّ ليحيّينا ذو وجه طويل حسّاس قد زادت من وقاره التجارب والسلطة، كان ذا فم كبير لطيف توارثت شكله جميع العائلة. انضم إليه ابنه، ثم صهره مجعّد اللّحية، لابساً مئزراً وقلادة من العقيق الأحمر، متباينة مع ثياب السادة الأشراف الطويلة. انتقلنا

(1) البارون أدولف غوستاف فون ريده (1807-1863) رّحالة ومستكشف ألماني شهير، كان أول رّحالة أوروبي يجول في حضرموت حيث كاد يلاقي حتفه عند قبر هود، وكان في عام 1943 قد أبحر من عدن إلى المُكلا وسار براً في البرّ الداخلي لحضرموت. حصلت على كتابه: *Reise in Hadhramaut* المنشور في براونشفايغ عام 1870.

جميعنا إلى المنزل، عبر درجات طينية أصبحت ناعمة ولا معة من كثرة الاستعمال، وجلسنا في غرفة مفروشة بالحصير، بينما شرع بمهمة تسليمي علي حكيم من فوق قرقرات نرجيلتين خشنتي الصنع. لم يستغرق العمل وقتاً طويلاً فقد قارب العصر على الغروب، وكان علي أصدقائي أن يعودوا.

وصل البدو في الأسفل عند مأوى جدار المنزل واستقروا لمبيت الليلة. قال علي حكيم وداعاً، كانت عيناه ذواتا الأطراف البيضاء مليئتين بالقلق، وأملى علينا شلاً من النصائح بصوته الأجش وتوكيداً واعتذاراً. قام بكل ما يمكن أن يمليه اللطف عليه.. وحزم قامته داخل السيارة، التي بدت نوعاً ما أنها موضوع منفصل عنه وضخمة إلى حد ما بالنسبة لإدارته. أما الاثنان الآخران فقد ركبا إلى جنبه، صافح السائق الأفغاني بالأيدي كصديق وباشر القيادة.. واختفوا في المشهد الصخري، وعدت إلى مضيفي الذين قبلوا بحضوري غير المتوقع بالمجاملة الطبيعية المقصورة على العرب كريمي الأصل.



كان ذلك دخولي الأول في بيوت حضرموت هذه التي بدت أنها تتداعى، وتعوزها الفخامة ولكن لم تتغير بشكل أساسي، من أيام السبئين القدامى. نُقِبَ عن تصميمات صغيرة من هذه البيوت، وطرأ عليها بعض التغيرات.

يصفها الشاعر علقمة⁽¹⁾ في الأيام الأولى من الإسلام حيث كانت لا تزال عظمة آثارهم على قمم نلال اليمن تملأ خيال الناس:

من بعد غمدانَ المنيفِ وأهله وهو الشفاء لقلب مَنْ يتفكرُ

(1) هذا غلط فادح، فالأبيات المشهورة لعلامة اليمن في القرن الرابع الهجري أبي محمد الحسن ابن أحمد المعروف بابن الفقيه الهمداني، وهي ترد في كتابه الجليل «الإكليل» الذي لم يصلنا منه مع الأسف سوى أربعة أجزاء من أصل عشرة، هي: 10، 8، 2، 1، وبضياح أكثره فقدنا جزءاً مهماً من تاريخنا وتراثنا في اليمن العزيز على قلب كل عربي. وله كتاب آخر مشتهر ومنشور مراراً هو «صفة جزيرة العرب».

يَسْمُو إِلَى كَبِدِ السَّمَاءِ مُصْعَدًا عَشْرِينَ سَفَفًا سُمْكُهَا لَا يَقْصُرُ
وَمِنَ السَّحَابِ مُعْصَبٌ بِعِمَامَةٍ وَمِنَ الرِّخَامِ مُنْطَقٌ وَمَوْزَرُ
مَتَلَابِكًا بِالْقَطْرِ مِنْهُ صَخْرُهُ وَالْجَزْعُ بَيْنَ صُروِحِهِ وَالْمَرْمَرُ
وَبِكَلٍّ رُكْنٍ رَأْسُ نَسْرِ طَائِرٍ أَوْ رَأْسٍ لَيْثٍ مِنْ نُحَاسٍ يَزَارُ
مُنْضَمَّنًا فِي صَدْرِهِ قَطَارَةٌ لِحَسَابِ أَجْزَاءِ النَّهَارِ تُقَطَّرُ

مهما يكن مدخل الحكام القدماء، فهو مستحيل للمسافر الحديث بغير مُرشد؛ وبالنسبة للطابق الأسفل للبيت فهو غير مزود بنوافذ للحماية. وغالباً ما يمتلئ بالماعز والحمير، ويتفرّع في منعطفات وسلاالم مُربكة كمتاهة، إلى أن يبلغ المرء الأقسام العلوية عبر ممرّات ملتوية وزوايا مفاجئة لشقق متنوعة، زوّدت كل واحدة منها بتنظيمات صحيّة خاصّة بها، تصرّف المياه عن طريق أنبوب واسع إلى أي شارع أو مكان طلق يقع في الأسفل. تبقى جميع هذه الشقق مقفلة بمفاتيح خشبية، علّقت في أحزمة ربّات المنزل وعُملت من أوتاد تمر عبرها قضبان صغيرة متسلسلة متطابقة غير محكمة من خشب ضغطت في تجاويف داخل قفل منقوش بإتقان؛ ويحتاج حتى الخبير عادة ليتصارع مع بابه الأمامي؛ وليمرّ عبر شقق متعدّدة لزوجات وأرامل وبنات وحموات حُسن بين جدران بيوت حضرموت، وتعتبر هذه مهمة لا يمكن مباشرتها بسهولة.

لا تزال الأسوار البرونزية ورؤوس النّسور الطّائرة التي يذكرها الشعراء في زوايا القصور القديمة، موجودة على شكل قرون وعل، تُبَتّ كل اثنين معاً أسفل الدّرابزين الأعلى، ولقد شاهدها للمرة الأولى في ثلّة.

كان البيت هنا مكاناً قديماً وضيعاً، يستضيف البدو الذين يأتون عند قائد هم الرّوحي للمساعدة أو المشورة؛ كان كل شيء بالياً وفي استخدام متواصل. أعطيت الغرفة العليا لي، بحصير من التّبات على الأرض وعدّة نوافذ منحوتة؛ وكان المَنسب وابناه، وحفيده الصّغير تتمتع وجوههم جميعاً بنفس التّعابير السّاحرة من اللّطف، جلسوا وتكلّموا وهم يشربون القهوة الممزوجة بالزّنجبيل في أوانٍ من الصّلصال.

جاء الصّهر أنيق الملبس يتمشى في الحال متميلاً. التف قماش أحمر وأصفر حول ردفه، وألقي قماش أحمر وأسود مثل رداء بلا مبالاة على ذراع وكتف عار. كانت لحيته المجعّدة وشعره يلمعان بالزّيت. وربما في الواقع، كان رومانياً قديماً، غليظ الرّقبة وقصيرها وشهوانياً. جلس قرب الآخرين، متصالب الرّجلين، تلعب إحدى يديه بخنجر فضي يلمع في ثنايا ثوبه الأحمر والأصفر؛ كان قد اعتاد أن يجلس ويكون محترماً، وكان من المسلّي مشاهدته إلى جانب نقاء وتهذيب أقاربه غير المقصود، الذين لم تنقص ثيابهم الرّثة من تأثير وجوههم الهادئ الذي حمل آثار عدة أجيال من السّلطة والتّعلّم.

مرّ كل من السّيد والسّيدة إنغرامز⁽¹⁾ Ingrams، الذين اكتشفا وادي حضر موت حتى مخرجه في سيحوت قبل عدة أشهر عبر ثلّة ولكنهما لم يتوقفا؛ وعلى الرّغم من أن الأخبار حولهما قد جعلت عقول الرّجال تعتاد على حقيقة أنّ المرأة الأوروبية يمكنها السّفر في هذا المكان، فقد كنتُ الأولى حقاً التي شاهدها عائلة المنسّب.

حاولتُ أن أفسّر أن وجودي هو بسبب اهتمامي بالتّاريخ، ووجدت - كما كان عليّ أن أفعل بشكل متكرّر خلال الأسابيع الستة التّالية - بأنّ الفضول حول السّبئين القدامى يعتبر نوعاً من العبث الأوروبي، وهو اضطراب فكري ولا يتلقّى تأييداً محدّداً؛ ودخل الجميع بحماس في أحاسيسي تجاه تعاليم الإسلام في القرون الوسطى القديمة، واعتبروها سبباً معقولاً للرّحلة.

تركوني في الحال، وجاءت سيدات المنزل يمشين خلف ابنة المنسّب. كان لها هي أيضاً فم مثل عائلتها كبير ورقيق، بوجه طويل ساحر، شاحب إلى حدّ ما.. كانت عيناها جميلتين، وديعتين ومثيرتين. حلّ الانسجام بيننا بسرعة منذ منحني الله تعالى متكرّماً بهجة حقيقية في الملابس - وهو استعداد في عدة تجارب من الحياة، ولكنها هبة خاصة في السّفر، فهي تزود الشّخص بمادة حوار لا ينتهي الاهتمام الدّنيوي بها.

(1) هما هارولد ودورين إنغرامز اللذان تقدّم ذكرهما أعلاه في آخر مقدّمة المؤلّفة عن طريق البخور.

كانت الغرفة قد انتشرت فوراً بأقمشة حرير مزهّرة، وكلها للأسف حرير صناعي من عَدَن.. وبينما كنت أتعلّم الفرق بين «العباءة» الهندية المنخفضة خصر والقرطي Kurti العربي جاء المُنسب بذاته، يحمل مصباحاً ليشرّف على تقديم طعام عشائي لي، وفوجئ عندما وَجَدنا قد اكتسبنا بالحلي التافهة، فانصرف مبتسماً.

بيّنت لي السيدات تسريحات شعرهن المختلفة. فَيُعَدّ الفرق في الوسط دون جدائل نموذجاً هندياً، يكثر استخدامه على السّاحل أو لدى نساء شرق الهند اللاتي تزوجن من حضارمة خارج حدود البلاد. وتوضع صفائر صغيرة مستقيمة على الجبهة في المُكَلّا، بينما تنحدر ضفيرة شعر بين الحواجب تخرج من نقطة من الدّاخل. يستغرق عمل عدد لا يحصى من الضّفائر نهاراً كاملاً من الصّباح إلى ما بعد الظّهر، وتبقى لمدة عشرة أيام فقط من يوم صنعها.

دخلت امرأة في الحال وجلست قربنا، كان وجهها مخططاً بشكل بشع بصباغ بني يسمونه hudar امتدّ في ثلاث خطوط عريضة، واحد فوق العينين، وواحد عبر الأنف والخدود وواحد أسفل الفم والفك، وأخبرتني بأنه يصنع يومياً لمدة أربعين يوماً بعد الولادة، ويغسل كل مساء. كانت هذه المرأة عبدة. جلس ابنها، وهو صبي في حدود العاشرة من العمر، على الحافة الخارجية للحفلة. وُصِّدَم الجميع فجأةً بهمة كلمة ندّت: «بخشيش».

لم أقل أيّ شيء، ولكن ظهرتُ شاحبة ومصدومة.. أما بقية الجمع فقد رُوّعوا بعد سماع الكلمات.

وأخيراً قالت ابنة المُنسب: «من أين تعلّمت أن تقول مثل هذه الأشياء للضيّف؟ لا بدّ أنك مجنون!».

وسُرّعان ما أنهك الصّبي الصّغير لتوّه تحت ثقل الاستهجان الجماعي.

تمتم: «نصاري، كلهم يعطون بخشيش، النّصاري الذين أتوا من قبل أعطوا بخشيشاً للجميع».

أعتقد أن عادة تبديد النقود هذه هي واحدة من الأشياء السيئة التي يميل الرّحالة الأوروبيون لفعلها.. ويهينون بها أفضل الناس ويفسدون البقية.

اقترحت: «ربما أعطوا بخشيشاً في طريقهم للفقراء، ولكن يمكن أن لا يفعلوا هذا كضيق في منزل».

قالت ابنة المنسب: «إياك أن أسمع هذه الكلمات مرة أخرى»، في حين أظهر صمت فوري لعشرة نساء أو أكثر فداحة جريمته. اختفى في الظلام الخارجي. عادت حلقتنا لتألفها، وتابعت الحديث حول هذا وذاك، إلى أن دخل جنديّ ومعه فانوس ووضع سريري النّقال في زاوية من الغرفة.

أخذ مسؤولياته بجديّة وفكر بالنّوم أسفل السرير لحمايتي. ولكنني كنت حازمة وكانت السيدات إلى جانبي. احتشدن خلفه، وتركوني مع حفيد المنسب الصغير وفتاة بدوية يتيمة فقط، التي بقيت مفتونة على أمل رؤيتي وأنا أدخل السرير. كانت الفتاة الصغيرة تبتسم مبتهجة إلى أن أخبرني الصّبي بأنها كانت يتيمة.

قال بصوت فيه شفقة واحتقار: «مسكينة، شيء مؤسف. فهي لا تملك شيئاً»، وشرح بلطف توازن الشّفقة والاحتقار في الموقف تجاه الفقر في الشرق. تجّهم وجه الطفلة في تعبير عن حزن.

سألت: «هل هي عبدة؟».

قال أحمد: «لا، فقط يتيمة»، وظهر أنه يفكر بأن هذا أسوأ، ولا شك أنه كذلك. قال معلقاً: «يمكن شراء العبيد من شِbam، ويكلف الصّغير منهم خمس مئة طالر» (37 جنيهاً).

أشرت بأنني أرغب الآن في النّوم، فذهبا، وتركاني وحيدة في الغرفة مع فآرة. خرجتُ إلى الشّرفة ونظرت إلى بيوت ثلّة في الأسفل وأعالي شجر التّخيل البيضاء في ضوء قمر ضبابي. كان المنسب هو الوحيد الذي يملك بيوتاً سُمحَ بينائها على القمة، وأخبرني ابنه «وسبب ذلك أنّه لا يمكن لأحد أن يصوّب على نوافذنا». ولكن

لا يوجد تصويب الآن: سلام الليل الغائم فقط، وهمهمة الأصوات فوق غلايينهم على ترّاس أخفض. كان الجو لطيفاً 79 فهر نهايت. وأظهر توهّج خافت حول زاوية الجدار أين خمدت نار البدو.

كانت الواحة في الأسفل قد حُجزت في قاع الوادي مثل صورة في إطار؛ وهجع خلفها - إطار أكبر - لسكون ممتد. كم هو قليل عدد الأوروبيين منا الذي يعرف سكوناً في الليل.. حتى ولو نمنا لوحدنا في مرعى في جبال الألب سيواسينا صوت خرير الجداول. ولكن لا يوجد شيء هنا بين قرية وأخرى، سوى صوت الرّيح عندما تهب، وصمت الليلة الهادئة التي لا صوت ماء فيها ساكن جداً، حتى أنك تتوهم أنك تسمع في هدوءه القاحل صوت احتكاك الصّحراء تحت الأشواك المنخفضة.



الفصل السابع

الطريق إلى الجول

«حريٌّ بالرحالة أن يعود نفسه على طريقة حياة سكان البلاد الأصليين، فهذا أمر ضروري ومفيد إن هو رغب بالسفر بمتعة في جزيرة العرب».

(نيبور: رحلة في جزيرة العرب)

أيقظني في الصباح التالي صوت قوي وجميل جاء من أسفل نافذتي يدعو للصلاة الأولى. وجاء الجندي في غصون ذلك ليحزم السرير، وظهر المنسب بنفسه ليوذعنا. لم يبدُ أن هناك من سيغادر، لذا تركتُ في يديه مرآة صغيرة كهديّة لابنته، وقبلها متفاجئاً ورضي بسرور لأجل ابنته ولكن على مضض لأنه لم يتوقع شيئاً كهذا. استغرق في النظر إلى الصندوق الحريري الأحمر وشرابته بفضول، وبدا بأنه لا يزال يملك مشاعر لطيفة نحو حلي الأشخاص الآخرين التافهة؛ ولقد كان حقاً من أكثر الناس سحراً وإنسانية بين الزهاد. ولكن لم يكن عقله من ذاك النوع الدنيوي الذي يطيل التفكير في قضية الإفطار، وعندما سرنا في نسيم الصباح العليل كنت سعيدة باقتطاع مقدار وافر من خبز المُكَلّا.

كانت الساعة السادسة وكان البدو قد بدؤوا لتوهم بإسراج الخيل، وقد تركناهم ومشينا أسفل طريق جُرْفِي قصير إلى مكان حيث تبدأ حدائق ثُلّة وتزدهر في نبع من مياه دافئة تسقي الوادي بأكمله.

كان الصّهر في ذلك الحين هنا، يغسل جذعه المزخرف، والذي لربما يعود الى أحد الآلهة الوثنية. تجعل رؤيته المرء يتعاطف مع الزّوجة المخلصة، التي تجاوزت متحف الثايتيكان Vatican، قالت: «إنهم يتحدثون كثيراً عن هرقل Hercules وباخوس و Bacchus، ولكن أعطوني Jones». ربما كان هذا لأنه هو نفسه كان سعيداً جداً بمظهره، وكانت عدم رغبتنا بإضاعة إعجابنا على أولئك الذي تزودوا بتلك السلعة بجهودهم الخاصّة هو جزء من قسوتنا، أو ربما هو حاسة فطرية للاقتصاد لدينا.

استأذنتُ هنا بالانصراف، من الولي العجوز السّاحر ولحقت بالجندي بين حقول زراعية رطبة، بشكل مستقيم عبر الوادي وفوق الجرف المقابل لأراض واسعة، تنحدر انحداراً غير ملحوظ نحو الشّمال، على طول امتداد رحلتنا. وفي الواقع هي وديان واسعة جداً ومنخفضة حيث أن حدودها لم تكن محسوسة عندما انحرفت داخل السّهل السّاحلي. ولكن أنارها ضوء النّهار الباكر بسحر شاحب معيّن، وقام شجر السّمّر الرّمادي برشاقة هنا وهناك، وظهرت قافلنا المجدّة بعد مسيرة ساعة خلفنا، فقعدنا ننتظرها عند قبة السّقاية البيضاء الصّغيرة أو خزّان ماء يُملأ كل يوم للمسافرين العطشى هبةً من بعض المحسنين.

كنت حتى الآن قد قابلت ثلاثة فقط من البدو التّابعين لي: سعيد وسالم ابن أخيه، ومحمّد شقيق سالم ذا العشرة أعوام، وهو صبي صغير نحيل بشعر يشبه أذنان الجرذان وابتسامة جاهزة دائماً في وجهه الصّغير الشّبيه بالضّفدع. كانوا جميعهم بدواً من قبيلة المرشدي، تقع بيوتهم وأراضيهم الرّعوية حول كور سييان في أعلى قمة في حُضر موت. كان سعيد رجلاً مرحاً ودوداً ذا لحية صغيرة، له شفاه ممتلئة وأنف مستقيم ووجهة منخفضة، متجعّدة بخطوط أفقية، ربطت عقصات شعره الصّوفية من الجبهة إلى الخلف بطريقة البنات مع شريط ممزّق عريض حول رأسه. كان نشيطاً وحكيماً، مثل بعض آلهة قليلة الأهمية عند الرّومان وليس من الزّمن الأفضل، ولكن يوحى بالزّمن الباروكي.

كان له طريقة مرضية في الكلام حين يميل برأسه إلى جانب واحد، وله عينا كلب كبيرتان، ودودتان جداً وبّيتان في وجهه النّيلي. وعندما يقوم بشرح أيّ شيء يمد يديه

كليهما، ويديرهما إلى الخارج قدر المستطاع، بكل كفيه وأصابعه وإبهاميه. وكان لابن أخيه سالم أجفان سميكة، تشبه أجفان قطرة عندما تتظاهر بالتعاس، وشفة عليا ممتلئة ومبوزة؛ كان فتياً ولديّ انطباع أنه يصعب التعامل معه، ولكنه في الواقع أظهر قمة التفاني الشهم، ولم يدع حماري يغيب عن نظره أبداً، يوقفه عشرين مرّة في الساعة لو أردت أخذ لقطات فوتوغرافية، ويندفع هنا وهناك ليقطف كل ما يمكن لعيني أن تقعا عليه من زهر الصحراء، حتى قبل أن أتكلم بطلب ذلك.

كان هؤلاء الثلاثة مع السلطان في الخريف الماضي. لقد كانوا معروفين في المكلّا وكانوا هم كل المجموعة، عدا اثنين آخرين - غلام سكوت يدعى أحمد باقرط والثاني سعيد، ابن عمه، أضافا نفسيهما للمجموعة. وظهر سعيد الآن بحزام خراطيش وبنديقة فرنسية، أضيف إلى طرفها الغليظ قطعة مستديرة من خشب عُطي بجلد غزال، كما هي طريقة حضرموت في كل أسلحتهم. عند النظر إليه تراه شاباً عابساً، بوجه طويل نحيل وخصلة شعر سوداء أسفل الذقن مثل تمثال صغير من قبر مصري، ولُفّت خرقه نيلية اللون بين تموجات شعره اللولبية. ضُربت العقصات مع سوار ذراع فضي بشكل أفعواني، ووُضع خاتمان من الفضة في إصبعه الصغير، ممّا أعطاه مظهراً أنيقاً، وكان لديه، بالفعل، شيء من التزعة البايرونية Byronic إذ يمكن أن يتجول وحده على الصّخور بعيداً عن الطريق المألوف للقافلة، أو أن يُخرج فجأة مزماراً من مئزره ويمشي أمامنا وهو يعزف ألحاناً بدوية رتيبة. اختفى عبوسه مع نهاية اليوم، بما يتعلّق الأمر بي، عندما شاركتُ بالقهوة البدوية، واكتشفتُ لاحقاً أنه لم يكن هناك شيء أكثر إزعاجاً من أن تقوم بحماية النصارى «الذين كانوا مغرورين جداً لدرجة أنهم لم يأكلوا معنا»، هذا لأنهم كانوا من قبل مع أوروبيين، وبدأ أن أكلهم وحدهم قد حرّك الضّغينة في صدرهم.

قام هؤلاء الأربعة الآن بتجاوزنا مع ستة حمير مهرولة، محجوبة تقريباً، تحت تلال من أمتعة، كانت بدورها مغطاة بغطاء مزدوج من خيش وذباب. التصق الذّباب مثل غبار أسود على كل جزء لم يكن مرتفعاً بشكل كبير، ولم نتخلّص منه إلّا في اليوم الثاني من رحلتنا، عندما أصبح هواء التّجدد أكثر برودة.

كنا نرتفع الآن تدريجياً باتجاه مجمع الأمطار، تلك الأرض الصخرية التابعة للجول التي تستغرق الرحلة إليها عدة أيام بين الصحراء الحقيقية والبحر. ورتابتها الممتدة هي فقط بداية رتبة أعظم في نجد جزيرة العرب، الذي ينحدر إلى الأسفل من بترا إلى عُمان. وهذا الجول الخارجي صدعٌ وثلم يشبه قاع الطين الجاف لبركة في الصيف، وهذه الشقوق هي وديان، وأحياناً منازل المدن القديمة أو أحياناً ليست إلا بيوت أشجار وطيور في قفرها وضيقها إلى جانب جداول الصيف النشطة. وما يزال الجول منذ الأزل ملعباً للريح والشمس والبدو الأحرار في تنقلهم، معروفاً قليلاً ومحبوباً قليلاً من قبل أهل المدن الداخلية، الذين يعبرونه لأنه يجب عليهم قطعه محتجزين فيه كما هو حالهم في رحلة لمدة ستة أو سبعة أيام عند قدومهم من البحر. وبدأنا الآن نرى في البعيد موجاتٍ مستوية ونجوداً من حجر كلسي في الشمس، هي الخطوات الأولى، ولكنها - قال سعيد - ليست الجول الحقيقي، ولذلك لم نستطع الوصول حتى المساء من اليوم التالي، وعند رأس وادي حِمم الذي كنا سنتبعه.

أسرعنا إلى الأمام بابتهاج، وكانت جوانب الوادي البعيدة الضحلة تنحسر تدريجياً معاً لتشكل وادياً يمكن تمييزه. وهناك نوعية مبهجة في صوت ناعم رشيق لقوائم حمار يهرول على أرض قاسية. وقد كان من السارّ أيضاً، الجلوس على ظهر حمار، إذا كنت تجيد ذلك، دون تصلب، وتقابل نخعات وصدمات رقيقك بمزاج مرن ومقدرة على التوازن؛ في الواقع كما يركب الإنسان عبر الحياة بعيون رصينة عند الحوادث وميل للمتعة في الوقت ذاته. كان حماري يدعى «سويدي»، وهو حيوان صغير قوي البنية بأذنين مكسوتين بالشعر ورقبة ثخينة ورمادية مثل سماء مرقطة.

وعندما سألت عن اسمه، أخبروني بأنه ليس لديه اسم، هو مجرد حمار "himar". قلت: «لا يمكن، يجب أن يكون له اسم، وإلا كيف يمكن مناداته من بين الحمير الأخرى؟» وقام عندئذٍ محمّد الصغير الذي كان يقفز مع عصا بجانبه بالابتسام لي وأخبرني الاسم، وقد بدا أنّ والديه اعتقداً أنه تحت ملاحظتي.

تبعنا طريقاً مستوياً تقريباً إلى لصب Lasb، التي تبعد ساعتين عن ثلة. يوجد هنا

بضعة بيوت طينية وبيت مطلي باللون الأبيض، وينحدر الطريق من السقاية Siqaya إلى قاع الوادي، حيث تبدو برك ونخلات مقابل جدار الجرف كما لو أنها نُظمت من قبل مصمّم حدائق لتعطي تأثيراً جميلاً. وكان هناك رقع خضار رطبة، وخصوصاً نبتة زهر اللبلاب منخفضة النمو التي يدعونها بطاطا - وسمك صغير وضفادع في البرك، مع يعاسيب حمراء فوقها. وبدأنا هنا في الواقع نتبع قاع الوادي الجلمودي الأبيض، نصادف بركاً متفرقة حيث نما شجر السمر طويلاً وشكّلت أشجار nathb أجسام جميلة من عشب مع أوراق طويلة، ونمى شجر العُشر في أماكن مكشوفة - وغطيت أوراق شاحبة، كبيرة وبيضوية بزغب ضارب للبياض، وحملت في الأعلى زهرات بنفسجية صغيرة، يسكنها الجنّ، كما يقول المسلمون.

نمت النباتات في أجسام قرب الماء، وتنوّعت عندما أصبحنا محاطين بجدران الجرف، ولا تزال مع ذلك بعض نباتات الأرض المكشوفة باقية، مثل الحرمل السام بزهرته البيضاء، الضّارة للإنسان والحيوان، قد انتشرت في كل مكان لما يقارب ارتفاع قدمين. ونمت هنا أيضاً شجيرة تشبه الدّفلى بأزهار مخملية أكبر، galaigula صفراء، من فصيلة الأقاقيا ولكن منخفضة النمو، والتي تؤدّي - كما قال سالم - إلى فقدان عقلك فيما لو قمت بغليها وشربها. تدلّت المجموعات الخضراء بشكل رومانسي فوق الأحواض في المدخل الأبيض. وقد احتجّزنا الآن بين جانبي جرف مرتفع جداً، لدرجة أنني ميّزت بصعوبة الحمامات البرية التي رفرت في نور الشّمس بأعلاه.

تشكّلت دعائم سميكة وواجهات أسطح صخرية بشكل جزئي بفعل الرياح ثم ذهبّت، وظهرت هذه الجروف من حجر كلسي كأنّ أيادي عملاقة قد صنعتها من حجر كلسي فوق أساسات من حجر رملي. ظهرت هياكل أجسام مقابل خط أفقها الصّخري؛ حيث يمكن للشّخص تخيل سطحها الأخضر الباهت في موسم الأمطار. يطوف هناك في الأعلى نسيم الصّباح وضوء الشّمس، ولكننا مشينا في هواء ساكن، يسخن ببطء، ووجدت الحمير التي تحرك آذانها ورؤوسها متدلية، أماكن لحوافرها بين الجوانب البيضاء المستديرة للأحجار.

سحب سعيد الثاني مضروفه madruf، وعزف بمزماره القصبى، ورقص من جلمود إلى جلمود بأقدام حافية. وسحب الثلاثة الآخرون سكاكينهم فجأة باندفاع جماعي. ظننت أن ذلك كان لنخس مؤخرة الحمير الرمادية، التي تظهر تحت الأمتعة مباشرة، ولكنهم أرادوا الرقص على أنغام العازف ليس إلا، بخطوات قصيرة خفيفة، ظهر المكان المنحني من السكاكين من تحت أيديهم، قليلاً فوق مستوى أعينهم. بدّوا سعداء، على عكس أعضاء عدّان الذين وُصفوا لي كـ «حكومة نظامية ومحافظة» كما يمكن للشخص أن يتخيل تماماً.

وصلنا عند الساعة التاسعة إلى جزء متدلٍ لصخرة، نوع من كهف مكشوف، مع ماء يتقاطر لا بدّ أنه جعله مكان استراحة لعدة قرون قبلنا. مكثنا هنا في ساعات النهار الحارّة. هيّا جنديتنا سريراً لي بكل شيء ناعم استطاعت يده أن تصل إليه، بينما تفرّق البدو إلى أعمالهم، وجمعوا حطب الوقود، وسخّنوا قهوة قبل أعمال الغذاء الجادة التي كان من المفروض أن تبدأ.

جاء الغذاء متأخراً وطبخ سعيد في قدري الجديد، وذلك بمقدار من أرز ومسحوق فلفل أحمر يسباس (bisbas). وعندما نضج تقريباً فتّت سعيد فيه قليلاً من سمك القرش المتعفن جعل كل القافلة في حضر موت تشم رائحة كما لو أن هناك بينهم شيء ميت، من فترة ليست بالقريبة جداً.

وأضاف زيتاً مستخرجاً من مرتشح جلد ماعز، حرّكه بقطعة من عصا التقطها من الأرض، وملأ طبق الذي أحضره الجندي لي على حافة صخرة منعزلة، بينما انحنى هو وأربعة بدو فوق القدر بأصابعهم.

استرحنا هنا حتى الساعة الثانية. كان الظل لطيفاً من النوع الذي يجعل الشخص لا يتحرّك حوله، وحيث انتهى على طول الطريق الذي أتينا منه، لمعت أرض حجرية ناعمة في الشمس بين صخور عالية، مثل طريق إلى معبد، وكان سالم هناك بعيد الحمير من البركة. استلقى سعيد الثاني، العازف، على صخرة على ظهره، ممسكاً ومحدقاً بوجدٍ بخنجره فخر حياته. استلقى بدوي ضال على صخرة أخرى مع قطن

طبي وماء كولونيا على عينيه، وهو رجلٌ طويل ملتجٍ تعثر فوقنا وهو يشعر بالدّوار ويشتكى من وجع رأس. وكان العبد الأسود، في زاوية، يلاطف طيورنا التّعيسة بحفنة من حبوب الذرة.

كان روتين رحلتنا قد بدأ، غير متوقع في حوادثه الصّغيرة، ثابت في خطوطه الرّتيبة. عمل هذا التّفاعل بين الصّدف والقانون واتخذت المفاجآت اليومية نمطاً مستقراً بسبب الضّرورات المادّية، فتخضع النّاس للطّرق ذاتها لقرن بعد الآخر - وهذا من دون ريب هو سحر السّفر في العراء. وعندما تكون وسائط النّقل مثالية جداً بحيث لا تتحكم القوانين الطّبيعية برحلاتنا عبر البرّ أو البحر أو الجو، فلماذا إذاً سنكون قد تفوّقنا على كوكبنا في النّمو، وسوف يختفي من تنقلاتنا إلى الأبد هذا الشّعور المبهج بالتّوحد مع حيواناته ونباتاته وأحجاره، التّوحد في الاستحواذ على الدّافع ذاته.

بدأنا من جديد عند السّاعة الثّانية، وأسرج سعيد وسالم الحمير بنغم صغير محدّد خصّصوه بهذه المناسبة. ”*Habbali, Habbalit Habbali*“، كانت نغمته رتيبة، كلما استمرّت أكثر وأكثر في نغمات متنوعة إلى أن أنجز العمل؛ ولكن بدا الحمار وكأنه يحبّها واستمع وقد رفع أذنيه إلى الخلف، وعندما توقفت علم بأن الحمولة قد رُبطت، فابتعد من تلقاء نفسه.

كانوا أحياناً يغيّرونها، وغنّوا «حُطّ تحت إيدك» *Hot taht idak*، مراراً ومراراً أيضاً: «حُطّ تحت إيدك»، عندما أصبحت الحمولة مربوطة على ظهر الحيوان، ظننت أنه تعليق غير مناسب إلى حدّ ما. وكان سعيد في الواقع هو الذي كتب الأبيات وغنّى أي شيء خطر في باله. لقد اعتاد الجلوس والغناء لنفسه وهو يطبخ الأرز، بصوت منخفض، مشغول البال، وسريع، يشبه ذاك الكاهن الكاثوليكي الرّوماني الذي ينهي قدّاسه بسرعة كبيرة.

أتينا بعد مغادرة مخيّمنا عند السّاعة الثّانية والتّصف إلى اللّيب، وهو مكان متواضع لكنه طلق حيث تلتقي الوديان. يقع واديان على اليسار، Benahsa ورياق، الذي يؤدي إلى قرن رياق Qarn Rayak؛ وإلى الجنوب الشرقي من اللّيب جبل غنّنة على مرمى

التَّنْظَرُ، ودخلنا خلفه بعد حافة فم وادي راس بَرَق وهو طي شعْب وادي حِمَمِ المقفر، الذي كان يوصلنا إلى الجُولِ.

تتبع هذا الطريق كلٌّ من فان دن مولن M. Van den Meulen وفريق إنغرامز Ingrams ورسمًا خرائط هذا الطريق، لذا لم أنوِ جمع مواد جغرافية حتى أصل إلى مدينة جديدة غرب شِهام، وكرّرت هنا ما كان البدو قد أخبروني به فحسب، بسبب ما قد يكون له من أهمية؛ فلم أدخل بعملية تصنيف ومقارنة جادة. لداع واحد، لأنني ما زلت أجد صعوبة في فهم البدويّ؛ على الرّغم من أنهم يتكلمون لغةً عربية ممتازة، فهم يتكلمونها بتغييرات مفاجئة مسلّية في الصّوت، وانفجار مميّز أجش عند نهاية الكلمة، كما لو كان وراءها مقدار جهد كبير. وهذا أكثر صعوبة عندما يأتي المرء إليه في البداية بالمقارنة إلى خاصية محدّدة مثل استخدام حرف لا بدل ز والتي يميزها بسرعة كبيرة.

كنّا عندما تركنا العراء ودخلنا إلى السّكون المسوّر لوادي حِمَمِ قد أصبحنا وجهاً لوجه مع الخرائب والاضطرابات عنيفة، والتاريخ المتهدم للأرض. حُتّ الجُرف الأعلى شديد التحدّر والمثلّم، بفعل الرّيح في تجاويف ضيقة، مثل صناديق مسرح يستطيع الشّخص منها تخيل طيف ما قبل إنساني وهو يشاهد مسرحية أولية، وفعالية ضوء التّهار والرّيح والماء والشمس والصّقيع، على قوى محبوسة تنطلق أسفل القشرة الأرضية. وقد اكتست الجوانب الشّاهقة بالأشجار، مستعدّة للحياة عندما تهطل الأمطار، وغنيّة بعدّة أنواع. وتتحرك هناك الحجول والغربان الصّغيرة، وطيور الدُّعُر.

وفي الصّيف، عندما يفيض الماء بين الجلمود الأبيض ويكون كساؤها أخضر اللون، تبدو هذه الوديان المحبوسة بالصّخر مثل الجنّة؛ ولكن مشهد قوتها الآن غامر؛ والجنس البشري تافه جداً، يخطّ طريق قدميه الحافيتين في رتل فردي بين الجدران الصّامته، مع أقدام حمار تنزلق وتقعقع قربه. فيجعل الارتفاع الذي يحسّ به لأية واحة من نخيل أو رقعة من حقل ذرة، يجعل الشّخص فجأة يلاحظ المقياس اللانساني الواسع لهذه الأرض كلها.

لم تظهر بعد واحة كبيرة كهذه في ذلك اليوم. تبعد الوادي المهجور غير المزروع، إلى أن أتينا عند الساعة الثالثة والعشرين دقيقة إلى مكان يدعى حلاف، حيث يلتف الوادي بلطف فيما يشبه مدرجاً بجدران مقصوفة ومصقولة ويرتفع الطريق في منطقة تسمى الرّحبة لانفتاح أعظم على طول الضّفة الغربية على أطلال قديمة تآكلت من جانب الجُرف. أما هذه الوديان المقفرة والمهيبة، فهي مجرد ركام نفاية ومنافذ إلى الجُول. يحفر مَرّ القرون والعواصف الصّيفية هناك في الأعلى سلاسل جبال جديدة، تهوي فضلاتها إلى الأسفل على تلك الممرّات، وتأكّل جوانبها الكلّسية وتشرّقوا عداها ذات الحجر الرّملي. والقوافل التي تسافر في منطقة هذه الأعمال الرّهيبة، عُرضة لأن تُجرف بفيضانات مفاجئة تملأ الوديان من جانب إلى آخر وتجرفها بشكل تام.

لا يزال البخور ينمو هنا في الوديان الجانبية، حيث يُجلب ويبيع في المُكّلا، ولكن ليس هناك شيء يمكن العثور عليه في طريق عام مثل الذي كنا نسافر فيه. وقد نمت عدّة أشياء أخرى حولنا: السّمُر⁽¹⁾، وشجيرة hume وهي شجرة قرمة مع أوراق صغيرة قاتمة اللون؛ العشّارق، مثل السيّيسوس؛ الأبّ بساق حمراء، وهي شجرة شوهدت في عدّن؛ والسّرّخ مثل الزّيتون، تأكلها الجِمال: ذولة الطّبي thaulat adh-dhabi أو Adenium obesum؛ ذبيد بزهرة صفراء، تأكلها الجِمال؛ خلصفة khalsfa؛ فترة qatara؛ قرض، وهي من نوع الأكاسيا تشبه إلى حد ما السّمُر، التي شاهدناها باطّراد عندما تسلّقنا إلى الجُول. كان هناك نبات عديم الرّائحة مثل الخُزامى يدعى كُحيلة، وشُجيرة يسمونها dhuda، بأوراق دبق وزاهية، كما لو أنها مطلية، ولم يكن أيّ من الحيوانات يأكلها. شاهدتُ هنا أيضاً لأول مرة كتل من حجر رملي غريب، بكسر من صخر يشبه معدن صدئ طُمِرَ فيها، يقاوم بحواف قاسية بينما تجمّعت الحجارة اللينة حوله. وقد عثرتُ على كثير منه صعوداً إلى الجُول.

قابلنا طوال هذا الوقت كله قافلة واحدة فقط في الطّريق نازلة. عرج محمّد الصّغير على طول الطّريق ثم شعر بالتعب، ورفض عرض الرّكوب على حماري. نزلتُ عنه

(1) شجر السّمُر أو الأكاسيا، ويسمّيه البدو: أم غيلان.

كي أفسح له المجال كي يمتطيه فتبسّم للاهتمام، ولكن كان قد نزل في غضون عشر دقائق أو أقل، مؤكداً لي بأنه قد استراح. امتدّ الوادي المنهار المفتوح هنا على يميننا في الأسفل، بجدوله الجاف، كما لو أن جروفها نُعمت وجرُفت بمسحاجات عملاقة، وظهرت تحت السماء المسائية الغائمة في مثلث من هضاب خلفنا، أخذنا حمولتنا من على حيواناتنا في الرَّابعة وخمس وأربعين دقيقة وخيّمنا في زاوية منحدر عميق حيث تبعثرت صخور ضخمة تشبه البيوت.

كان المكان يسمى الرّاش Rash، ومن الواضح أنه استخدم كثيراً، بسبب رماد نيران قديمة وجدت بالقرب. وضع الجندي سريري في مأوى صخرة، وعندما جهّز العشاء أزعجت عقله التقليدي بانضمامي للمجموعة التي حول النار. غطّوا أفضل صخرة بكيس ورّحّبوا بي، ينادونني باسم فريّا Friya، والذي تبناه حتى نهاية الرّحلة. في ذلك الوقت أعلنوني «مفخرة النّصارى» Nasara، الذي من الواضح أنه أعمل طويلاً في عقولهم.

قال سعيد: «معنا موقد، ولكن لم يكن جيداً بما يكفي لهم، لقد أرادوا واحداً منفصلاً لهم ليطبخوا عليه، وقد طُلب منا أن نجلس بعيداً عنهم تماماً. وهم فخورون جداً بإصرارهم على أن يسبقونا بالمسير، وعلينا نحن الذين ننتمي للمدينة أن نأتي بعدهم».

قمت بما استطعت لأخفّف تلك الجروح، وشعرت، كما كنت أشعر غالباً، بأن الجلوس قرب النار مع رفاق في المساء، عندما ينتهي العمل ويبدأ الكلام، هو الطّريقة الأكيدة الوحيدة لاستمرار التّناغم والصّداقة. لم أجد أيّة صعوبات مع البدو الذين برفقتي ولم أجد إلا الودّ والتّلهف لخدمتي في كل الأحوال. عزوت هذه الصّفة بشكل رئيسي لحقيقة أننا أكلنا وجباتنا معاً، وأنه لم يكن لديّ خادم آخر لي شخصياً، باستثناء الجندي الغاضب، الذي كانت مشاعره طوال الرّحلة تعبر عن أقلية من فرد واحد.

بعدما كان الظّلام قد خيم، سمعنا وقع مسير قافلة أخرى على الأحجار. حافظنا على الهدوء، على أمل أن يجتاوزونا، وكنا مرتابين بهم وهو شيء طبيعي عند مجيء

ناس في الليل. ولكنهم لَفَّوا حول صخرتنا، وحيَّونا بـ «يا حيًّا!»، واقتبسوا جمرة من نارنا ليطبخوا عليها. كان قدرهم أكبر من قدرنا لأنهم سافروا ومعهم صحن أو طبق، لأرزهم، علبة صفيح موضوعة على حامل، بدلاً من تفريغها خارج الكفت (قدر صغير ذات مقبض) كما فعلنا نحن. ولكنهم كانوا أشخاصاً قرويين من أراضٍ مأهولة، ولذلك فإن متاعهم أقل من متاعنا.

جاء تَوًّا غلام صغير منهم بملامح كبيرة لينضمَّ لدائرتنا ويتحدَّث معنا، كان يضع وشاحاً صوفياً أبيضاً لعمامته، مع أغصان من نبات الحرمل ربطت فيها لتحمية من الشَّمس. كان مضحكاً، مع جرأة وملامح لا مبالية، جعلنا جميعاً نضحك. واستطعت من داخل سريري الذي انسللتُ إليه لتَوِّي، رؤية المجموعة جالسين القرفصاء باطمئنان حول الجمر، كانت وجوههم تومض بشكل متقطع من الأسفل. بدت هيئات الحمير الصبورة المعتمدة مظلمة خلفهم، وارتفع الصخر أسود، أو مخططاً ببريق النَّار فوق رؤوسهم. وشعرتُ بالنَّعاس وأنا أفكر بدخول كهف علي بابا، في طبعة مزوَّدة بالرَّسوم من طفولتي.



الفصل الثامن

بدو كور سيان

إنَّ مَنْ يجد في نفسه الارتياح إلى السّفر على هذا النّحو، ويقنع في بعض الأحيان بالألا يجد في الخان غير خبز باث، فهو سيجد خلال سفره في اليمن كثيراً من الاستمتاع كالذي وجدته أنا نفسي.

(نيبور: رحلة في جزيرة العرب)

تسلقنا طوال اليوم الثّاني بشكل مستمرّ ونحن نتبع وادي حِمم. استيقظتُ عند السّاعة الرّابعة صباحاً في يوم لطيف غائم، وأخذت درجة الحرارة، فكانت 74°.

بدأنا عند السّادسة، وتابعنا على طول الجانب الأيسر للوادي، صادفنا جمالاً نائمة بين الصّخور. تسافر الجمال ببطء أكثر من الحمير وتكلّف أجرتها أقلّ بقليل، فهي تستغرق ثمانية أيام مقابل ستة أيام للحمير، والحمار أفضل بالنّسبة للمصوّر، وذلك لأنّه يستطيع ركوبه أو التّزول عنه بسرعة. كانت هذه الجمال تتسلق بصعوبة فوق الممرّ؛ وتجول أصحابها مستمتعين، وقد ربطوا شعرهم في شبكات، ولكنهم كانوا أشبه بالعراة، وعندما سألت هل يمكن للجمال أن تعضّ؟ انحنى صبي صغير ليمسك رقابها المقرقرة عندما عبرت مع إيماء حرّة وثابتة مثل الحركة المنحوتة المنقوشة على إفريز إغريقي Grecian.

أتينا بعد ذلك إلى القرية الأولى، زمين الكبير Zamin el-kebir وفيها خمسة عشر بيتاً أو أكثر عبر الوادي عند فتحة ممر ضيق؛ مع وجود أشجار موز، ونخيل ودُخن حولها. تُعتبر جميع قرى وادي حِمَم هذه أماكن صغيرة وفقيرة، وتعود لـ «سلاطين» باهيري⁽¹⁾ المستقلين. وهي مفصولة بامتدادات صحراوية طويلة. اجتزنا بعض الأكواخ الطينية لقرية زمين الصّغير Zamin as-Saghir، وقد تناثرت بمسافات طويلة مقفرة، ومن ثم تسلقنا منحدرًا مهملاً للجلاميد، عقبة Batha، إلى المحزمة.

ارتفع الوادي هنا إلى حوض نجدي، بقمم تلال مصقولة حوله، وتمتدّ عليه غيوم ونور الشّمس. برزت عن يسارنا قرية طينية محصّنة بشرفات مُفَرَّجة تدعى غياضة، ينتشر أمامها نخيل وشجر اللّيم وأشجار النّبق أو العلب بشكل واسع (Zizyphus Spina Christi)، والعلب هي أكثر الأشجار فائدة بعد النّخيل في حضرموت. ولا تحتاج سقاية وتنمو في أماكن أكثر جفافاً، وتوفّر طعاماً للبدو من ثمار العليق المطحونة التي بلون التّفاح، وتقدّم علفاً لمعزهم، وأخشاباً لكل الأبواب المنقوشة وأعمدة للقرى.

مشيتُ هنا، وأنا سعيدة بانفتاح الوادي ذي القعر المسطح، والانحدار الطّبيعي للتلال من حولي بعد تلك الممرّات العمودية في الأسفل.

بدأت بالظهور جميع أنواع جديدة من النباتات والشّجيرات. المذهب، بأزهار حمراء بشكل لسان على شجيرات بارتفاع ما يقارب أربعة أقدام؛ إيبوب باللون البنفسجي، و dhora بالأحمر، وزهرات صغيرة تشبه البزور قليلة ghulila ودعية da'aya ونبته مركبة صفراء hudam، نبتة ثخينة، وصبار يدعى قُرف، وهو يُباع من أجل عصيره. وكانت هناك تجمّعات شائكة كالوسائد تُنتج أزهاراً برتقالية ناعمة غير متوقعة؛ والدّويلة الصّفراء المثلثة تشبه نبات الدّيزي، التي تنمو في كل مكان في الأرض البعل.

(1) آل باهيري كانوا هم وآل باصرة الخمعي سلاطين سيان.

وعندما مشينا بسرعة على الأرض الطّمية رفع البدو أصواتهم معاً وغنّوا كلمات من دون معنى: «واعيدينا» "Wa ai daina, daina" وقد أسموها ببساطة «مغاني» maghani وقالوا أنها معمولة للرّقص؛ وانتهوا ببطء بنغمة ضعيفة، منخفضة ومهممة، على موجات الهواء، كما لو أنها كانت أثقل منهم.

لقد كانوا مسرورين لرغبتني بأن يغنوا لي، وبدأت للتوّ زيمة zeima، أغنية أحد الرّجال، التي فسّرها سعيد لي بقوله، «لأنها تعلّمتنا ألا نخاف من الموت». تُغنى بشكل أسرع، ثلاث ترويشات ثم ترويشتين وتفعيلة واحدة وقد تابعوها بخطواتهم القصيرة؛ وبندقيتنا مستوية، ونصبت الحمير آذانها حيث كان من الواضح أنها اعتادت على اللعبة، وبدأت تهزول بسرعة من تلقاء ذاتها، مع قعقة الأمتعة وجهد ضعيف يائس في صياح أحد الديكة الأربعة الصّغيرة التي ستُذبح من أجل العشاء. لقد سافرت مربوطة من أقدامها إلى القمّة في رزمة جانب وعاء الطّبخ وإبريق الشاي، وجعلني مشهد مأساتها هذا أتوق لأراها قد طُبخت وانتهى أمرها قبل أن تقتلهم الكآبة المطلقة، عندما كانت ترقب العالم يركض أمامها وتفتح وتغلق أعينها الصّغيرة.

شاهدنا الآن عند الساعة العاشرة الوادي ينغلق أمامنا مرة أخرى، وتبرز قرية حِمم ناتئة على تلة فوق الفتحة، وتّضح قمّة إقطاعية لقرية، بزراعة قليلة في قاعدتها وعديد من شجر السّمّر كلما يدنو المرء من الجنوب الغربي.

فوجئت بأن المسافرين لم يجدوا شيئاً أكثر ليقولوه عن شجر السّمّر، إنها مثل تضمين للقفز، قاتمة وناعمة جداً ولكنها جميلة، وتشابه خفّة الحركة ساقها الشّبيهة بالموجة وأغصانها الأفقية مقابل الحجر الكلسي الأفقي الثابت الذي تنمو فيه، إنها أكاسيا ريشية (*acacia vera*) بجرايات حبوب قاتمة وأشواك أطول من أوراقها، توجد خلال نهاياته المدببة خضرته الطّرية الشّاحبة وكرات زهره الصّفراء ذات الرّائحة التي لا يتوقع وجودها مثل توقع الورود على عصا تانهويزر tannhäuser.

لا أعرف إن كان التواء السّاق هو ما يرفع ستارته التي سطّحتها الرّيح، أم أن تنافر رفته الرّقيقة التي تشابه بساطتها وتزييناتها التّصميمات اليابانية مقابل الصّخور الثّقيلة

في خلفيتها، ولكن الشجرة ذاتها تبدو في المضيق الجبلي القاحل مثل شخص راقص عندما ينعطف المرء حول زاوية فجأة مسحوراً بالسكون.

عندما كنا نعدو كانت هناك أعداد منها وقد أفضت بنا قرية حِم، أمام سقاية بيضاء، تحت التلة والجدران البيضاء للقرية إلى قاع الوادي المنخفض في الورا، حيث خيمنا قرب أحواض بمياه ذات لون أخضر مائل إلى الزرقة في كهوف أعطت في الواقع حماية غير كافية فيها ما جمعته الريح بشكل ضحل. كان الحجر الكلسي داخل الكهوف متجعداً مثل محاكاة سيئة لجذور شجرة، ولم يكن هناك شيء للنظر إليه إلا وهج الجلاميد المصقولة، حتى لا حظنا بعض القرويين وجاؤوا ليشكلوا دائرة. ولقد أبعدني جنديتنا عن الدائرة، وأحضر لي الأرز والفلفل إلى كهف منعزل.

كان يُظهر استنكاراً فيكتورياً للنساء اللواتي لا ينزلن بأنفسهن، وهو ما أجده مملاً ويصعب فعله. وقد كان، فضلاً عن ذلك، غيباً، ومتى أخذ فكرة في رأسه، تشبّت بها بعناد أشخاص لا تخطر لهم أفكار يومية. كان من بعض أفكاره أنّ إدارة بعثتنا كانت في يديه. لم أتأثر أنا وأربعة من البدو بأوهام مثل هذه، وأصبح فهمنا الضمني واضحاً بشكل مسلّ في فترة ما بعد الظهر. كنا نتبع طريقنا الذي يصعد بصعوبة بارتجاجات مفاجئة صعوداً ونزولاً بجانب الوادي، وكان من الممكن لسعيد الذي كان يمشي ويثرثر بالقرب مني ومن حماري، أن يمدّ يده عندما يرى أننا نقرب من مكان سيئ ويوقفني بقوة على سرج حماري إلى أن تمرّ. لقد كنت أنا نفسي غير متلهّفة لهذه المساعدة، التي تركت خمسة بصمات نيلية على قميصي في كل مرة، ولكننا كنا بعدئذٍ تماماً في العمق في نشاطات الحرب المرشدية الأخيرة، وكان لطف سعيد من نوع شارد الذهن يمكن يتطابق مع حالة الخزف الذي يمكن أن يتهشم إذا وقع عن ظهر الحمار فوق الصّخور. جاء الجندي فجأة ودفع يده بعيداً، قائلاً يجب عدم الإمساك بالسيدة.

نظر إليه سعيد بانشداه، لكنه مشى مسرعاً، مؤرجحاً وركه التحيل بطريقة نسوية تحت تنورة نسائية أرجوانية اللون. نظر إلي سعيد، فابتسمت وابتسم، وأودعنا حارسنا

إلى عالم المعتوهين حيث ينتمي، وعُدنا لتحدّث عن أشياء معقولة مثل الحروب القبلية.

أخبرني سعيد أنّ قبيلة المراشدة قد انحدرت من عبد الله بانهيم Murba 'Abdalla Benhaim ومن محمّد باسليم بانهيم، اللذين كان منشؤهما عند منحدرات كور سيان العالية، والتي تمتلكها سلالتهما إلى هذا اليوم. وآل باصرة⁽¹⁾ حكام دوعن يتمون إلى السّلالة ذاتها، وهذه القبائل هي الوحيدة التي لا تأخذ حكومة المُكّلا منها رهائن، فقد اشتهروا بولائهم وإخلاصهم. وهم يتمون للحموم Humumi في شمال شرقي المُكّلا، الذين كانوا في حرب معهم قبل ثمان سنوات، عندما هاجم خمسمئة من الحموم ثلاثمئة من المرشدين وأوقعوا منهم سبعين قتيلاً في كور سيان (تكون الأعداد في هذه المعارك عرضة للتّحريف وفقاً للجانب الذي يروي القصة). وقد تم إحلال السّلام بينهم الآن من قبل العيدروس في الشّحر، للحموم، ومن قبل مضيفنا من منسب ثلّة للمراشدة، الذين هو مع ذلك ليس من المناسِب الأصليين، أوزعيم ديني للمراشدة، بل يسكن الأصلي في «الوادي الأيسر» إلى الشّمال، حيث كانت هناك حرب مشتعلة مع قبيلة مجاورة في ذاك الوقت.

كان سعيد الثّاني، عازفنا، منذ مدّة قصيرة يقاتلهم. فقد كان ينطلق أعلى وأسفل الصّخور جانب الطّريق كما هي عادته، وشاركنا حديثنا بين حين وآخر، فسألته هل تم إحلال السّلام.

قال: «لا، الخوف منتشر بيننا، ولكن لم يغيّر أي شيء، فنحن نواصل التّجارة بأساليب آمنة».

سحب مزماره، ورفع صوته ليغني "ai daina"، ورفع الجميع أصواتهم خلفه مع نغمة مثل الجرس والريّح والتي بدت أنها تعود للصّخور والجداول.

ولكن مرافقي سعيد كان الشّاعر الحقيقي وكان يعلم الأشياء المناسبة للغناء

(1) آل باصرة الخمعي كانوا هم وآل باهيري سلاطين سيان.

للمناسبات المختلفة، وقصائد جدّية جداً وجدلية، يمكن أن يؤديها بسرعة لابن أخته بنعمة منخفضة، والتي فكرت بداية أنها تشير لقضايا مالية أو نزاعات عائلية؛ ولما كنت في بعض الأحيان أجلس على مقعد في مدن أوروبية وأستمع إلى تيّار من كلام عابر، فأنا نادراً ما سمعت بنعمة جدّية مشابهة تتعامل مع أيّ شيء غير المال. لذا عندما سألت سعيد عن موضوعها قال لي بأنها كانت قصيدة، كنت سعيدة، وتفاجأت وأسفت أنني لم أستطع متابعة الأبيات عندما بدأ مرة أخرى من أجلي؛ ولم يكن من فائدة السؤال عن معنى أي كلمة، لأنه يمكن أن يقول فقط «إنه شعر» ويندفع مرة أخرى في وسط جدول بيد واحدة على غرة حماري والأخرى ممتدة في الهواء، وقد امتلأت عيناه الكليتان البتيتان ببهجة، والتفت صفائره الصوفية بشكل رزين في كعكة شعر على مؤخرة عنقه، مقدماً أكثر مقارنة بيتية نسائية مسلية بجذعه الصغير العاري القوي.

غادرنا حِمَم عند الواحدة والرّبع وتبعنا طوال بعد الظهر الوادي الذي له الاسم ذاته، عبرنا فقط كوخاً واحداً على اليسار عند سفح انهيار يدعى القُدوم⁽¹⁾ Ankedun وهو مكان موحش. ولكن فور تسلقنا العقبة، أو ارتفاع فوقه، أصبح الحِمَم الأعلى جميلاً ومقفرًا، بأشجار وصخور أعظم وأكثر في قاعه الضيق.

بقي الطريق مرتفعاً ومنفتحاً، إلى أن ضاقت مرة أخرى شقوق الوادي تدريجياً فوقنا، وحجزتنا داخل جدران أبدعت خضرتها الثرة منظرًا طبيعيًا مُبهراً لا يرى إلا في الصّور. لم يكن ثمة دُور، بل يقطن بعض رجال حذرين في كهوف مبوثة في كل جنبات الجُرف، ويحكى الكثير عن قوة الدّولة وكيف أنّ المسافرين لا يتعرّضون للسلب في مكان يمكن أن يكون الهجوم فيه سهلاً جداً والكشف صعباً جداً.

التفّ وادينا يساراً، ونمت الأشجار بشكل أطول، والأجمات الخضراء أكتف، والجدران التي ضلعتها الرّيح وخشنها الطّقس أعنف في طبقتها المنحدرة عندما ضغطت علينا مباشرة. وضغط الطّقس العاصف على الجدران بشكل مباشر أكثر. قابلنا مجموعة واحدة من المسافرين، وهم أناس من الخريبة في دَوَعَن في طريقهم

(1) هكذا تبين لي الاسم حسبما ذكرته فريا.

للهند، وفتاتان بدويتان نحيلتان صغيرتان حول زاوية، ركضتا نحو عازفنا وألقتا التحيّة عليه، واتضح أنهما أختاه.

كنا طوال الوقت نتسلق الجبال في طقس غائم، قالوا أنه يحدث غالباً قبل الدّخول إلى جو الجُول. كنا قرييين جداً منه الآن، وأصبحت جنبات الوادي أقل عمقاً؛ وبدأ يختفي نوع من الثّبات تلو الآخر كلما اشتدت قسوة الجوّ حتى أتينا في النّهاية إلى حواف مناكب جبل مكشوفة تمتدّ فيها الأرض ذات الحجارة المبعثرة نحو الأسفل باتجاه البحر. كانت السّاعة تقارب الخامسة، والجو بّنيّاً ومكفّهراً بالغيوم، وكان كور سيّان ذاته عن يميننا، إنما يتوارى في السّديم.

صاحوا بي: «الكور، الكور» لأنّ شعورهم تجاه جبلهم وموطن أسلافهم أسطوري، مثل ما يمكن ليوناني أن يشعر تجاه أرواح صخوره وهضابه.

كنا الآن في قلب مدينة قبيلة المرشدي تماماً والتفّفنا يساراً وقليلًا أسفل تلة إلى حِسي، حيث كان لديهم حقولٌ وبضعة أكواخ في رأس الوادي المكشوف قليل العمق، حيث كنا ذاهبين لننام.

ركض سالم وسعيد الثّاني ليحضر حبالاً من قش. تابعنا السّير في القاع المائي - وهو جافّ الآن - ومكشوف مثل طريق مرصوف بحجارة ومحاط بأشجار؛ وخصوصاً القَرَض، التي تشبه السّمُر ولكنها أقوى، بلحاء متجعّد، وتنمو في أماكن أكثر انكشافاً وعلوّاً. كانت الحقول قد طوّقت إما بصخور أو أشواك، لتجمع الفيضان عندما يأتي من الجُول وقبل أن يندفع في قنوات الوادي؛ وهو لا يأتي كل عام، ولكن عندما يحصل ذلك، يسرع المرشديّون في حِسي لبذر البذور وجمع حصادهم.

لديهم بعض أكواخ مربعة في هذا المكان المكشوف، وضعنا أمتعتنا عند البيت الذي يعود لمريم أخت سالم، وهي عروس منذ سنة بتياب سوداء، وهي ذاتها سمراء قاتمة مثل أبنوس بعقد وسوار فضي بلون الرّمْل. كانت جميلة بسبب شبابها ونحولها، ولها عينان مثل عيني أخيها الثّاعستين الوديعتين. وقفت مبتسمة عند إطار الباب

وحملت طفلاً نحيلاً حزيناً منفرج الساقين على وركها، بينما تجمعت نساء أخريات من البيوت في الجوار.

بُني سقف من أوراق نبات في جانب محمي لأحد الأكواخ، وامتدت دائرة من حجارة عبره لما يقارب ثلاثة أقدام على الأرض. كانت تُدعى المقعد أو مكان جلوس - يجد الشخص في العراء أماكن تجمّع مثل هذه هنا وهناك بمركز مرتفع من الأرض. نزلنا قريبها، ووضع سريري على مقربة. حضرنا قهوة - مزيج شاحب من قشور الحب مع زنجبيل - كريهة ما لم تتذوقها في ليل الجول البارد، حيث يعتبر دفئها مهدئاً لأشخاص يرتدون ثياباً باللون التلي بشكل رئيسي. كان الهواء العالي هنا في حسي بارداً ورطباً بما يكفي لجعلها مرحباً بها. احتشد رجال القبيلة، أولاد إخوة وأبناء عمومة، ليساعدونا ويشتركوا. ذُبح واحد من ديكتنا الصغيرة البائسة ودُفن في طبق الأرز. كنا متلهفين لأكلها بسرعة، لأنها من الممكن أن تموت في أية لحظة ويصبح أكلها محرماً بسبب كون رقابها لم تُذبح باسم الله؛ كانت سابقاً قد كُفّت عن الاهتمام بشؤون هذا العالم، وراحت تنظر بعيون زجاجية في الفضاء بينما نشر جنودنا علفها الشهي من الدُخن أمامها. اجتمع حول النار جمّع من رجال سُمر البشرة، حيث كان سعيد يصبّ الفلفل الأحمر الشهي في عشاءنا.

كانوا أشخاصاً ودودين، يرتبطون بين بعضهم بصلة القربى، وكانوا متشابهين جداً. الأفواه الكبيرة ذاتها بشفاة متدلّية، حواجب شبيهة بالجنّاح ووجوه طويلة. ولقد ربضوا وتناقشوا عن حركة السير للطريق العام، الذي هو تحت سيطرتهم بين المُكَلّا ودوَعن. وقد تحدّثوا عن بندقية سعيد الثاني الفرنسية ومسألة الأسعار بشكل عام. كان قد دُفع فيها 3 جنيهات و15 پنساً وسعر خراطيشها $d\frac{1}{2}4$. للواحدة، أي كل أربع منها بطالِر. واعتبرت الخناجر وأغمادها كمواضيع منفصلة، اعتبر خمسة عشر طالراً (جنيه وپنسان) للأول، وخمسة وثلاثين (جنيهان و12 پنساً) للثاني سعراً جيداً. كان غمد سالم فضياً كبيراً ويساوي ثلاثين طالراً، لكن سكّينه كانت ذات حد سيء، وقُيِّمت بخمسة فقط من قبل الرِّفاق؛ في حين كان لدى سعيد الثاني غمد متواضع بسكين

رهية داخله تساوي ثلاثين شلناً، وقد أشهرها وأدارها بمحبة في ضوء النار، مجرباً إياها بلطف على ضلعه الممتلئ. تركتهم يثرثرون ويدخنون، واستقرت في فراشي لأكتب وأنا.

بدأنا في الصباح التالي عند الساعة السابعة والربع. كان الشروق رقيقاً، والحرارة 56°. انحنى جارة مريم خارج كوخها تطحن ذرة للخبز، سحقته بمدقة حجرية في حجر فيه تجويف طفيف. وقفت مريم تراقبها وابنها التحيل على وركها؛ نظر إلينا بعيون حزينة وحكيمة مثل عيون حيوان، واستدار فجأة وضرب بقبضته على صدر أمه كما لو أنه ينكر هذا العالم الحزين وظاهرته الغريبة.

قالت مريم خجلة وفخورة، متحسنة بين طيات ثوبها: «يا بني». رضع الطفل، واستعاد اتزانته على الأقل بأحد عناصر الحقيقة في عالم قلق، ونظر إلينا شزراً، بنظرة حزينة ولكن غير مبالية، كونه حظي بما أراد ولم يعد بإمكانه تخيل ما وراءه - وإذا لم يكن ذلك ما يجعل شخصاً ما غير مبالٍ فما الذي تراه يجعله كذلك؟

أعطيت مريم بعضاً من أشياء صغيرة كانت معي كهدايا؛ لم يكن المال متوقعاً؛ راقبتنا ونحن نغادر، مبتسمة في نور الشمس.

أبدت ملاحظتي لسالم الذي مشى قرب حماري: «إنها جميلة ولطيفة». رفع ذقنه بطريقة أخوية.

سألت، معتبرة إياه أنه في الثامنة عشرة من عمره وكبيراً بما يكفي ليكون له زوجة: «متى ستتزوج أيضاً؟».

قال: «لقد تزوجت، مرتين، ليس لدي حظ مع الزوجات».

سألت: «لماذا، ماذا حصل؟».

ابتسم بخجل، كما لو كانت نكتة، كونه يعلم مشاعري حول الفلفل: «الأولى تركتني. لقد كان هناك الكثير من الفلفل في الأرز؛ قامت مباشرة وغادرت».

«وماذا عن الثانية؟».

قال سالم: «آه، لقد كانت متمردة» أضاف بحسرة: «لقد خسرتُ كثيراً».

هل كانت الخسارة لقلبه أو جيبه لم أعرف، ولكنني نظرتُ إليه باحترام، وفكرت أنه لا بدّ مع ذلك أن يكون أكبر بقليل من ثماني عشرة، ليكون قد تخلص سلفاً من زوجتين.



الفصل التاسع

الجُول

«كان مالفوغياس يعيش حياة غير نباتية، وكانت الأشجار التي هناك تعودت على الصمت... تحت ستار الأشخاص الرقيق... يخفق جوف الدنيا».

(نعبان التجوم)

يتم عادة تجاهل الجُول من قبل المسافرين كقطعة من برّية مملة، فهي عبارة عن هضبة فيها امتداد مسطح قاسٍ، يتساوى فيها عدم احتمال الحرّ والبرد، ويكاد لا يوجد فيها طعام وماء.

بالنسبة لي لم يكن الأمر كذلك. فالجُول يمتلك فتنة السحر والرّهة في اتساع ليس فقط في مساحته، ولكن في زمنه. عندما يرتفع الشخص لمستواه الشمس، فإن عالم البشر يضيع؛ والطبيعة وحدها في عمل، فيه نحت جغرافي في أزمنته الألفية، جعلت هاويته الذنيوية مرئية في الحجر. وطأنا على ذاك النّجد أراضي البحار القديمة التي ربما ارتفعت وغاصت ثم ارتفعت ثانية، ولكن كم من المرات؟ أصدافها هي التي تمتدّ في محيطات لم يبحر بها أحد، قبل بدء الخليقة. وقد ارتفعت 7000 قدم وأكثر في ضوء الشمس. تحجّر قاع البحر بحجر كلسي؛ وهي تمتدّ الآن نحو الشمال والجنوب في مساحات حجرية مشرقة. وعلى مادتها المرتفعة ما يزال الحت يعمل فيها.

قطعت آلاف السنين المناكب العمودية لكور سييان، وكالعادة، واحداً خلف

الآخر، كأجنحة حصن على طراز فوبان Vauban الفاصل المنفرج في أسفلها وحولها، مخطط خطط لسلاسل جبلية مستقبلية، أبعد مما يمكن أن تراه العين، أعطت لمسات الإزميل الأولى لما سيكون من منحدرات ووديان، وما زالت تعرض الرّوايى مستوى البحر القديم وهي التي لا تزال قممها مستوية ومتشابهة الآن، ولم تتوسّع بعد المضائق الجبلية التي سقطت سوداء مثل زنازين خارج أرض النّجد.

تقع هنا المنطقة الضّحلة لتجمع الأمطار الغزيرة، والتي تجري مياهها هنا وهناك باحثة عن أضعف منفذ، فتتحت مقاديرها المتزايدة الممرّات الضّيقة المتهدّمة في أسفلها؛ وهي هنا تجاوىف صغيرة شاهقة كقمة قمع يندفع الماء منها إلى الأسفل. وتتقارب الأرض مثل مدرّج مسطّح قليل العمق، إلى رؤوس هذا الوادي في طبقات منظّمة بشكل غريب جداً بحيث تبدو مثل أساسات جدران مبنية من حجارة مفككة. ولكنها ليست غير ثابتة؛ رغم أنها نحتت بفعل الرّيح لتشبه صخوراً منفصلة، وستجدها ثابتة هناك بحواف قائمة بالرّغم من مضيّ الزّمن وهي جزء من صميم الجبل؛ صقلت طريق القوافل الدّاهية إلى ارتدادات بعيدة من الماضي شريط صخور زلق على ذلك السّطح الوعر، حيث خربش أعراب منسيّون أسماءهم على نعومته المصقولة.

ويبدو أن تقدير الزّمان بسنين البشرية في هذا الارتفاع الواضح أمرٌ سخيف، حيث تقوم القوى الأساسيّة للأرض بالبناء. يندر وجود التّباتات القصيرة المؤقّته بندرة تفوق ندرة الرّجال الذين يمرّون في أجيال عابرة، ولا يتركون أثراً أكثر مما تركه ذبابة على يد حِرفي ثابتة أثناء عمله. ولقد أصبح تاريخنا وأصولنا مخفية تقريباً مقابل الارتفاع البطيء للجول. ويمشي البدوي فقط فوقه عارياً وغير مبال بروح متحرّرة من الأعباء، وهو الذي ليس لديه ما يخسره أو يخافه مثل «فراشات تحت قوس تيطوس Titus»، وهو يعلم مراعيها القليلة، ويحب حرّيتها اللّإنسانية.

تسلّقنا نحو هذا النّجد المهيب والعقيم باطراد من حسي، ونظرنا خلفنا إلى المسطّح في المنخفض نحو حِمَم، وإلى الصّدع المحجوب الذي طوّق رحلته يوم أمس. وعندما ارتفعنا كان أمامنا عن يميننا، أقرب من قبل، نتوءات جرف ضخمة من

كور سيان، بارتفاع 2,150 متراً، بدت ستة منها ضاربة للحمرة، ناتئة من الانحدار الشديد، بقمم مستوية؛ أقرب مثل متراس منفصل، وقفت الكتلة المشابهة لجبل مطر أو أمطار، وفصلت بشق عن البنية الأساسية. وشُق طريقنا بين الاثنين، وقد طَوَّق حفرتين صغيرتين تشبهان القمع وتشيران لرؤوس واديي ثمنّة وحَرَم، بشجر سَمُر ملتوٍ قليل ومنحن، حتى أتينا إلى حيث تقف واجهتا جرف كالبوابات لمعبد مصري.

دخلنا هنا، بمشاعر خوف فطرية، في أعلى شعاب البلاد، ووجدنا فيها ملجأ، وسط صخور مضطربة، ومرة أخرى أشجار وجدران خضراء. بنى هنا البدو بدافع ديانة المكان الفطرية مقاماً وقبراً لجدهم، الشيخ Amtar، وهو عبارة عن مكان مسيج بسيط مطلي بالأبيض، وقبة في عمق الوادي. ويجتمع فيه أبناء قبيلة المرشدي وأقربائهم في الثالث عشر والرابع عشر من شهر رجب ويشوون خرافهم وينامون على طول أرض الوادي. ولا يزال رماد نيرانهم واضحاً. مرّ الدكتور هلفريتس⁽¹⁾ Helfritz قبل سنة أو سنتين في وقت الاحتفال، ولكنه كان مرتبطاً من قبل، ويقول بأن البدو تلاعبوا بفكرة قتله. أما بالنسبة لي، وبسبب ندرة ما تمتّى أشخاص قتلي فيما مضى، فقد أسفت بأننا لم نستطع التوقف عند نار مخيم لنا لنسألهم في تكريم الجدّ القبلي، وأخبرت سعيداً بأنه من الممكن أن أزودهم بخروف الأضحية فيما لو أتينا مرة أخرى في الموعد المناسب.

ترجّلت من فوق حمل حماري في برودة الشعب اللطيفة ومشيت، وسمعت لتوي صوت سلاحنا ينطلق خلفي ورأيت عازفنا يقفز فوق الصّخور مثل كلب الصّيد بأسرع ما استطاع. لدى البدو في الواقع طريقة في لَيّ الرّجلين عند الرّكض، وهي سريعة ولكن ليست جميلة مثل حركاتهم الأخرى، ولا شيء مثل تلقائية واستقامة شاب إنكليزي.

(1) هانز هلفريتس (1902-1995) رحّالة ومصوّر وصانع أفلام ألماني، ترك بلده ألمانيا في عام 1939 حيث عُذّ عدواً للحزب النّازي، وقام بأسفار ورحلات عديدة كان بعضها إلى حضرموت في اليمن وكان في سباق مع رحالتنا فربا ستارك على الوصول أولاً إلى شبوة. وقد حصلت على كتابين له يخصّان وصف رحلاته في اليمن: *Land ohne Schatten* «بلد بلا ظلال»، والآخر: *The Yemen: a secret journey* «اليمن: رحلة سرّية».

أعتقد أن هذا انكماش طبيعي لأقدام حافية عن الحجارة تجعلهم يمضون بحذر شديد وينحدرون في ركضهم بخفة تشبه خفة القط. كان سعيد الثاني يطوي الأرض بسرعة كبيرة، بينما سعيد نفسه، مبتسم والبندقية في يده، أخبرني بأنه أصاب الوُبر Wabar وإذا استطاع العازف الوصول إليه قبل أن يموت وذبحه باسم الله، يمكننا أكله على الغذاء.

بدا جندينا مشمئزاً ومصدوماً. قال: «لا أحد يأكل الوُبر».

سألت: «أليس حلالاً؟».

قال سعيد: «بالمرة ما هو حلال، الأشخاص الآخرون لا يأكلونه، ولكننا نحن البدو نأكله. إنه لا يتغذى إلا على العشب».

ظهر الآن الحيوان الصغير، متدلياً من يد سعيد الثاني برقبته المذبوحة مرتين، مرة بفعل رصاصة، ومرة باسم الدين؛ ولقد ظهر لجهلي كنوع من مرموط بفرو يشبه الجرد لكنه أنعم ولونه رمادي أدكن من ذلك الذي رأيته يصفر على صخور هضاب الپيمونته Piedmont والذي يأكله سكان الجبل. وكنت اكتشفت فيما مضى بأنه كان أرنب الصّخور. ومهما يكن فقد شعرت بأن الغذاء سيكون ألد من القرش المقرّز، ووعد سعيد بأن يجفّف رأسه ويحفظه لي كعينة. لقد كان فخوراً تماماً كونه حظي بحيوان صغير جداً ببندقية على بعد مئة يارد أو أكثر. اقترحت أنه من الممكن أن يكتب عنه شعراً، ولكنه قال لم يكن جيداً في شعر مبدع بما يكفي، لذا تكلمنا عوضاً عن ذلك، واستعرضنا موت الوُبر في جميع معانيه، إلى أن خرجنا من الشّعب والتفنا غرباً على القمة المشمسة للجول، المعرضة للريّح شديدة الارتفاع حيث تبدو وكأنها تعانق السّماء من حولها وفوقها.

بنيت عبر الميدان الواسع الذي لا يصلح للمعيشة أكواخ بغرفة واحدة على مسافات بينها، بخزانات مياه داخل الأرض دون جدران، حُفرت على مقربة حيث يقود منحدر الأرض مياه المطر إليها.

تُسمى الأكوخ «مربعات» وذلك بسبب شكلها الشبيه بالمكعب، وتميّز مراحل الجول. وصلنا عند الساعة الحادية عشر والرّبع مرّبع «بين الجبلين» (بين الهضبتين)، وبقينا هناك في ضوء أشعة الشّمس، بسبب عدم نمو أشجار طويلة. ولكن كان الهواء منعشاً ورقيقاً رغم نفاذ الحرارة فيه؛ وكنا عند نقطة الحدّ الفاصل.

كان كل ما هو إلى الشّمال منا، إلى يميننا ونحن نتحرّك غرباً، يمكن أن يتجمع في وادي حويرة؛ في حين يمتد إلى الجنوب، حرّم وثوثة أسفل منا، نحو الجنوب الشرقي جبل عنّنة على طول طريق صعودنا؛ أو الوديان الأخرى في الجانب الأيسر والتي قدّما إليها، يمكن أن تسيل إلى الجنوب الغربي في وادي حجر - طريق شَبوة وفنا القادم من البحر. استطعنا رؤية جبل عقير في الجنوب، الذي يفصلنا عن المُكَلّا والسّاحل؛ ونقش محمّد فوق الجنوب الغربي للحجر في البعيد. يمتدّ الضّوء «حيث ملكة الألوان» عليها كلها، وخطوط قلم من ظل حيث اختفت الوديان عن النّظر في صمت شامل، دون وجود لصوت طائر أو حيوان؛ تعانقت فيه الأرض والشّمس، وسحاب ساكن بعيد لغيمة مثل أعمدة فوق البحر المحجوب، حيث أشرف عليها وحده.

طُبَخ الوَبَر بأرز، وتبين أنه قاس جداً حيث كان من المستحيل القول إنه كان له طعم محدّد. ارتحنا لكي نهضمه حتى السّاعة الثّانية و35 دقيقة، ثم انطلقنا على طول مجمع الأمطار.

مشينا بما يقارب الثلاث ساعات على طول المستوى الأساسي الأهم للجول. نَمَت هنا نباتات جديدة مع بعضها بلون الأخضر لامع الذّرار dhorar، والدّويّة الموجودة في كل مكان في الأسفل؛ والصّبر أو الألوة، الذي يُصدّرونه، ونباتات kaidah; qurith; shighle; ra; كي تُغلى أوراقها لأغراض طبّية؛ وفي القرب شجيرات تدعى دني deni، التي تبدو أنه يقصد بها صباراً، ثم تقرّر أنها شوك، تحمل في سوقها نسغاً لبتياً يستخدمونه للصق نعال صنادلهم.

نَمَت هذه الشّجيرة في كل مكان؛ وكان لها في المستويات الأخفض أوراق صغيرة

انتشرت كنجمة عند نهاية كل غصن؛ لكنها ظهرت على الأرض المرتفعة فقط مثل نمو متشابك للغابة، بلون رمادي باهت ولب رمادي داكن، شبيه جداً بالمرجان في جمال مستحاثاته حيث يشعر المرء أنها تذكر بجلاء بأرض المحيط التي دسنا عليها في الحقيقة. ولا تزال تنمو هنا بضع أشجار القَدَح ملتوية، ولكن لم يكن هناك وقاء كافٍ لها، لذا كنا في العراء، حيث لا يوجد شيء بين السطح المكسو بالحصى أمامنا وبين الهند. فطفقنا نسير ببهجة الحرية.

«تحوّل الرّوح هنا إلى أسد، وحرّية تعني أن تمتلك وهي السّيادة في قفارها الخاصة».

«لماذا هناك حاجة للأسد في الرّوح ؟ لماذا لا تكفي بهيمية الواجب التي تهجر وتظل محترمة؟».

«لتخلق لنفسها حرّية من جديد، حرّية تستطيع أن تكون قوة الأسد التي تفعل، لتفترض حقها بتقييم آخر، تلك الفرضية الأكثر هو لا لحمل ثقل مع روح موقرة».

تحدّث بذلك زرادشت، وربما وجد في كلماته سرّ القفار. إذ أنها تتيح لنا التّظر لبرهة إلى عالمنا من موقع التّجرّد المنعزل، كي نقدر قيمتنا، ونحكم عليها مجدّداً بوجود أشياء تكاد تكون أبدية. نستنكر بعضها ونتمسّك بالبعض الآخر لأنفسنا، ومهما كانت نتيجة تقييمنا، فهي لا يمكن أن تكون دنيئة ولدت هكذا تحت عين الزّمن المهيبة، ونعود بخطوات أثبت إلى قلب عالم البشر العام.

انحدرت عن يميننا ويسارنا دوامات مفاجئة لرؤوس الوادي ثم انخفضت وتلاشت في وديان غير منظورة. دندنت الحصى القاسية للجول تحت أقدام حميرنا. ولقد هرولت أيضاً من تلقاء ذاتها، أو ربما دخل شيء من الأسد في أرواحها أيضاً، وذلك لأنها راحت تجلجل أمتعتها ويشم بعضها كعب الآخر، وتهزّ أذانها.

وبالنسبة للرّوح الموقرة لا يمتلك أيّ حمار ذلك حتى ليبدأ به؛ ولكنها تابعت تأملها لنفسها، وإذا فعل أحد ذلك فيمكن لشخص أن يفكر بما يحب، وبمعزل عن

بقية العالم؛ وذلك ما فكرت به وأنا أنظر إلى رقبة «سويدي» الصغيرة القوية، وأكتافه التي تتمايل أسفل مني ومن حمولة أمتعتي، ربما يكون مع ذلك أحد الأسود ولا أحد يعلم عنه أي شيء.

كان البدوي والجندي خلفي يشتركان بأغنية حرب. وقد هروا بخفة مع أسلحة في قبضتيهما، غنى اثنان منهم نصف شطر وأكمله الاثنان الآخران بخاتمة قوية قصيرة صادرة من البلعوم؛ وكرّروا ذلك مراراً وتكراراً متجاوبين، وهم يركضون في هذه الأثناء؛ بدأت العدّ لهم، بعد وقت، ولقد كان هناك 130 إعادة بينهم قبل أن يتوقفوا بصرخة. ولكن لم يغنّ الفلاح الفقير الذي انضم إلينا الليلة الماضية في الرّاش Rash وقد تخطانا الآن، وقال بأنه كان عربياً وليس بدوياً.

وهكذا انقضى الوقت، وكانت لدينا حالياً إرباكات أخرى في لقاءات على الطريق. التفّ مواطنون إنكليز بشالات وعمامات بهيئة ثرية على ظهور حيوانات مغطاة، مع جندي عبد أو اثنين أمامهم، على المراحل الأولى للرحلة الطويلة من داخل حضرموت إلى سنغافورة أو باتافيا⁽¹⁾ Batavia. قبل الجندي الذي معي والعبيد الآخرون بعضهم عندما التقوا، وهم يحملون بنادقهم خلفهم. علمنا من هؤلاء الأشخاص بأن قبيلة السّموح⁽²⁾، والتي هي على جزء من الجول الذي اقتربنا من الدّخول إليه، قد نهبوا في ذاك الصّباح من مسافر حماره وسلاحه. كانت هناك صداقة في الوقت الحاضر بين المرشدين والسّموح، لذا لم تكن حميرنا في خطر، ولكن الرّجل الآخر كان ينتمي لقبيلة معادية، وقال سعيد: «للسّموح كل حق ليأخذوا كل ما استطاعوا. ومن المفترض أن يكون الرّجل قد دفع ثمن سيّارة Saicara (مرافقة) من القبيلة، ويمكن له أن يكون في أمان».

عارض جندينا تلك النّقطة؛ كان يؤمن بحكومة منتظمة وألقى علينا محاضرة ربما جاءت مباشرة من جنيف؛ وقد لاحظت أنه تمّ الاستماع إليه بلا مبالاة مهذّبة من قبل

(1) باتافيا هي مدينة جاكارتا الحالية عاصمة إندونيسيا، كانت تسمّى هكذا إبان الاحتلال الهولندي لجزر إندونيسيا.

(2) السّموح من قبائل سيبان الحِميريّة القحطانيّة في حضرموت.

البدو الذين كانوا الآن يتحفّظون أكثر من قبل. ولكننا لم نرَ أحداً في المدى الواسع سوى امرأة تجمع أشواكاً. انعطفنا شمالاً تحت سماء غروب باردة وصافية بغيوم قليلة زهرية اللون، ورأينا خلف انحدار متألق مربعات المثنى Mathana، حيث سنمضي الليلة. وارتفعت خلفها في مثلث دقيق تلة تدعى جبل مُلَح؛ جعلتها أشجار قَرَض قليلة في مقدّمة القمّة المسطحة التي تبدو مثل جبل فوجي ياما Fuji Yama في الهواء المنعش حيث ظهرت كل التفاصيل.

وصلنا المخيم عند الخامسة والثلاث؛ كان فيه كوخان وثالث مهدم، وشجرة قَدَح قصيرة بينها، جعلتها منزلاً واحداً، وعندما أضربت نارنا ظهر صبيّ مبتسم لم ندر من أين وقرص ليشارك الوليمة. لم يحته أحد، وبدا وجوده بديهياً. سألت: «من أين جاء؟».

«ربما من كهف. يعيش الرّجال في الوهاد».

لقد أكل وجلس معنا، واختفى في الظلام، كما أتى.

في تلك الليلة كان هناك عشرة منا حول النار، بما فيهم المسافرين الرّفاق من الرّاش Rash. كان الطّقس بارداً، هبّت الرّيح مندفعة فوق الحجارة ونفخت علينا دخاناً في عواصف دائرية؛ ولم تجعل الأوراق التي كانت صغيرة جداً تهتز في الشّجرة فوقنا وهي محاكة بشكل جيد وقريب من سوقها تمرّست على هذا الجو منذ ولادتها، ولكن البدو ارتعشوا بعريهم فلقوا عليهم شالاتهم الخفيفة التي رُبِطت فيها انتفاخات صغيرة بخيط أظهرت المكان المستتر للتّبغ والشّاي، أو السّكر.

جلستُ في عباءة مصنوعة من جلد الغنم أعارها لي مشكوراً الكولونيل لايك Colonel Lake في عدَن بارك الله اسمه، ونظرتُ بقلق إلى محمّد الصّغير، الذي سعل بشدّة وبدا مريضاً حتى من خلال لونه التّيلي، بينما أقحم حطباً تحت المِرْجَل حيث يبقب عشاءنا. حاولت أن أجعله يلبس ردائي الخارجي، ولكن وضعه جانباً بعد بضعة دقائق. قال: «يمكن لشراة أن تحرقه» وأضاف بأن: «اللون التّيلي أبقاه دافئاً».

كنت في اليوم الأول لتعارفنا قد أهنت هذا الإسبرطي الصّغير بتقديمي له صفّارة لعبة. وفي حسي عندما أعطيت ألعاباً نارية للأطفال البدو، راقب محمّد ذلك بابتسامة، متسامحة لكنها مترفعة، في حين أن الأشياء البرّاقة اختطفها من يَدَي الشاب وكان يدور بها في الجوار في الظّلام رجال ناضجون من القبيلة. لقد تجاوز محمّد ذو العشر سنين - أو ربما لم يصلها بعد - سنّ الألعاب، فقد كان دائماً يؤدّي حصته من العمل وينشر شوفان الحمير على خيش على الأرض، وقد اعتاد على فن السّفر أيضاً، فقد أكلوا بحذر، كي لا ينفخوا على العشاء بنفّس مناخرهم. وتحركوا بعناية داخل وخارج أغراضنا المبعثرة، يراقبوننا في عشاءنا.

كانت جميع أعمالنا جزءاً من طقس مضت عدة قرون في اتقانه، فهو وحده يمكن البدو من السّفر بانسجام خلال مشقات حياتهم. فهم يعاملون بعضهم بعضاً بمجاملة رسمية ضمنية، أصبحت طبيعة ثانية بحكم العادة؛ ولم أر أبداً أياً منهم يتجنّب عملاً قليلاً عندما يتطلّب القيام به، أو ينتظر الآخر لينهض ويقوم به بعد يوم شاق. عندما يفكر الشخص كم هو صعب على صديقين أن يعيشا معاً في راحة محتملة؛ وكم نُشرت كتب السّفر بملاحظات مثل «هنا كذا وكذا وأنا انفصلت» تاركاً المزيد للمخيلة - تستحق هذه اللطافة الودية للبدو أن تؤخذ بعين الاعتبار، وهي دوماً عند الحدّ الأقصى من الإرهاق أو الجوع. يمكن للمسافرين الذين يكونون مع خدمهم أن يجدوهم ميالين لأن يكونوا مشاكسين وطمّاعين، وصعبي المراس؛ ولكن تقريباً كل أولئك الذين هم وحدهم معهم تجد لديهم رواية مختلفة ليتحدثوا بها.

يقبل المنفرد بينهم بأخوة قلبية ولكنها فظة، تقلّ فيها الواجبات وتعاضم الرّاحة المقدمة للغريب الضّعيف فيجلس الواحد في أفضل مكان متاح بعد يوم سهل نسبياً، الذي تكون خلاله راكباً وهم يمشون، وأنت تراقبهم في عملهم المريح، وتدرّك كيف يمتلك مجتمع البرية قواعده وقيوده الاجتماعية، وقوانينه للحياة المحترمة تماماً مثل أيّ مجتمع رجال آخر.

كانت أمتعتنا قد رُتبت في نصف دائرة حول النّار بعيداً عن الرّيح، وجلسنا منحنيين

قبالتها، نرقب طبخ الأرز بينما يصنع سعيد كعكة من دُرّة وماء لتُعجن تحت الجمرات؛ كان الرّجلان الشّابان يطليان أفخاذهما بزيت طاولتنا المستخرج من جلد الماعز، وقد قالاً بأنه شيء من المريح جداً فعله بعد يوم شاق. همهم سعيد في تلك اللحظة بأنّ هناك من يتحرّك في الظلال، وكان سلاح سعيد الثّاني خلفه على عِذْل الخُرج، بكيس فوقه يقاوم الرّطوبة؛ التفت بلمح البصر، وكانت ساقاه المدهونتان بالزّيّت كل واحدة على جانبي حقيتي وارتفع السّلاح واستقرّ عليها كما لو كان على متراس. كان جندينا، حارسنا الرّسمي، قد ترك سلاحه في المخزن، وقيل له ألا يتحرّك، بينما طلب مني سعيد الاستمرار في الكلام كذي قبل، دون حركة إضافية أو صوت، ولكن عندما كنا نستعد للنوم لاحقاً وُجد أنّ رَسَنًا قد فُقد. فُعدنا إلى عشائنا.

وضع سعيد سلاحه الآن وعزف لنا على مزماره؛ طُهِيت فطائر الدُّرة على الجمرات؛ تُبّت أغصان صغيرة متوهجة بينما كانت تحترق، وارتفعت لآخر مرة والتوت في أعواد حمراء قبل أن تتحوّل إلى رماد، أو أن الرّيح أطلقتها في شرارات؛ ولمعت في الضّوء القاتم خناجر الرّجال المنحنية فقط، وظهرت التّوءات المرصّعة بالعقيق الأحمر، وأظافر سعيد الثّاني البيضاء على أصابعه ذات اللون الثّيلي وقد لمس الثّقوب الخمسة لمزماره. لقد كان مزماره مصنوعاً من قصب شاطئ البحر، بُنِيَ في إحدى نهايتيه ويميل تدريجياً إلى اللون الأخضر؛ لقد كان لامعاً من الاستخدام؛ وبدا كأنه يجمع في نغماته صوت الرّيح الدّائمة الخالية.

وعندما تركتهم وصعدت إلى سريري، تكلم معي صوتٌ من بين عِذْل الخُرج بينما كنت أتلّمس طريقي في الظلام؛ لقد كان الفلاح الضّعيف من دَوْعَن في حراسة لممتلكاته وكان متلهفاً ليتأكد بأنّي لست لصاً.

كان عليّ أن أكون ثابتة مع الجندي قبل أن أقنعه بأنّي نويت أن أنام خارجاً وليس داخل الكوخ. طلبتُ منه أن يضع سريري قريباً من الباب، ثم يمكن له وللبقية أن يناموا في الدّاخل؛ ولكن هذا الذي لن يفعله، وقد مدّد نفسه قرب المؤخرة بوجهه المسطح الأسود الذي يلمع في ضوء القمر. كان هذا فيما بعد، وذلك لأنني تركتهم جميعاً

يتكلمون قرب النار؛ وغرقت في التّوم قبل أن يسبّب اكتشاف سرقة الرّسن صياحاً
وجدلاً وتحذيرات متجدّدة. لم ينم أحد كما ينبغي في تلك الليلة باستثنائي أنا، وكنت
في أي وقت يصادف أن أستيقظ وأتفحص مخيمنا الصّغير في القمر، أجد واحداً أو
أكثر من الأشخاص مغطى بشال وهو يرتجف مؤزّفاً قرب النار.



الفصل العاشر

ليالٍ على الجُول

«الأرض، الكبرى، أرضنا، تلك التي بقيت ما بعد الطوفان، وجفت، وهذا كل ما في الأمر».

(ثعبان التجوم)

استيقظتُ عند الثالثة صباحاً، ونظرت لوقت طويل إلى قبة السماء، كانت شفافة مثل ينبوع ضياء. غرّد طائر، ربما بومة من الظلال، وسطع تألّق عظيم شديد على عالمنا من الحجارة. وما زالت الرّيح تندفع عبر الشجرة الساكنة التي كانت أوراقها أصغر وأقسى من أن تنحني أمامها، لقد أظهرت عدوها السريع من خلال غيوم بيضاء آتية من الشمال والتي تلاطمت كالموج في الأعلى ثم تألّقت لثبتلعت وتلاشى في ضوء القمر. ومض الهواء شديد البرودة، وارتفع القمر عالياً، ولكن كانت السماء الغربية المقابلة ناعمة تحت طريق من نجوم. هناك قادت الجوزاء وكوكبتها قافلة صديقة، بعيداً عن اللّجة البيضاء التي تغمس القمر المنعزل؛ فتحركوا على ديرتهم غير المأهولة بما يشبه موكب بهيج على نحو لا يوصف، جميل بالنسبة لهم وحدهم في تجوالهم الليلي.

لا عجب في كون أهل الجزيرة القدماء قد عبدوا تلك الكائنات السماوية؛ لقد بدا أنها قاربت في عبورها أن تلمس السطح القاحل - الجول، هنا، قريباً جداً من خط الاستواء حيث أنها مشيت بشكل أسرع فوق طوق العالم الواسع. وجاءت تَوّاً مجموعة غيم هائلة وغمرتتها؛ وأمطرت رذاذاً فوقنا حتى بزوغ الفجر.

عقب ذلك بدأت المشاكل، لأن كل واحد كان متعباً ومبللاً بعد الليل المضطرب، وقارب السكر لديّ على التّفاذ، لوضع الكثير منه للأشخاص الذين حضروا أكثر مما جهّزناه في المُكَلّا. لم يستطع سالم تحمّل أن يتركني من دون سكر، وسرعان ما ظهر ومعه كرة صغيرة رُبِطت في شاله. ولسوء الحظ لم تكن له، كانت تعود لأحمد باقرط الصّامت، الذي اعترض، ولكنه زُجر من قبل الجميع؛ قالوا لا يمكن لأحد أن يتذمّر على قليل من السكر لسيدة كانت ضيفة كما كانوا.

في الحقيقة، لقد كانوا هم ولست أنا من رغب بإضافة الحفّات منه في إبريق الشاي. وربما هذا ما شعر به باقرط. مشى لوحده بقية التّهار، عاجزاً عن الدّفاع عن حقوق الملكية. وكانت ملاحظته اللطيفة التي اعتاد الهمس بها حسب ما سمعت من أقواله كلها، كان يهمس: «إنّ البدو مسرورون بك»، كلما آتي ضمن مدى السّمع، بحالة مدير يسلم شهادة. لقد أسفت لسُكره، ولكنني شعرت بأنه استهلك الكثير من السكر الذي كان معي. جعلنا الشاي نشعر جميعاً أننا أكثر صداقة. كانت الحرارة قد ارتفعت عند الساعة السادسة صباحاً إلى 53°. وبدأنا مسيرنا عند السّابعة والتّصف قليلاً نحو الشّمال الغربي باتجاه جبل مُلَح.

بدا الجول هذا الصّباح بُتياً مثل دارتمور Dartmoor وتابعتنا لنشاهد الوديان تتناثر: على اليسار، وديان صيدون Wadi Sidun و Trumwe وبلي Beli من القُمرَة على التّوالي، حَسَا وسَرَب، تتناثر كلها من قبل في وادي حَجَر؛ على اليمين وادي شِري من جبل مُلَح ينزح إلى حويرة، واديا كنون وبقليت، من حَسَا، وغار ثبي من سَرَب، يتناثر في وادي الأيسر.

سيكون من الممكن مشاهدة كيف انثال مجمع أمطار الجول من كور سيبان إلى دَوَعَن في أربعة أنظمة كبيرة؛ حِمَم مع حَرَم ويفيض نُوتَة شرق المُكَلّا إلى البحر؛ البقية من المنحدر الجنوبي لمجمع الأمطار يتناثر إلى حَجَر؛ متجمع الأمطار الشّمالي يتناثر أولاً في وادي حويرة إلى أن نصل جبل مُلَح، بعد ذلك يفيض كل شيء في وادي الأيسر، الذي يسقط بدوره في الجزء الشّمالي من دَوَعَن، ومن ذلك المكان إلى الدّاخل من وادي حضر موت.

ولدى عبورنا رؤوس تلك الممرّات، وانحرافنا مثل التّمل الذي يأتي في الصّيف إلى شقوق في الأرض ويلتفّ بالقرب ليراوغها، استطعنا مشاهدة عمليات الانهدام في وادٍ، وازديادها في التّركيز الحاصل. وكما يجري معنا، فإنّ ما يؤدّي إليه في البداية غالباً مصادفة غير محسوسة، انخفاض غير مرئي في الأرض. تجتمع مياه المطر بفرض الجاذبية، وتندفع إلى الأسفل وترزح؛ ويبدأ الحثّ في التّربة القاسية؛ ويأخذ الانحراف يميناً أو شمالاً؛ وتصبح قوة الماء المحبوسة في جدران لا تقاوم وتقطع طريقها هادرة منتصرة؛ ويخلق هدف وتحدّد الجهة إلى الأبد (أو على الأقل لأمد طويل).

ورأينا هنا أيضاً كيف تُصنع الأعمدة الهائلة التي تدعم الممرّات الأكثر انخفاضاً، خُطت بفعل سواقي صغيرة تجري أسفل الجوانب من القناة الرئيسيّة، تأكل الأجزاء الداخليّة وتترك الصّخر ناتئاً بينها. ويُقطع المنظر الطّبيعي مثل تمثال اقتُطع من قطعة رخام، وتنتشر سلسلة أحداث على طول فترات من الزّمن. تصوّرت عندما كنت أمتطي الدّابة، أيّ مدّ وجزر غريب غسل في البداية هذه المواد مع بعضها، بعيد ومتضارب مثل أفكارني الخاصّة، التي نُقلت من أماكن بعيدة إلى هذا الفراغ غير العاقل نسبياً؛ في شظايا مبعثرة ورثت من اليونان أو بابل Babylon أو الغابات القوطية ويعلم الله العوالم المخفية إضافة إليه. لقد كانوا هنا نشطين في مكانهم كما لو كان الجّول هو المكتبة Athenaem، أو أي مكان مشابه حيث يعتقد النّاس وجود أشباح غير مرئية حولي عندما سرّْتُ بالدّابة - وربما معهم بعض أصداء تأملات السّبّيين التي لا بدّ أنها سافرت فوق وأسفل هذا الطّريق في الأيام القديمة. هذا العالم فسيح جداً، ورائع جداً، ويدهشني باستمرار، بأنّ على العقل البشري أن يكون واسعاً بما يكفي ليدركه، وربما كذلك فإنّ مهمتنا الأكثر أهميّة هي مهمّة التّفكير. يعيش البدو الذين ينتمون إلى طبيعة متردّدة على نحو غير واعٍ مثل الحجارة تقريباً، ولكنّ المستقبل في أيدينا بسبب ما نملك في إدراكنا المتعّب.

اجتزنا مربّعة قُمرّة، حيث بدأت أرض بني سموح، وأتينا بعدها لتلك الأرض التابعة للحسا، ووقفنا فجأة على حافة الجّول الأعلى ونظرنا إلى سطحه المنبسط،

تلك الرّفوف في أخاديد دقيقة في الشّمال البعيد خارج الرّؤية. ركضت سحالي صغيرة بالقرب من هنا، بحنك أميركي قوي، وأذيال مستقيمة في الهواء؛ سمّاها سالم: زومي.

كنت وقتها ألتقط صوراً من دون أن أترجل عن حماري. ساعدني سالم عن طريق تثبيت رأس الحمار، وغَيَّب منخريه في كرشه (معدته)، ليمنع تنفّسه من هزّي. ومن الواضح أن سويدي الحمار، لم يستمتع بالتّصوير. وسألْتُ سالم في إحدى تلك المحطات لماذا لا يتابع معي هو وسعيد في وادي حضرموت بعد دَوَعَن.

قال سالم: «سنفعل بكل سرور، لن يكون هناك صعوبة في الدّهاب، لأنك ستكونين معنا، والعبد الذي يمثل الحكومة. ولكن سيكون علينا العودة وحدنا، ويمكن للقبائل الأخرى أن تنهينا».

«ربما عليكم أن تتابعوا إلى شَبْوة ومن ثم تعودوا معي».

قال: «لا، يمكن أن يكون هذا مخيفاً لنا. فنحن لا نتمي لتلك المدينة».

«وهل يمكن أن تأخذوني في أي وقت إلى الأسفل في الجنوب الغربي إلى حَجَر ومَيْفَعَة؟».

قال: «لا، لا نحب الدّهاب إلى مَيْفَعَة».

«هل هناك حربٌ بينكم؟».

«أوه، لا، ولكننا لا نحبّهم. سوقنا هو المُكَلّا، ونسافر بين المُكَلّا ودَوَعَن».

يُعتبر هذا الاتحاد التجاري الصّارم للقبائل إزعاجاً كبيراً للمسافر، والذي لا يسمح للبدوي أن يتنقّل في أيّة منطقة باستثناء منطقته؛ فهو يخسر مرشده عندما يصبح مفيداً تماماً.

وصلنا مربّعة سَرَب عند الحادية عشرة والعشر دقائق وخيّمنا لتناول الغداء. كانت الحرارة 70° في الظّل، والميزان اللا سائلي aneroid 24.1. بُني المربّع، بمساحة تقارب 16 × 20 قدم، بخط يصل حتى 3 أقدام من الطّين والحجارة التي تميل إلى

الصَّخامة، وفوقها حجارة صغيرة مسطحة مدمجة بطين يقسو في الشمس ويصبح مثل الإسمنت. تلك المساكن موجودة كلها بتصميم واحد، وهي ليست أكثر من ارتفاع 6 أو 7 أقدام، لذا فعندما يخيم أحد ما تكون حافة السقف المستوي مفيدة كطاولة لحفظ الأسلحة والشالات والملحقات بعيداً. مُدَّت على الأغلب حجارة من برك المياه القريبة منهم لتوجّه وتجمع ماء المطر.

أظهر مبنى لطيفٌ من طين وفي فجوة أيضاً برجٌ مغلق ومهجور مبني من الطين قريب في واد أسفل منا بأنه كان هناك نبع، وهذا يعني أننا كنا نقترّب من نهاية الجول.

عندما جلسنا، لاحظت قافلة جمال وعبرت. تريت البدو لدقيقة لتبادل الأخبار، ثم قَبَلُوا أيدي بعضهم وساروا خلف دوابهم. لاحظتُ مدى بشاعة أفواه أغلبهم، ربما بسبب لويهم المستمر لها في الشمس، حيث أنهم لا يرتدون أبداً غطاء الرأس الحامي مثل عرب الجنوب. وعندما غادروا، شاهدت سالم يحضّر للرحيل وقدمت باعتراضي الاعتيادي ضدّ تلك السرعة غير الضرورية في حرّ النهار. كرّرتُ عبارة «العجلة من الشيطان»، في كل فترة بعد الظهر عندما حصل ذلك.

وأجاب الجميع في جوفه: «والتّائي من الرّحمن»، ولكن ومع ذلك استمروا بالإسراج. وأوضح سالم: «إذا لم نبدأ الآن فهذا سيعني ليلة إضافية في الجول وعلينا أن نشترى تبناً».

اقترحت تسوية: سأشتري التبن، الذي يصل إلى تسعة شلنات لكل دابة، وسُمّضي ليلة إضافية، ولا نسرع خلف الطعام. وهكذا سُرّ الجميع، وجاء سليم بعد برهة إلى رقعة صغيرة من ظل استرحت فيها، وسأل إذا كنتُ راضية أم لا. وأضاف بومضة انفعال: «من الجيد أن تكون صبوراً مع المسافرين».

وافقت بأنه من الجيد دوماً أن نكون صبورين، متجنبين أيّ استدلال مادي. ورغم ذلك، فقد جعلوني أنطلق عند 2:30 مساءً.

غادرنا الجول المرتفع الآن وانحدرنا تدريجياً في وادي دَهمة، الذي ينزح إلى

«الأسر»، ويحتفظ في منظره الطبيعي الضحل والتاعم في القرية الأولى دَهِمة، شمال مستجمع المياه. وهي عبارة عن أربعة أكرات أو أكثر من أرض مسطحة في قاع الوادي الأعلى المفتوح، بشجيرات علب⁽¹⁾ قليلة، وقلعة مربعة لحماية البيوت قربها؛ ولكنها بدت متحصرة بعد الجول وسماها سعيد مدينة.

تركناها عن يميننا وتابعنا عن طريق عقبة منخفضة إلى بُريرة، بينما ذهب سليم لشراء تبْن في قرية مُرشدية أبعد، ونظراً لأن كلاً من دَهِمة وبُريرة تنتمي إلى السموح؛ فأعتقد أن هذا كان السبب في معارضتهم للنوم هنا؛ ووفقاً للمثل الإيطالي: «لا بأس في أن تتق، ولكن ألا تثق أفضل»، وهو أحد الأمثال التي يقدّرها البدو بشكل تام.

جدل التبن الذي اشتروه هنا بشكل ثخين، يأكل حمار نصف أو ثلاثة أرباع واحدة منه في يوم بالإضافة إلى ما يساوي 1/4 دايماً من ذرة؛ ويطلب الجمل فقط الثفاية من عصر الزيت، والتي تُلقم له في كتل متراصة، لهذا فهو لا يكلف شيئاً، ويُعتبر الحمار أنه الحيوان الأكثر استقرارية.

بُريرة عبارة عن مجموعة صغيرة منعزلة من أكواخ مكعبة الشكل في انحدار خالٍ تقريباً من الشجر مع بعض الحقول قربها. وصلنا عند الخامسة مساءً ودفعنا حميرنا عبر باب داخل فناء كبير بما يكفي ليتسع لها، ووضعنا متاعنا في واحدة من غرفتين في الخلف. وهي أماكن بائسة لا نوافذ فيها، سوداء من دخان موقد مكشوف. كان كل ما تحتويه غرفة استقبالنا بضغ صواني طعام مطلية معلقة على جدران زلقة، وحصيرة أو اثنتان من الأثل ونارجيلة على الأرض. كانت ممتلكات ربة المنزل الأكثر قيمة هي أسطوانة حجرية وحجر الرّحى، وبكلفة طالر واحد أو ثلاثة، وكان الفقر القاسي هنا مثل صدى للأرض القاسية المحيطة. حتى الأطفال بدّوا مقهورين، ويلبسون السواد.

(1) شجرة العلب هي ذاتها السدر، اسمها العلمي: *Ziziphus spina christi*، وهي شجرة دائمة الخضرة، خشبية معمّرة شوكة يصل ارتفاعها إلى 10 أمتار وعرض التاج 12 متراً ومحيط الساق 180 سنتمتراً، وهي ذات أوراق بسيطة بياضوية الشكل وأزهار بيضاء مخضرة وثمار كروية خشنة الملمس. وتزهر الشجرة في شهر أكتوبر، بينما تنضج الثمار في أبريل. والعلب يتواجد في معظم الأودية الفرعية لوادي حضرموت.

وحُلِق شعر الفتيات الصّغيرات بنطاق بشع على الجبهة والأصداغ، تاركين خصلة منفردة تُدعى «حلاقة» بما يقارب عرض نصف إنش فوق الجابين، مع الصّفيرة العادية في الخلف، تُصنع مرة كل أسبوعين.

لقد تبعنني، مختبئات، عندما ذهبت قرب بعض المنازل وزحفن تدريجياً خارجاً عند مسافة آمنة عندما وقفت عند مقام وليّهم، الذي يقع فوق الحقول. لقد كان نوعاً بسيطاً من قبر، بما يقارب 3 × 4 قدم، مطلي بالأبيض وخشن، ولكنه مزخرف في الزوايا الأربعة وبطريقة سبّئية قديمة في وسط أحد الجوانب مع قرون وعل وماعر يسميه الناس *saidi* - مصطلح عامي لأنثى الطّي الوحشية البرية، كما أُخبرت فيما بعد.

عندما عدت أُخبرت جندينا بأننا سنولم على خروف تلك الليلة. وكانت ديوكنا قد قاربت على نهايتها، مات أحدها من التعب وطُبخ الثلاثة الآخر مع الأرز، لم يكن لديّ أية رغبة برؤية ضحايا أخرى تُربط حيّة على قوس السّرج الأمامي. وبعث التّفكير بعشاء جيّد موجة من البهجة بيننا جميعاً.

عُرض أمامي خروف كبير، ولكن السّعر كان 13 طالراً، جلس البدوي ينظر إليه بوقار مُبهم إلى أن لاحظت ملاحظة في مضاربة بأن ذلك كان سعراً غالياً جداً. ومن ثم قاموا واحداً تلو الآخر، وتحسّسوا على الخروف كله، وساموا بسبعة طالرات أقلّ من سعره. ومع ذلك بقي غالياً جداً لأنني لا أملك سوى خمسة طالرات، وقلت بأن الخروف بدا كبيراً على نحو غير ضروري. وافق الجميع فوراً، وقد تم إحضار حيوان آخر خائف صغير، أسود اللون بذب أبيض الطّرف، وتحسّسوه كله. اشتريته بستة پنسات وأربعة شلنات 4s. 6d (3 طالر)، وفي خلال دقيقتين كان اسم الله قد لُفظ على ذبحه في الفناء؛ جلست امرأة لتسلّخه في المدخل، بينما سُخّن ماء الطّهي في الوعاء. تبين أن مسافرنا الشّاب من الرّاش Rash كان جزّاراً، فعُهد إليه بباقي العمل. قام بتقطيعه بخنجر على بساط من قشّ ثم قسّمه كما يمكن أن تقسم أفريقيا Africa بين القوي، فيما إذا كان للناس مثل طريقتهم، واستخدم الأحشاء مثل حبل حول الفضلات

ونهايات العظام، ثم سلّم كل شيء للنساء ليأخذنه إلى غرفتهن ويطبخنه في الأرز. تم إحضار القلب والكلية لي، وأطعمة مترفة، وقد قُليت في مقلاة البنّ كمقبتلات.

كان من المثير للشفقة رؤية مدى شعبية تلك الوجبة التي صُنعت لي ومع أيّ تمجيد صامت استقبلوا ظهورها وقد كوّمت على صحن القصدير الذي استعير من مسافرينا الشباب. وبسط الجزّار الآن حول حافة الصّحن تسعة أجزاء على مرأى من عيوننا الجائعة (واحدة لسيد البيت). وضعوا واحدة في طبقي، والأفضل دون شك، ثم اختار كل واحد بدوره، ثم انتهى ذلك العمل المثير واستقرّوا للاستمتاع بالأكل في سرعة لا تُصدق؛ وحده سليم قاطع نفسه ليخبرني بأنه قد احتفظ بالقليل من اللحم غير المطهي لي لليوم التالي، حيث كانت لديه كل موهبة حقيقية أصيلة في الشّهامة.

بعد انتهائنا من شرب القهوة، أويت إلى حافة سريرى وقمت بما أمكنني من إصلاح رونقي بينما كان البدو يجثمون في دخان النّار. تمدّد سعيد الثاني في زاوية لاعباً بحزام خراطيشه، وقد حُلّ عن ورقه.

كان فيه محفظة في المقدمة لا تحوي شيئاً باستثناء عدا كبريت وعنوان وحوى في حيز خراطيشه الأول، بدلاً من خرطوشه، علبة صغيرة كمكحل ليزين عيونه. وسحب في الحال خنجره وبدأ ينفخ عليه، متوجّهاً إلى الرّفاق بابتسامة مبتهجا في حين أخفى البخار سطحه اللامع. لمحني وأنا أعطي وجهي بالكريم، فناول الخنجر لمحمّد الصّغير وطلب منه أن يطلب مني القليل من ذاك الدّهن ليدهنه به. ووضعت كتلة منه على النّصل وأنا أشعر بشعور بالنّدم إلى حد ما - كونه كان ثميناً جداً - وتساءلت ماذا يمكن أن تفكر به مس لثبريدج Miss Lethbridge في بوند ستريت Bond street فيما لو قدّر لها رؤية ذلك. حملة محمّد بحذر شديد في ضوء النّار، حيث استقبل بهتافات من فرح.

قال سعيد وهو يشمّه: «ياسمين». سلّمت جميع الخناجر له للحصول على حصّة؛ كان القليل قد بقي، فبسطها على ساقه، مصرّحاً بأنها كانت «أفضل من زيت».

نمنا بعد ذلك بسعادة أقل من سعادتنا عندما كنا في الصحراء المكشوفة، ونهضنا في الفجر وردي بلون الصدفه وغادرنا بُريرة عند الساعة السابعة والنصف لنترفع مرة أخرى عن الوادي ونعبر امتدادنا الأخير من الجول. كانت درجة الحرارة عند الساعة السادسة والنصف 58°. وبما أن مضيفنا لم يكونوا ينتمون لقيبلتنا المرشدية Murshidi فقد أعطيتُ قبل الذهاب طالراً للمرأة التي في البيت، حيث أنها مخلوق تعب ودود وكان الشيء الوحيد الباقي من زهو أنوثتها ومن شبابها خلاخيل نحاسية بارتفاع 6 إنشات. وأخبرتني بأن رجلين من السموح كانا رهينتين في السجن في المُكلا.

حدث شيء مؤسف في الفناء حيث كانت حميرنا تُسرج، فقد صُودر أحد الأكياس فوق وطالب به كل من سالم والجزار من دوعن في وقت واحد. ويمكن لسالم اللطيف جداً عادةً أن يفقد أعصابه بين حين وآخر دون توقع، وهذا من الممكن أن يفسر سبب طلاقه. كان مندفعاً نحو الجزار، بينما تدخل سعيد وجنديتنا. كان النزاع مسألة جدية، لدى رؤية تلهف الجميع لإيقافه. تم فصل المتقاتلين، وألقى علينا الجندي إحدى خطبه باسم الحكومة، قائلاً إنه هو نفسه سيقضي بين المدعين عندما نصل لنهاية رحلتنا.

لم ينتبه أحد له ولا بد أن اللامبالاة التي قابل البدو فيه تباهيه قد سببت له ألماً مستمراً. ولم يكن غروره شخصياً؛ فقد ارتبط بتلك الأسرة الملكية التي ينتمي إليها أبوه وجده قبله، ثم شراؤهم منذ البداية وأحضروا من أفريقيا، ولذلك كان إخلاصه مطلقاً، واعتبر نفسه كناطق باسمها، متواضع نعم ولكنه مُلهم - وهو إيمانٌ خطِر وسبب لمعظم مظالم العالم. ولكن لم يكن موهوباً بالسلطة الفطرية؛ لقد كان إلى حد ما مثل ممرضة صعبة، وانتبه البدو إلى حد كبير للقصة الطويلة والمملة لمسؤولياته، كما اعتدنا أن نفعل لهؤلاء الحاكومات غير المؤهلات. وعلى الرغم من ذلك، فقد كان سعيداً الآن؛ حيث تمت طوال اليوم حول تفوق الحكومة وقضية الكيس بالتناوب، وأخبرني أنه عندما نأتي إلى دوعن فسوف يجعل الطرفين كليهما يقسمان على ملكيتهما للكيس وسيعطيه للشخص الصحيح.

قلت: «ولكن، لنفترض أنّ كليهما حلف بأنه يعود له؟».

لم أتلّق أيّ ردّ مقبول، إما لأنّ لغتي العربية كانت غير وافية، أو كان هذا أبعد ممّا يمكن للعقل الأفريقي الوصول إليه. تابع هو وسعيد مناقشة مزيّة العدل المثالية للفقراء بنبرة غير مبالية استُخدمت لفصائل غير مرغوبة؛ في غضون ذلك، كان الكيس قد استولى عليه سالم وبقي معه، كان حزبه مؤلفاً من أربعة مقابل واحد؛ يستطيع الشخص فقط أن يأمل بأن يكون العدل والحكومة إلى جانب التعداد في هذه المناسبة.



اجتزنا قرية ثانية عن يسارنا تدعى بُريرة، بحصن وأمامه أشجار القَرْض، ووصلنا لمستوى من الجُول أخفض ولكنه من نواح أخرى مشابه تماماً لما كنّا قد اجتزنا من قبل، باستثناء ذاك التّجد البعيد خلفنا وهو سلسلة كور سيبان المتموّجة زهرية اللون وبنفسجية تمتدّ في السّماء كالّدخان.

ينزح وادي كارت الذي عن يميننا مع عدد من الرّوافد في: «الأيسر». ويمتد على يسارنا، وادي منوة إلى دوعن. كان الطّقس حاراً هنا، وسطعت الشّمس بيضاء في سماء بيضاء، وسطع كل مكان على حواف قاسية لحجارة صغيرة. يقولون في بعض الأحيان ثمة أعشاب صغيرة تجعل الجُول أخضر، ولكنها تمتد الآن جرداء مثل مشواة تحت أشعة الضّوء. عبرنا مربع هدجه Hadje وباخميس، وبقينا هناك حتى السّاعة الحادية عشرة وعشر دقائق وتكلّمنا مع امرأتين تسافران لرؤية أطفالهما في المُكلّا، قالتا بأن المُكلّا مكان غير محتشم، لا تلبس النّساء سراويل تحت تنانيرهن القصيرة كما يفعلن في وادي دوعن، من المحتمل أنه عدم تسامح غير صحيح إلى حدّ بعيد - ولكن هذا كان كلام النّسوة. غادرنا وسرنا إلى أن أضاء الغروب الجوانب الغربية للحصن الذي يغطّي المدى المسطّح، وخفقت ظلالنا فوقها مثل ستارة تسافر أماننا. كانت حجارة البراكين هنا وهناك بنفس اللون القاتم المرقّش لبشرة البدو.

شعرتُ إلى حدّ ما بالمرض مع وجع في الرّأس وسررتُ لرؤية تفرّق الرّجال لملء

شالاتهم بحطب الوقود، وهذا يعني أنّ المخيم كان قريباً. تستخدم هذه الشالات القطنية الزّهيدة لكل شيء؛ حتى عندما يحكيون كيساً فإنّ البدو يسحبون خيطاً من شالهم ليفعلوا ذلك. أتينا عند الساعة السادسة إلّا ربّعاً إلى عُبيد Obaid مربع الجُول. لا يوجد هنا خشب في الجوار، لأنّ النّساء تأتي من دَوْعَن لجمعه. استطعنا رؤية صخور وادي «الأسر» عن يميننا، ويظهر صدع ضعيف فقط عن بُعد. كانت الحرارة 61°.

كنا مجموعة أصغر، لأنّ سعيداً الثاني وأحمد باقرط، الفتى التّكوت قد اندفعا إلى بيتيهما، وجزار دَوْعَن الذي كان انفراد بنفسه بعد مشكلة الكيس. مع ذلك، فقد جاء في الوقت الذي جلسنا فيه قرب النّار، بودّ مثل قبل، وبدأ بطبخ مزيج من طحين وماء وسكّر للمنفعة العامة؛ ونثر عليها مزيداً من السكّر عندما سمكت لتصبح عجينة، وصنع حفرة ليصبّ زيتاً في الوسط، ودعانا لنشارك - ولقد كانت لذيذة جداً.

كان سكّرنا قد نفذ، ولكن صادف أنّ الجزار كان يحمل حمولة لأحد التّجار في دَوْعَن، لذا فقد «اقترضنا» القليل، ليتمّ إعادته من دكان في الوادي. كان هذا قد حصل بعد تردّد كبير، حيث يحرص البدو على الحمولات التي يُؤتمنون عليها. تعتمد سمعتهم ورزقهم على ذلك، وأخبرني سعيد بأنهم يقومون بالرحلة بين المُكَلّا ودَوْعَن أو بالعكس ثلاث مرات في الشّهر تقريباً.

قال: «حياة عقيمة، دائماً على الطّريق»؛ وهو لا يمكن أن يبدّل سرور الصّحة المتوفرة في الجُول بالراحة في الوادي.

كانوا ودودين مع قرب نهاية رحلتنا، وشكروني مرة أخرى لمشاركتي طعامهم على الطّريق، قال سعيد: «لقد كان سفرّاً سارّاً».

كان سليم يصبّ قهوة في الوعائين الرّماديين الذين يمتلكهما جميع البدو على شكل آنية فخارية.

قال: «هنا نحن الآن هنا، كلنا معاً. وغداً؟» - فتح يديه واسعاً - «سنكون متفرقين، أين؟».

نظرنا بصمت إلى الظلام والنجوم، بعد هذا السؤال الحزين جداً، القديم والعالمي. وذهشنا فجأة لرؤية ضوء صغير يومض ويخبو هناك. اعتقدت أنه كان فانوساً يهتز صعوداً ونزولاً مع حمار.

قال سعيد متردداً: «يمكن أن يكون كذلك، ولكن لا يسافر الناس في الليل. فيمكن أن يكون أيضاً مجرد قدرية».

اختفى الضوء. قالوا: «لا بد أن يكون القدرية».

أخبروني، بأن «القدرية» عبارة عن ضوء هائل يظهر في بعض الأحيان في السماء خلال الليلة الخامسة والعشرين من رمضان، وتحقق عنده كل رغبة طالما كان منظوراً. ظهر في تلك اللحظة الضوء مرة أخرى، بشكل أقرب، وصوت وقع أقدام على الحجارة. كان من الواضح أنه بشر.

نادى صوت من الظلام في الحال، وظهر ثلاثة قرويين أو من الضعفاء من الوادي، مرتدين بشكل جيد ومغطّين رؤوسهم في البرد الليلي، ظهروا في حلقتنا عند ضوء النار. كانوا أصدقاء وقد سمعوا عن قدومنا من سعيد الثاني وباقرط، وقد جاؤوا لحمايتنا في الليل نظراً لتأخرنا (الناشئ عن تفضيلي للسفر البطيء).

استقبل هذا اللطف بشكل جيد، وتوسعت الحلقة الاجتماعية حول النار. تركتهم وذهبت إلى سريري في ضوء القمر، مبتهجة في نومي الأخير في العراء - الأخير لعدة أشهر كما جرى.

غادرنا في الصباح التالي على مهلنا، حيث كانت لدينا مسيرة طريق قصير فقط لنذهب فيه. هرولت الحمير بمرح، وقد علمت أنها أصبحت قرية من موطنها؛ وشاهدنا إلى الأمام منا قريباً في منبسط الجول، ومع امتداد آخر لا منته من الجول خلفه، الشق الطولي المتزايد وقمة الجرف المقابل لوادي دوعن، مع أرض سلاح الجو الملكي R.A.F. منبسطة عن يميننا وبرجي مراقبة مبنيين من مربع طيني على حافة الجرف أمامنا.

* * *

الفصل الحادي عشر

الحياة في دوعن

منزلنا رَحْبٌ لَمَنْ زَارَهُ نحنُ سواءٌ فيه والطَّارِقُ
المستطرف

لو سُئِلْتُ ما هو الشَّيء الأكثر قبولاً في الحياة، فعليّ أن أقول إنه متعة التَّغَاير. فلا يمكن للمرء أن يتخيل أحد سوى أن يكون ملكاً يجلس مع قيثارة في الفردوس إلى الأبد، إذ يحتاج الشَّخص الطَّبيعي للتَّغيير. إنه السَّحر السَّري للواحة، وهي عادة رقعة معتدلة من خضرة جعلها فقط محيطها الرَّملي ذات قيمة عالية. تنبع الينابيع المشهورة في العالم مثل: باندوسيوم Bandusium وهليكون Helicon أو تلك المياه من عين السَّلسيل التي أعطاهَا سُليمان لملكة سبأ - في أماكن مُجدبة. إنّ جمال الفجر في الألب الذي يمتدّ بشكل جزئي في العالم التَّائم في الأسفل، مثل كرسي دافئ قرب النَّار بعد يوم مع كلاب صيد، أو غرفة مغلقة بمصاريع عندما تهتز الرِّيح، تُعتبر من هذا النَّوع من المتع. وكم عِلِم الرَّاعي الإغريقي متعة خشب الصَّنوبر الآمنة عندما تهيج العواصفُ البحرَ المكشوف؛ وأخبرتني امرأة أعرفها بأنها تزوجت زوجها لأنه كان دوماً يقول غير المتوقع - أعتقد أنه سببٌ مغامرٌ جيد للزَّواج.

هذه المتعة اللطيفة غير المتوقَّعة نكهة حياة، مكافأة لهؤلاء الذين يقفون على الحافة من الجُرف بعد عبورهم الجُول وينظرون إلى الأسفل في وادي دوعن.

يقارب عرض الوادي ألفاً من الiardات، وينحدر ألف قدم أو ما يقاربها بجدران عمودية. بنيت بلدات صغيرة على الجوانب المتكسرة الصلبة التي تمسك الجروف مثل أعشاش السنونو، ولا يظهرها إلا ضوء الشمس مقابل الأرض في الخلف. وعندما ينظر أحدهم للأسفل يجد خمساً أو ستاً منها واضحة على المنحدرات. ملئ أسفل الوادي بأشجار نخيل بينها وبين حقولها المربعة المحروثة من كل جانب في قاع جدول أبيض، تلتصق قممها هناك على نحو مظلم، مثل أفعى أو نهر، بحراشف أو موجات صغيرة تلتصق في الشمس. تستقر العين على اخضرارها المحصور، بعد أن أشبعت بأماكن مكشوفة وتتبعها إلى حيث تلتف من الظل إلى ضوء شمس بين أكتاف الجبل تحتفظ بها في الداخل وتلتف بها حول زاوية في البعيد. وانحصر نهر النخيل في جدران صلبة احتجرت كما هي في صدع في الجول، وتبدو جريئة مثمرة وأماكن راحة وظلال هادئة متفائلة مثل الحياة نفسها بين ذراعي الخلود.

تقع الصعوبة في حضرموت في الانحدارات الشاهقة في تلك الوديان، الـ «عقبات» التي بنيت طرقها في الجروف. وهي على الأرجح قديمة جداً، مُهدت بصخور مستديرة مثل الممرات التي تكافح بين جدران ليغوريا Liguria؛ ولكنها أقسى وأكثر حِدَّة. تركت ملكة اليمن في القرن الرابع عشر أوقافاً لـ «ينابيع شرب في طرق الوادي» ولإصلاحات ممرات جانب التل الشاهقة و«الطرق المدرجة». (لقد كانت امرأة مرموقة جداً، وكان زوجها الملك الأشرف الرسولي مخلصاً جداً لها حيث حزن على وفاتها لمدة شهر قبل أن يتزوج مرة أخرى). شققنا طريقنا أسفل عقبتنا المحددة المجوفة في الجرف والمتدلية أحياناً، واستغرق الأمر من وقتنا خمسين دقيقة لنصل إلى المنحدرات المتكسرة حيث فرشت الحواف الكلسية بالحجر الرملي.

كان جول البدو المفتوح خلفنا في الأعلى، وكنا في جو أثقل، بين قرويين، كانوا قد وقفوا ليتفحصوا مع معاولهم مغروز نصفها في الأرض، ولكنهم لم يعطوا تحيات عن طواعيتهم. قاد سعيد قافلتنا الصغيرة تحت أشجار النخيل على طول ضفاف مرتفعة في ظل كاتدرائي عالٍ، حيث تجتاز الحمير في مجرى جاف في الأسفل. وسرعان

ما مشت شمالاً أسفل الوادي، وبلغنا قلعة حاكم مَصْنَعَة، التي بُنيت عالية من طين ومربعة على جانب الوادي، وبأسطح وشرفات اكتظت لرؤيتنا وأطلقت طلقة ترحيب بنا. عبرنا بوابة منحوتة مرصعة بعقد حديدية؛ فوق طريق ملتو محصور داخل الحصن وبابين آخرين في زوايا مختلفة. يوجد من يصفاحنا في عند مدخل، وكذلك عند ممر ضيق في غرفة مطلية بالأبيض وذات أعمدة، حيث وقف الحاكم وأخوه، محمد وأحمد باصرة للترحيب بي.

كانا محاطين بحاشيتهما القبليّة، بدو بلون نيلي كالمُرشد الذي معي؛ جميعهم ذوو بنادق تتدلى أو تستند كإفريز مقابل الجدران، بينما وقف الرّجال محتشدين معاً ليشاهدوني. تم جمع بعض أفراد من الأسرة عند الجانب الأعلى من الدّيوان، على حصائر أو سجاد؛ بدا قائد حامية الجند الصّغيرة؛ وجار أو اثنان من البلدات المجاورة، جميعهم مرتدون أفضل ما عندهم بمآزر ملونة، مع سُتر بيضاء وعمامات. جلسْتُ هنا على الأرض بعد أن خلعتُ حذائي؛ وأخذت قهوة في أوعية خزفية، بينما تولى الخدم أمر الشّيشة، أو التّرجيلة، وداروا بها بفترات منفصلة كي يستطيع كل واحد من ضيوف الشّرف أن يأخذ منها نشقة.

أمضيتُ اثني عشر يوماً مع آل باصرة وتعرّفت عليهم جيداً، ووجدت أنه من الصّعب إيجاد عائلة أكثر سحراً وجاذبية في أي مكان، يسكن الأخوان معاً في الحصن بانسجام، ويتقاسمان عبء الحكومة بينهما. يحبّهم بدوهم ويقولون: «باصرة أبونا»، كما يمكن أن يقول أحد أفراد عشيرة سكو تلانديّة عن رئيس عشيرته. ويتفق سكان الوادي أيضاً، في مدحهما ومدح عدالة حكومتها وصرامتها، التي تتبع فعلياً استقلالية عن سلاطين المُكّلا. كان كلاهما رجلين صغيرين بعض الشّيء، متشابهين جداً، لهما العينان البّيتان الرّقيقتان نفسهما، والفم الكبير ذاته، وشفتان تميلان للامتلاء تستعملان للابتسام، والوجه البضاوي الطّويل ذاته ويدان طويلتان قويتان.

الاختلاف الوحيد هو أنّ محمّداً كان لديه حافة مجمعة لشارب أسود، بينما أحمد لديه فقط خصلة شعر أسفل ذقنه. كان أبوهما قد أمسك بزمام السّلطة بإحكام في

الوادي قبلهما ومات وهو رجل مسنّ جداً قبل سنتين فحسب، وكان قد تزوّج عشر زوجات في مجرى حياة قضاها بشكل جيد. وتزوج محمّد سابقاً ست مرات وأحمد أربعاً. علمت هذه التفاصيل لاحقاً، وفي هذه المقابلة الأولى التي أقيمت فقط لتبادل المجاملات الضّرورية قبل أن يقودوني عبر سبيل ملتوٍ من الحصن إلى شقتي.

كان ذلك يعود للحاكم القديم، وكانت أرملته «غنيّة» هي القيّمة عليه، وقادتني إلى أعلى درجها الطّيني الضّيق إلى باب مزخرف حملت مفتاحه الخشبي في حزامها. لقد كانت غرفة كبيرة بست نوافذ منقوشة على طول قناطر منقوشة ظهر عبر إطارها الوادي في الأسفل. كان على الشّخص أن ينحني ليرى ماذا في الخارج، لأنّ النّوافذ قد صنعت كلها بمستوى الأرض، ملائمة للجالسين على الأرض.

إن بيوت دوّعن الجيدة متشابهة كلها تقريباً، دُعِمَت غرفها بأعمدة خشبية منقوشة بإتقان، وقُوبِل الجدار الدّاخلي أيضاً بخشب منحوت، مقنطر بأعلى الباب ومفتوح في المشكاة حيث يُحفظ المخزون من اللحم والوسائد خلال النّهار. النّحت رقيق، وخشب العِلب القديم غني وداكن اللون، زيتته عقد حديدية، مطلية برمتها كفضّة باهتة. بنيت الأسقف بقطع من خشب النّخيل على نموذج عظم سمك السّردين بين عوارض صغيرة؛ ودُعِمَت بأعمدة منقوشة مع أفاريز سطحت حسب النّموذج العجمي القديم؛ توجد النّوافذ في أربعة أجزاء مستقلة، نُحت كل واحد منها بزخرفة تشجيرية على فتحة مقنطرة صغيرة، حيث لا يوجد زجاج أبداً. ومصاريع قوية، بسماكة ثلاثة إنشات لتجنّب الرّصاص، تقارب كل حجيرة وكل نافذة فيها فتحة صغيرة مدورة أسفل منها، مع أنبوب ميزاب في الخارج، مفيد لسكب أشياء على المهاجمين في الأسفل، وثقوب خلفها لماسورة بندقية.

لقد أصبح الوادي هادئاً مؤخّراً، وتذكّر الكثير من النّاس بلداته الصّغيرة وهي تتقاتل مع الأخرى، بينما حوَصِر باصّرة المسنّ في بيته الخاص، ولكن السّلام التّام يعمها الآن؛ وفيما لو دَوّت طلقة، فإن صداها يضرب على نحو متكرّر من جدار إلى جدار من الوادي كما لو أن الصّوت لا يستطيع أبداً الهروب من ذاك السّجن، ويمكن لسيدات

الحريم أن يندفعن لنوافذهن المنقوشة وينظرن إلى جميع البلدات الصغيرة الممتدة في المَشْهَد أمامهن متساءلات إن كان ذلك صادراً من البدو أم من الجنود، ثم يعدن خائبات الأمل عندما لا يحدث أي شيء آخر، وأخبرني كم أصبح الوادي هادئاً بشكل رائع.

ولقد افتخرن بغرفهن، وأظهرن غناهن بأعداد الصواني التحاسية التي علقت على الجدران، أحياناً على نحو وافر جداً بحيث تراكبت الواحدة على الأخرى. وبالإمكان دوماً تحويلها إلى نقد بسبب قيمة المعدن، لذلك تنظر السيدات إليها كنوع من بنك التوفير، في تناول يدهن. اعتادت العبدات أن يأتين وينفضن الغبار عنها بعناية فائقة، ومع ذلك فلم يتلقَ شيء آخر الاهتمام ذاته، ولقد كانت في لمعان مستمر. وغطت مرايا برمنغهام Birmingham، وأطباق غريبة البقية من مساحة الجدار، وثمة صفوف أوعية قهوة من القصدير، ترتفع في زوايا الغرفة إلى السقف واحدة فوق الأخرى وتكاد تلتصق به.

لم يكن هناك أثاث، باستثناء بين الحين والآخر بعض الصناديق المنقوشة الجميلة المغطاة بالتحاس من زنجبار، مثل التي توجد أيضاً في الكويت والبصرة. غُطيت أرض الغرفة بسجاد، وكان الطين تحتها قد قسّي في أرض ناعمة كرمل مضلع، واستُخدم كذلك نموذج متموج مزركش على الدّرجات. وعلى جدران الدّرج إفريز من طين مُلّس في بعض الأحيان وبَيّض واستُخدم بشكل مفرط حتى لمع كأنه طلاء، مع حافة متعرجة له. إنّ بإمكان عمّال دَوَعَن وحضرموت الأكثر مهارة استخدام الطين برقة مثله مثل الجصّ، وبالفعل لا يمكن لأي شيء أن يكون أكثر تبجيلاً وجاذبية من الطّراز القديم لبيوتهم. التي بدأت ولسوء الحظ تُزدرى لتفضيل أشياء مبهرجة سيئة قادمة من أوروبا.

عندما ذهبنا للأسفل إلى الديوان بعد ذلك، وجدت أحمد ينظر باعجاب إلى بضعة قطع من زجاج أصفر بلون الخردل، نُقل بتكلفة باهظة على جمل من المُكّلا. لقد كانت من أجل البيت الجديد، الذي كان يُبنى في مكان قريب. ويمكن أن يستغرق

سته أشهر إلى سنة حتى ينتهي، وبعد ذلك يمكن أن ينتقل إليه ويترك غرفه في الحصن القديم لابنه.

أخذني لأرى البناء، حيث كان بناؤه يغتوّن لتمضية الوقت سوية بينما كانوا يضعون الألواح من الطين والتّبن في أساسهم الطّيني. رُصف أخفض شريط من البيت فقط من الحجر، بينما صُنعت البقية، وحتى ارتفاع سبع طبقات، من تلك الألواح الطّينية والقش المقطّع، بما يقارب عرض ثمانية عشر إنشاً مربعاً وسماكة ثلاثة إنشات، جُفّفت لمدة أسبوع في الشّمس، ثم وضعت في معجون من طين سائل. كانت الحمير تهزول بالماء في جلود ماعز لتمرّج بالأرض. بدأت الجدران تظهر، وهي تميل بعض الشيء للدّاخل مثل الأبنية السّبتية القديمة، وتجعل حصنها الضّخم يطلّ على مدن حضرموت؛ وحتى أغزر الأمطار سوف لن تخترق أكثر من إنش أو أكثر بقليل داخل سماكتها، وتبقى لمئات السّنين. تزين تصاميم مطلية بالأبيض الجزء الخارجي من التّوافذ أو تتناوب بنطاقات من لون بني طبيعي. وعندما قلت بأنّي أعتقد بأن هذه البيوت أجمل من مدن أوروبا الجديدة، رفض اثنان من باصّرة تصديقي، ولكنهم اعترفوا بأنّه من الممكن أن تكون أبوابهم القديمة المنحوتة أكثر براعة من الخدع ذات القوالب آليّة الصّنع المطلية باللون البني التي طُلبت لتوّها من الغرب. تقترب ظلال الحضارة المدنية لتظلّل تلك الوديان الإقطاعية، وغياب المواصلات فقط هو الذي يحافظ على سوقيتنا الصّحية.

أول شيء سألتُ عنه في شقتي كان الحمام، ووقت كافٍ لمعالجة غبار أمتعتي. كان الجندي في غفلة عن ناظرّي قد وضع رأس الوبر في إبريق الشّاي، الذي قام البدو بوضع الفلفل والملح فيه من أجلي، وهو ما يزال ذا رائحة أكثر ممّا يمكن للإنسان أن يظنّ أن هذا يمكن خروجه من شيء صغير جداً.

اشتركت أنا وأرملة الحاكم معاً، في اشمئزازنا من هذا الاكتشاف، ضدّ الفعل الأخرق العام للرّجل؛ وأحضرت لي فوراً ماءً ساخناً في شيء قصديري له ميزاب صبّ فوق الماء عندما وقفت على أرض الحمام - وبالنسبة لغرفتي، مثل جميع شقق حضرموت هذه، كان فيها حمّام خاصّ بها. قامت جرة فخارية بارتفاع أربعة أقدام،

في الزاوية تُملاً بالماء كل يوم، والأرض مائلة للأسفل إلى بالوعة أسقطت الماء على مقدمة جانب الهضبة أسفل جدراننا. وذهبت المياه المصرفة أيضاً هناك في الأسفل في الطريقة المفتوحة ذاتها، بُنيت عبر قضيب واسع على كل جانب من منصّة صغيرة للوقوف عليها، وبسبب فقدان ورق الحمام فقد مُلئت كوة في الجدار بطين من تراب جانب التلّة، مُقسّاة في الشّمس.

هذه الحمامات نظيفة وليست كريهة إذا تمّ الاعتناء بها بشكل جيد، ويشعر بمساوئها فقط العامّة بشكل عام إذا كانت المنطقة في الأسفل شارعاً. ولكن ما من أحد يقلق حول ذلك. وأكّدت لي سيدات من دَوْعَن عندما كنت مريضة في الأيام الأخيرة بأن صابونتي المعطرة كانت سبب المشكلة؛ لا يمكن لأحد جعلهم يعتقدون بأن مياه مجاريهم يمكن أن تكون غير صحيّة بشكل أكبر من العطورات من أوبيغان⁽¹⁾ Houbigant، من المثير للقلق جداً وجود أشخاص يعتقدون بأنه ما هو جيد لشخص يجب أن يكون أيضاً غير مريض.

تطلّب مني بضعة أيام للتعرف على سكان قلعة مَصْنَعَة، كونها كانت مكاناً كبيراً مثل مفرخة، بُنيت من عدة طبقات في الارتفاع وعدة بيوت داخل جدارها المحيط وبوابتها، وعدد الأشخاص الذين تطلّقوا وتزوّجوا من أقارب آخرين جعلوا من المستحيل تتبع الخط بين عائلة وأخرى. كانت غنيّة مضيّفتي، بسيطة جداً. كان لديها بنت فقط، وصبي يدعي ناصر، الذي ستنظر إليه بمحبة وحزن وتقول: «ولد غير سعيد، إنه يتيم»، ولذا شعرت أن تكرار هذا من المؤكد أنه كان يُنمّي عقدة فيه، لذا فقد كان مخلوقاً صغيراً كئيباً وقليل الكلام، لا يشبه إلى حدّ بعيد الحشد المرح والثّرثار من أولاد العمّ حوله.

كانت أخته مرحة أيضاً، فقد اعتادت الدّخول وهي ترقص بعينها الصّغيرتين خلف قطعيتين من غطاء الوجه مشقّوقتين طويلاً وتنظر بجديّة فقط عندما يتكلم أحدهما عن الزّواج، الذي رُتّب لها خلال سنتين عندما ستكون في الخامسة عشرة؛ حيث أنّ

(1) نسبة إلى جان فرانسوا أوبيغان Jean-François Houbigant صانع العطور الفرنسي الشهير 1752-1807 الذي اشتهرت عطره على امتداد أوروبا بأسرها.

الخامسة عشرة هو العمر للأيتام، ولو أنه يمكن للعرائس المألوفات أن يكنّ أصغر. ومهما يكن العمر، فإن كل شيء يُرتّب دون علم الطفل: صُنعت ثياب «لابن عم»، ولا تخمّن ما الذي يحدث إلا عندما يُغسل شعرها من أجل المناسبة. ومن ثم طُلي وجهها بالأصفر بمستحضر Zabidbud، وهو خليط من زيت وشمع و"hurda" (مسحوق الكركم)؛ وتم طليت يداها وقدميها بتزيينات بنية؛ وجلست طوال الثلاثة أيام من وليمة العرس تحت خمار أحمر يرفعه زوجها عنها في الليل. وفي الصباح يترك عشرة طالرات على المخدة، وبعد الليلة الثانية، صينية مع منديل، وعشرة طالرات، كومة من قفازات، عطر وبخور؛ وبعد ذلك لا شيء.

كان لدينا عروس واحدة في المجموعة خلال فترة بقائي، وكانت إنسانة بليدة طليقة المحيا تدعى فاطمة لا تزال مرتدية كل البهجة، أخبرتني أنها ستظلّ مرتدية إياها لمدة أربعين يوماً. كان لثوبها الأسود تزيينات على الصدر من فضة صلبة مضمفورة مع قطن، وتدلّى حزامها بشراريب فضية، وكان في قدميها الحافيتين خلاخيل ذهبية. اربكتها عند سؤالي لها فيما إذا كان زوجها قد قبلها، وإذا كان قد فعل فأين، لأنها بدت مزينة بشكل كبير ولا تبدو أنها لمست في أي مكان براحة. سبّب لها هذا السؤال الأحق مضايقة لعدة أيام من صديقاتها. وكانت أمها قد غادرت للتو، حيث تبقى مع العروس لمدة أسبوعين بعد الزواج.

يتعدّد تبرّج هؤلاء السيدات بمقدار كبير، حيث يختلف فيما إذا كان لديها في الوقت الحاضر أو ليس لديها زوجٌ لتسرّه. فرقت صديقتي المسكينة غنيّة شعرها بشكل بسيط عند المنتصف، قالت: «لأنني أرملة». وكانت أمها أيضاً، التي كانت سيدة متقدمة في العمر مريحة ومبهجة من القرية المجاورة، قد تخلّت منذ مدة طويلة عن الزهو المجهود والتفت للعالم والقبل والقال لأحفادها بابتسامتها وتجعداتها اللامبالية. ولكن كانت زوجة محمّد سيدة القلعة ما زالت سيدة جميلة عندما وصلت، مثل سفينة تحت شراع، تخشخش بشدة بالخلاخيل والحزام، مزينة جداً بالأطواق، مبتسمة جداً بجو من الرّخاء والاستحسان، على الرّغم من أنّ ابنتها «نور» قد تزوّجت منذ عدة سنوات.

كانت نور صديقتي الرّئيسية ومرافقتي في الحريم، واعتادت أن تُحضر طعامي وتجلس وتحدّث معي، تنظر بعين إلى النّافذة المطلة على الوادي وأحداثه في الأسفل. كان لها عينا عمّها النّاعمتان، وفمه الكبير وأصابعه الطّويلة، والطّبيعة الفاتنة ذاتها، والكياسة اللطيفة للقدام أياً كان. كان زوجها قد تركها منذ ثلاث سنوات ليعمل في الخارج، كما يفعل أغلب رجال حضرموت، واعتاد أن يكتب لها مع كل ثالث سفينة أو رابعة تصل السّاحل. وبما أنها كانت هذه هي المرّة الأولى التي تُركت فيها لوحدها، فقد سُمح لها أن تعود وتبقى مع أهلها، وستبقى في المرّة الثّانية في بيتها الجديد، لأن هذه هي العادة في دَوْعَن. يبقى الرّجال خارجاً أحياناً لمدة خمس عشرة أو عشرين سنة، ويتزوّجون زوجات أخريات في الخارج، في حين يكون من النّادر أن تغادر نساءهم وديانهم. ويذهبون بشكل رئيسي إلى أرض الصّومال، الحبشة، أو مصر من دَوْعَن، بينما يتجه المهاجرون من حضرموت العليا شرقاً إلى جزر الإنديز الهولندية Dutch Indies أو الملايو.

تعتبر عادة هذه الهجرة حديثة تماماً، وأخبرني بأصرة بأنهم يذكرون الوقت عندما يمكن لأيّ مسافر أن يُعرف بالمكاوي، أو مصوّعي...، وفقاً للمكان الذي زاره، ويندر جداً أن يترك جُروف دَوْعَن. ولكن يجب لبعض من روح المغامرة أن تميّز رجال تلك الوديان دوماً، حتى بعد انهيار إمبراطورياتهم التّجارية، في الأيام المبكرة من الإسلام، ويجد الشّخص آثاراً متفرقة لهم بعيداً خارج الوطن. لقد استقرّوا في سوريا ومصر في زمن الفتح وشكّلوا ما يقارب عُشر السّكان هناك، وفي البداية عُرفوا باسمي الحارث والإشباء المشتقة من شُبوة⁽¹⁾.

ذُكر حامل راية قبيلة الصّدف، التي هي قبيلة من حضرموت، في جيش فاتح مصر العظيم عمرو بن العاص، وشريح بن ميمون، و Madadi المَهري (من قبيلة المَهرة) الذي ذهب إلى مصر، وكان في قيادة القوة المصرية في حملة ضد القسطنطينية في عام 98 هـ (716-717 م) ومعظم الصّدف الذين تركوا جزيرة العرب ذهبوا إلى مصر

(1) عبد الحكم 47 ب ورقة 2، والهمداني، ص 98.

أو شمال أفريقيا، ولكن يتردد ذكرهم أيضاً في الكوفة في العراق، في تحالف متين مع قبيلة كندة، وهي أيضاً قبيلة كبيرة من حضرموت. وكان رجلٌ من حضرموت هو الذي اعتقل واحداً من قاتلي علي صهر النبي، في الكوفة؛ وقيل لهم بأنّ عليهم القدوم لمساعدة كندة عندما ارتدت تلك القبيلة عن الإسلام؛ وبالتأكيد فقد رفضوا أن يعتقلوا حِجراً، وهو رجل من كندة، بحجة قرابتهم. وكان من حضرموت والصدف ستمئة رجل في جيش سعد بن أبي وقاص، في الحرب التي أطاحت بالإمبراطورية الفارسية. لا بدّ أنهم كانوا أثرياء ومتعلّمين في ذاك الوقت، حيث دفعوا عُشر الضرائب اليمينية الإجمالية، ولقد ذُكر القضاة بشكل خاص. وكان الـ «الكنز الثامن لليمن» في حمرا وهو مكانٌ ما في حضرموت. وقد عُيّن ثلاثة حكام في الجنوب الغربي، عندما ساد الإسلام أخيراً - اثنان في صنعاء وجند Jened في اليمن وواحد في حضرموت.

لم توفّ سمعة المدينة القديمة بالتعليم في وادي دوعن. حيث أنه لا يوجد مدارس حقيقية - وإنما يمكن لبعض المحسنين أن يدرّس أيّ أحد متشوق لقراءة القرآن. تلقى القاضي نفسه تعليمه من خلال عشر سنين قضاها في مكة، وبإمكان أيّ شخص مستاء منه أن يلتبس قاضياً آخر أعلى أو أسفل الوادي، أو كمحاولة أخيرة إلى المُكَلّا. ولم يكن بوسع أية واحدة من النساء اللاتي قابلتهنّ أن تقرأ. وما لم أستطع فهمه أبداً هو كيف تمكنت النساء حقاً من أن يملأن أيامهن! ولم يقمن بالتطريز، حيث لا يتعارض مع صنع ثيابهن - الذي هو أمر بسيط تماماً مثل حياكة كيس.. ولكن كان طوق الصدر المتقن، بسكُونياته وخرزاته وبهرجاته، ثم يرسل للخارج ليصنّع على نحو محترف.

أحياناً يمكن أن يطبخن، أو يشرفن على الطبخ، وربما لهذا أن يعني كمية كبيرة من عمل بين حين وآخر في أمور المنزل حيث يمكن أن يأتي أيّ عدد من رجال قبيلة موالين ليأكلوا في أيّ وقت. ولكن كان معظم النهار يُقضى في زيارات بين بعضهن من بيت أحدهن إلى آخر في الحصن وفي تجمع البيوت في قرية عرا 'Ora في الأسفل.

كانت لهذه الدّعوات إجراءات شكلية. وفي الحقيقة لو أننا رأينا بعضنا فقط في بيت زوجة محمّد فإنّ هذا لم يعفنا من مصافحة الأيدي حول المكان عندما التقينا بعد

نصف ساعة في غرف أم أحمد. دارت كل قادمة جديدة حول التّجمّع، رافعة يد كل واحدة بدورها ومقبلة يدها كما تفعل هي، أو أحياناً - في إشارة لاحترام أكبر - تقبّل القمة من جبهة المرأة الأكبر. وفيما لو كنت تتكلم، وحصل أنك لم تقم على خدمة الوافد الجديد، فيمكن أن تفرّق أصابعها بصوت عالٍ إلى أن تلتفت لتؤدّي الشّعيرة الضّرورية. ويمكن أن تقول: «حيّا» أو «سلام». جاءت الزّائرات من الخارج ملتفات بشقّة shuka، وهو شال أسود مربع بجانبين مهدّبين، ارتدينه مثنياً على رؤوسهن وأجسادهن، وعُقدت الزّاويتان الأخفض معاً وألقي الطرف الأعلى على ذراع واحد: لم أتعّب أبداً من مشاهدة الثّنيات الجميلة لهذه الشّال، والتي جعلتهن يبدوّن مثل تماثيل التّناغرا Tanagra وهي تمشي. ويمكن أن يضعن هذا الثّوب (الكساء) حتى لو ذهبن من بيت إلى آخر في الحصن، غطاء الوجه الأسود أيضاً بخيط فضي خُيِّط أسفل الأنف والعينين اللوزيتين، من أجل احتمال أن رجلاً قد أن يظهر في أزقة ضيقة. ولكنهن كنّ يرتدين داخل البيت فقط وشاحاً هندياً من الحرير رُبط أسفل الدّقن والثّوب بلا أكمام بانحراف على كتف واحد.

لا يمكن لأي رجل الدّخول لتلك الحجرات الخصوصية دون إنذار باستثناء محمود، حارس الباب، الذي سيطر على بوابة الحصن بسلسلة من الأعلى. لقد كان مستخدماً متميزاً، ولد وتربى في منزل باضرة، وهو شاب نشيط ومرح مع خصلة مستديرة من شعر اللّحية على ذقنه المستديرة.

لقد اعتاد أن يتباهى مثل ديك بانتام bantam وسط عدة دجاجات، مع تنظيم نوعين أو ثلاثة من وصلات في أطراف الكم ملوّنة ومنظمة في أزرار أسفل مقدمة سترته البيضاء. كان يمازح أكثر الزّوار تواضعاً، الذين كانوا آتين من الخارج وقد سحبوا حافة قبعاتهم للأسفل. ويمكن أن يصعد إليّ عندما كنت مريضة، قائلاً: «طيّب، طيّب. حسناً، كيف تسير الأمور؟» كل شيء جيد الآن، إن شاء الله - متجاهلاً أية تعليقات مني كما لو أنها غير موجودة، أليس هو رجلاً؟ - ألا يقع صوت ثرثرة الأنثى التي ليس لها شعور أدنى منه، مجرد ضوضاء ليس أكثر؟ أكون حياناً ميّالة للاتفاق معه، عندما

تبدو ثروة السيدات تكاد تكون متواصلة بشكل لا يصدق. أخبرني أنّ ما أراده كان زوجة أوروبية من مصر. قال بأن زوجته كانت كدرة - لذا لم يكن يتكلم معها أبداً.

سألته «لماذا لا تطلب منها أن تكون نظيفة؟»، متساءلة في الوقت ذاته كيف يمكن لها أن تكون، لأن معيار النظافة العام لم يكن عالياً. «ربما تفضّل زوجة صامتة؟ وإذا سمحت لها مرّة أن تتكلم، فربما لن تستطيع إيقافها أبداً».

نظر محمود إليّ كما لو كانت هذه فكرة، وعقد العزم بوضوح أن يبقى صامتاً. كان قلقاً بسبب أنّ أهداً به تنحني إلى الدّاخل وتؤلّم عينيه، ولم يكن لديّ دواء لمرض كهذا. نظر إليّ بوجهه الصّغير المستدير وتجعد بخيبة أمل مثل وجه طفل. أخبرته: «عليك أن تجد طبيباً لذلك».

قالت نور: «عندما تذهب إلى مصر من أجل زوجتك الثّانية».

فاستعاد بهذا التّفكير السّعيد اختياله الرّجولي، وغادر ليحلب لي الماء. لقد أتى به من نبع في الجُرف، وكنت أفضّل ماءه عن ماء بئر الحصن، ولقد اعتاد الدّهاب إليها كل يوم بفارق دقيق في لطفه. لقد بدا عليه أنه يقول: «من دوني ماذا يمكن أن تفعلني أيتها المسكينة، تصمتين بلا عون؟».



الفصل الثاني عشر

الخربة والرّباط

عجبْتُ من منع امرئ جاههً ما منع من يجتدى ولم يفرم
يثلم وفر المال إعطاؤه لكن وفر الجاه لم يثلم
(ابن الرّومي)

اعتاد الحاكم أن يأتي لياكلاً في غرفتي، فكانا يُربكان السيدات في الهروب من أمامهما. ويمكن لهما أن يدخلن من دون مراسم تشريفات، محمّد ومعه حصيرة طاولة من القش، ويبد أحمد طبق أو اثنان ويجلسان، بينما قامت غنيّة بالباقي، وتُقهّر أمام تعاطفها الكبير وتحاول أن تبقى صامته قدر استطاعتها، أحضرت لنا كومة أرز عامرة، مع دهن وبهارات؛ واللّحم المطبوخ في صلصة ممتازة والطبق المحلي الذي يدعى «هريسة» Harisa، من لحم وطحين سُحقت بنعومة معاً على هيئة ثريد، مع كوب من زبدة مذابة في الوسط لتغمس كل حفنة عندما يأخذها المرء.

تحدّث كل من أحمد ومحمّد في غضون ذلك بلطف، وقد أحببتهما أكثر وأكثر. ولقد أحضرا معهما السيّد محمّد بن ياسين، وهو تاجر جذاب قديم يتاجر بالقطن على سواحل البحر الأحمر ويكتب بالعربية إلى ليثربول Liverpool. وكان أيضاً له ذات الوجه الطويل والضم الكبير اللطيف نموذج سكان هذه الوديان المستقرّين؛ ومزاجهم الجيد المبهج مع بعضهم ترك مزيّة فيه، وهي لطف خاص من الخبرة والعمل الإنساني. ويمكن أنه كان أوليس Ulysses وقد استقرّ في الأرض في عمر متقدّم.

“Fussé-je comme Ulysse. qui fist un long voyage,
Ou comme cestui-là qui conquist la toison,
Et puis est revenu plein d`usage et raison
Vivre entre ses parents le reste de son age”

كان ابن ياسين قد عاد لزوجته وموطنه بلدة الرّباط عند مقدمة الوادي، تاركاً ابنه في الخارج ليتابع التجارة، ولأنه كان صديق A.B.⁽¹⁾، الذي يعتبر اسمه في تلك البلدة كالذهب، فقد دعاني للغداء في اليوم التالي.

بدأت مبكرة في الصّباح بالسّير على الأقدام، لأنني رغبت أن أشاهد البلدات على الطّريق. تعتبر الرّباط الأخيرة في الوادي، حيث تنتهي شجيرات نخيلها، وثلاثة وهاد غير مأهولة تؤدي إلى الجول؛ النصقت بينها وبين مصّنة بلدة رشيد والخريبة بالجانب الأيسر من الوادي مقابل الجرف. ولم يستغرق أكثر من مسيرة ساعة لاجتياز كل تلك البلدات الصّغيرة، وبدأت رحلة مع الجندي ومرشد بدوي خلفي، تحت ظلال النّخيل ذوات النّهايات المدببة.

تعتبر شجيرات النّخيل التجارة العظيمة لدوَعَن، ويمكن للنّاس أن تدفع ما يساوي 500 طالر لنخلة جيدة. يذهب 6٪ للحكومة في كل بيع، وهناك ضريبة سنوية عبارة عن ربع طالر لكل شجرة، مساوية لتلك التي على مساحة الأرض، تساوي تقريباً أجر يوم، الذي هو تقريباً ثلث طالر، أو ستة بنسات (نصف شلن). وعندما مشينا تحت سوقها المكلّلة، في عتمة ظلالها الخضراء، شاهدنا رجالاً يتسلّقون ليلقحوا الثّمار بطّلع قشدي اللون. وأخبروني بأن «الرّائحة تقوم بذلك». يمكن أن يفكر الإنسان بأن الأشخاص الذين تزعجهم الرّوائح يمكن أن تكون هي تحديداً تلك الأنواع التي تحوم في شوارعهم.

تركّ رشيداً على يميني والتفت إلى الشّقوق الطّولية السّوداء للطّرق التي تتسلّق الهضبة صعوداً بين بيوت الخريبة - متراكبة ضيقة جداً حيث علّقت الإطارات الخشبية

(1) ترمز بهذا الاسم إلى التاجر الفرنسي أنطونان بيسّ Antonin Besse، الذي أحبته.

الصغيرة من التوافد المقابلة للطيور لتجثم عليها، بعيداً عن تناول يد اللصوص والثعالب. هذه هي البلدة الرئيسية للوادي الأعلى بسوقها ومساجدها. ويعني اسمها الأطلال الخربة. ويمكن أن تكون Do'an دُوْعَن التي ذكرها بطليموس Ptolemy والهمداني أيضاً، هي العاصمة التي دعاها بلينيوس «توآني» Toani؛ وهي على كل حال بلدة قديمة مكتفية بذاتها، وتفتخر بنفسها ببقاء دينها الذي يميل بها إلى عنف. لقد كان شيخ الخربة هو الذي أرسل فون فريده Von Wrede بعدما نُهب وبات مفلساً إلى الساحل في عام 1843، وبعد خمسين سنة تجنّب الزوجان بنت الخربة بسبب تحذيرات من مرشديهم. ولكن وجدها المسافرون اللاحقون فان دن مولن Van den Meulen والزوجان إنغرامز Ingrams سارة بما يكفي، وكذلك كان ينبغي لي أن أجدها أيضاً لولا فظاظة أعيانها الرئيسيين، عائلة سيّد حامد البار.

كانت معي رسالة لسيد، وقيل لي بأن بيته كان على أعلى قمة في البلدة، تحت الجرف. وقبل أن نبتعد ظهر لنا شخص غريب فاتن من حيث لا ندري ورحب بنا، لقد كان بائعاً في عدن أبهجه مشهد أوروبية، فأتى ليريني كل ما احتجت رؤيته في طريقي. قادني إلى المسجد الرئيسي - وهو مكان هادئ ذو أعمدة - ومساجد أقل شأنًا مشيدة بما يشبه مصلى صغير خاص على يد أسر تقية، وهي بسيطة ومهملة، بآبار مفتوحة بجانبها - لأن المياه القذرة تنزل إلى الأسفل والتظيفة تُرفع بشكل مختلط في المنطقة المزدهمة لتلك البلدات الصغيرة.

قدمنا إلى السوق، الذي سمعت عن أعاجيبه من البدو الذين معي في الجول. لقد كان مجرد زقاق ضيق، جلس الباعة على درجاته العليا، مقابل غرف سوداء خلفهم، مع سُلل على أحضانهم. وقد وزنوا لحمهم في موازين مطلية بالأحمر والأصفر. لقد كانت ساعة ذروة النشاط، وازدحم الأطفال هنا وهناك؛ ولكن الجميع كانوا ودودين.

سألوا أسئلة ووقفوا لأخذ صورة لهم - إلى أن وصلنا إلى القصر العالي يتبعنا رتل متزايد من الناس، كان فيه باب منحوت وشرفات مطلية بالأبيض انتصبت تحت جدار الجرف.

حدث هنا خطأ محزن. صعد الغريب إلى الباب وأعطى رسالتي؛ كان هناك فاصل طويل وجاء الجواب بأنه لم يكن هناك أي أحد في البيت. شككت أن يكون هذا كذباً، وكان الآخرون أيضاً يعلمون ذلك. في الواقع كان سيّد نفسه غائباً؛ ولو أنه كان في البيت لم يكن يُسمح للكارثة أن تقع، ولكن كانت زوجته وابناه هناك، وكانوا جميعاً معروفين بكرهم للمسيحيين، ومقابلتهم بغير مودة، كما أُخبرت لاحقاً. ومن ناحية ثانية لم أعرف سوء ضيافة مطلقة من قبل أو منذ وجودي في حضر موت، وكان أثرها مفعجاً، عاد الغريب المرحّب صامتاً مصاباً بالخزي ومشغول البال؛ تفرّق الحشد قليلاً، بهدوء وهم يهتممون، وبدأ الغريب يقودني بسرعة نحو سفح التلّة - حيث كان علينا أن نذهب عبر عرض البلدة كلها.

رفض أن يتكلّم، وتجنّب الأماكن المكشوفة؛ ولقد أسرع على طرقات ضيقة جداً حيث كان عليّ أن أذهب عبر طرق فرعية جانب البيوت. بدأ انحدارنا يتخذ شكل الطيران وكنا ملزمين بالخروج إلى العراء قرب الجانب الأخفض للبلدة، وهناك عاد الحشد للظهور، ورأوا سرعتنا، فبدوا سيئي الطبع، لأنه لا يوجد شيء مثل السرعة لتوقظ الرغبة في صيد الحيوان لدى الإنسان، وقد كانوا يراوغون حول الأبنية كي يدركونا. استنتجت بأن رجلي الغريب كاد يفقد صوابه ومن الممكن سريعاً أن يسبّب لنا كارثة. رفضت أن أبقى مسرعة لمدة أطول، وتوقفت لأخذ صورة للسكان المحتشدين.

أحدث هذا توقفاً.. تابع الأشخاص الأبعد بالتّراحم، ولكن الأقرب تردّدوا. صعدت وتكلّمت إلى الأبرز بينهم، وبدأت بحجّة تجميعهم من أجل صورتي أسألهم فيما إذا كانوا قد رأوا فرنجياً Farangi من قبل. لم يجب أحد، ولكن الذين في الخلف تمنّوا أن يسمعوا ما الذي كان يُقال، فقد خدعوا لأنهم رأوني أبتسم. عدتُ إلى مرشدي، الذي كان يعضّ أصابعه من نفاد صبره وتابعنا انحدارنا ببطء أكثر، في حين أصبح الحشد، الذي هدأ لدقيقة أو دقيقتين بسبب المقاطعة، أصبح شيئاً فشيئاً مزعجاً مرة أخرى. ولكننا كنا قرب نهاية البلدة.

وظهر فجأة رجل مسنّ من بيته وكنت قد التقيتُ به في ديوان الحاكم، وهو رجل بهي

الطلعة بلحية بيضاء، تقدّم مستقبلاً بشعور ودي، ولكنه اختفى أيضاً بمجرد سماعه ما الذي حصل، وبدل أن يدعوني إلى بيته دفعني بسرعة لأتابع طريقي. بدأت أكره الخربة.. وحدث شيء لطيف عندما وصلنا إلى آخر منازلها، حيث خرج ثلاثة من أصدقائي البدو الثلاث، سعيد وسليم ومحمد الصغير، مندفعين بسرعة من الكوخ الذي يسكنون فيه عندما لا يكونون على سفر، ووقفوا أمامي بابتسامات ومصافحة أيادي. شاهد الحشد ذلك فاستحسنوه، وأصبحوا أكثر وذاً، وكان حارسي المسرور بالتخلص مني قد اختفى.

التقطت صورة لأؤكد حقيقة أنني أنا وبلدة الخربة كنا نتودع بعلاقات حيادية إذا لم تكن صداقة. ثم تابعت طريقي، مع الجندي والبدوي المتجهّم حيث استطاع أن يكون خلفي. كان الحديث عن فظاظة عائلة سيّد البار، ورفض استضافة غريب هو موضوع أكثر حزناً من أن يناقش. عليّ أن أعيّد، بأنها كانت الحادثة الوحيدة من نوعها في كل البلدة، وأظهرت كم يدين المسافر عادة لكرم هؤلاء السادة الإقطاعيين، الذين يملكون حقاً حياته بأيديهم بما أن موقفهم نحوه سيقلده ويبالغ فيه جميع الأشخاص الأقل شأنًا.

وصلنا بمشاعر متألمة في غضون عشرين دقيقة أو أكثر بلدة الرّباط التي تجمعت إلى الأعلى بين وهدين على نتوء من جدار كالسجن - لذا فإنّ وجوه الجُرف هذه تُشير بأنها مغلقة إلى الدّاخل دون فجوة في كل جانب.

كانت توجد أقلّ شجرات نخيل هنا، وانحدرت الطّبيعة البرّية للرّيف متساقطة نحو البلدة. ولكن في الطّريق، انتظر ابن السيّد محمد قدومنا، وحيّانا السيّد نفسه عند رأس درجاته. كان الجميع مرّحّين وودودين. وجلسنا في نهاية غرفة منخفضة بأبواب منحوتة وأعمدة على سجادة، بينما استقرّ الجندي وبنديته بين عبيد المنزل عند الجانب الآخر، ونسينا مشاكل الخربة.

كان هناك زائر آخر، رجل مُسنّ مرّح عمل مع البريطانيين وكان قد أعطى رتبة خان بهادر Khan Bahadur لمحافظته على النّظام بين رجال قبيلة يافع؛ وأصبحوا بعد ذلك ولسوء الحظ قادرين على الحصول على بعض بنادق حكومته، ثم تقاعد بعد ذلك، وهو الآن مستقرّ في حياة خاصة. أخبرني جزءاً من قصّته، وتكلّم بشكل متناغم عن

العالم وأصدائه، المسموعة حتى هنا. والجدير بالملاحظة كيف تُتبع الشؤون السياسية بإحكام في تلك الوديان العربية المنعزلة. والطلّيان، الذين كانوا آنذاك يحضّرون مغامرتهم في الحبشية، كانوا في ذلك الوقت مكروهين في جنوب جزيرة العرب.

قال خان بهأذر المسنّ: «عندما نمشي على طول شوارع مصوّع Massawa فإننا نُجبر على تحيّة كل فرنجي Ferangi نقابله وأن نتنحّى لنعطيه الرّصيف؛ ولكن معكم أنتم الإنكليز نتكلّم على الأقل مثل رجل لرجل. وتابع كلامه: «وعندما جاء ملك إيطاليا أرسل أمراً هنا وهناك بأن على الجميع أن يسجد أمامه على طريقه. وكما تعلمين، فإننا نسجد لله فقط - لذا كان علينا أن نبقي داخل بيوتنا في ذلك اليوم، والعبيد فقط والأقل شأنًا من النَّاس كانوا قادرين على الخروج لرؤية الملك». وقال عبد من الجانب الآخر للغرفة، مشارك في المحادثة: «ووضعوا أعلامهم أعلى المساجد، كما لو كانت منازلهم الخاصة وليست بيوت الله، سبحانه وتعالى».

تركنا هذا الموضوع الحساس وتكلّمنا على مأساة القطن، الذي كان قد انهار من 40 جنيهاً إلى 10s؛ مدمراً تجارة الكثيرين، ومنهم سيد محمّد. ثم تحدثنا عن شؤون الوادي، وعن تجارته الفقيرة والقليلة، وتفوّق حكومة باصّرة التي تحفظ السّلام وسط عدة صعوبات، وبشكل مستقلّ تقريباً عن المُكّلا. تمتدّ قوة سلطتهم في القوة القبلية التي يمتلكونها على البدو الشّرقيين - الأساس الحقيقي الوحيد لقوة ممكنة في هذه البلدة، كما أستنتجت فيما بعد.

وكذلك، فإن سلام دوعن عبارة عن جزيرة في بحر ليس بالهادئ إلى حدّ كبير: تمّت السيطرة على القبائل غرب الوادي عن طريق أسر ثلاثين رهينة أو أكثر في المُكّلا. فالحرب مستمرّة حول قمّة وادي الأيسر، حيث القرى هي وحدها تحت إمرة آل باصّرة وتنعم بالسّلام؛ ويوجد هناك قطعة من أرض غير تابعة لأحد، وهي الآن في هدنة مؤقتة في الشّمال بين الهجرين وشبام، وقد أضيفت إلى صعوبة المحافظة على السّلام. والواقع أن البدو هنا يعتبرون أنه من العار قبول دية القتل، ولذلك فإن العداء مستمرّ إلى الأبد.

وحتى المساعدة التي مُنحت من قبل المُكَلَّل ليست نعمة صرفة، بالنسبة للمرتزقة اليافيين، الذين استقرّ منهم ما يقارب 250 في وادي دوعن، كانوا يسبّبون مشاكل في ذلك الوقت، وقد جعلوا أنفسهم غير محبوبين من خلال علف ماعزهم على زرع الناس، ولكونه احتج على وجودهم، فقد طوّقوا أنفسهم الآن بموقف دفاعي ليكونوا جاهزين للتصويب في أحد بيوت القلعة في الوادي. ولم أسمع أبداً كيف انتهى الخلاف، وليس لديّ أدنى شك بأن آل باصرة كانوا مستعدين بشكل جيد للتعامل معهم. وفي ذلك اليوم عندما ذهبْتُ إلى بيتي التقيتُ الزعيم اليافيي المسنّ ومازحته بلطف حول تصرف قواته.

قال لي: «إنهم لم ينقلوهم أبداً، هذا هو السبب في المشكلة كلها». فهم هنا منذ ما يقارب العشرين سنة، ويعتقدون أنه بإمكانهم عمل ما يحلو لهم».

كان هو نفسه يافعيّاً مسنّاً، يسير وعلى رأسه عمامة كبيرة، بوجه طويل نحيل، شرس ولكنه ذابل، وفجأة يكون ودياً ومفعماً بالمرح مثل الكثير من قبيلته. وكان هو نفسه في دوعن منذ ثلاثين سنة، كان قد جاء شاباً «بسبب أن أخصّ أصدقائه كانوا هنا».

أخذني سيد محمّد بعد الغذاء لرؤية نحلّاته على منصّة صغيرة. حيث تعيش في أنبوب مثل أنبوب التصريف مصنوع من طين، غُطي ببطانيات لحفظه دافئاً ومغلقاً في طرف واحد، مع بعض الثقوب الصغيرة تركت لها للتسلل للدّاخل والخارج. بُني الطّرف الآخر، داخل دفة الغرفة، وأُغلق بدائرة مشغولة كالسّلال تُسحب مرة أو مرتين في السنة عندما يتمّ نفث الدّخان لإبعاد النّحل ويؤخذ غسله. يعتبر غسل حضرموت مشهوراً، وذكره پلينيوس Pliny. يُصدّر معلباً بعلب مستديرة، ويحظى بنكهة غنية وقوية، ناشئة من دون شك من أشجار العلب التي تُعتبر زهراتها طعام النّحل الرّئيسي.

صعدتُ بعد مشاهدة هذه المخلوقات إلى الحريم وجلست لبعض الوقت بين عشر أو اثنتي عشرة سيدة، نتحدث عن الملابس، ذاك الموضوع المبارك ثلاثة أضعاف، ويلاحظ غياب كعنصر أساسي للمحادثة حتى في جنة عدن. لا يمكن تصوّر ما الذي يمكن للشخص أن يفعله من دونه بداخل حريم شرقي. كنت أول امرأة أوروبية تزور هؤلاء السيّدات، حيث أن السيّدة إنغرامز Ingrams لم تصعد درجاتهن لتراهن،

وانتظرن في مجموعات لينظرن إلي، حتى عندما أستلقي وأنام، لأنني كنت الآن أرتعش بسبب بداية مرض وأتوق إلى راحة. أحضروا فرشاة ولحافاً لتغطيتي؛ وجلست فتاة حبشية رقيقة ووضعت قدمي الحافيتين في حضنها تضغطهما بواسطة يديها الاثنتين، تسحب التعب منهما بشكل لطيف أكثر من أي مساج عرفته في حياتي. جاءت مخلوقة جميلة، إحدى أفراد عائلة سعيد من آل العَطَّاس الأشراف من حضر موت، المتحدرة من سلالة النبي. كانت نحيلة وطويلة مثل كلب سلوقي، بعيون كبيرة في بشرة رقيقة غير مطلية، وبابتسامة مشرقة وخجولة.

وقبل أن أغادر، أحضرت لي زوجة سيّد تطريزاً مبهرجاً لأزّين ورك ثوبي الأسود، لأنني كنت أخبرتها بأنه صُنِعَ لي ثوب دَوَعَنِي لآخذه إلى بيتي. وأعطتني خرزات فضية، مثل التي تحبّ كل النساء أن تلسبها حول أعناقهن.

ومع تلك التذكارات من اللطف قلْتُ وداعاً للشخصيّات الفاتنة وغادرت، ورافقني ابن سيّد في بعض الطّريق، وخلفنا جميع الأطفال من الرّباط. لم يكونوا مرفوضين في حدّ ذاتهم، ولكن أقدامهم الصّغيرة صنعت غمامات من الغبار، وتقدّموا في مجموعات متسلسلة من اندفاعات قصيرة، للحصول على أقرب مشهد كامل. ولقد تشبّثوا بي حتى ضواحي الخريبة، حيث انحدر من التّلة نوع مهيب من أعدائي الذين شاهدتهم في الصّباح أكثر بكثير، الذين زادوا الموكب، وانتقموا بأغانٍ ساخطة عندما حاول الجندي بجهد أخرق أن يلكزهم بسلاحه. أسعدتني رؤية الحصون الودودة للمصنّعة فوق عالية في السّماء، ولأستقرّ في حريمي الخاص بسبب مرضي. أخبرتُ باصّرة في المساء وقت العشاء عن الأطفال من الخريبة. فكانوا مهتمين بالأمر.

قال محمّد: «سأضع بعضاً منهم في السّجن، فقط لأعلمهم».

وأتمنّى أن يكون قد فعل.



الفصل الثالث عشر

مرض في حصن مصنعة

«وعندما تمّددت لفترة طويلة أحسّت بإصابتها بالحصبة ولم تستطع الحصول على علاج لعدم وجود علقه».

(موت أثر الفصل السابع عشر)

أخبرتني والدته نور في اليوم الأول من وصولي إلى دوعن، عندما جلست معي لشرب القهوة، بأن الخبيث الصغير الذي كان يبكي في حضنها مصاب بالحصبة. أدارت ثوبه الساتان الأخضر والتعويذات المتعددة رأساً على عقب وأرتني البقع - وحيث أنني لم أصب بالمرض من قبل - فقد علمت ماذا ينتظرني. أخبروني بأنه في كل ثلاثة أو أربع سنوات ينتشر هذا الوباء في المدينة، وكان من سوء حظي أنني جئت في ذروة انتشاره. وكل طفل صغير جاء يحتضني بحسن نية، كان وجهه منقّطاً عندما قمت بفحصه، وقد أُخبرْتُ بأنهم التقطوا المرض ليس من بعضهم ولكن من أشياء عطرية من مثل الصّابون؛ ويذكر تافرنيه⁽¹⁾ Tavernier، في أسفاره بأنهم لم يستخدموا الصّابون في «الحبشة ومملكة سبأ»، وربما كان هذا هو السبب.

وحتى المرهم الذي اعتدت أن أعطيه للأشخاص الذين يشتكون من الروماتيزم كان يُرفض غالباً بسبب رائحته.

(1) جان باتيست تافرنيه رحالة فرنسي شهير في القرن السابع عشر، نشرنا بعض نصوصه في كتاب: «رحلات في بر الشام بالقرن السابع عشر»، ضمن هذه السلسلة.

وباختلاف عميق جداً في نظرياتنا الطّبية، فقد كان هناك القليل جداً الذي استطعت فعله لتفادي قدري الوشيك، فكل شيء لمسته كان قد مُسَّ قبلي من قبل شخص مصاب بالحصبة. ولشعوري بالمرض الشديد، فقد كان هناك تقريباً فرَج عندما قست حرارتي ووجدتها تقارب أن تكون 103، وقررت بأن تلك الإجراءات الوقائية الدّاعمة كانت غير ضرورية.

أمضيتُ الآن أسبوعاً من الهذيان. وفي الحقيقة كنت لمدّة ثلاث ليالٍ متواصلة أهذي بأحلام متقطّعة وكثيرة في البحث عن شيء غامض، متموّج وحيّ، كان قد أعطي لي وتعتمد على استعادته سعادتي؛ اعتقدت أنه كان سرّ السّعادة، شيء بسيط ولكن محيّر، كما يمكن للشخص أن يتوقع، وتمنيت فقط لو أنني استطعت أن أتذكر تماماً ما هو، كوني اعتدت أن أصادفه في الفجر الباكر، عندما انخفضت حرارتي، ثم نمت بسلام، إلى أن ظهرت نور لإدراكي البصري كاستمرار غريب بعض الشيء للأحلام الليلية، ومعها فطوري في يدها وهي مرتدية الأسود والذهبي، تخشخش بأساورها وعيناها الجميلتان تلتمعان بالكحل تحت مثلث من الشّعر مُلتصق ومدّهون بالزّيت.

قد اعتادت أن تقول: «قومي، انهضي»، بغضّ النّظر عن حالتي، وعندما أخبرتها بأنني أعاني من حمّى أجابت بمرح: «كلنا لدينا حمى» وأعطتني نبضها لأتحسّسه، الذي كان في الحقيقة سريعاً جداً. وقد سعلت أيضاً، كما فعل تقريباً كل واحد من الأصحاء في حياة البلدة الأبوية، وأدركت فوراً بأنّه خرافة لأنني لم أر في حياتي هذا العدد من المرضى، ولكن لا يتمدّد أحد إلا إذا كان غير قادر في الحقيقة على القيام. احتشدت السيّدات عندي، مستغربات أن يجدنني قد زحفتُ مرة أخرى إلى السرير بعد تناول الفطور على الأرض. ويمكن أن يقلن: «ما شيء شر»؛ الذي يعني بكلمات أخرى بأن كلّ شيء على ما يرام. ولكن ليس هناك أيّ شيء مزعج جداً مثل تفاؤلية الآخرين على حساب ذلك الشخص، وأخيراً كنتُ قد أجبرت على أن أستدّ منهم فأقول بأنّ كل الأمراض تأتي من الله، عندما يسألن عن علاجات مستحيلة. ومن ثمّ يمكن أن أجلب العار لنفسي، لأنهن جميعاً سيكون جوابهن: «الحمد لله»، بخنوع،

وقبول لانزاع فيه. وسيردّون هذا حتى عندما يخبرني عن موت أطفالهن، مُدعنات للقضاء والقدر الذي ليس لهن عليه إلا سلطة قليلة جداً. «جزءٌ من العمل المرعب قد تُرك لله أن يفعله»، وجدتُ هذا مكتوباً في مفكرتي اليومية.

وقد أخبروني بأنّ المرض يأتي مع الرّيح الحارّة التي تهبّ من البحر. وتضرب مصاريع التّوافذ والأبواب جيئةً وذهاباً وتندفع في أدوات أنابيب الوادي. فنظرتُ خارجاً متمنيةً أن أسمع ضجيجهم وأرى الجُروف السّاكنة، وحدودها الصّرفة الحادّة والظلّ الذي يسقط ويرتفع على جوانبها مع تحرّكات الشّمس، مثل دلو في بئر يحدّد الأيام. ألقى إحساسٌ بالسّجن ظلّه عليّ بين تلك الدّعامات العمودية الجبلية؛ فقد بدت كما لو أنها لا يمكن الفرار منها مثلها مثل هذيان الحمى في الليل.

وبالرغم من ذلك، ففي النّهار كان هناك الكثير لشغل أفكاري.

كان السّؤال عن الطّعام واحداً منها. كان الحليب، كما وجد الزّوجان بنت Bent قبلي، والخضروات أو الفواكه يكاد لا يمكن الحصول عليها غالباً. كان الجميع متلهفاً لإعطائي كل ما يمكن أن أرغب به، ويمكن أن يرسلوا في الجوار لكل الماعز ويستنزفوا من ضروعها الجافّة ملء كأس صغير خزفي، فكنت أرغب به بكل سرور على طعام الإفطار. كنّ يأكلن في بعض الأوقات جزراً نيئاً، وطبخت نور بعضاً منه. ويمكن أن يحضرن لحماً، وبسبب أنني كنت مريضةً جداً بحيث لا أستطيع قضمه، فلن يصدقن أبداً بأنني أحببت طبق الأرز خاصتي الخالي من الدّهن والبهارات وأنا أعاني من حنجرة متأدّية.

شعرت بمرض شديد معني حتى من أن ألمس الخبز المسطّح المطبوخ بالزّيّ والمشبع بالعسل، وعشت على البيض والحساء، وعلى أقراص من حليب هورليك Horlick's التي كنت قد أحضرته معي، وتقبّلتُ ضيافة - في أحد الأيام - رفاهية من بطيخ وتفاح أرسلت كهدية للحاكم من السّاحل. لا يمكن للحريم أن يحصلن على قضمة في الحالة العادية؛ ولكن وجودي هناك قاد شريحة كبيرة حمراء للطفلة التي جلست بجانبني، أحيط وجهها الصّغير بقلنسوة من السّاتان برتقالية اللون، متبسة بدهن وخيوط لماعة.

كان الأطفال ألعوبة الحريم، وعانوا، كما أعتقد، من أعصاب مرهقة نتيجة إخضاعهم المستمر للقبل وللتنقل بين النساء بين فناجين القهوة. ركض الطفل الأكبر داخلاً وخارجاً وجلبوا آخر الأخبار من بيت لآخر. جاؤوا إلى غرفتي دون أي قيد، وهكذا فعل كل شخص آخر: عبيد وسيدات، فتيات بدويات مستديرات الوجه يتمتعن بالصحة أكثر من نساء البلدات، ورجال مسنون ونساء بحاجة للأدوية. وقبلتهم كلهم الديمقراطية الودودة، تمكن المبتلى بالطفليات أن يجلس على السجادة هناك، مستخدماً إياها كمنديل، أو يرفع الطرف بين حين وآخر ليبصق تحته بحذر.

كانت حياة قلعة القرون الوسطى بكل تفاصيلها، تعاش بشكل مشترك إلى حد كبير حيث أن الخصوصية والنظافة تعتبران غالباً رفاهية لا يمكن الحصول عليها. ومن جانب آخر فإن الطهارة لم تكن ممكنة فقط، وإنما جوهرية بشكل متكرر.

حدثت حولي جميع أنواع الأشياء وأنا مستلقية في السرير. باعة متجولون مُسنون «دلالة» "Dallalas" جاوا لبيع الأساور، وقد رُبِطت بضائعهم في وشاح مليء بالكهرمان، وأحزمة فضية، ومطرزات. ومن الممكن أنهم ذهبوا من بلدة لأخرى في الوادي وأحضروا لنا الشائعات.

جاءت امرأة جميلة (عطية) من القرية في الأسفل، كان زوجها - حيث أنهما تزوجا حديثاً - قد تركها مؤخراً للذهاب إلى الصومال. عانت من بعض الألم ولذا كانت بالكاد تستطيع الوقوف، وجاءت من أجل الدواء. ولكنني كنت نائمة في تلك اللحظة، فأخذها محمود حارس الباب إلى غرفة أعلى، وهناك وُسم أخمص قدميها بحديد حام. وعندما استيقظت، جاءت عندي، وقد استعادت صحتها تماماً كما يبدو وهي مبهجة. غنّت بخجل قصيدة تمنى فيها لزوجها الشاب عودة آمنة. كانت عمّتها قد كتبت الكلمات، وغنّتها عروسه بصوت جميل مشرق، بريء وشجي - خمسة أبيات موجزة، واحد طويل، وواحد قصير - ثلاث مرات، وخمسة قصار، وطويلة للنهاية، عندما انخفض الصوت وتلاشى في عمق الشوق.

«عُدْ، فإن ابنة عمك وحيدة في الليل».

ضحكت البنات وقد جلسن بالقرب. مدّت عطية يديها الصّغيرتين الكدرتين واحمرّت عيناها الوديعتان من الخجل.

قالت: «هل هذا غير صحيح؟ أليس هو زوجي؟ هل عليّ ألا أتمنى له أن يأتي؟». «وكم من الوقت سيقى بعيداً؟».

«آه، من يعلم؟ ربما عشر سنوات. إرادة الله».

تنهّد الجميع، لأنّ هذه تعتبر بليّة الجميع في هذه الوديان والكل، دون أي شك، كن يفكرون بأزواجهن بأنهم قد تزوجوا من أخريات بعيداً جداً. قالت نور: «تعتبر الحياة شاقّة بالنسبة للنساء».



كن متلهفات لتجربة ميسم محمى على مؤخرة عنقي، ويقلن إنه علاج جيد للحصبة. تجنّب ذلك، ولكني لم أكن محظوظة جداً مع ساحرة مسنّة جاءت في أحد الأيام من الهجرين، مرتدية ثوب تلك المنطقة الشّمالية الأسود، المزيّن بكامله برقع صغيرة ملونة، ووجهها العجوز الذي يشبه شكل وجه الفرس وما يزال مطلياً بالأصفر. وأعطت لنفسها أجواءً من القداسة. كان زوجها قد طلقها (منطقي جداً) وكوّست شبابها، جمالها، أو لطفها الإنساني التي خلت من الجمال والفتوة الآن لله. وعندما شاهدتني مستلقية بائسة، انقضت علي، وتلفظت بتعاويذ، وأدارت أصابعها النيلية اللون وذراعيها التّحيلتين مثل طواحين هواء حول رأسي. وكانت في كل تعويذة تربط وتفك عقدة في شالها (ممارسة لشعوذة مستنكرة من قبل في القرآن)، ثم انحنت فجأة فوقني وبصقت بطريقة لطيفة.

كان لدينا مسرحيات، أيضاً، داخل جدراننا. ففي أحد الأيام جاء ناصر ابن غنيّة يبكي وأخبر، بين التّنهّدات، كيف سقط جذع شجرة عليه وضرب ذراعه عندما كان يقف في ممشى الحديقة. كان هناك بعض الحزازات بسبب طلاق مع البيت الذي يشرف على الطّريق الضيّق، ولمدّة يوم كان الجميع، بما فيهم الجدة، يبكين عند نوافذ مختلفة

من غرفتي، على الرغم من أن جميع السيدات تابعن اللقاءات بلطف كالسابق، وفُسر سقوط الجذع (كما هو على الأرجح) كمصادفة تماماً. ولكن الولد الصغير جلس لساعات، يبكي بهدوء وهو غاضب. تصنع هذه العداوات تاريخاً في بيوت شرقية، حبيسة في جدرانها، ولا يمكن لانطباعات لاحقة أن تطمس تلك الذاكرة الطفولية. وحتى هنا يمكن للشخص أن يرى بوضوح، فيما لو أعطي فرصة وقوة، كيف أن شجار حريمي كهذا ربما يتفاقم إلى إراقة الدماء عندما سيصبح الأطفال من أمهات مختلفة رجالاً.

واضطربت ظلال أكثر ظلمة بين الحين والآخر وسط التهمة اليومية. سمعنا ذات يوم بأن أحد الأقارب قدم في الحبشة، تاجر شاب من البلدة المجاورة، وأحد الرجال الرئيسيين هناك، أخبرني غنية الأخبار، مستجمعة انفعالها تدريجياً وبجهد، لدرجة مناسبة لزيارة التعزية، والتي يمكن أن تعني 48 ساعة من نحيب متواصل جهراً تقريباً في بيت الحداد. ولقد حرّضت نفسها لسحب أثوابها الساتان من الصندوق في غرفتي.

وتذكرت عند الفترات الفاصلة أن تتنهد بعمق، ولكنها نسيت بعد ذلك، لأنها كانت لا تزال تحب ثيابها الجميلة وكانت سعيدة بعرضها. ومزّقت صدر الثوب ذي اللون الفضي والأزرق، وخاطت بدلاً منه واحداً ذا لون ذهبي وأرجواني وأوضحت بأنه مناسب أكثر لبيت حداد. وشاهدتها أنا ونور وقد سُترت بالأسود، حيث لا يرى شيء منها سوى عينيها عبر شقهما الطولي، وهي مسرعة أسفل طريق القلعة. وفي القرية في الأسفل، التي نطلّ على أسطحها المستوية، كان موسيقي مسنّ يضرب على نوع من الرّق ويغني قصائد طويلة عند عتبات الناس. أخبرني نور أنه جاء من اليمن، وقد سمّوه «أبو ألوان» Abu Alwan (أبو التغمات). يمتد الوادي بنخيله بسلام بين جدران الجرف المستقيمة.

سألت نور: «هل سبق لأحدكم أن صعد فوق تلك الجوانب لينظر إلى الجول». قالت: «أبداً».

يتشابه العالم كله خلف تلك الأسوار الواقية، فهو معتم وواسع، ومجهول بالنسبة لسيدات دوعن؛ مكان يغيب أزواجهن في فجواته، ويأتي منه بين الحين والآخر باعة متجولون هنود ومعهم حريز صناعي ومخمل، تحيكه السيدات بالطراز القديم لبلدهن. عندما عادت غنية إلينا كانت لديها مشكلة جدية لنصغي إليها. فقد أضربت عبدتها السوداء عن العمل، والتي كانت قد اشترتها بـ 800 طالر (60 پاونداً)، «عندما كان الأطفال صغاراً»، وقد أزعجها شيء ما الآن ولا أحد يعرف تماماً ما هو، وأصبحت لا تطيع ولا تجيب، لكنها أرسلت رسالة تقول بأنها أرادت التكلّم مع سيدتها في الطابق الأعلى، وذهب الجميع بلطف ليستمعوا.

نزلت غنية منزعة وخائبة، وأخبرتني بأنه بإمكان محمد، كقيم على العائلة، أن يتحدث مع العبدة ويسألها فيما إذا كانت تريد أن تُباع. قالت غنية، وفي تلك الحالة فإن (دلاًلاً) من حضرموت يمكن أن يتولّى المهمة.

ولكنها اعتقدت أنه لن يأتي من أجل ذلك. كانت المشكلة هي أن المرأة المسكينة كانت لديها ابنة صغيرة، وبيعت الطفلة في عمر الخمس سنوات بـ 300 طالر (22 جنيهاً)، لعائلة في قيدون Ghaidun (تبعد مسافة يوم)، وقد تافت الأم لرؤية طفلتها مرة أخرى.

في الصباح التالي تكلم محمد معها ووعداها حالاً أن يستدعي الفتاة الصغيرة لبضعة أيام. لذا عادت المرأة العبدة للظهور في دائرة عائلتنا، وعيناها الصغيرتان تبسمان كالسابق فوق حدودها التحيلة (ناتئة العظام).

قلت للإخوين عندما صعدا لاحقاً: «هذا قاسٍ بالنسبة لأم».

قالا: «نعم بالتأكيد، هو كذلك. إنه أمر الله».

نحاول الآن في الغرب بشكل متشجّج وبأيادٍ مترددة أن نتخلص من أسباب الحزن، ولكن هذا كان مؤخراً فقط، ومنذ تراجع الدين الرسمي. ولا يزال الشرق متمسكاً بنماذجه المؤسّسة ويشجّع المؤسّسة الخيرية، التي تتعامل مع النتائج وليس مع

الأسباب. وحالما تبحث وتحاول أن تغيّر أصول الأشياء، فإنك لن تكون متصدّقاً، ولكن ثورياً، وحرّكاتك غير المبالية عُرضة لهدم كل الصّروح الضّخمة. ويطلب وعّاظ البشرية المتعاقبون أن تُترك الأشياء الأساسية لشأنها. لذا فإن الشّرق يقبل العبودية، ملطّفاً تأثيراتها بالمعروف، ويعتقد أنه ليس هناك أكثر من العبودية الجسدية ممّا نفعله من استعباد العقل، قيّدت بكلمات مكتوبة يومية لسادة متقلّبي الرّأي.

صرت أحسن الآن، وكانت الحمّى قد زالت. استطعت السّير قرب غرفتي وألححت بنجاح للحصول على ماء حارّ أحضّر للاغتسال به، الشّيء الذي رفض مضيفي وبدافع من لطفهم هو أن يسمحوا لي بالاستحمام لمدة أسبوع. أربعون يوماً من دون اغتسال تعتبر شيئاً واجباً بالنّسبة لمرض الحصبة، واعتُبرت نكستي لاحقاً متوقعة بسبب الاستخدام المبكر للصابون والماء. في غضون ذلك، شعرتُ بأنّي استعدت قوتي، لاحظتها من خلال تجدد ثباتي في أمر الطّعام.

استطعت الآن، بهدوء داخلي يستحيل وجوده في المرض، مشاهدة محمّد يحضر لنا حصتنا من السّكر في قبعته الممزقة بشكل تام، أو العبدّة وهي تزيل الدّهن من الخنجر الذي أخذته من حزام أحد ما لتقطّع به طعامنا. أخبرتُ بأنه كان في تريم طبيب، وكل أنواع الرّاحة الأوروبية. وفي غضون ذلك كان لديّ سعالٌ أنهكني وخفت أن ينقلب ربما إلى ذات الرّئة؛ ظهر هذا من كتاب صغير كان معي، أن تكون ذات الرّئة نتيجة مألوفة للحصبة، ولقد فكّرت ملياً لو أنه تطور في دَوْعَن فيمكن لي أيضاً أن أعتبر نفسي ميتة فوراً. كان من الممكن استدعاء سيارة في تريم ووادي حضر موت ويمكن أن تأتي للأسفل لمقابلتي في أبعد مكان تستطيع بلوغه في الهجرين. وكان يتطلب لبلوغ ذاك المكان مسيرة يومين فقط. كتبنا، وفي غضون بضعة أيام سمعنا من السّادة الأشراف آل الكاف المضيفين بأنه تم إرسال سيّارة محمّلة بهدايا ولطائف، فاستسمحت أصدقائي في دَوْعَن بالمغادرة.

كانوا قد أخبروني عن صهاريج مياه قديمة على بُعد نصف ساعة بأعلى مَصْنَعَة في فجوة الجُرف، وكنت قد رأيت من خلال نظارتي غرفة صغيرة ونافذة منخفضة

ومستطيلة الشكل، مفتوحة منها، في منتصف سطح الجُرف تماماً، شمال مسكني، في مكان هو الآن ولا بدّ أنه كان دوماً يتعدّر الوصول إليه بوسائل عادية. وجدتُ الأبواب في قبور الجُرف التي وجدها من قبل فون فيسمان⁽¹⁾ Von Wissmann وراتينز⁽²⁾ Rathjens في أوضاع متشابهة في اليمن، ولكن ظهرت هذه لتكون بُنيت إلى الخارج، مثل عَشّ سنونو. وحسب ما أعلم، فلا أحد من زوار دَوْعَن قد لاحظ هذه الأوكار الصّغيرة، أو زار الصّهاريج. وقد كنت مريضة جداً بحيث لا أستطيع القيام بذلك، ونصحت بذلك أفراد سلاح الجو الملكي R.A.F. في رحلتهم التّالية.

تكلم باصّرة معي أيضاً حول حجرة مغلقة تماماً بباب حديدي خلف الخربة في وادي خُلّة، لم تُزَر أيضاً بسبب موقعها الذي يتعدّر الوصول اليه. وأخبروني بأنهم وجدوا صندوقاً مملوءاً بأشياء سوداء احترقت بلهب مثل لهب الشّمع في كهف في وادي عَقرون الذي يفتح الى وادي الأيسر، ولا بدّ أنني قد مررت على رأس المكان في الجُول، وكانت يدٌ وبعض الكتابات بأحرف حمراء موجودة على الجدران بالقرب منها. وجد فان دن مولن Van den Meulen وفون فيسمان Von Wissmann أطلالاً ونصوصاً سبئية على ملقَى وادي ثقبَة ومِنوَة، تماماً خارج طريق المُكَلّا؛ وهذا كله هو الذي لوحظ حتى الآن في جوار دَوْعَن. وكان على الأرجح كما يدفع برهان آخر المرء ليعتقد، مكاناً خارج الطّريق الرّئيسي في الأزمنة السّبئية، ازدادت أهميته مع نمو

(1) هِرمان فون فيسمان (1895-1979) جغرافي ومستكشف ألماني نمساوي (ويحمل نفس اسم أبيه الذي كان جغرافياً أيضاً)، جال في جنوبي جزيرة العرب وألّف جدولاً زمنياً لحضارات جنوبي جزيرة العرب بدءاً من حضارة سبأ، وله دراسات عن حضرموت مع المستكشف الهولندي دانييل فان در مولن (وقد حصلت على كتابهما). وله أيضاً:

Zur Geschichte und Landeskunde von Alt-Südarabien. Böhlau, Wien 1964.

Arabien. Dokumente zur Entdeckungsgeschichte, Vol. I, Stuttgart 1965.

Die Geschichte des Sabäerreiches und der Feldzug des Aelius Gallus, Berlin 1976.

(2) كارل أوغُست راتينز Carl A. Rathjens (1887-1966) جغرافي ألماني اشتهر برحلاته في اليمن، وله مجموعة نادرة من الصّور عن نَعز وصنعاء وغيرهما.

المُكَلَّا وانتهيار الطّريق القديم من قَنَا عند وادي عَمْد. وهذا يمكن أن يشرح فقر البقايا المكتشفة حتى الآن.

أسفت لكوني لم أكن قادرة على تفحص ماذا كان هناك، ولكن كانت قوتي بسيطة وعليّ أن أوفّرها.

كنت قد أعطيتُ حميراً جديدة وبدويّاً. كان جنديّ الذي جاء لرؤيتي كل يوم خلال مرضي، قد ظهر مرة أخرى بكسوة كاملة، بالإضافة لقبعته الصّوفية البيضاء skiing، غريبة في الوادي المّداري. وبدأنا رحلتنا بهدوء في فترة بعد الظّهر.

التفّ الوادي بسرعة للشّمال الغربي، واتسع قليلاً. اختفت الكميات الكبيرة من أشجار النّخيل وحلّت محلها أشجار عُلْب ممتلئة بالثمار، في امتدادات مكشوفة. قلّت البلدات في جوانبه أكثر، وظهر في بعض الأحيان مبنى هرمي الشّكل فقط بنوافذ صغيرة، وانغلق الجُرف في السّلاسل المتواصلة في كل جهة.

كانت مرحلتنا قصيرة؛ ساعة ونصف أو ساعتين إلى مطروح، حيث دعاني تاجر كريم للتّوم عنده. ارتفع بيته الجديد في طبقات من خطوط تزيينية مطلية بالأبيض بين القرية والجُرف. كان بيتاً جميلاً، بغرف ملونة من نمط جزيرة جاوة Java المكان الذي جاء منه. جعلت الألوان الزّاهية البسيطة الشّخص يشعر كما لو أنه كان داخل صندوق من سكاكر: كان الباب الأمامي المنحوت بشكل دقيق قد كلّفه خمسين باونداً. كان كل شيء نظيفاً، قام بمعاينته هو وابنه. بُسِطَ لي لحاف من السّاتان على فراش من المخمل الأحمر، وبُسِطَ غطاء طاولة أبيض اللون ووزّعت علب من الحليب للشّاي. لقد كان رجلاً ثرياً، وأخبرني أيضاً بأنه فضّل واديه القاحل على مُتّع جاوة Java المتمدّنة، ولكن لم يشاركه ابنه الذي وُلِدَ خارج هذا المكان تلك النّظرة. ولقد وجدتُ أن هذا هو الموقف الطّبيعي للأجيال الأصغر والأكبر من خارج الوطن.

غادرتُ في الصّباح التّالي، مع بعض الرّيبة - بسبب سعالي الذي جعلني صامتة غالباً - عند السّاعة السادسة والخمسين دقيقة في مرحلة طويلة إلى الهجرين.

الفصل الرابع عشر الركوب إلى الهجرين

«بلادٌ فيها قلاعٌ مسورة لا يُهْرَق فيها كثيرٌ من الدماء

حيث يجب أن تحافظ القبيلة على حدودها ويحافظ الرجل على رأسه

وعندما يتأخّر المسافر يداهم الليل بينما يقترب من القرية

ويرى توهّج أعواد ثقاب الحراس حول البوابة»

(سير ألفريد ليال)

كنا قد خلّفنا الجزء الأضيّق من دَوَعَن وراءنا، وكانت نخلاته قد ماتت منذ زمن طويل خارج فرجات تشبه المتنزه. ولكن على الرّغم من أن الجدران كانت الآن منفصلة بشكل أوسع، فإنّ هناك نتوءاتٍ تلمع في ضوء الشّمس، وتبهت حدودها في بياض سماء الصّباح، أعطت الجدران أيضاً شعوراً مثل جدران السّجن، فقد وقفت أعمدة مشدّبة بشكل هائل مقابل ارتفاعاتها المصقولة بفعل الرّيح، ثلّمت في أخاديد أفقية؛ كانت قمم مصاطبها منتظمة.

يقول ابن مُجاور بأنّ بني عاد قبل التّبي هود، جلبوا على أنفسهم الخراب، فقد سكنوا في تلك الأراضي وبنوا لأنفسهم مصاطب ضد التّمل، وبنوا حولها مواقد ليمنعوها من التّسلق. لماذا تمجّد الأسطورة حشرة صغيرة جداً تهاجم أسلاف الإسلام العمالقة؟ لا أستطيع أن أتخيل: (لقد كان التّمل كبيراً بحيث كان، وفقاً لياقوت الحموي،

يسحب راكباً عن حصانه)، لكن بخصوص المصاطب فإنني أشعر أن الجغرافيين الأوائل قد يكونوا تأثروا، كما فعلت أنا، بهندسة الوديان الاستثنائية، ونسبوها إلى تسوية الإنسان بدلاً من مصادفات الطبيعة، وخاصة هنا عندما قابلت عدة مرات أشخاصاً لم يقرؤوا ابن المُجاور أبداً، ولكن يمكن أن يشيروا أيضاً إلى بعض الصفات في تلك الجوانب المتناسقة ويقولون بأنّ بني عاد هم بالتأكيد وحدهم من يمكنهم أن يكونوا مسؤولين عن مثل هذا البناء الضخم.

أما بالنسبة لي، وأنا ممتطية الفرس وقد أحزنني المرض في مثل هذا المنظر الطبيعي عديم الرحمة، فقد تصوّرت صدع الأرض هذا كواحد من مسرحيات دانته Dante وتخيّلْتُ بدوّاً زُرْق اللون يرقصون مع المذرة في اليد وخصلات شعرهم وشالاتهم متدلّية على حافة الجُول في الأعلى.

اتّسع الوادي، وقد جُعِلت حقوله الضّحلة كمصاطب في وجه الطّوفان، ووقفت أشجارٌ علب هنا وهناك، تحتضن ظلالها مثل دجاجة فوق بيضها. امتدّت طرق غائرة حيث تندفع جداول المياه في الصّيف، وسرنا فوقها على خنادق جافة الجدران. ولو اجتمع الناس هناك، لتوجب على الواحد أو الآخر أن يفسح الطريق ويتسلّق أسفل السّفح، وناقشنا هذه النّقطة مع رجل كان حماره، المحجوب نصفه تحت رجل نحاسي، يجد صعوبة في التّحرّك. كنْتُ سأفسح له الطّريق بسرور، ولكن منعني العبد الأسود ومنزلة الحكومة من ذلك.

كانت المدن في الجانبين عبر عمق الوادي قد تلاشت داخل الصّخور؛ وجعلتها خطوط التّرينات وتصميمات شرفة الحصن المعكوسة ونوافذها الصّغيرة والمرقّشة تظهر كمجرّد شيء تافه أكثر تفتّناً من أعمال الطبيعة من حولها. كان الرّعاة النّحيلون كلهم قرب المنظر الطّبيعي، في ألْبسة فضفاضة حرّة، وسلّة صغيرة مستديرة من ثمار العلب إلى جانبهم، ومغرفة أو عمود طويل في أيديهم لإنزال العلف من الأشجار.

Alta sub rupe canet frondator ad auras

لقد كان من المضحك رؤيتهم مغممين بالنّشاط، ملفوفين بالْبسة فضفاضة وبأوجه

مغطاة بخُمُر سوداء. فضّلت الماعز في بعض الأوقات أن تتولى أمر طعامها بنفسها وتسَلقت الأشجار. وهي ملساء، سوداء وبيضاء، قصيرة الشَّعر، برقاب جميلة مثل رقاب النِّساء الفرنسيات؛ ولقد دفعت بشكل رقيق أنوفها المدوّرة لتحصل على الأوراق البيضوية الصّغيرة مع ثلاثة خطوط بيضاء ممتدّة أسفل منها والتي تحتضنها أشواك شجر العَلب.

كانت الحقول لا تزال فارغة، تنتظر مياه الطّوفان أو «السَّيل»، الذي يأخذ مكان المطر. تمتدّ الأرض في كتل قاسية، مبيّضة من جميع الألوان، وقلبها الفلاحون المغبرّون مثلها إلى عمق حوالي قدمين، بمغارف حادّة وخفيفة؛ ويمكن أن يزرعوا الدُّخن هناك بعد السَّيل. ولكن عندما أتينا أسفل بيضاء، كانت هناك بلدة كبيرة بحجم الخريبة تقريباً تتسلق الجُرف الغربي بأبنية بتيّة هرمية الشَّكل ووجدنا أنفسنا فجأة بين أشجار النّخيل مرة أخرى، ومزارع مانتعة يانعة من أشجار صغيرة وعنقودية، منتعشة في الصّباح بعشب وظل، وطرق هادئة مغبرة ناعمة تحت الأقدام. وكانت هناك كميات من الأزهار - Calamint - وعناقيد من زهر الرِّبيع الأصفر، ولبلاب أبيض، وكُرّات سَمُر صفراء برائحة العسل - وطيور تغني أغانيّ سلسلة بست نغمات عذبة كالماء.

كان هناك العديد من القنوات الجافة قد حُفِرَت هنا، ووصلت إلى الطّريق عبر ثلاث أو أربع قنوات لتوزّعها بين أشجار النّخيل عندما يحين الوقت، حيث كانت كل شجرة لها قناة حُفِرَت حول جذورها لسقايتها. وعندما غادرنا متعة تلك المزارع، وخرجنا مرة أخرى في الوادي المكشوف، شاهدنا مزارع قمح - معظم زرعها بائس على سوق طويلة وجافة، ولكن في أماكن متنوعة هناك رقعة خضراء وظلّ شجرة عِلب نبتت فوقها؛ وفكرت، وقد ركبت قربها وشاهدت مشهد ذاك البيت، بأنه ليس في العالم شيء يمكن أن يكون أكثر جمالاً واطمئناناً ونشاطاً من رقعة ظلّ فوق حقل ذرة، "somno mollior herba".

المشهد الآخر الوحيد لبرودة ذاك الصّدع الذي لوّحته الشَّمس والذي سرنا فيه مطوّقين، كان سرباً من الحمام بين الحين والآخر تحرّك نحو أعشاشه الصّخرية؛

وقد أظهر ريشه الرمادي بالتباين كم كانت المنطقة القريبة كلها جافة وحارة وحمراء. كان سلاح جنديتنا، الذي فرح لخروجنا أخيراً، على كتفه، ويتمايل وركه، بمئزر بلون أزرق وأرجواني مغسول حديثاً، يسير بخطى واسعة خلف رأس حماري، وقد أضاف الغبار إلى الشعور بالعطش في المنظر الطبيعي، غبار نبتله جميعاً أكثر من أن يفكر أي شخص بأن قدمين اثنتين فقط هما اللتان أثارتاه.

كان جُلّ طريقنا لهذا اليوم عبر أرض تحت سيطرة باصّرة؛ ولكن كانت الحرب تضطرب في وديان الجانب الأيمن، وتمسك الحاكم القلق بالسيد الذي صادف مروره من مصنعة كي لا يدع أي شيء غير مُنجز من أجل راحتي، وأخبروه أن يبقى معنا لمزيد من الأمان. ينحدر السادة الأشراف كلهم من الدّاعية الأول إلى لإسلام الذي استقرّ في حضرموت، وهم لا يحملون الأسلحة، ويمكنهم السفر إلى أي مكان دون خطر، على الرّغم من نموّ حركة دنيوية حديثة، مؤلّفة بشكل أساسي من مستعمرات حضرمية مهاجرة عبر البحار، وهي الآن تقوّض تأثيرهم. ومع ذلك، فقد كان يمكننا اعتبار رفيقنا الرّحال كفيل سلام. كان شاباً بأنف أفتس وعمامة صوفية زرقاء - وكان كثير الصّمت إلى أن أكلنا معاً، وناقشنا أصول أئمة مختلفين، ثم أصبح رفيقاً لطيفاً وتدرجياً أصبح يمشي إلى جانبي بدلاً من المشي بسرعة في الأمام بعباءة مرفرفة على مسافة غير ملوثة.

وصلنا إلى صخرة بعد أن عبرنا إلى الجانب الأيسر من الوادي، حيث التّف شرقاً تحت جدران بلدة القرن، وأتينا عبر امتداد قاحل إلى حيث يدخل فيه وادي الأيسر. هنا مكان مفتوح وواسع حيث لا بدّ أن يندفع الطّوفان فيه، لأن الأرض عُقدت في شقوق وخنادق، وتراجع الجُرف في الجانب الأيمن في مسافة تاركاً شعوراً بالحرية، لأنّ الأيسر وادٍ هائل ومزدهر ويشرب نصف ماء الجُول الشمالي من المُكّلا، كما رأينا عندما سافرنا هناك على طول منابعه. تركناه خلفنا والتفطنا شمالاً، وتركنا آخر القرى، التي هي الآن رقع طينية بائسة، عبر قاع السّيل في الغرب.

سألْتُ البدوي الذي كان يهرول قربي عن الحرب، وأين كانت مواقع العدو.

قال: «هناك»، وأشار إلى واحدة من مجموعات البيوت تدعى Koka. كنا بعيدين بعض الشيء ولكننا استطعنا رؤية رجال منهمكين في عملهم جانب الجدران. «هذه واحدة من قراهم. ولكننا لا نقاتل هنا. نحن نقاتل في هضاب الأيسر».

سرنا في فراغ متزايد للوادي، وضربتنا حرارة منتصف النهار من الأعلى. أتينا عند منعطف على شجرة جميلة يسمونها عَذَب، يصنعون شاياً عُشْبياً tisane من لحائها. كانت أزهارها صفراء وبضياء، كبيرة وعطرة، كما أنها مبهجة في غرابتها مثل حقول الذرة التي كانت قبلها. وقد توصلتُ إلى نتيجة بأنَّ سرَّ جمال هذين الشَّيْئين في الأرض المغبرة أنه لم يكن عليهما غبار.

شاهدنا بعد ثلاث ساعات وربع من المُكَلَّا كتلة بيوت صِيف المحتشدة في خليج من الجُرف الغربي، أسفل برج طيني حافظ منه الجنود اليافيون على البلدة. وفيها منارة بضاء، ومدجج من صخور منحدره بشدة، كما لو أن جانب الجُرف خلف البلدة قد ازدحم بتمائيل كبيرة مطموسة جزئياً. إنه مكان متواضع، بيوت على شكل حصن. يأوي على حافتها الخارجية نائب باصّرة بتواضع، ورحب بنا بانفعال ودود، راجع إلى حقيقة أنه استأسد عليه الجنود واشتبه به أهل البلدة؛ وبالنسبة للسيف فهي نوع تقليدي قديم الطراز من مكان فيه شيء قليل مشترك مع مضيفنا وزوجته، الذي كان قد تاجرَ بالمركبات في جِدَّة وعرف كلاً من مكَّة والقاهرة. عُلقَت صُور ثياب فرنجية على الجدران في غرفة جلوسهم الصَّغيرة، فوق لوحة جدارية لباخرة بعجز بسيط يسميه الفنانون المعاصرون بأسماء أفخم. كانت جميع حقائق الصَّورة موجودة هناك: قمعان يقذفان بخاراً، ووجه القبطان مثل قمر مكتمل فوق سطح السَّفينة، وطائرة في السماء.

لم يكن هناك شيء من ثراء، لا الأعمدة المنحوتة ولا مهابة مَصْنَعَة الأَرستقراطية؛ ولم يكن لدى الوكيل نفسه أيَّة سلطة. لقد أبقى الجيران المتلهفين بعيداً، مضطربين بجلبه في الأسفل يطالبون برؤيتي؛ بينما راح يتحدث عن المشاكل التي سببها له. شقَّ رئيس اليافيين طريقه إلى الدَّاخل وهو يهدر بغضب، واختطف الدَّواء الذي كنت قد أعطيته لتؤي للمضيف من أجل عينيه - ولم يُفلح أحدٌ في جعله يرحل. فقد كان رجلاً

شرساً، نصف عارٍ، وعامل الحاكم الصّغير بازدرء وسخرية كما يعامل قائد عسكري
پريتوري Praetorian القياصرة الأضعف في روما. ثم كان هناك الكثير لنعمله لنجد
حميراً جديدة، لأنّ البدو الذين يرافقوني قد بلغوا هنا نهاية مرحلتهم. مضت الساعات،
وصرخ الحشد، انسلّت النساء لينظرن إليّ؛ وتقت للنوم والهدوء. ولكن عند الساعة
الثانية والتّصف كانت الحمير جاهزة. نزلتُ إلى الحشد، الذي كان خارج السّيطرة
تماماً، يموج باهتياج، ولكن بوّة عندما ظهرت حقاً. توقفت رحلة إنغرامز Ingrams
في صيفٍ واعتبراها غاية في العداء تجاه الغرباء؛ وقد انتُهب فون فريده von Wrede
هنا، وكاد الزّوجان بنت Bent يعودان أدراجهما، وأمضى المندوب الهولندي ليلة غير
سعيدة منذ أربع سنوات. ومع ذلك، فقد انطلقتُ قُدماً وأنا أرّدّد «والله w' Allahs
على حمار صغير جداً يكاد يكون مخفياً تحت خرجي السّرج. انتضى ثلاثة يافعيين
أنفسهم من بين زملائهم وجاؤوا كمراقبين، واتجهنا شمالاً فوق قاع السّيل الأبيض
الذي يبهّر في الشّمس.

يتناقض تدريجياً شعور الأمان عندما يسافر الشّخص شمالاً من دوعن. لقد حُفظت
سلسلة من التّواصل مفتوحة مع سلطة الحكومة، ولكن يشعر الشّخص أن المدى في
تلك المسافات المنخفضة المعزولة للوادي يتطلب بعض الجهد للوصول إليها. هناك
زراعة قليلة جداً بين الهجرين وصيف، ولم أتمكن أبداً أن أقرّر بفكري الخاص إن
كانت تلك الامتدادات القاحلة كانت السّبب أو النّتيجة للفوضى. ولكن في المجمل
أعتقد بأن عدم الإحساس بالأمن المتواصل هو الذي يدمّر أولاً المحاصيل، ثم يترك
الأرض مفتوحة لتخريب الطّبيعة.

سافرنا عبر قفر في ضوء فترة ما بعد الظّهر. ظهرت قيدون بلطف تحت شجرات،
عبر قاع حجري بعيدة بعض الأميال في وادٍ غربي، حيث يقع ضريح أحمد بن عيسى،
جد المَنسب في ثلّة هناك، كان يمكن أن أتوقف لزيارته لو لم أكن أشعر بمرض شديد،
ولقد بدا مضيافاً ومفتوحاً في فسحة الوادي. ولكننا انعطفنا شرقاً وسرنا في أرض
متجعّدة متصلبة، بقشرة أرض متكّلة - حجر كلسي أو حجر رملي - حطمها الزّمن

في أخاديد بارتفاع عشرة أقدام تقريباً، ممتازة جداً للقناصين. يوجد بعض العلب أو شجر السّمُر، بلا ماء، وقبة بيضاء صغيرة عند فواصل الشّقاية، التي وهبها شخص محسن من بعض المسافرين الذين طواهم الموت.

امتدّ السّيل في وسط هذا القفر، نهراً من صخور بيضاء حيث جرف بعيداً أديم الأرض الأحمر. بُنيت هنا وهناك مراكز مراقبة صغيرة مربعة الشّكل، غرفة طينية فوق أخرى، بثقب رماية في كل جدار. لم يكن هناك بيوت، باستثناء بيت بعيد في كل جانب من خلجان الجروف، توجد جماعات بشرية بائسة محجوبة غالباً تحت جدران طبيعية عريضة، ومتباعدة في ذاك المكان. ولا وجود لأناس باستثناء امرأة بغطاء أسود، ابتعدت بسرعة.

تفرق الياغيّون الثلاثة بمرح على تلك الأرض، يمشون بطيش، طوال القامة ونحيلين. لقد كانوا جذابين، رجال مهملين، بزّهو جامع.

“il devient malaisé, d’après notre manière de voir, d’établir une démarcation entre le paladin et l’apache.”

وقد حملوا أسلحتهم على أكتافهم وأظهروا العضلات القائمة في ظهورهم وأرجلهم وهم يحركونها.

كان أحدهم شاباً، معقوف الأنف وسيماً، بينما كان الاثنان الآخران رجالاً مسنين، وبدا من غير اللائق النّظر إليهما، وكانوا يرتدون إزاراً فقط وحزام خراطيش، بأوجههم المهيبة والمجعدة، وبعبابة حول شعرهم وخاتم في أصابعهم الصّغيرة، يقفزون قرب الأخاديد بعد حميرنا الشّاردة. وأخبروني بأنهم يذهبون مرة في كل سنتين لموطنهم إلى قراهم الجبلية في التلال شمال شرق عدن.

سألت: «ألا يعتبر الوقت طويلاً بالنسبة لكم بين زيارة وأخرى؟».

قال المرتزق المُسنّ: «بلى». كان يمشي خلف حماري وحاول أن يحافظ على قوائم الحمار الخلفية الصّغيرة مخفية بطريقة صحيحة بواسطة سلاحه. وقد ابتسم

بحزن إلى حدّ ما وقال: «جميع الرّجال يحبّون أوطانهم. الأراضي الأجنبية ثقيلة على القلب». وحالما أصبحت الشّمس منخفضة خلفنا بسط شاله على الأحجار البيضاء وصلى صلاة العصر، بينما تابع رفاقه سيرهم مع جندينا، وقد نسوني تماماً بسبب حماسهم لوجود جنود حقيقيين من الحكومة يتحدّثون معهم.

احتجت لمساعدة، بسبب أن حماري كان ذاك الشّيء الضّعيف الذي ظل يتعثّر، وقد سقط معي أربع مرات، ولحسن الحظ كان صغيراً جداً حيث استطعت تخطي أذنيه قبل أن نلمس الأرض تماماً. كان الياغيون ممتعضين من أهل صيف بسبب منحي مثل تلك الحيوانات البائسة. فقد كان هناك على ما يبدو مشكلة حول العمل، ولم يظهر أيّ سائس حمار لمدة طويلة، وكنا جميعنا عاجزين عن فعل شيء ما عدا السيّد، الذي أظهر براعة مدهشة في فن التّكلّم مع الحمير بلغة مقبولة؛ إلى أن باغتنا أخيراً صاحبها الحقيقي، وهو بدوي شاب جميل أجعد الشّعر، ساخط بوضوح لأنّه جُنّد من قبل الحكومة، ورفض حتى أن يردّ على سلامي. وبالرّغم من ذلك، أخذ دوابه بيد، ووجّها بعدة أصوات مدروسة بشكل جيد من الحافات التي أخذها إليها حسّها الأليبي، باتجاه الطّريق الصّحيح. ولكنه كان مقطب الجبين معنا جميعاً، وعندما وقفنا للسّقاية مشى أمامنا، ومرّر ذراعه عبر شبكة طينية الصّنع والتقط المغرفة وشرب، وأعادها مرة أخرى دون تفكير بأيّ منا لو أني لم أطلب منه أن يناولني القليل من الماء، وناديت «أخي» كما فعلت دائماً. لقد كان لها تأثيرٌ ملطّف، وتمت تمضية تنمة اليوم بانسجام؛ وكان هذا أيضاً بسبب أننا كنا جميعاً متعبين قبل النّهاية.

اتجه واديننا شمالاً، وعندما غابت الشّمس خلف جدراننا، شاهدنا صخرة بلدة الهجرين بعيدة جداً أمامنا، وهي أيضاً قد سُطّحت، ولكن بخطوة أعلى من مستوى الجُرف العام، لذلك فهي علامة طبيعية في كل جانب. ظهرت الزّراعة هنا، حقول قمح ودُخن، وقرية واحدة أو اثنتان أكثر ازدهاراً، وعلى يميننا سبيل متعرّج أعلى الجُرف الذي يذهب منه النّاس إلى المُكلّا في خمسة أيام، هذا ما قاله جنودي. يعتبر الطّريق الذي يصعد باتجاه حضرموت من المُكلّا عن طريق دَوَعَن بالفعل هو الطّريق

الأطول، ولكنه استُخدم فقط بسبب أمنه الأكثر، حيث لا يوجد سبب جغرافي يجعله طريقاً أساسياً داخل البلاد.

كان الليل قد خيم علينا. أنار لنا هلال قمر صغير، ساطع جداً وشاحب، طريقنا على طول خندق عميق مغبرّ في الطريق الذي بدا أنه لن ينتهي أبداً. مشينا مطوقين في خندق كالسابق. أنزلني حماري المتعب مثلي، في مسافات منفصلة في التراب الناعم العميق. هرول السيّد الشاب خلفنا يستحثه بجلبة، متوقفاً بين الحين والآخر في الظلام ينتزع الأشواك من أقدامه الحافية، فهناك كميات كبيرة منها أسفل كل شجرة علب حيث كانت راعيّات الأغنام قد سحبن الأغصان إلى الأسفل. وأصبحتُ تدريجياً فاقدة الحس من التعب، بسبب أننا كنا في الطريق لمدة سبع ساعات تماماً وكنت ضعيفة. وفي منتصف الليل، جاءت أربعة جمال نحونا تلوح تحت أحمال من قصب. كان علينا الصعود إلى الجُرف العالي، حيث امتدّ طريق آخر على طول القمة، في حين عبرت الأباغر مثل الأشباح في الغبار بالأسفل، وأشخاص سود تجلس متأرجحة فوق الحمولة. حيّونا بشكل مريب، لا بدّ أننا ظهرنا خطرين بأسلحتنا الأربعة مقابل الأفق في الليل.

ولكننا بدأنا الآن أخيراً نشاهد في الأسفل من طريقنا العالي أحواضاً من ضوء القمر تحفّها حدائق معتمة. ظهر في الهجرين سوداء الشكل ضوءٌ واحد على تلة، قدمنا حتى أسفل جدرانها، حيث طوّقت أسطح مجموعة من خلايا النحل آبار المدينة؛ امتدّت حولها أرضٌ مستوية معتمة بضوء القمر، وتعرّج الحصى البالي في الأعلى تحت الجدار حيث دفعت روافد خشبية نحو الخارج تياراً أسوداً من مياه القاذورات.

وأتيينا في القمة إلى بوابة مرصّعة وعتبة عالية، طرّقنا وسمعنا صراخاً في الدّاخل: كانوا يتوقّعون وصولنا، ولكن تأخر الآن موعد وصولنا. فتحوا الباب، وقادونا إلى حيث وقف عبدٌ يمثل المُكلّلاً قرب المسجد ليرحب بنا، وقد اختفى وجهه الأسود بعمامة وبظلال الليل. واحتوى المسجد أيضاً على بئر بسقف خلية نحل، ومئذنته المربعة ثم مستديرة ثم مربعة مرة أخرى في الأعلى هي من أقدم الأنواع التي وجدت

في حضر موت. وقد لمعت بشكل خافت، وقد أضيئت بكوكبة ذات الكرسي Cassiopeia الشمالية فوقها، ولكن البلدة كانت مظلمة.

قادنا فريقنا الصغير إلى باب في جدار أبيض، حيث بيت السيّد؛ انتظرنا هناك بينما بحثوا عن مضيفنا، على الرغم من أنه كان يوجد أشخاص في الدّاخل، فإنهم لن يسمحوا لنا بالدّخول إلى أن يأتي سيدهم. من الخطأ الوصول إلى مدن شرقية بعد حلول الظّلام. ولكن أخيراً تأرجح الباب المنقوش للخلف، وسُمح لنا بالدّخول إلى نوع من غرفة حراسة، بجدران قدرة، غير مفروشة، كان المرتزقة اليافعيّون يجوبونها على مهل، وهم يحملون بنادقهم. تساءلت مغتمة فيما إذا كان ذلك هو المكان الذي سأقضي فيه الليلة، لأنّ العبيد السّود غير متمكنين من الأرستقراطية العربية في التّعامل وغير قادرين على التّعامل مع قدوم مفاجئ للضيوف، ولم يبدُ أن أحداً قد اهتم بممثل الحكومة.

ومع ذلك، جاء السيّد بعد برهة وقادني إلى الغرف الدّاخلية لحريمه. أظهر صوت همس وترتيب واعتراض بأني سأمنح شقة السيّدات الخاصّة في تلك الليلة. مُدّ لحافٌ بعجلة بين ركام أنثوي مبعر، وأعجبت بالجدران المنقوشة والأبواب وحاولت أن أركّز عليها لإبعاد أفكار أخرى. جاء الوجهاء لشرب الشّاي معي وأخبروني بأنهم كانوا ينتظرون في اليومين الأخيرين هنا للقائي؛ وبعدما ذهبوا، فتحتُ مصراعي نافذتي وشاهدت عبر شعريتها المنقوشة، بعيداً في الأسفل في وادي القرون الوسطى، المصاييح الأمامية المستقرّة لسيارة.



الفصل الخامس عشر

مَنْسَب المَشْهَد

«لَا تَنَا نَرَى النَّارَ فِي عَيُونِ الشَّبَابِ،

أَمَّا فِي عَيُونِ الْعَجُوزِ فَإِنَّ مَا نَرَاهُ هُوَ النَّورُ».

(فيكتور أوغو)

لم يُلقِ أحد أدنى اهتمام لرقيق حاكم الهجرين؛ تردّد في زاوية وتصادق مع جندينا العبد، وهو مُهمَل مثله مثل جامع ضرائب بلاد منخفضة في مجمع العشائر، ومثال واضح لعدم جدوى سلطة أشخاص ليسوا ذوي نفوذ في بلد قبلي. ولو حصل أن ذكرته بلقب حاكم Hakim الحكومة الجدير بالاحترام، كان البعض يحدّد الحالة بالقول: «تعليمين، هو مجرد عبد».

ومن جانب آخر، فقد جلس السادة الأشراف حولي ونهضوا حالاً بتصفيق احترام لتحية مقدم مَنْسَب المَشْهَد الشيخ أحمد العَطّاس. وهو يحكم الوادي أسفل الهجرين، حيث ينتهي نطاق سلطة المُكَلّا. دخل بشكل ملكي، ملتفّاً بعباءة مخملية خضراء، وعمامة صفراء اللون على رأسه؛ وأمامه في يده عصا فضية الرّأس؛ وقد كان بديناً، كريماً ونشيطاً، وأحيط محيّاہ الطّلق بتجديدات لحيته وشعره الرّمادي؛ وقد أُلقي وشاح مخملي بلون أحمر وأخضر على كتفه. كان متواضعاً، مطمئناً لسلطته المطلقة وبسلوك محبّته الأبوية.

نظر إليّ بعينين وامضتين هادئتين بينما احتسَى الشاي من فنجانهِ، وهناك رجل شاب من جاوة Java متحمّس ليُظهر معرفته بالعادات الأوروبية، أزعجني ليظهر عدم حيازتي على الشّهادات.

قال: «الشهادات، وهي التي يملكها كل فرنجي يدرس - ألا تدرسين التاريخ؟». علّقْتُ: «إنها ليست طلاسَم، لا يتوجب على المرء أن يحملهم معه أينما ذهب. إنها عبارة عن بضعة أوراق لتظهر أنك دخلت جامعة».

قال الرّجل الشّاب: «لقد درستُ اللغة الإنكليزية لستة أسابيع؛ لم أسمع كلمة جامعة أبداً». فقد ارتاب بشكل واضح بوجودها. ولكن نهض منسب المشهد الذي رأيته الآن مرهقة، وأخذ جماعته معه خارجاً إلى النّوم».

عندما فتحت بابي في الصّباح التّالي، كانت تقف هناك فتاة بملامح مثالية، وقد اكتسبت بكسوة كاملة يمكن لأية امرأة شابة من الهجرين أن ترتديها، وزين وجهها ليلائم ذلك. ميّز حواجبها المنمّصة خطّ رفيع قرمزي اللون، مثل طلاء على البريق الأصفر لوجهها. وكان منخرها، أيضاً، قرمزيين وتصميم أخضر يشبه رقم 7 من أعلى الحاجب الأيسر نزولاً إلى أنفها. وكان في شفّتيها المنقوشتين بإتقان خطّ وشم أزرق على الشّفة العليا، رُسم من نقاط وخطوط في الأسفل على هذا النّحو:



كان ثوبها، الأغنى من ثوب دَوَعَن قصيراً إلى الرّكبتين في الأمام ويتدلّى خلفها، مع شرائط من البريق من الأكتاف ونجمة تتلأأ في منتصف الظّهر فقط، حيث يمكن لمشية متمايلة متزنة أن تظهر أهميته بأفضل وجه. وقد وضعت تائم في علب فضية مثل تاج حول رأسها وقبعة من خيوط المرجان فوقها.

كانت كل أذن أسفل عدة صفائر مثقلة بسبعة أقراط. وحملت في يدها من أجل

إفطاري طبقاً خشبياً كبيراً، مع بعض البيض وبعض الفطائر المحلاة وخُبز مُشرب بالزيت. كانت عيناها الصغيرتان الودودتان تبتسمان لي في ذاك المكان المتقن، وفَسَّرت بأن هذا البهاء كله كان قد وُضع على شرف الرّجل الشاب صاحب الدّبلوم، الذي كان يحمل في ذاك اليوم عروساً من الهجرين. كان قد جاء بسيارة، ولكن كانت جماله قادمة في الطّريق، وعندما تصل سيحمل هو وأصدقائه العروس إلى بيتها الجديد، إلى مسافة ركوب يوم طويل بعيد.

استمرّ موضوع الملابس الذي تقدّم معنا خلال فترة الإفطار، وجاءت بنات شبّات أخريات ليُظهرن زيتهن المبهجة. كانت بعض العباءات قد صُنعت من قطن مزهّر من الهند، ولكني أعتقد بأن الثّوب في الهجرين النموذجي هو أسود غير ملون وهو الثّوب الأقدم ومطرز بالفضّة. يقولون بأنّ البطل الأسطوري أبا زيد [الهاللي] تحارب مع رجال حُمر موت لينتقم لأخيه، وحقق السّلام فقط بشرط أن تُسدّ جميع الآبار في البلاد، وعلى النّساء أن يلطخن وجوههن باللون الأسود، ويلبسن عباات سوداء قصيرة إلى الرّكبتين من الأمام. وكان هذا أول فعل فرض عليهم، ولكنهن الآن جعلن ذلك موضّة ويتابعن ذلك حتى هذا اليوم.

طلبت منهن أن أشتري عباءة لحملها معي للسّفر، وألهبت بذلك مشاعر الطّمع في مضيقي، وجه جلف وعقلية تجارية لسيد Sayyid مسنّ، فقد استغلّ وضعي كضيفة ليطلب مبالغ هائلة. وكان قد فكّر في استضافة أفراد سلاح الجو الملكي R.A.F. قبلي، مع النّتيجة المحزنة التي تتبّع الرّحالين البريطانيّين غالباً - وقد نظر إلينا الآن جميعاً من زاوية مادّية. ربما من غير الإنصاف التّفكير به بشكل غير لطيف، وتمنّت زوجته التي لم تكن قد فسدت أن تقدّم العباءة كهدية. إننا نهين ونفسد أخلاق النّاس عندما نعامل طبيّتهم كشيء يمكن أن يُشترى. ونفكر بالأسوأ بهم عندما يستخدموننا كمجرّد مخلوقات تدفع نقوداً. لأنّه لا يوجد شيء أكثر إهانة مهذبة من رفض الخضوع لالترام.

عندما اختار السيّد بيريشون Perrichon بين طالبي يد ابنته، لم يمنح قبوله لذلك

الذي أنقذ حياته، ولكن لذاك اللبّق الذي يسمح للسيد بيريشون أن يحميه، هذه هي الحقيقة الجوهرية للطبيعة البشرية التي نميل لنسيانها. شعرت أنا شخصياً بالذنب لإرسال سعر أثواب السيدات في الهجرين للزّوار مستقبلاً، ولم يرق لي السيد الكهل الذي لم يفكر بشيء سوى المال، وقد جمع قدر استطاعته، ولم يأت حتى لرؤيتي في الخارج عند مغادرتي - إنه أنموذج محزن لتأثير الغرب.

ولم يكن كذلك منسب المشهد، الذي ظهر من جديد في الصّباح التّالي ناشراً حوله جواً من احترام مرح. أمسك بيدي، وقادني إلى أعلى المنزل، حيث امتد في الأسفل المنظر من الوديان المتجمعة وحقولها. وفّت عليّ من جيب مخفي في ثنيات عباءة المشيخة نعناعاً وقرنفلأ، وأعطاني جواده لأركبه عبر طرقات البلدة المذهلة - المليئة بالحмир المحملة بسلال كبيرة تصلح لأيّ عرض للفروسية، ولكنه علامة لكل روح شيخ مسنّ مستقلة، لأنه كان رجلاً مبجّلاً، ومقدّساً، ولم يُجبر أن يكون فاتناً بشكل علني لجنسي الأدنى.

قد أشار بطريقة مرحة: «إنهم يستنكرون ذلك، ولكنهم ضيقو الأفق، وأنا لا يهتمني ذلك». تركني لأتابع سيري إلى المشهد وجّهز استقبلاً، بينما تسلّقت لأشاهد الأطلال على التّلة خلف البلدة.

إنها أكوام غير متجانسة من الكسارة مع بعض أحواض ماء، ولكنهم يُظهرون بأن التّلة لا بدّ أنها غُطّيت ذات يوم بمنازل دمّون التي كانت في سالف الأيّام عاصمة قبيلة كندة ولا تزال موجودة كضاحية من ضواحي الهجرين، وقد أشير إليها في بيت شعر لامرئ القيس، أمير كندة (الهمداني، ص 85):

كَأَنِّي لَمْ أَلْهُ بَدَمُونَ مَرَّةً وَلَمْ أَشْهَدْ الْغَارَاتِ يَوْمًا بَعْدَلٍ

وعندل بلدة صغيرة أتيح لي مؤخراً تعيينها وزيارتها في وادي عمد.

كانت هذه الأماكن مزدهرة في الأيام المبكرة من الإسلام، مشكّلة على الأرجح ازدهاراً اقتصادياً غير منقطع من قديم الزّمان. لذا فقد أتيت الآن إلى الجزء من

حضر موت المليء بالآثار السبئية، المنتشرة في كل جانب. وقد أخبروني بأن هناك حوضاً سبئياً أعلى قمة صخرة في الهجرين. تسلّقت إلى السّفح من طريق قصير، ارتفعت الصّخرة على شكل مدخنة شكلها مبهج ولكن تسلّقها مستحيل بسبب ضعفي. كان عليّ تركه والعودة مع جمع صغير ومُحَبَط، وأن أجلس في الشّمس وأنظر إلى الأصداف المتحجرة التي وجدت هنا، بينما راح رجل بلحية متجمّدة يسأل أسئلة. لقد كان في كينيا Kenya وفوجئ برؤيتي أسافر دون خادم.

قلت: «السّلام أفضل من الخدم، ولا يمكنك الحصول على كليهما. ومن الممكن أن يتشاجروا مع البدو عندما أكون بعيدة في الجول».

وافق على كلامي: «هذا صحيح، ولكن لا يذهب أيّ إفرنجي دون خادم. عليك الحصول على واحد، ثم تستطيعين الجلوس في غرفة، وهو يجلس في أخرى، ومتى تشائين تقولين «يا ولد»».

أضحكتنا جميعاً هذه الصّورة للحياة الأوروبية ومتعتها، وتأخرنا، لرؤية البلدة في الأسفل، حيث كانت تحدث كل أنواع الإثارة باستمرار. كانت الآن العروس في الأسفل وعلى الطّريق المتعرّج تحت الجدار تنزل مع ضربات قرع الطّبول، وحشد أسود من النّساء المنقّبات؛ وتحلّقت حولهن فتيات صغيرات سافرات بأثواب لامعة، مثل فراشات. وانتظر مرافق الزّفاف على أرض مستوية؛ كانت الجمال قد وصلت ووقفت مع البُسّط الاحتفالية الحمراء حول السيّارة. ظهرت سيارتي الآن التي كانت قد ذهبت لتبيت في مكان آخر الليلة الماضية، وأضيفت إلى الشّعور بالعيد العام. وقفتُ قرب مستودعات صهاريج خلية النّحل حيث يُحوّل إليها الماء ويترك فيها في زمن الفيضان، وشاهدت مندوب السيّد من وادي حضر موت يتسلّق نحوي أسفل جدران المدينة.

وعندما ظهر، كان شاباً قوياً، ودوداً ونشيطاً من مكّة، أوروبياً في ثيابه، جوارب وبنطال قصير، قلم حبر وساعة يد، وقبّعة من جلد الخروف على رأسه. كان في بغداد، وقاتل في وقته مع الملك حسين، يقود الطّائرات للجيش العربي في العقبة؛ كان اسمه

حسن، وكان يعلم كل شيء حول سلوكيات ومعاملة الأوروبيين، كونه اعتنى بكل المقيمين من عدن والزوجين إنغرامز Ingrams في زيارتهما الأخيرة.

وقد أسرع الآن بطاقة غير شرقية ليوصلني أنا وحاجياتي إلى السيارة. ولا يمكن لنصفها أن يدخلوا فيها، لذا كان علينا أن نعتمد على بدوي، وافق مقابل ثمانية طالرات على أن يأخذ معظم متاعي والسيد الصغير المسكين ورفيقنا المسافر معه. فكّرتُ بأنه من الممكن أن يكون المكان جعل من أجل السيد، ولكن نظر إليه حسن بازدراء متمدّن مُفرط واختفى. ظهر حمّالون من حيث لا ندري، وحملوا صناديقي نحو سفح التلة. جاء حشد قليل من حفل الزفاف وهتف لنا، واستلقت تحت ظل قماش القنب بشعور مبهج بأننا نستطيع الآن السفر باتجاه الراحة ونستلقي دون جهد إضافي من طرفي.

كانت قطعة أرض مُمحلة أيضاً، وتابعنا لنشق طريقنا بين أخاديد حمراء قاسية مثل التي غطت قعر الوادي قبل يوم واحد. كانت تلك السيارة الرابعة، بعد سيارة العروس، التي تأتي جنوباً بقدر ما تبعد الهجرين، ولم يكن هناك طريق مناسب؛ ولكن كان سائقنا بربرياً ذكياً يتمتع بمعرفة فطرية لما هو ممكن في المنحدرات؛ ويمكن أن يدخل ويخرج دون أي كلام، ووقف من تلقاء نفسه لجعلي أشاهد رابية أطلال، لا يمكن للعين العادية أن تميّزها إلا بارتفاع الأرض والكسرات المتبعثرة.

وصلنا في حرّ النهار إلى المشهد Meshed ووجدنا المنسب Mansab في استراحة مرتدياً ما يمكن أن يكون ثوب نوم، نائماً مع تابعه المخلص حوله في غرفة علوية بيضاء جيدة التهوية بين ثمانية نوافذ مفتوحة. جاء متكوراً إلى أسفل درجاته، التي احتوته بالتّمام، مبتهجاً ومرحّباً. طلب قهوة، وأخرج الجميع لإعطائي الغرفة، وطلب ماء وحتىكة Khoteqa - نبتة محلية يستخدمونها كصابون، وتشبه إلى حدّ ما نشارة الخشب الناعمة، طيبة الرائحة - وأطعموني وجبة ممتازة.

كانت الغرفة بهيئة، مرفوعة على أربعة أعمدة تحت سقف ذي عوارض خشبية. وقد احتوت فجوات مطلية بالأبيض فوق النوافذ المنحوتة، وأعمدة بيضاء عند الباب صنعت كلها لتبدو مثل نقش مجصّص، وموقداً للشاي والقهوة في إحدى الزوايا.

وعلى الجدران بعض الأسلحة، رماح وعصي، وأعمدة راية للمواكب، ودفوف مسطحة لُتمدّ عبر السّاحة في أيام الحج، عندما يكون هناك قرعٌ مستمرّ بنقرات رتيبة في الوادي. وبالتّسبة للمشهد فهي أحد الأماكن المقدّسة في حضرموت، ويأتي الحجاج حتى من صنعاء في اليمن من أجل يوم وليمتها في ربيع الأول. ويستقبلهم المنسب جميعهم، ويضعهم في بيت ضيافته، خلف قبر جده، ويقرأ القرآن لهم في غرفته المطلية بالأبيض، ويطلق بين حين وآخر واحداً من أربعة مدافع صغيرة، وهو يفخر بها بشكل خاص.

أخبرني عن تاريخ المكان، والذي يحمل في انفتاحه الترحيبي والأجرد صفاته التأسيسية. لقد كان ذات مرة أرضاً مشاعة، أرض معركة القبائل، وكانت الزراعة والمرور فيها مستحيلين على حدّ سواء. ويمتدّ الوادي الواسع الضحل غير المأهول، إلا من حجارة آثار مدنه القديمة، المدفونة لفترة طويلة تحت الأرض. استقرّ هنا جدّ المنسب، وهو رجل نقي اسمه سيّد حسن العطّاس؛ وبقداسة حياته غير المحمية في البلاد المنخفضة المفتوحة، وبعنايته المضيافة، لم يسدّ حاجته لا من أراض ولا من حرائة، ولكن من الهبات العفوية من المتديّنين، وقد أحلّ سلاماً في البرية، وجاء ليكون المؤثر الأكبر بين البدو في محيط الجول. يوجد قبره المنقوش بالبرونز مع ثلاثة قبور أخرى أسفل ثلاث قباب بيضاء، وقبرها قبران بلون أبيض أقلّ منها شأنًا، وحجارة حميرية Himyaritic منقوشة بُنيت داخل عتبة الحجر.

كان مكاناً هادئاً للتّظنر إليه في الخارج بتجرّده غير المحروس. خفّف الغبار بياض القباب التي تشبه خلية التحل إلى اللون الزهري، وارتفعت خلف رواق مقنطر وأبواب منحوتة، مع قبة بحجم أصغر أمامها. وبنيت هناك خارج الأبواب ثلاث منصّات مسطحة للجلوس عليها، برّاقة وباهتة اللون بمرور الزمن. وتلكأت هنا امرأة أو اثنتان وبعض البدو مع أسلحتهم. وبُني عبر المكان المفتوح مسجد صغير ومنارة، صحراوي بلون رمال الصحراء؛ كان هناك حوضان، صُنعا ليخزّنا ما يقارب عشر ياردات مكعبة من المياه، ولكنهما الآن فارغان، وكذلك أصبح لونهما الأبيض

زهرياً مع الرمال العاصفة. وتبعثرت حوله سقاية siqaya كبيرة، ومعلف للحيوانات لتشرب منه، وبعض المنازل مثل الصندوق المربع. ولا وجود لأشجار، ولا أي زراعة تقريباً، ولكن الحيوانات تمشي خلالها في فترات فاصلة؛ وكان حمارٌ يتجول بالقرب باحثاً عن ماء؛ وعادت قطعان من الماعز إلى القرية عند الغروب. وعلى عكس البلدات الإقطاعية في لوادي، كان الكل هنا غير محروس وغير مسوّر، والوادي ذاته ممتدّ على نطاق واسع من جانب إلى جانب، وأخفى في البعيد سجن أسواره، وأخذ لونه من المساء أو الفجر.

أعارني المنسب جواده (والذي بدا أيضاً باهت اللون يتماشى مع اللون الزهري السائد للمنظر الطبيعي)؛ وأخذتني صحبة كبيرة، مع كل أطفال المَشْهَد تقريباً، إلى أطلال قبون Ghebun، قريباً عبر الجلاميد البيضاء لقاع السيل (sail-bed)، والتي تصبح في وقت الفيضان سريعة جداً عبارة عن سيل لا تستطيع الحمير عبوره، مع أنّ الجياد والجمال تعبره. كان الحصان حيواناً ودوداً، اعتاد على الخطوات الإكليروسية، ولم يقلق كثيراً من الأيادي التي امتدت نحوه من كل جانب لتمنع هروبه - وهو طيش كان عاجزاً عنه تماماً. هذا كما أنّ المرء يُحذّر في الكنيسة من الخطايا التي لا يفكر أصلاً باقترافها. ربما نشأ الحصان في جو إكليركي، واعتاد على معاملة متحفظة، ولكنه كان سعيداً بشكل واضح بالهروب معي وحده أخيراً.

ألقيت نظرة من فوق ارتفاعه المضاف ومن قمة إحدى التوابي الصغيرة إلى المدينة المهدّمة من الماضي. وصفها م. فان دن مولن M. Van den Meulen بدقة في كتابه. فهي تمتدّ على مساحة هائلة في روابٍ غير مستوية، مع شظايا فخارية، بلون أحمر باهت أو أسود، وانزلاقات من حجر صوّان وزجاج بركاني، تناثرت خرزات من العقيق الأحمر أو رقائق منحوتة من مرمر بين حجارتها مع شظايا حُميرية. تبعثرت القطع والأدوات من الصوّان والزجاج البركاني هناك بأعداد لا تُصدّق، وتوحي جودة صنعها، حسب اعتقاد مس كيتون طومسون Miss Caton Thompson التي نظرت إليها تكرّماً من أجلي، إلى العصر الحجري الذي يوجد في كينيا Kenya. بعضها

أصغر، ولكن بصنعة مشابهة لقطع الصّوّان المصرية من عام 2200 ق.م فإنها تشير على أية حال، إلى شيء أكثر قدماً من التّواريخ المحقّقة حتى اليوم لأشياء من جنوبي جزيرة العرب.

وهناك على قمم روابٍ عديدة جدرانٌ مهذّمة، وُضعت حجارتها المربعة معاً من دون ملاط. ويوجد هناك بئر، أنشئ من حجارة مدورة من دون ملاط لبعض العمق، ومن ثم غُرز في الأرض أدناه. وتحوي الجدران المهذّمة القريبة من المَشْهَد حجارة أصغر، أكثر خشونة، ورُضمت معاً بالملاط؛ وعلى الأرجح فقد استمرّت البلدة القديمة مأهولة لعدة أزمنة، وربما حتى الأزمنة العربية.

وفي الحقيقة فإنني ميّالة للموافقة مع الزّوجين بنت⁽¹⁾ Bent بأن الرّمال انجرفت حول تلك الأطلال ودفنتها على مسافة أعمق، أكثر من رأي م. فان دن مولن M. Van den Meulen الذي يقترح بأن كل المنطقة قد جرفت الفيضانات، هذا لأن الأرض الأعلى كانت تُنتقى دوماً لأبنية مدينة مهمّة أو القبور في الأيام السّالفة.

ولا تبدو بقايا الجدار الظّاهرة الآن كما لو أنها كانت قرب الأساسات، ولا الرّوابي التي قُطع جزئها الأدنى أنه حدث بسبب نشاط مائي. وهي النّقطة الأساسيّة لأيّ عالم آثار، لأنها ستحدّد ما مدى إمكانية توقع أن يجد الشّخص شيئاً ما تحت سطح الأرض. وفي صباح اليوم التّالي وقبل أن أغادر المَشْهَد، أهداني المُنسّب قاعدة صغيرة من المرمر وُجدت في الأطلال، مع ختمين حَمِيرَيْن، واحد برأس معزة، والآخر باسم «هعسم» Ha'asum منقوش عليه.

كانت المَشْهَد تحتفل أيضاً بزفاف. أتت ضربة من طبول وملاحظات صاخبة مفاجئة من نساء من المنزل الذي تقيم فيه زوجة المُنسّب. تركني هناك أسفل الدّرجات، وصعدت فوجدتها شابة جميلة لأنها أصبحت زوجة شيخ مرح، وحولها

(1) هما جايمس ثيودور بنت وزوجته مايل، قاما برحلات في البحرين وجنوبي اليمن وعمّان وشرقي السودان وسُقطرى، بين 1893-1897. انظر كتابهما «جنوبي جزيرة العرب» الذي نشرناه مؤخراً في هذه السّلسلة.

كل السيدات من المَشْهَد في غرفة صغيرة، مشهد حيٍّ للرؤية - حيث أنه كان هناك كل صنف للموضة في الطلاء، ذقون خضراء اللون، نقاط خضراء على الخد، شعر ملصق بالجبهة بتموج فوق عين واحدة، شُرَّابات بألوان متعددة على الرأس أو أسفل الذقن لتمسك الحجاب أو الثَّقاب، وقلائد فضية ثقيلة. كانت العروس بينهن، جالسة لمدة يومين بثوب على رأسها. بدت منهكة جداً، وقد أثقلت بأساورها وخلائيلها الضخمة. كانت قدمها ويداها باللون الأصفر قد مُدَّت في الخارج لتجفيف رسومات الحناء التي رُسمت عليها، وكانت أصوات الطبول ورقص صديقاتها قد قُصِد بها من دون شك جعلها مبتهجة خلال المراسم المُرهِقة للزَّواج بشخص غريب تماماً في نهاية المراسم. أخبرني عدّة سيدات من حضرموت بأنهن أكثر سعادة بشكل عام بعد طلاقهن الأول أو الثاني.

كان رقصهن هنا مثل الرقص هناك في المُكَلَّا، ولكن أكثر بدائية، بسبب الأشكال الأكثر غرابة على وجوههن. عقدن أيديهن متيصة ومثقلة بالخواتم، واحدة تلو الأخرى، أسفل صدورهن، والتفت عقائص الشعر في حلقات حول رؤوسهن؛ وبدت وجوههن التي تشبه الأقنعة مائلة بعيون جامدة من إجهاد الحركات العنيفة وبدت مثبته مثل وجوه الأصنام.

علت دندنة منخفضة وانخفضت بصوت رتيب من الطبل، وبين الحين والآخر تزغرد بعض النساء بصوتهن الرنان، حيث يرفعن يداً بحياء ليخفين لسانهن الذي يتحرّك من جانب لآخر في فمهن مثل لسان الجرس.

«أعجبك ذلك؟» قالت لي ذلك زوجة المَنسَب في فترات منفصلة، بانفتاح وابتهاج، وكان الممكن أن تبقيني هناك إلى الوقت الذي يأتي فيه العريس في منتصف الليل ويغادر الضيوف. ولكنني كنت متعبة وتركتهن، وأجد الآن في مذكرتي اليومية بأني أمضيت الليل أكتب في غرفتي ذات الأعمدة، على ضوء ما يسمونه «تريك trik» أو مصباح الغازولين، وقد كنت «مرتاحة مثلي مثل أي شخص يمكن أن يكون كذلك، مع حصبة نصف متتهية في تيار هواء». وبسبب موضة وجود نافذتين في كل جدار فإن

ذلك يسمح بأن لا يكون هناك أي زاوية خالية من التهوية، ولذلك فإن الشخص يكون عُرضة لأن يعاني من البرد تماماً مثله مثل الحرّ في البيوت العربية.

غادرنا في الصّباح، عند السّاعة السّابعة والتّصف في الضّوء الوردّي. وأصرّ المَنسَب بوضعه هدية أخيرة من جيبه من كبش القرنفل، ونعناع ومضغة لُبّان في يدي وتمنّى لي الخير، مثل أم مبتهجة، مشغولة وقادرة، أكثر من مجرد كونه مُضيفاً لليلة واحدة. لم يرد أيّ زائر أبداً، وكل شخص يسافر شمالاً من دَوْعَن يتوقف من أجل وجبة أو لقضاء ليلة في ذاك البيت المضيف، ولا يسمح له دخله بهذا دونما صعوبة، وذلك لأنه لم يكن غنياً مثل الكثير من هؤلاء الذين سافروا خارجاً. وإذا مدّ الكرماء الدّائمون مأدبة، فمن المؤكد أن مَنسَب مَشْهَد، عندما يقوم أيضاً بالرحلة إلى الخارج سيجد مكانه مهياً.



الفصل السادس عشر

في وادي حضرموت

«آه! متى يكون الخير في الرجال مقياساً لكل واحد فيهم، ويعمّ السلام العالمي مثل شعاع النور عبر البلاد؟».

(«السنة الذهبية»، تنيسون)

وصلنا لنهاية ممّرات ضيقة، وكنا ندنو بسرعة من المكان حيث يلتقي فيه كل من واديي عمّد ودوَعَن (يدعى الآن الكَسر) معاً، يمتدان أكثر، مثل سهل لأبعد من مجرى سيل (sail-bed) في الأماكن المفتوحة بالتساوي في وادي حضرموت.

سافرنا بشكل ميسّر هنا، على رمل قاس، مع فرحة عدم وجود طريق يشطر المنظر الطبيعي أمامنا. هناك شعور من الاستقلالية في سيارة عندما يحدث أن تبتعد بك عن الطريق مرّة واحدة. ويتضخّم سطح الأرض برقة في الجانبين كليهما في المدينة القديمة أو أرض حدائقها، حيث أُلقيت حجارتها المتفرقة على قمة الرّابية كما لو كانت حدثت بأيدي الأطفال في لعبهم. لقد كانت الشّكل الوحيد في المنظر الطبيعي، باستثناء سقاية البيضاء Siqaya مع بئر قربها، أو قرية صغيرة بلون التّربة يتعذّر تمييزها على يمين الوادي، خلف بركة معتمة من الأشجار. كان الضّوء والهواء يشكّلان جمال اليوم. كان وادي عمّد عن يسارنا، مع أضلاع من كُبان رملية في الوسط - ركام صحراوي. وقد أتينا الآن أيضاً إلى سلاسل من الرّمل، إلى منزلين وحيدتين محصّنين من ديار البكري Dhiar al-Buqri في وسط المنظر الطبيعي.

يتوجب على جميع من يذهب من الأعلى أو الأسفل إلى حضرموت من عمْد أو دَوَعَن عبور مشهد ديار البكري Dhiar al-Buqri، لَوَح لنا أشخاص من السطح. كانوا أناساً مضيافين، مديري فندق أغنياء من جاوة Java. يمكنك أن تراهم في باتافيا⁽¹⁾ Batavia، الآباء والأبناء، وأبناء الإخوة، ينكبون بنجاح على أعمال تعقيدات المنشآت المالية النشطة مع رافعات وصنابير للمياه الجارية. ولكنهم مستمرّون هنا مع جيرانهم بحرب المئة عام في البلدة الواضحة على بُعد ميلين أو أكثر أسفل الجُرف.

أُقحم الدّخلاء في أتون عداء أسرتي مونثغيو Montague وكابوليت⁽²⁾ Capulet، وكانت البلدة الصغيرة في الشّمال، وأسفل الجُرف أيضاً إلى جانب آل البكري Buqri، وأنهكت جيرانها في الجنوب. وتوضّح عائلة البكري نفسها، جغرافية حربهم من سطحهم الخاص، وأشاروا إلى برج أبيض مربع الشّكل على حافة الجُرف كموقع لقواتهم، والذي منه - كما أعلنوا - يمكن للشّخص أن يصبّو بشكل مستقيم نحو البلدة في الأسفل. بدت المتناقضات متساوية بإنصاف، ومنزل البكري، على الرّغم من أنه منعزل بشكل تام مع كتيب رملي قريب في كل جانب، لم يكن من السّهل مهاجمته دون المدفعية. ولقد تألّف من بنائين مثل برج، واحد للرّجال والآخر لحريم العائلة، وجدار طيني ناعم حولهما ببوابة واحدة فقط. كان الوادي قبل عدة سنوات حديقة من التّخيل، ولكن تحالفت «البلدة» مع البدو في الجُول، الذين جاؤوا ليلاً وصبّوا البارافين على جذور الأشجار وقضوا عليها (تثبيتاً للنظرية بأنّ جفاف حضرموت هو على الأرجح وبشكل أساسي نتيجة حرب). والآن فقد تم بذر القليل من الدّخن في بضعة رقع في الوديان فقط، ويمكن أن تُسقى وتنمو خضراء في السّيل. ولاحظت بأن الحرب كانت كلها جيدة جداً، ولكن من المفترض على الشّخص عدم قتل الأشجار، ومن الواضح أنها أعربت عن شكوى شعرت بها كل العائلة المتجمعة، وقد اعتبرت فعلة تخالف أصول الشّهامة عندما جرت.

(1) باتافيا هي مدينة جاكرتا الحالية عاصمة إندونيسيا، وكانت تسمّى باتافيا إيتان الاحتلال الهولندي لجزر إندونيسيا.

(2) كناية أدبية من مسرحية شكسبير الشهيرة روميو وجوليت Romeo & Juliette، حول أسرتي البطلين الحبيبين اللتين كان بينهما عداء شديد.

عندما جاء سلطان المُكَلَّا لزيارة أراضيهِ في شِبابم، كان قد نظَّم هدنة لمدة ستة أشهر بين البكري والبلدة، لذا فمن المحتمل أنه عبرها بأمان. وما زال هناك شهران من تلك الهدنة - لذا فالآن يعمّ هناك السَّلام، وعندما أتينا كان رئيس العائلة واقفاً خارج حصونه، يتفقّد جفاف الآجَر الطَّيني في الشَّمس، بينما كان رجلٌ جالس على منصة صغيرة متدلياً من جاجز السَّقْف يزخرف جدران منزل حريمه برسومات كلسية. وقد أخبروني، أنه حتى عند انتهاء الهدنة فيمكن للتَّهار أن يكون أكثر أو أقل هدوءاً، لأن الغارات تحدث في الليل، وتبقى مستمرة بشكل عادي خلال ساعات النَّهار.

لقد استقبلونا بطريقة سهلة لطيفة، كما لو أنها في بيت مدينة بعيدة في إنكلترا. وقد كان لدينا أخبار عن الهجرين وأعمالها لنخبرهم عنها، بينما استطاعوا إخبارنا من الذي كان فوق أو أسفل الوادي خلال الأيام الأخيرة القليلة. وقادوا الطَّريق إلى القمّة من بيتهم ليطلعونا على المشهد. كان الطَّابق الأرضي من دون نوافذ وقادنا سلّم داخلي إلى ستة طوابق، بدرجات سهلة وطنف (إفريز) متموّج الشَّكل من كلس حضرموت النَّاعم، مصقول مثل طلاء. ونُقِشت تعويذة عند كل منبسط للدَّرج على الجدار تمجّد وتناشد بركات الله. وفوق القمّة المدعّمة بشرفة مع منحدر ثقب التَّصويب لدفاعات حقيقية. وقالوا بأنهم استطاعوا من هُنا إطلاق النَّار على البلدة ببندقية الماوَزَر Mauser. ونظرنا إلى منازلها الواضحة التي تشبه صناديق مربعة في الشَّمس.

سألتهُم: «ألم يحاصروكم أبداً؟».

«أحياناً. ولكننا نحفظ بأربعة أزواج من مناظير الميدان ويمكننا مشاهدتهم عندما يأتون». بدا أنهم يظنون أنّ هذه حماية كافية. وبالفعل فإن الحصار لا يمكنه أبداً أن يكون صارماً جداً في جنوبي جزيرة العرب.

سُجِّل حصار في اليمن استمرّ سبع سنوات، في القرن الثَّامن عشر في أمّ اللّيل. ودمّرت الحصون بالمجارف أكثر من الأسلحة، ووجدت تحت الجدران الطَّينية قنوات مخارج للبلدة. واستمرّت في اليمن أيضاً الاتصالات الاعتيادية على الرّغم من الحرب. وسُجِّل أنه استطاع أحد المهاجمين في زَبيد الوقوف أمام البوابة لكي يرسل

له طعامه أصدقاؤه في الدّاخل - وعلى ما يبدو لم يُعتبر ذلك شيئاً غير عادي، على الرّغم من أنه وفي هذا المثال المحدّد فقد كان العشاء يحتوي على مخدّر. وهناك، أيضاً، هدنة يمكن أن تحدث في أحوال كثيرة حتى بعد أن يكون موعد الحصاد قد وزّع. وكانت تلك الحروب القديمة قد أُديرَت بافتراضات ممتازة بأنّ عدو اليوم يمكن أن يكون صديق الغد.

عندما يترك آل البكري The Buqris رنين الحافلات في باتافيا Batavia، فإنهم يعودون باتزان إلى دستور القرون الوسطى عندهم، على الرّغم من أن رئيس العائلة أخبرني بأنه وجد سنغافورة أكثر راحة. ولكنه قال: هذا دون شيء من التّوق الحماسي للرّاحة الحضارية والتي وجدها م. فان دن مولن M. Van den Meulen بوجه عام في حضرموت. وبالفعل، فإنني بالكاد وجدت هذا في أي مكان. وقد كنت أيضاً غير قادرة لاكتشف، كما يبدو أن م. فان دن مولن قدم أفضلية القانون الهولندي على البريطاني، وقد توصّلت إلى قرار بأن الشّخص ميال لأن يجد توقعاته أو رغباته، في آراء الأشخاص الذين يعتقدون غالباً بأنّ اللطف أكثر أهمية من الحقيقة: «من الجيد أن تعرف الحقيقة وتقولها، ولكن الأفضل أن تعرف الحقيقة وتكلم عن أشجار النّخيل».

تساءلتُ ما هو القرار الذي يصل إليه المُسالِم من عائلة البكري Buqri، أو من أي من التّجار من حضرموت، الذين يتقاعدون، بعد حياتهم في جمع المال، في عمر الشّيوخوخة لحرب العصابات في واديهم - كما في القرن الثّامن عشر، إذ يمكن لمواطن قد يكون تقاعد وعاد لينهي أيامه بطريقة حيوية في الهضاب. وإذا كان الجنس البشري يتوق حقاً بهذا الشّكل القوي إلى السّلام، فيجب أن يكون هنا شيئاً شاذاً.

من جهتي، فإنني لا أصدق بأنّ السّلام هو ما يتوق إليه غالبيتنا بحماس. يمكنني أن أتخيل أنه من الممتع للشّخص الشابّ الفعّال أن يعيش في عالم حيث ينبغي أن يكون فيه حروب أقل، ولكن شجار أكثر؛ تماماً كما يمكنني أن أتخيل بأنّ ثعلباً نشيطاً وفتياً يستمتع بمطاردته. ويمكن للشّخص أن يستمتع بذلك بنفسه إذا كان يعرف المدينة واستطاع أن يركض بشكل جيد مثل ثعلب.

ونحن جميعنا ملاحقون من قبل أحد الأشياء.

«يبدو لي أنني أسمع وراء ظهري

عربة مجنحة بالزّمان مسرعة في الجوار

وهناك تمتد جميع الصّحارى أمامنا

صحارى من أبدية شاسعة».

رغبنا بعضلات قوية وشجاعة عالية أن نصارع قوى الكون. وهذه ليست حرباً تدمّر أرواحنا، بالتّفكير بأن المخاوف من المحرّكات الحديثة يمكن أن تردعنا، بل هي كي تقيّم معدّل بطولة البشر المنخفض جداً. الشّيء الذي نعاني منه الآن هو أنه عادة ما يقدّم لنا دوافع حقيرة للقتال من أجلها. لتصارع من أجل تفوّق أعمى لم يعد يرضي أرواحنا، إننا نشعر بأننا قادمين إلى نقطة واعية وبنّاءة أكثر في قضايا الرّجال. ونحن أقلّ سعادة بالتّضحية بحياتنا للحصول على موارد مالية مهما اكتسبنا بأسماء الشّرف. ولكن لأسباب غير أنانية، لبعض الرّؤية التي تكوّنت لمستقبل الجنس البشري الغامض، سيموت النّاس كما ماتوا دائماً، مهما كانت العقوبة. فقد ضلّلتهم أشياء صغيرة، من مشعوذين، وصحفيين وديكتاتوريين ممّا جعل محبّي السّلام متّهمين وملاحقين، ويحتفظون بأدواتهم الحربية نفيةً وحادة، ليتم استخدامها عند حاجة روحية حقيقية.

ولكن أهل سكان حضر موت الذين لم يشغلوا أنفسهم بعد بمثل تلك القضايا العالمية، يتحاربون دون أن يسألوا، كل واحد عن بلدته أو قبيلته والتّلهف العام الذي يحاربون به، وتظهر الحقيقة أنهم يعودون له عندما يكون بإمكانهم أن يبقوا بعيداً وهم مرفهون كما قلت من قبل، بأن صيد الثّعالب لا يعتبر غير أخلاقي بشكل كبير، وأن الإنسان يستمتع بالقتال إذا كان لديه شيء ما للقتال من أجل الإشباع روحي أكثر من القتال من أجل النّفط.

غادرنا بهذه الأفكار بيت البكري الكريم لننظر عبر منظار الميدان التّابع له إلى أعدائهم، بينما قادنا علي البربري داخل وخارج الكشبان الرّملية باتجاه وادي حضر موت

ذاته. لقد كان بارعاً وأخذ الأماكن الصّفراء المضلّعة بسرعة كي لا نعلق. لقد شعرت بأنها تشبه السّكك الحديدية الرّوسية في معرض، وكان عليه دوماً في الرّوايا الأكثر حدّة إعادة تنظيم عمامته الصّفراء بيد واحدة.

لقد كان رجلاً سكوتاً بشفة سفلى بارزة وملامح صغيرة، وبياض عينيه كبير في وجهه الأسود، وبإمكانه الاستماع لجميع ما نقوله مثل كتلة حجرية دون أية تعابير في وجهه، ويقطع الحديث فجأة ليوضح غموض حسن ببعض المعلومات الدّقيقة والمفيدة، أو يعطيني نوعاً من الحقائق في المشهد الطّبيعي والذي أتوق إلى معرفته بشكل كبير. لقد كان الرّجل الأول في وادي حضرموت الذي يجمع السيّارات، التي تصل كلها مجزأة بواسطة جمل من الجوّ؛ يوجد الآن ثمانون سيارة في الوادي، وكان يفكر بمحاولة الذّهاب عن طريق اليمن البرّي. يقول البدو الذين يأتون من ذلك المكان بالبضائع التجاريّة بأنّ هناك عقبة واحدة فقط أو جُرفاً على طول هذا الطّريق وهذا يمكن التّغلب عليه، وقد فُتح طريق للسيّارات ليس فقط إلى صنعاء ولكن إلى مكّة أيضاً. تقع صنعاء حالياً على بعد اثنتي عشرة مرحلة، وفتح طريق سيّارات يمكن أن يسهّل الحجّ جداً والذي يتوجّب أن يذهب الآن عبر البحر حول عدن. بنى الوزير الكبير في الدّولة الرّياديّة الحسين بن سلامة، في القرن العاشر مساجد ومآذن، وآباراً وطواحين على طول طريق حضرموت - مكّة، ومسجداً عند كل مرحلة. ويقال إنّها مسافة تقطع في أربعة وعشرين يوماً.

اجتزنا البلدة الصّغيرة من العجلائيّة عند المخرج الشّرقى لوادينا، المذكورة من قبل الهمداني في القرن العاشر. بقي منها هناك من خمسة عشر إلى عشرين منزلاً فقط حول مبنى منهار منحني، وشجر علب في السّهل في السّفلى. جاء الأطفال يركضون وقدّموا لنا الثّمرة، الذي يسمونه الدّوم dom؛ وهو وردي مع القليل ما بين القشرة والبزرة، والبدو يطحنونه ولا يأخذون أي شيء آخر غيره لمؤوتهم عندما يشنون غارة في الشّمال.

غادرنا مع العجلائيّة أرضاً لا يملكها أحد، وأتينا إلى مقاطعة شبّام، وهي أيضاً تابعة

للمُكَلَّا. هنا كان اليافعيون قد نزلوا من التلال الغربية وأحتلوا تدريجياً مكاناً تلو الآخر من أراضي سلالة القعيطي الحالية الحاكمة قبل أربعة قرون وفقاً لأحاديث محلية غامضة. اجترنا الفرط El Furt، أسفل الجُرف، حيث حصّنوا أنفسهم لأول مرة في حصن يشبه ما نراه في لوحات دورر⁽¹⁾ Dürer على خلفية زُكام أحجار التلّة.

كنا الآن في الوادي الهائل الأطول في جزيرة العرب باستثناء وادي الرّمة، يبلغ أوسع نطاق فيه سبعة أميال وعلى ما يبدو أكثر من ذلك بسبب انفتاح وادي الكسر خلفنا، في أسفله حيث كنا نسير لتونا، ولقد كان أول مَنْ دخله هيرش Hirsch في العام 1893. لقد اختفى متراس الجُرف الذي يمتدّ على طول طريق اليمن في الزّرقّة المغيرة لسديم منتصف النهار، وأعطى صورة مضلّلة لأفق صافٍ وحرّية مفتوحة تعطي إحساساً مثل الذي تشعر به عندما ترخي رباطاً مشدوداً حول القلب. وعلى الجوانب الثلاثة الأخرى، حيث كانت الجروف واضحة حولنا، أظهر بعدها تغيّرات ضئيلة، من محدّبات وتجاويف، والهواء يلعب فيها ويلقي عليها رفته. وأعتقد أنه كان هناك أيضاً ميلٌ بسيط في خطّ الجُول، ولكن من الممكن أن يكون وهماً؛ وجعلني ألاحظ كم هو ثقيل الوطأة ذاك المستوى الميت الخالي من حركة التّموّج في تكوينه، لا ذروة ولا إحساس لأيّ شيء إلا شحذ تدريجي نحو الخارج عبر الزّمن نحو الجدران المحيطة. يعطي الشّعور بالحركة حياةً لسلسلة الجبال لا تقلّ عن تلك التي يمنحها للأشجار والماء، وهذه الرّتابة اللانهائية لجُروف حُضر موت، ولأكتاف جبل خلف أكتاف جبل متشابهين تماماً، فيها شيء من جمود الموت.

يتنوع عرض الوادي بشكل هائل مع الوديان الدّاخلة، والخلجان المنفتحة. قاعه مصقولٌ جداً ومسطّح حيث يمكن للطائرات الهبوط فيه. ولقد كان بني اللون الآن، بمساحات من عشب معنقد أخضر مصفرّ وخشن: ولكن في السّنوات عندما يأتي السّيل

(1) ألبريخت دورر (1471-1528) رسّام لألماني شهير عاش في نورنبرغ وتقلّ في بلدان عدّة، أظهر موهبته في فن التصوير الزيتي، كما أنجز العديد من الرسومات التخطيطية وبعض الرسومات المائية بالإضافة إلى النّقش (الرّواسم).

فإنهم يزرعون دُرّة ودُخناً، ولا بدّ أن الامتداد الهائل يظهر مزدهراً وجميلاً. ويصعب وصف انفتاحه، فهو منبسط جداً أكثر من انبساط وادٍ، وممتدّ جداً بالجروف أكثر من السهل، ومحصور أكثر من جزيرة، حيث أن المرء لا يتمكن من رؤية المشهد خلفه. وتجري عبره قنوات مائية نادرة بعرض قدم، ارتفعت قليلاً مع حُصَل من العشب، أو بصل زُرِع على طول حافتها.

بقينا عند الطرف الجنوبي ورأينا، عن يسارنا في البعيد، أسطح منازل هينن فوق التلال والتي انحدرت للأسفل من الغرب. وعندما تقدّمنا في ديرة القيعطي الآمنة، أصبح الموقع أكثر اعتدالاً مع العمل البشري. مشّت النساء بالقرب من هناك بقبعات القشّ المدبّبة فوق وجوههن المنقّبة مثل السّاحرات، ولبسن العباءة باللون الأزرق الفاتح المعروفة في شِبام، قصيرة إلى الرّكبتين من الأمام ومتدلّية في الخلف، وهو لباس جيد بالنسبة لهن عندما هربن بسرعة عنا؛ والكثير منهن ارتدين سراويل بيضاء أو زرقاء اللون تحته، ليست واسعة ولكن متجعدة في طبقات حول كواحلهن.

أتينا إلى أشجار التّخيل، ومنازل أكثر تفرّقا من تلك التي في وديان الحصن. وعلى الأرض المسطّحة. كانت الآبار تصرّ بالجمال أو الثّيران، حيث أن الماء هنا قريب من سطح الأرض (عمقه أربع ياردات فقط في القطن). هناك ثلاثة جمال جنباً إلى جنب تسحب الحبل على طول الطّريق المائل المصنوع لأخفافها المسطّحة: ويقوم بالعمل في بعض الأحيان أفقر القرويين، نساء محجبات ورجال عراة تقريباً. وعلّقت البكّرات على مثلثات أقطاب تسحب الدّلاء الجلدية بها من البئر، وهي بارزة فوق مستوى الأرض مثل طواحين الهواء في هولندا.

وأتينا الآن إلى دُرّة خضراء القشور وسميكة ببقع تصفرّ وتُحصَد بعد مضي أربعة شهور ونصف من بذرها في الأرض. وعلى الأرض البتّة المستوية أسفل الجُرف، خلف جدار طيني حول مسجد مبيّض بالكلّس وقصر، لقد وصلنا إلى القطن، موطن السّلطان علي بن صلاح القيعطي ابن عم سلاطين المُكّلا.

كان هناك شعور من استقلال سلطنة صغيرة حول المكان. استرخى الخدم على

درجات القصر أسفل باب ضخّم. وقادونا عبر الممرّات الدّاخلية بدرجات سهلة، وانتظر السّلطان في الأعلى لاستقبالي، إنّهُ شاب طويل وهزيل بشعر أسود منسدل تحت طربوش أحمر، خجول بملامح صبيانية لطيفة. قادني الشّاب إلى غرفة مفروشة بالسّجاد. كانت مزينة بالرّسم ومصاريع نوافذ وأبواب أوروبية، وانتصبت فيها طاولة صغيرة وأربعة كراس مثل جزيرة. وتكلّمنا بعد الشّاي وفطيرة التّفاح والبسكويت حول تاريخ حضر موت والطّريق إلى شَبْوة.

هنا يشعر المرء مرّة أخرى كما هو الحال لدى باصُرة في مَصْنَعَة بقبضة السّلطة القوية. كان سلوك سلطان القطن لطيفاً؛ وهو ذو عينين بنيتين رقيقتين وابتسامة مستنكرة، ولكن كان كلامه قانوناً في مناطق سيادته الخاصة. ولا يملك أحد تأثيراً على بدو الغرب العنيد أكثر منه. وحتى سنتين مضتا كان هو حاكم شِبام لأبناء عمه في المُكَلّا؛ ولكنه كان قد ترك هذا المركز - لسوء حظ مقام الحكومة هناك - وعاش الآن في القصر الذي بناه والده، حيث أقام الزّوجان بنت Bent في العام 1893. وقد عرف القليل عن المُكَلّا وبحرها، ولكنه عاش واهتم بشؤون شعبه الخاص، وعندما وجدني مهمّة بتاريخ المنطقة، بدأ يتكلّم بطريقة أقلّ تكلفاً، ليخبرني بالتقاليد العربية لطرق التّجارة القديمة - وذلك لأنّه يملك مكتبة لكتاب مسلمين، ويعرف الكثير عن هذه الأشياء أكثر من أيّ شخص قابلته.

أخبرني بأنّه قد وُجدت أشياء سبئية وكتابات في القطن، وكان قد أعطى الكولونيل بوسكاون Boscawen - الذي بقي معه السّنة الماضية - أسداً من البرونز رائع الجمال، تم التّقيب عنه أسفل الجُرف. وقال مشعراً إياي بالنّدم: «لو كنت أعلم أنك قادمة لكنت احتفظت به لك». ذهب الزّوجان بنت Bent، اللذين أمضيا بعض الوقت في القطن، إلى وادي بن علي الذي يؤدّي من الجنوب، ووجدنا هنا حجارة حِميرية وأساسات (وكذلك بخوراً في الأخاديد) وطريقاً فوق الجُرف «استُخدم كثيراً وعلى ما يبدو أنه قديم». يعتبر طريق بير علي من السّاحل إلى شِبام أقصر من طريق دَوَعَن، ومن شبه المؤكد أنه أحد الطّرق القديمة. والآخر لا بدّ أنه يذهب عبر وادي عَدَم إلى الشّحر.

أما وادي حضرموت ذاته في تتمته، التي تُعرف بوادي المسيلة، فهو عبارة عن بداية لطريق غير مماثل بين حضرموت و ظُفار. ويعتقد السلطان بأنه على الأرجح قد تبع وادي حضرموت إلى مصبّ نهريه في سيحوت Saihut، الذي تمرّ منه القوافل التي تحمل سمك القرش المجفف قادمة من البحر. وهو طريق اكتشفه لأول مرة الزّوجان إنغرامز⁽¹⁾ Mr. and Mrs Ingrams قبل بضعة أشهر من رحلتي، وأخبراني بأنهما لم يجدا آثاراً لأطلال في الوادي الأدنى باستثناء سد قديم، معروف وجوده تحت قبر هود، وقد أُشير إليه على الخريطة الجوية لقائد السّرب ريكارد Squadron Leader Rickard. والحيّ بأكمله ممتلئ بالطّمي بشكل كبير. ويقال بأن تدمير السّد خرّب الأراضي المحيطة، ولذلك فإن الكثير يمكن أن يكون مغطى وغير منظور، وتبدو المجادلات الجغرافية لهذا الطّريق قوية جداً لأنها لا يزال يعاد فيها المزيد من البحث. ولقد وضعت كل استطعت جمعه من أدلّة قليلة عن الموضوع الغامض لطرق حضرموت التّجارية بشكل منفصل في نهاية هذا الكتاب.

وبعد مناقشة طريق ظُفار لبعض الوقت، أخبرني سلطان القطن بأنه كان يتحدّث مع واحد من البدو الذي رافق مستر فلبّي Philby عبر الرّبع الخالي. سألته عن رأيه في الموضوع الدّقيق لوبار⁽²⁾ Wabar. وهي مدينة مهجورة، كانت الموطن الذي اتخذته الجن عندما أُهلك قوم عاد وثمود. «أكثر مدن الله خصوبة»، لا يمكن للبشر الوصول إليها. ويقول ابن الفقيه الهمداني: «وإذا اقترب أيّ رجل منها، فإنهم يسفون في وجهه غباراً (على الأرجح عاصفة صحراوية)، وإذا واصل يصيبونه بالجنون». وقد سكنها النّسناس Nisnas، وهي مخلوقات دونية بساق واحدة فقط، وذراع واحدة وعين واحدة، وكانت وراء ظهور مثل ماثور يقوله البعض: «راحت النّاس وظلّ النّسناس» وقيل أيضاً بأن جمال المهرة الشهيرة جاءت من سلالة جنّ وبار Wabar.

(1) هما هارولد ودورين إنغرامز، تقدّم ذكرهما مراراً.

(2) المقصود بها قرية وبار الأثرية، وكان الأوروبيّون يسمونها هكذا Wabar نقلاً عن معجم البلدان لياقوت الحموي، لكنّ بعض المدوّنات العربيّة على شبكة الإنترنت صارت تترجم الاسم بالخطأ: عُبار.

لعلّ الخلاف حول موقع تلك المدينة الأسطورية البعيدة جعلها خطرة جداً، وموضوعاً بالتسببة لي لأغامر فيه، وأخبرني السلطان، الذي لم يكن يعلم أي شيء حول الصّعوبات التي تحدث بها، بهدوء الإيمان بأن كل الناس في حضرموت يحدّدون موقعها بين حضرموت وعمّان⁽¹⁾. ولكن الجغرافيين في الحقيقة ليسوا على يقين من ذلك. يقول ياقوت: «وفي اليمن أرض وبار qaria of Wabar». ويذكر الليث الذي اقتبس عنه ياقوت⁽²⁾: «وَبَار أرض كانت من محال عاد بين رمال يَبرين واليمن». ويحدّد مكانها ابن اسحق الذي يذكر النّسناس Nisnas بين حضرموت والسّبوب Sabub (غير معروفة لياقوت والهمداني).

أمّا الهمداني، وهو رجل موثوق جداً، فيضعها «فيما بين نجران وحضرموت، وما بين بلاد مَهرة والشّحر». ويضعها ياقوت الذي من المفترض أنه يستشهد بالهمداني «ما بين الشّحر إلى تخوم صنعاء»، ثم ينقل عن أبي مُنذر أنها بين رمال بني سَعد (قرب يَبرين) وبين الشّحر ومَهرة. ويضعها أبو مُنذر بين حضرموت ونجران. ومع هذا الدليل يبدو من الممكن تماماً لكل من مستر توماس⁽³⁾ Thomas ومستر فليبي⁽⁴⁾ Philby أن يجد كل منهما وبار Wabar في زاوية معاكسة لجزيرة العرب.

(1) قام باكتشاف موقعها أخيراً في عام 1992 الكاتب ومخرج الأفلام الأميركي نيكولاس كلاپ، من خلال استناده إلى صور وكالة ناسا NASA الفضاء المأخوذة من الأقمار الصّنعية. وتمّ البحث عنها والتّقيب فيها، غير أنّ العمل الأثري امتزج بأساطير تروّج للعثور على هياكل عظمية لبشر يبلغ طول قاماتهم 11 متراً. وقد حصلت على كتاب كلاپ: «الطريق إلى وبار» The Road to Ubar وربما نخصّ السلسلة ببحث عنها.

(2) انظر معجم البلدان لياقوت الحموي، 356-359: 5.

(3) برترام توماس (1893-1950) رَحالة بريطاني شهير ووزير لدى سلطان مسقط عُمان -1932 1925، كان أوّل من اجتاز صحراء الرّبع الخالي على الإطلاق 1930-1931، ودوّّن أخبار ذلك في كتابه Arabia Felix الذي نشر سنة 1932، وقد أعدّدته للنشر قريباً في هذه السلسلة.

(4) هاري سنت جون فليبي (1885-1960) رَحالة ومستشرق وسياسي بريطاني ذائع الصّيت، يُعرف باسم: الحاج عبد الله فليبي، كان مستشاراً للملك عبد العزيز آل سعود بعد عام 1925. وكان بعد برترام توماس ثاني رَحالة يجتاز الرّبع الخالي عام 1932. ونشر عن ذلك كتاباً صدر بلندن عام 1933.

كما أكد لي سلطان القطن بأنه من الممكن ألا تكون هناك أية صعوبة في الوصول إلى شَبْوة، المدينة التي أتوق إليها. حيث أنّ كلاً من ملك الحجاز وإمام اليمن كانا في سلام الآن، وعلى إثر ذلك تم فتح كل الطرق الشرقية مرة أخرى على طول حدودهما. وللمرة الأولى منذ عدة سنوات فإنّ الطريق الذي يؤدّي من عبر 'Abr إلى نجران كان يستخدم من قبل القوافل: طريق البخور، عبر شَبْوة ومأرب إلى اليمن، وفتح الطريق للمرور فيه بسلام، وهو الذي سار عبر الصّحراء ذات مرة وسُمّي بمفازة صَيَهْد.

«تلكم هي مفازة صَيَهْد.. صحراء خالية، قفارٌ تعصف الرّياح فيها في جميع الاتجاهات، بلدة فيها الغربان ملوك». يمكنني الاعتقاد فعلاً بأنها بسبب الرّياح، لأنها كما بدا أنها تفعل في كل مكان شرق السّويس، ولكن بالنسبة للصّحراء الخالية، أخبرني السّلطان بأنها كانت رحلة تستغرق ثلاثة أيام فقط إلى شَبْوة وخمسة أيام أو أكثر بعد ذلك إلى مأرب قرب بيحان. ووعد بأن يجد لي بنفسه بدوياً جيداً، وذلك لأن سكان شَبْوة لا يميلون للتّرحيب بالغرباء، وعندما حاول الكولونيل بوسكاون Boscawen الدّخول، أطلقوا عليه النّار من جدرانهم وضربوا أحد رجاله، الذي مات لاحقاً. ثم تبين أنهم لم يكونوا يحبّون البدو المرافقين له.

قلت: «ربما كانوا يطلقون النّار على البدو، وليس على الكولونيل؟».

«آه لا، لقد كان الرّئيس هو الذي أطلق، وحاول رمي الكولونيل، وبعد ذلك، عندما حصل أن حلّقت بعض الطّيارات البريطانية عبر الصّحراء هناك، هربوا جميعهم من مدينتهم واختبأوا، خائفين من الانتقام. ولكن لا يوجد شيء لتخافي منه الآن».

تعبر القوافل بالملح صخري مرتين في الأسبوع أو أكثر من شَبْوة عبر القطن al-Qatn إلى شبّام. ويعتبر الملح ذا قيمة في كل البلد وفي المأكلاً، وقد ذُكر في الكتب القديمة؛ وأخبرني رجل من بيحان بأنهم يسمّون الرّيح الشّمالية هناك المِلحي (المالحة) لأنها تهبّ من منطقة شَبْوة. وإذا أمكنني أن أعطي سلطان القطن إشعاراً قبل عدة أيام، فمن الممكن أنه سيختار رجالاً موثقاً بهم من البدو العابرين، وسيحضر كل الأشياء لي وينتظر عودتي.

لقد كان هذا لطفاً عظيماً. ليس الذهاب إلى شَبوة فقط، ولكن إلى أماكن جديدة لم يزرها أحد، ووديان حضرموت الميتة، وتَمَنَع القُتبانِيّة عاصمة قُتبان Gebanite، وحتى الجوف بعيداً في الشّمال الغربي، حيث يشاع احتمال وجود الرّاف هناك. وهي تحوي، وفقاً لهلّيفي Halévy: «كمّاً من الأطلال الأثريّة أكثر من أيّ بلد عربيّ آخر»⁽¹⁾.

“Plus de vestiges de l’antiquité que tout autre pays Arabe”

فُتحت جميع هذه الأماكن أمام ناظريّ، فشكرت السّلطان مع الامتنان في قلبي، لأن القسم الصّعب من رحلتي، حيث أخبروني في المُكَلّا أنه مستحيل يمتدّ الآن ممهداً أمامي، كل ما كان عليّ فعله هو أن أصبح أقوى قليلاً، ومن ثم أذهب.

شعرت في هذه الأثناء بالمرض والتعب، وطلبت أن أترك لأنام. مُدّ فراشٌ على الأرض، واسترحت في برود وعزلة، ونظرت إلى الغرفة اللطيفة، بأعمدتها ونوافذها، والطلاء الأزرق والأخضر الشّاحب، ومشكاة المصابيح في الجدران. كان هناك بعض المرايا، ومُدّ السّجاد باطنها إلى الخارج لحمايتها. وأمكن التّظر من النّافذة إلى السّاحة من المدينة المسوّرة، مهذّمة وغير منتظمة. تقدّم جمل أعرج ببطء إلى إحدى زواياها؛ وتفرّقت المنازل مثل أكواز السّكر مزينة بتصاميم بيضاء حول جدرانهم البنيّة المائلة. لم تعد التّوافذ مطلية باللون الأحمر كما رآها الزّوجان بنت Bent، ولم يعد السّلطان يرتدي معطفاً أصفر اللون ببطانة زرقاء باهتة اللون.

كان المسجد المقابل عبارة عن ساحة مفتوحة بثلاثة صفوف من الأعمدة في الخلف وواحدة أسفل كل جانب، ولا يوجد أية أعمدة في المقدمة. يقول غلازّر Glaser بأنها نماذج من معابد سبئية وقد دخلت إليهم على الأرجح مع بعض التّغيير. سطعت مئذنتها بيضاء وزاهية وسط أغصان التّخيل، مع تعريشة (شعرية) تعطي الشّكل ذاته تماماً مثل تيجان عالية من القبعات النّسائية.

(1) تنقل عنه النّص بالفرنسيّة.

وبدت أغطية الطاولة زاهية أيضاً عندما بُسط الغداء على الأرض. كان فيها رسم أزرق لسكاكين، وشوكات وكؤوس إلخ؛ رُسمت عليها كلها على خلفية بيضاء. وعليها كُتِبَ البلاغ العجمي، فطائر هندية، حساء عربي، ولحم ضأن مسلوق. جثمتنا أنا والسلطان، وصديقي حسن عند نهاية واحدة والآخران علي البربري، مع السيد الصغير. كنت قد رأيته خلال النهار، لطخة صغيرة تمشي في مقدمة جمل متاعنا في النطاق الفارغ من الوادي، وأصرّ على وضعه في السيارة، على الرغم من أن حسنًا بدا متألماً. لم يحبّ حسن الفقر المتخلف - ولكنه لم يكن قد التقط أربع مرات من حمار ساقط في اليوم السالف، لذا لم يكن لديه سببٌ محدداً للامتنان كما كان لدي.

أرسلني سلطان القطن قبل أن أغادر عبر خطوات سفلية كدرة في قسم مساكن النساء إلى غرفة متجددة الهواء فسيحة على سطح القصر، حيث جلست الحريم وشاهدن الوادي ممتداً في الأسفل مثل خريطة. كانت زوجته هناك، بحاجبين مسودّين مقفولين، وثوب من قماش مطرّز هندي، وأساور أسد. وجلس بالقرب خمسة أطفال مصابون جميعهم بالحصبة، كانت أعينهم مثل صحائف سوداء محاطة بكثافة بالكحل الطبي. اندفعوا قريباً مني، لذلك كنت سعيدة بالتفكير بأني حصينة؛ وتأقلمت تدريجياً زوجة السلطان، التي كانت خجولة في البداية، وذلك لأنها لم تقابل إفرنجية من قبل، عندما أعطيتها مطهّرات من أجل ابنها الصغير، الذي كان قد أدخل قطعة من الخشب في خدّه. تحدثنا بموضوع أخوي عن أمراض الأطفال، إلى أن اقتدتُ عائدة عبر ممرّات ضيقة أخرى، احتشدت في ظلالها خادמות بثياب زرقاء اللون لرؤيتي - وخرجت إلى حيث كانت السيارة تنتظر لأخذنا إلى شبام، التي تبعد الآن اثني عشر ميلاً فقط.



الفصل السابع عشر

شِباب

«بُنيت بأيدي العمالقة لملوك قداماء لهم سيماء الآلهة»

(موقع روما القديمة)

فتحت بؤابة مدينة القطن Qatn لدخولنا. ومشينا في حرّ مابعد الظهر وفي فراغ الوادي المحاط الآن دون انقطاع تقريباً في جانبه الجنوبي بأشجار النخيل. وكان يوجد هنا وهناك سقاية بيضاء؛ وجمل أو اثنان، دهنًا بالقار ولهما رقاب تشبه الميزاب وأجفان نصف مغلقة. يعتبر الجمل حيواناً قبيحاً ولكن، مثل بعض النساء البسيطات، له عيون جميلة بنية وناعمة بأهداب طويلة - وهي غالباً الأشياء الجميلة الوحيدة التي يمكن النظر إليها في عالمه المقسّى بفعل الشمس. ولكن هذا الجمال الوحيد قليلاً ما يلاحظ - على الرغم من أن المعشوق غالباً ما يقارن بالغزال - من سمع من قبل أي شخص يقول متغزلاً بفتاة بأنّ لها عيوناً مثل الجمل؟ اجتزنا آباراً وحصوناً لمنازل منعزلة، فيها أربعة أبراج ركنية إن كانت قديمة، وإن لم تكن فهي بجدران عارية بسيطة. امتد الجُرف خارجاً في ضوء الشمس، ولا تزال الخلجان المفتوحة ممتدة في الحرارة بينها. وكان بالكاد يمكن تمييز مهبط طائرات سلاح الجو الملكي R.A.F. المنبسط الذي عبرناه، عن نعومة أرض الوادي العامة.

ظهر الآن كما لو أنّ جرفاً أخفض قد ضلّ في الوادي الأوسط. بدا ونحن نقرب مجعّداً ومنقّراً، وفيه ثقب كخلية النحل؛ وقد تشقّق مثل جوانب الوادي بصدوع

عمودية؛ وترقّشت قمته بمدينة قديمة ومتجّعة من التربة مثل التلال التي حولها باللون الأبيض كما لو رسمتها فرشاة دهان كبيرة جداً، بُنيت على التلة التي هي فيها وامتدّت من دون أي شك فوق مدنها السالفة من الماضي. كانت تلك شِbam التي تعود لبني عاد؛ المدينة التي فيها «تمكث فيها خيول الملك» في القرون الوسطى؛ وبنيت في «وسط أراضي حضرموت»، حيث تفرّعت خمسة وديان مثل عروق ورقة شجر الجَمَيز وأعطت خداعاً بصرياً من السماء المفتوحة إلى البلدة التي امتدّت بينها.

ميّزت نفسها ونحن نقرب، بشكل تدريجي عن الجُروف التي حولها. وكانت الثُقوب المنقّرة نوافذ عالية وصغيرة؛ والشقوق ممّرات أعمدة طويلة من مجاري المياه التي تضيف للارتفاع هيئة شبيهة بالبيوت، أو أزقة في ظل دائم. ومالت المنازل بعيداً إلى قممها المبيضة بالكلس وتسَلّقت إلى سبعة طوابق فوق مقدّمة ضيّقة من أشجار النخيل، وتجمعت في ظلالها مآذنها الدّقيقة البيضاء. لا يمكن أن تعتبر شِbam تلة، فهي عبارة عن ارتفاع ضئيل في الأرض مثل عنقاء، حيث جدّدت المدينة نفسها ومن دون شك عدة مرات. وكما يقال، فإنّ الناس هنا انكفأوا من شُبوة تحت ضغط قبائل الشّمال، وأسّسوا أنفسهم من جديد. وملأت مقبرة على الجانب الغربي، من المكان حيث أتينا، الوادي وأراضيه المهجورة، على نحو أوسع من البيوت الخمسمئة للناس الأحياء، وأضافت الإحساس بالقدم وثبات الوقت المشابه للنهر.

لم يكن هناك بعد طريق سيارات يؤدي إلى شِbam. لكن لم تفكّر سيارتنا أبداً بقناة مياه في جانبنا، والمقبرة على الجانب الآخر، وضفّة منحدره في الوسط. تجنّبتا الجدران، التي لا تعتبر جدراناً وإنما مجرد أراضي حصن فارغة لبيوت - لا نوافذ فيها ولها باب خلفي في أماكن متنوعة - وأتينا في الجنوب إلى أرض رملية حيث مخيم الجمال، وحيث يمارس صبّاغو اللّون التلي حرفتهم، وتحمل طواير من نساء بأثواب زرقاء اللون جلود ماعز مليئة بالماء من البئر. قامت بوّابة المدينة في الأعلى، على مرتفع حصوي، وكانت جمال محمّلة بالخشب ترفع أقدامها فوق العتبة في طريقها المتأنية. كان علينا أن نتنظر إلى أن جاء الأشخاص يرخصون، بدو وجنود ومواطنون بعمائم،

ونساء بسلام المهملات على رؤوسهن. (تبدو الأعمال المحليّة مثل بيع الماء وجمع المهملات أنها بيد النساء في جميع أرجاء حضرموت).

أدركتُ بينما كنا ننتظر بأن صوت جنديّنا الحزين كان مستمراً في الدّندنة لوقت طويل في جدال مع حسن خلفي. كان محجوباً بحسن، الذي وضع معايير الحضارة وراء ظهره، وكان فوق ذلك لا يملك أي نوع من احترام لحكومة المُكلّا، بما أنّه ينتمي إلى سلطنة الكثيري، سلاطين حضرموت الشرقيين، الذين تمتدّ حدودهم خلف شِباب تماماً. وليس هناك محبة بين هذين الاثنين على الرّغم من أن السّلام كان قد تم قبل ست سنوات.

كان جندينا يوضّح بأنّ عليّ أن أنام في شِباب، إذ لا بدّ لمندوب المُكلّا أن يستضيفني، ويجب أن لا يُسمح لي المرور بها دون الوقوف لليلة. وكان في خلفية تفكيره فكرة توديع العامّة، مع جمهور غير متعاطف أثقل عليّ، كما قصد أن يفعل، متوقّعاً تلك المبالغ الطّائلة التي ملأت تأملاته البسيطة وهو يمشي خلفي يوماً بعد يوم. إذ كانت أفكاره الخاصة هي أن يؤخذ بعين الاعتبار المكان الذي سوف يجعلوني أنام فيه، ولم تذهل أبداً عقله غير المبدع، وكذلك لم يفعل حسن، في الواقع، بالتفكير بتلك الأشياء بشكل خاص. لم يُبد حسن اهتماماً أكثر من إلصاق ذقنه السّمينة بطريقة شرسة في الخارج. كان قد أحضرني بسيارة؛ وكان يمكن أن يحملني خارجاً إلى بلاد الكثيري، ولقد قال ذلك بعبارة واحدة، وهو مدرك بأن القوى الفائزة كانت في جانبه. وأظهره قلم حبر بارز في جيب صدره، بأنه ينتمي إلى الغرب المتقدّم. ولم تكن قبعته الجلدية (من جلد الماعز) ورأسه بالرّقبة الغليظة القصيرة، تناسبان وجهه الطّويل، الحضرمي الأرستقراطي.

لقد كان كولونياً سابقاً في سلاح جو الشّريف حسين في مكّة، تدرب هناك في المدرسة التّركية، وجُرح برصاص الأتراك في الجو. وهو الآن مبعّد من ابن سعود - كان لديه الكثير من الخطط الحديثة بالنّسبة للوادي، وقد درّب لثوّ فتياناً من تريم. وبالفعل كان متمدناً جداً أكثر بكثير مما كنت عليه أنا. وشعر جنديي بأنه أدنى مرتبة.

أصبح حديثه المفرد أكثر إلحاحاً ممّا كان عليه من قبل، وذلك عندما رمى البعير الأخير نفسه خارج المدخل وارتطمنا بدورنا بالمنحدر المرصوف بالحصى عبر السّاحة الصّغيرة البوابة الدّاخلية لشِبابم.

كنا في ساحة قد ازدحمت بجمال تخبّ على مهل؛ وأطلّت المنازل الطّويلة إلى الأسفل وجعلتنا نشعر كما يشعر أحدنا في قعر موجات البحر العالية فوقه. وشوّهت في المقابل منارة بيضاء مواجهة لها، بدت متواضعة تماماً كما كنا نحن أنفسنا. كان كل ما أردته في شِبابم في تلك اللحظة رسائلي وبعض النّقود من وكيل A.B.⁽¹⁾، لأنني قصدت أن أعود وأبقى لاحقاً، عندما شعرت أنني أفضل. أسرعنا داخل فجوة من البيوت، والسّماء عالية فوقنا وجمعٌ محتشد خلفنا، واستقبلنا عند بابهِ الوكيل بذاته بأعبيد.

كان رجلاً صغيراً نشيطاً، مرتدياً ثياباً قطنية بيضاء، وفعّالاً مثل جُنْدب؛ قادنا أعلى درجات ضيقة وراح يتلقّف بابتسامات عند كل مسطّح ليسأل مثل طريقة أصدقائه في عدن. وجلس في مكتبه موظفوه متربعين على بُسط من قصب. نظّفت زاوية ومُدّت تحتي سجادة، وقد تمّ إحضار مجموعة من الرّسائل جعلت أختائهم البريدية المألوفة العالمَ حولنا فجأة يبدو بعيداً وغريباً. أيقظتُ نفسي منهم لأجد بأنّ حديث جندينا كان لا يزال مستمرّاً، وقد وجّه الآن لباعبيد، الذي استمع بنظرة قلقة، بينما امتلأت الغرفة حولنا بوجوه غريبة وجاءت سلطات شِبابم بأعداد كبيرة لتحيتي.

أصبح هؤلاء الأشخاص فيما بعد أصدقائي، وساعدوني بلطف لا ينضب. ولاحظت حتى الآن، في مرورنا السّريع، كم كانوا ودودين ومرحّبين. كان مضيفي في المستقبل، حسين العجم وأخوه، يتسلمان مع ومضات الأسنان الذّهبية، بينما استقرّ على الأرض في أجزاء، كما كانت، وبركة واحدة على مستوى ذقنه جسد الحاكم الضّخم المسنّ، وأحد العبيد من المُكلّا بشكل مهيب بألبسة فضفاضة، ومعه عكاز فضي الرّأس، ونمت لحيته المحنّاة مثل هُدْب حول وجهه الضّخم السّمين، وأخذ يتمنّع برسالة السّلطان من المُكلّا.

(1) التاجر الفرنسي أنطونان بيسّ Antonin Besse، الذي أحبته فريا.

كانوا قد حضّروا بيتاً من طابق واحد لي في الحدائق خارج البلدة، والحقيقة أنه كان علي السير بشكل مستقيم عبرها إلى وسائل الراحة المنافسة بديرة قبيلة الكثيري كان أكثر ألماً لنا جميعاً باستثناء حسن، الذي اعتبر هذ فاصلاً أخيراً من العصور المظلمة، وكانت كلها لتعجيل إجراءاتها المهمة القديمة. ومن جانب آخر كان جندينا، الذي وُجه الآن نحو دفاعاته الأخيرة، قد انفجر بخطبة مفتوحة ليقول بأنه يجب أن أبقى.

«وتتمنى الحكومة إبقاءها»، قال هذا مظهر أمشاعره الحقيقية وفقاً لحريّة الإرادة وحقوق النساء مع ملاحظة سلبية صدمتني. تجاهلته وأوضحت كم كنت مريضة، وكم هو ضروري وجود صيدلي إذا تعذر الحصول على طبيب، ويمكن لي أن أعود في غضون بضعة أيام وأرسل كلمة عن قدومي. ويمكن أن تعتبر هذه في العديد من الأماكن الشرقية مجرد لباقة، دون أن تعني أي شيء. ولكنني لاحظت وفي عدة مناسبات بأن الكلمة الإنكليزية في كل حضرموت مقبولة بقيمتها الظاهرة - تقديراً لجميع الرّخالين الذين أتوا إلى هنا من قبلي.

جاء بأعبيد على عجلة، حيث كانت فترة ما بعد الظهر بدأت بالتراجع، من استراحات ديوانه محملاً بحقيبة قطنية وهو يعد مئات من قطع الطّالر الفضية بأكوام صغيرة على الأرض. رافقني الحاكم ومضيفاي المستقبلان عبر الأزقة إلى السيارة، بينما همس جندينا - الذي كان الآن مضطرباً بشكل كامل - في أذنيّ حول البخشيش. ناولته ستة من الطّالرات التي لي - تساوي أجرّة شهر - ولكنه كان يحلم أحلاماً ذهبيّة كالإلدورادو El Dorado - فماذا يمكن أن تكون الستة طالرات؟ كان يعلم أنّ في يدي حقيبة فيها أربعة وتسعون أخرى. سألت أصدقائي الجدد، وقد رجوني ألا أعطي المزيد. كان المشهد مؤلماً جداً، حيث أنّ إحساسهم بالضّيافة قد تُلم - وكان لدي بعض الصّعوبات للوصول إلى عبدنا المستأجر عبر صفوفهم المستنكرة لأدفع له الطّالرين المتبقين. شعرت بالأسف بأن أتركه كذلك - على الرّغم من أنه لم يكن لدي إشفاق شديد عليه، لأنه كان رجلاً غيباً، لا يتّسع رأسه لأكثر من فكرة بائسة واحدة. ولكن إذا كان شخصٌ ما لديه فكرة واحدة فقط، فبالطبع، يجب أن يحاول بشكل مضاعف ليكتشف أنّها خاطئة.

يَمْنَا شَمَالاً بَعْدَ مَغَارِدَتِنَا هَذِهِ الْمَرْحَلَةَ الْفَاصِلَةَ خَلْفَنَا، وَمَنَازِلَ شِبَامِ الَّتِي تَشْبِهُ
الْبَرْجَ، إِلَى جَانِبِ الْوَادِي الْأَكْثَرِ صَحْرَاوِيَّةٍ، حَيْثُ تَذَكَّرْنَا الْأَكْوَامَ الْعَدِيدَةَ الْمَحْطَمَةَ
عَلَى التَّلَالِ بِأَنَّهُ فِي السَّنَوَاتِ السَّتِّ الْأَخِيرَةِ كَانَ سُلَاطِينَ الْقَعِيطِيِّ وَالْكَثِيرِيِّ فِي حَالَةِ
حَرْبٍ. تَعْتَبِرُ الْكَثِيرِيُّ الْعَائِلَةَ الْأَقْدَمَ فِي حَضْرَمَوْتِ، جَاءَ 10,000 عَشْرَةَ آلَافٍ مِنْهُمْ،
وَفَقْراً لِهِيرش Hirsch، مِنْ صَنْعَاءِ الْقَرْيَةِ حَوَالِي عَامِ 1494 لِلْمِيلَادِ وَأَخَذُوا الْأَرَاضِي
الْدَّاخِلِيَّةَ شَرْقَ هَيْنَ أَوَّلًا، ثُمَّ الْأَرَاضِي السَّاحِلِيَّةَ الْعَائِلَةَ لِبْنِي غَسَّانٍ. وَقَدْ مَلَكَوا كُلَّ
مَا حَوْلَنَا عِنْدَمَا نَزَلَتْ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ رِجَالُ قَبِيلَةِ يَافَعٍ وَسُلَالَةِ الْمُكَلَّا الْحَاكِمَةِ الْحَالِيَةِ مِنْ
هَضَابِهِمْ. وَدَفَعَهُمْ هَذَا بِشَكْلِ تَدْرِيجِي صَوَّبَ حُدُودَهُمُ الْحَالِيَّةَ، إِلَى الشَّرْقِ تَمَاماً مِنْ
شِبَامِ.

كَقَاعِدَةٍ، يُمْكِنُ لِلشَّخْصِ أَنْ يَقُولَ بِأَنَّهُ كَانَتْ فِي وَادِي حَضْرَمَوْتِ، كَمَا فِي أَغْلَبِ
الْأَمَاكِنِ، الْبَلَدَاتِ الْقَدِيمَةِ عَلَى مَنَحْدَرِ التَّلَالِ - الَّتِي يَجِبُ أَنْ تَكُونَ هُنَا جَانِبَ الْوَادِي
- وَقَدْ بَنِيَتْ الْبَلَدَاتُ الْجَدِيدَةُ فِي السَّهْلِ. بِاسْتِثْنَاءِ شِبَامِ، بَلَدَةٍ وَاحِدَةٍ فَقَطْ ذَكَرَهَا
الْهَمْدَانِيُّ: Teris كَمَا أَعْلَمَ حَتَّى الْآنَ، وَهِيَ فِي الْخَارِجِ فِي مَرْكَزِ الْوَادِي. وَتَرَاوَتْ
جَمِيعُ الْبَلَدَاتِ الْآخَرَى بِجَانِبِ دِفَاعِيٍّ أَكْثَرَ أَوْ انْزَلَقَتْ، مِثْلَ تَرِيمِ، لِلْأَسْفَلِ مِنَ الْمُنْطَقَةِ
الْمَجَاوِرَةِ الْقَرْيَةِ مِنَ الْحِصْنِ الْأَعْلَى الَّذِي قَامَ ذَاتَ يَوْمٍ بِحِمَايَتِهَا.

بَيْنَمَا نَحْنُ نَسِيرُ مِنْ شِبَامِ عَلَى طُولِ الشَّاطِئِ الشَّمَالِيِّ، عِبْرَ بَاقَاتٍ مِنْ عَشْبٍ وَمَزَارِعٍ
جَدِيدَةٍ مِنْ أَشْجَارِ النَّخِيلِ، اسْتَطَعْنَا تَقْرِيْباً رُؤْيَا ضَاحِيَةِ الْحَدِيقَةِ الَّتِي تَوَاجِهَ الْجُرُوفَ
الْمُقَابِلَةَ - عِبَارَةً عَنْ مَنَازِلِ بَيْضَاءٍ مَخْبِئَةً فِي النَّخِيلِ مِثْلَ ضَوَاحِي الْقَاهِرَةِ، انْبَثَقَتْ
مَعَ الْأَمْنِ فِي السَّنَوَاتِ الْأَخِيرَةِ. سَطَعَتِ الشَّمْسُ الْمَائِلَةُ عَلَيْهَا وَأَضَاءَتْ الْجُرُوفَ
وَالْخُلُجَانَ بِضَوْءٍ خَافِتٍ. وَيُمْكِنُ لِلْبَعْضِ أَنْ يَفْهَمَ لِمَاذَا يَتَوَقَّعُ تِجَارَ جَاوَةِ Java الْأَغْنِيَاءِ
لِوَاحَةِ طُفُولَتِهِمْ تِلْكَ، وَيَشْدُونُ رِحَالَهُمْ إِلَيْهَا عِبْرَ الصَّحْرَاءِ كَمَا لَوْ كَانُوا يَذْهَبُونَ إِلَى
جَزِيرَةِ سَرِّيَّةٍ مِنْ مَمْتَلِكَاتِهِمْ مُحَاطَةً بِجُدْرَانٍ عَالِيَةٍ، حَيْثُ تَأْتِي أَصْوَاتُ الْعَالَمِ مِثْلَ
مَوْجَاتٍ فِي بَحِيرَةٍ ضَحْلَةٍ، وَنَادِراً مَا عَكَّرَتْهَا الْعَوَاصِفُ مِنَ الْمَحِيطِ الْخَارِجِيِّ.

رَفَعَ جَنْدِيٌّ عَبْدَ يَدَيْهِ، وَهُوَ حَافِي الْقَدَمَيْنِ وَصَامِتٌ عَلَى الطَّرِيقِ الرَّمْلِيِّ، لِنُوصِلَهُ

معنا، فنظر حسن القلق لفعل الشيء الغربي الصحيح، وكان جاهزاً كي يندفع بنفسه عند إيماءة في أي اتجاه. أُعطيتُ الإيماءة مؤيدةً مساعدةً عابر السَّيل، فجلس العبد على رفراف العجلة. عبرنا مجرى السَّيل sail-bed المكسوَّ بالملح؛ وكانت تمتد رقعٌ ضحلة من الماء حيث ينبغي للأرض أن تكون قاسية جداً فلم تسمح بعبورها. ينهار مجرى السَّيل sail مرة كل عدة سنوات، ويحمل أحياناً حداثق نخيل أمامه كما حدث حول شِbam قبل ست سنوات، ويمكن في الوديان الضيقة أن تدهم القوافل وتغرقها. ولكن هنا كانت جميع الوديان مفتوحة وضحلة، وتمتد سيئون إلى الخلف داخل الخليج الكبير في جانب الوادي على الشاطئ الأبعد، بين أشجار من قمح ونخيل.

كانت حداثقها مليئة بالطيور. عبرنا البلدة والتفنا حول جدرانها العمياء وسألنا السَّكان، عندما قابلناهم، عن مفاتيح مسكني الذي يُدعى عز الدين، وهو جناح السَّلمان، حيث يذهب في الصَّيف طلباً للبرودة. عندما وُجدت المفاتيح فتحت مبنىً مقنطراً وأبيض. قادت الدَّرجات إلى المنزل في الأعلى، بُنيت بركة أمامه، بدرابزين أبيض وأخضر اللون ومياه جارية، وكانت غرفة الجلوس وغرفة التَّوم تحت شرفة في الأسفل. كل شيء أبيض اللون، بطابق واحد؛ اندفعت أغصان النخيل الصلبة مقابل جدرانها ونوافذها. كانت الغرف في الدَّاخل بيضاء وغالية، بكراسٍ مخملية وأرائك بشكل دائري ومناضد صغيرة، وفي غرفة التَّوم ناموسية زهرية اللون ووسائد بريش زهري.

كان هنا مأوى. وبالكاد قبل أن يأتي السَّلمان وأخوه لزيارتي كان لدي وقت لتغيير ثيابي المغبرة بشكل كبير إلى ثوب ساتان أصفر بنقط سوداء وقد اكتشفت أن أهل حضر موت يستحسنونه، قبل أن يقوم بزيارتي السَّلمان وأخوه، والسَّادة الأشراف الثلاثة من آل الكاف الذين أوصلني لطفهم إلى هذا المكان. جلسوا في نصف دائرة، وتكلموا بحسن ضيافة بسيطة، لا يمكن أن تدع المرء يتخيل بأنَّ استضافة كل من يأتي من الأوروبيين الغرباء يمكن أن تكون أمراً مزعجاً لهم، فقد كانوا ذوي وجوه لطيفة، واعتادوا التعامل مع الشَّؤون الصَّعبة والعديدة لزملائهم، وراقبوني بهدوء بينما تحدثوا

عن هذا وذاك. وأدركتُ فوراً كيف يمكنهم تحصيل ثرواتهم بين الأوروبيين في الشرق ومتابعة سياسات وطنهم أيضاً.

عندما تركوني لأستريح، أراني حَسَنَ حماماً صغيراً، له درجة واحدة تقود إلى مياه جارية فاترة حتى العنق، ترفُّ روماني. كان عشائي قد مُدَّ على طاولة عليها غطاء أبيض اللون تحت الرّواق، وكل الأطعمة الشّهية المعلّبة في كاليفورنيا؛ وحليب كان يصعب الحصول عليه حتى الآن، تم جلبه من بقرة في كوخ طيني في الحديقة. وقبل أن أضع رأسي على الهدب الزّهري اللون لوسادتي، نظرتُ خارج النّافذة ورأيت، ليس فقط أحواضاً من الزّينة تبهج العين وقد نُظّمت في ساحات صغيرة في الأسفل، بل وجزراً وخضاراً أخرى بجانبها.



الفصل الثامن عشر

سيئون

«أعي تماماً أن للمرأة فهماً تاماً، ولكنني لا أريد لها أبداً ذلك الهوس الصّادم بأن تغدو عالمة لمجرد أن تكون عالمة».

(«النساء العالمات»، مولير)

كان في سيئون صيدلاني شاب نحيل جداً، خجول ولطيف الكلام، له شكل وجه أهل الملايو Malay المألوف من زيجات مختلطة من الحضارة في الخارج. أوضح حسن عندما أحضره إلى جانبي في الصّباح بأنه قد أمضى صباه في پورت داروين Port Darwin في أستراليا، وهو الآن «يعمل على العودة إلى حضرموت كي لا يفسد دينه».

نظر حسن - الذي لم يعد يلبس سراويل قصيرة، ولكنه ملتف بقماش قطني ذي مربعات جعله يشبه إلى حدّ ما الإمبراطور الرّوماني بشراف مغبرة - نظر بلطف إلى الأسفل من قامته المهيبة إلى الشاب المتواضع، صنف انتزع قبل أن تحترق. بدا أنّ أستراليا لم تسبّب له أيّ ضرر، ناولني بعض الأدوية ودسّ حقنة في ساعدي، وقال متردداً بابتسامة حزينة عند العتبة، بأني يمكن أن أشفى إن شاء الله. كان علمه الديني على أية حال سليماً.

زرته لاحقاً في مستوصفه - وهو عبارة عن غرفتين بنوافذ منقوشة وتزيينات بيضاء

كلسية في بيت قديم. رُصفت الموازين والمجهر وزجاجات في صفوف، كانت كلها نظيفة بحرص شديد في ذلك المكان البغيض، وكان على الطاولة بحث في الطب. ولكن قلة هم الذين جاؤوا عنده، كما قال، فالتاس كلهم في سيئون، يفضلون الكي بميسم حديدي محمى بأسفل مؤخرة رقابهم. ولقد كان مستقلاً عنهم، بالنسبة لراتبه الذي يُدفع من قبل السادة الأشراف آل الكاف، ولكن ربما جعلته العزلة المعنوية متواضعاً جداً. وعندما أطيئت ترتيباته نظر حولها بعينين رقيقتين وقال فقط: «هناك الكثير من الغبار»؛ وابتعدت، كما أفعل غالباً، وأنا أشعر بأن هناك شيء بطولي ومثير للشفقة في ريادته للإصلاح في الحضارة الحديثة التي آمن بها بشكل بسيط جداً، كانت الغرفة التي أزيل عنها الغبار نظيفة بشكل منفرد في الوسط من البلدة غير الصحيّة، والتي تستمرّ فاسدة وخالية من الهموم في طريقها المألوف.

في الحقيقة، فإن سيئون هي الأكثر بهجة بين البلدات. ولم أشعر بالتعب أبداً في القيادة بترؤّ عبر طرقاتها المتشعبة من المنازل البيضاء والبنية التي تطلّ من جدرانها المائلة وشبكياتها العلوية على الشوارع المغبرة غير المرصوفة والصّامته المنعزلة إلا من امرأة تمشي هنا وهناك تجرّ ثوبها الأزرق الطويل عند باب منقوش قليلاً، أو جمال بدويّ تكس بحمولاتها الزوايا المبنية في الطين.

المنازل غنية بكل تشكيلة من أعمال التخريعات الدّقيقة، وارتفعت متاريسها من الظلال الدّافئة في الأسفل إلى ضوء الشمس، وغالباً بنتوءات مثل كوى حول قلاع قديمة حيث كان يُصبّ الزيت الحارّ على المهاجمين، ولكنها صُنعت هنا لهدف أكثر أماناً لإتاحة الفرصة للحريم أن ينظرن إلى ما يجري في الأسفل بشكل غير منظور. وأيضاً فإن الحريم غالباً ما يكون لديهن بابٌ خلفي متواضع خاص بهن إلى جانب الباب الكبير. وهناك العديد من الممرّات المشمسة الهادئة، مع مسجد أبيض اللون، أو سقاية مزخرفة، وشجرة نخيل أو اثنتين لتظليلها.

ومصارف المياه في سيئون مغطاة كلها، وتمتدّ في أحواض مغطاة من الطين صُنعت ناعمة ولا معة من الخارج، ولذلك يمكن للشخص أن يتجول حولها دون أن يكون قد

فكّر بالتّعيم، في سلام مثالي. وهي بالفعل بلدة نظيفة ولطيفة، بجامع مبني بتصميم قديم بسبعة صفوف من الأعمدة، وكان في المركز السّوق، وقلعة السّلطان، كما يجب أن يكون في بلدة إقطاعية. وترتفع في أيام السّوق كتلة القصر البيضاء بين أبراجها الرّكنية الأربعة في بحر من الجِمال، وحشد من باعة ماعز وخراف وحمير، وحائكي سِلّال جاثمين فوق الخضار على الأرض، ووازني ملح، وسمك مجفف، وفلفل، وأعمال يدوية، ونهايات مسامير وحبّال وصنادل، ونساء بقبعات طويلة يبعن شالات.

عندما كنت على استعداد للسّير هنا وخلال الأيام الأخيرة لإقامتي، كان على عبدّين أن يبعدا الحشد من أمامي بأغصان نخيل وأحياناً بالجزء السّفلي (معدّة للاستخدام عند الاقتضاء)، فنادرًا ما شاهد هذا الحشد امرأة إفرنجية لأن إنغرامز وزوجته مرّا عبر سيئون ولم يمكثا فيها. ومن ثم تسلّقت عدة طوابق من قصر السّلطان لزيارة حريمه، ووجدتهن ودودات ومرحبات مرتديات ثياب على الطّراز الحضرمي ولكن بلمسة فخامة هندية في ثيابهن الحريرية التي وُضعت فيها ألوان من جميع الأنواع والنّجمة على الظّهر، وخلاخيل ذهبية في أقدامهن. وكان البعض منهن يرتدين على طراز أهل جاوة Java، معطفًا حريريًا مستقيمًا، ولا شيء يشبه جمال الثّوب المتدلي، وكانت شفاههن فقط قد طُليت. وقد كن مفعمات بالشّفقة نحوي ونظرن برهبة إلى يديّ المنمّشتين، فعزّين ذلك للحصبة. ونظرتُ من شرفتهنّ العلوية إلى سيئون وحدائقها، وشاهدتُ كم أنها تمتدّ في حقول ذرة ونخيل مع جدران انحدرت محيطة بها من أسفل الجُرف. البوابات مفتوحة والجدران تتقوّض، وتظهر السّلم الذي يعمّ اليوم؛ لأنّ السّلطان يتمتع بقبضة قوية وخدمه يطيعونه والبدو يحترمونه؛ وكما أخبرني فهو رئيسٌ قبلي سليل همدان، وليس هناك مقدار من مال أو ولاء مُشتري يعادل هذا الادّعاء الموروث كي يُحترم بين رجال القبيلة.

تعلّقتُ بالسّلطان علي بن منصور أكثر. كان في منتصف العمر؛ ولا يزال شعره مجعّدًا، وأسود اللون تقريبًا، بجداول صغيرة على رأس كروي بشكل كامل وعادة ما تكون الجديدة ملفوفة بشكل فضفاض، وعمامة ضخمة. كان كله فضفاضًا وضخمًا،

وأحبّ أن يلبس العباءة abba المصنوعة في الشّمال، وجلس مثل حزمة على طرف واحد من الأريكة، لا تفوت شاردةً ولا واردةً من عينيه الصّغيرتين، اللتين كانتا تومضان باستمتاع خلف نظارتهما في وجهه المستدير البسيط.

وقبل أن أغادر أقنعناه بأفضل زيّ له، صرح (نسيج صوفي متين) أزرق سميك بنسيج قصبي مذهب تُربذخ عليه - وجعلت التّأظر يفكر بملاحظة الفتاة الأميركية للحرس الاسكتلندي: «يا إلهي "my" كم تملك من الحلي الصّغيرة الجميلة معلقة على كل ثيابك». كانت في الحقيقة شيئاً جميل لصورة فوتوغرافيّة، ولكنه يسبّب حرارة كبيرة. وفكّر كذلك، مفضلاً عباءته Abba كما يفعل أي رجل عاقل، ولكنه لم يقدّم أيّ احتجاج ضد معايير الغرب. وشعرت لذلك فقط بأنه كان قد اعتبر زيارتي - ظاهرة عصرية، ممّلة ولكن لا تصدّ؛ لأنه جلس هو وأخوه بجانبه - رجل نحيل وصامت - في بداية الليل يتكلمان على نحو قليل جداً في أول مساء، بينما تحدّث السّادة الأشراف آل الكاف عن أشياء حديثة: من طرقات، وسيارات، وطائرات، وما شابه. وعندما اعترفْتُ فقط بأنّي أحببت إلى حدّ ما ما كان هادئاً وقديماً، ابتسم السّلطان وبدأ ينظر إلى ما يمكن أن نتذوقه على نحو مشترك.. لأنه هو ذاته أحب الطّرق قديمة الطّراز، وحتى الأكثر تقدماً يمكن أن يفضلوا مدح أشياءهم الخاصة الرّديئة، مهما كان ضميرهم يدفعهم لتوقير الجديد. إنني أفكر دائماً بأن عبارات المديح التي غالباً ما نقدّمها للشّرق هي إلى حدّ ما ذوق غير مؤكّد، عندما نمدح فقط ما الذي نسخوه منا!

كان السّلطان علي رجلاً مريحاً، اجتماعياً ولطيفاً. ولا بدّ أن زوجتيه اللتين «بأسفل المدينة» و«في الأعلى في الفيلا» بين الحداثق اعتقدتا ذلك. لقد أحبّ حداثقه وأحبّ أن يجلس ليشرب الشّاي مع أصدقائه تحت شجرة نخيل، ويشاهد الأحواض المربعة من الفصّة والبرسيم والدّرة، والملفوف والجزر والبصل، الزّينية والكوسا، ونبته زهرة اللبلاب التي يدعونها بطاطا والتي تنمو كلها بصورة عرضاً بين شجيرات النّخيل الكثيفة اللبّانة. لم يكن هناك أيّ منظر، بسبب جدار طيني عالٍ أحاط بنا وأظهر فقط أعالي الجُرف في الخلف.

ينتقل الحريم في الصيف إلى عز الدين، كي لا يمكن لأحد النَّظر من الخارج إلى الداخل، ولكن كان في حدودهن الهادئة وغير المنظمة في الحديقة جو من السَّلام. وكان هناك بئر في ركن واحد، جاف الجدران مثل البئر القديم في المَشْهَد، بسقاية قشدية اللون بالقرب منه، وثقوب في الجدار تسمح للفيضانات بالمرور عبرها عندما تحدث؛ كانت امرأة تعمل مع ابتها بأثواب زرقاء بين الأشجار؛ وكان هناك طيور وجُذُجٌ وسحَّالٍ. حاولتُ جمعها لفوائد علم الحيوان، ولكنني قرَّرت أن أتركها بسلام عندما اكتشفت كم هو كربه وضع جندب حي في الكحول حتى يموت.

اعتاد سلطان علي أن يأتي في الصَّباح، ويمكن أن يزورني قبل استقراره في الظل، ونتكلم حول تاريخ العرب، ونقرأ نسختي من الهمداني، التي أعجبت كل من شاهداها - وذلك لأنها مليئة بأقوال معروفة في حضرموت الآن. ومن جانبه فقد أعارني تاريخ العرب في الجاهلية حيث أنه لم يكن معي أي شيء لأقرأه وأمضيت أيامي في السَّير، أتمنى لو أستطيع أن أجدها مرة أخرى. ولقد بدأ بفصل عن النساء كما يحبهن العرب: اللاتي كنَّ، من بين أشياء أخرى، «ممتنة عندما تكون راضية، وصابرة عندما تُعامل بشكل سيء»؛ وكانت هناك نصائح أكثر أخرى من هذا النوع، نسيتهُ لسوء الحظ.

بدأت أشعر بتحسُّن بعد عدة أيام في سلام الحديقة، خرجتُ إلى الشَّرفة من أجل وجبات الطَّعام، وأشرف حَسَن وأبعد الذَّباب، وتكلّمتنا حول التَّعليم. لقد كان حول جار السَّيد الذي كان قد أعطاني ثلاث قطع شمندر. أخبرني حَسَن «بأنه مؤلف كتاب في اللغة، ويقولون بأنه أفضل كتاب أُلِّف. ولم يكن قبله بإمكان أي شخص أن يكتب أكثر من ستمئة فصل في الموضوع، ولكنه كتب ألف فصل».

قلت لحسن: «إنه شيء جديد جداً أن نشترك بسجلات مثل ذلك الشَّيء، يفعل ذلك الجميع بالسيَّارات، ولكن لماذا ليس بالقواعد؟».

نظر حَسَن مسروراً. واعترف: «إننا نتحضر هنا».

أخبرني بأن الصَّوت الذي أبقاني مستيقظة - طنين غريب وهمهمة - كان الهاتف

الذي كانوا يحاولون مدّه بين قصر السلطان وبيننا. وكانوا قد حصلوا على السِّلْك الذي ثَبَّت على التّهايتين، لكنهم لم يتمكنوا من سحبه بشدة، ولذلك اهتزّ وغنّى مثل الأرغن، مائلاً الوادي بصوته القادم من القرن العشرين.

قال حسن: «لدى الجميع هواتف في تَريم من بيت لآخر، ولكن لا يمكن الحصول عليها بين بلدة وبلدة، حيث أن البدو يقطعون الأسلاك إذا ذهبت خلف الجدران». لم يكن حَسَن يحب البدو لأنهم كانوا غير عصريين. ولو رأيّ أتكلّم معهم، ورأى طريقتهم السّهلة معتبرين أنفسهم على قدم المساواة مع أيّ شخص، ويمكن أن يثبت فكّه خارج مكانه وينظر بشكل مباشر أمامه، حتى رأيت أنه من المناسب أن أعزل نفسي عن تلك الألفة وأصعد مرة أخرى إلى الانطواء المقبول في سيّارة.

سرنا بعد مدة خارجاً في مجرى السَّيل sail-bed المليء بالأحجار وأجمات رمادية الأوراق، تدعى يَعبُر، والتي تُستخدم في حُزْم لتحمل الطِّين في الأسطح، وهي احتكار السلطان ومصدر جيد للدّخل. كانت فيها زهرة صغيرة تشبه البازلاء حمراء اللون، مثل لهيب صغير.

كان ما وراء ذلك البيت الجديد والحديقة العائدان للسَّيد أبي بكر الكاف، الذي زرنه في أقرب وقت أتيح لي. كان لا يزال يجري بناء الحديقة وهي الأولى في حضر موت، وقد نُسخت من أوروبا، ولا تزال خالية من أحواض مستديرة مع أُطر حجرية، وشجرة في وسط كل حوض، وسيّاج حاجز من أجمات من حنة مقصوصة بجنبها؛ ونافورة في الوسط. كان المنزل هو الأول في سيئون الذي بني بالإسمنت، «ولذا فلم تحتج الغرفة لأعمدة». وكانت الأشغال الخشبية القديمة لحضر موت، مع مساميرها الرّصاصية قد استُبعدت، ووضعت أبواب ونوافذ أوروبية مزينة، مزخرفة على نحو غالٍ. كل شيء كان غالياً. حتى الحمام - كان مختلفاً فهو مكان بهيج بأرض مغمورة بالماء - ويحتوي مركزاً مذهباً في سقفه؛ وكان للبهو سقف زجاجي مثل الفنادق في سنغافورة. وماهي العقوبة الشّديدة العنيفة التي أمكن للشّخص أن يتخيلها لديكورات منتصف العصر الفيكتوري أكثر من وضعها - كانت قلوبهم الآن مطهرة من تأمل الجمال المقدس -

في موقع كهذا وبمجرد إلقاء نظرة خاطفة إلى الأسفل من شرفاتهم السرمدية لا بدّ أن يروا مخترعاتهم الخاصة تمتدّ مثل سرطان فوق العالم غير الفاسد؟

ماذا حدث للجنس البشري، وقد اشترى بسعر غالٍ جداً ثمرة شجرة المعرفة، ولا يمكن حتى استخدامها لمعرفة ما تريد أو ما لا تريد؟ ليس جهلاً، ولكنه كسلٌ وجُبْنٌ يمنعنا من معرفة ما نريد. يُترك الجاهلون لصنع أشياء جميلة، ولكن عندما نبدأ بالتفكير بأنه علينا الإعجاب أو الازدراء، يتحرر الشيطان في عقول المصنّعين في الأراضي الداخلية، ونحن نقبل الأشياء التي يعطونها لنا بالجملة، كما يقبل الشرق الغرب؛ ونفكر بأفكار الأشخاص الآخرين، إما أن نكون كسولين جداً أو خائفين جداً لنكتشف أفكارنا. ويجد السيّد العزيز المسنّ سعادته في التّظر إلى أبوابه المنحوتة، وفي مدينته القديمة - المدينة الوحيدة التي رأيتها في حياتي مبعّلة وجميلة وليس فيها ملاحظة سيئة تلفت الانتباه - يعتبر نفسه ملزماً بجلب قبحنا الغربي لإفسادها إلى الأبد.

حاولت أن أقول هذا، ولكنه ما هو صوت المرأة؟ مجرد ضوضاء، ممتع أو بالعكس حسب الزّمان والمكان. وعندما أعربتُ عن مشاعري، ابتسم السيّد أبو بكر، وهو يفكر بأنني كنت مؤدّبة حول جمال منازل حضر موت. «ألَسنا نحن أنفسنا نسكن ونتّج هذه الأشياء؟ فلماذا علينا فعل هذه الأشياء إذا لم نكن نحبّها؟». أخذني إلى مبنى البرج حيث لا تزال عائلته تقيم بأسلوب قديم الطّراز.

وقفت زوجته هنا فوق عدة درجات بثوب حريري أحمر اللون، محنّاة الأصابع وبخواتم جميلة، وأبعد من ذلك، عبر عدّة مرّات، كانت زوجة ابنه الشّابة تتزيّن في اليوم الأربعين بعد ولادتها. كانت يداها وقدمها قد طليتا بعمل مزركش متقن بـ hudhar بنّي اللون، يبدو جميلاً جداً، وعندما تمّ بدا مثل قفازات. كانت ذاهبة خلال أيام قليلة إلى زفاف في تريم دعيثُ إليه أيضاً. كانت هؤلاء سيدات فانتات وقمت بزيارتهن مرة أخرى، وأحببتُ أن أكون معهن. ولم يقمن في سيئون طويلاً. كان سيّد أبو بكر قد جاء عندما قامت ثورة العبيد في تريم وسبّبت له العديد من المشاكل، سعى إلى السّلام بين الحداثق وجلب إحدى عائلاته. كانت السيّدات يبدون متشوقات

للمنزل الجديد، المؤلف من طابق واحد وفي الوسط من قطعة أرض مغلقة حيث يمكن لهن أن يتجولن فيها - ويحتوي من وجهة نظر راحة الأنثى شيئاً ما يقال عنه.

وصلت رسالة عندما جلسنا هناك من أرملة متعلّمة من سيئون تطلب مني أن أزورها. أخذتني خادمة، مجرّرة رداءها الأخضر عبر حديقة نخل رملية إلى درج مبيّض بالكلس يصعد إلى غرفة مريحة، ذات أعمدة ومفروشة بالسجاد، حيث جلس ما يقارب من عشرين سيدة يضعن أساور كهرمانية ويرتدين أثواباً قطنية مورّدة متحلقات على شكل مربع حول مرشدتهن الروحية. كانت تشبه إلى حدّ كبير سيدات مولير Molière المثقفات. كانت الأرملة شابة، ممتلئة الجسم قليلاً، وذات عينين برّاقتين، بصفيرة صغيرة زاهية على كل جانب من وجهها.

عندما رأني قادمة، كانت مستغرقة بعجلة في نسخة من البخاري ثبّت على حامل مقابلها على الأرض. قرأت منه بلحن رتيب خلّو عن مشاعر أو تعبير الخبرة، استغرقت وقتاً كثيراً جداً لملاحظة حضوري، وبينما تحرّك جمهورها بتململ، متردّات بين رغبتهم في التعلّم بانقيادهم للتّراث السّماعي وبين حقيقة أنهن كن يتحرّقن بفضول لرؤيتي.

اقتربت؛ متجنّبة السيّدات الجالسات؛ وانحنيت وقبّلت يدي سيدة البيت، التي رحّبت بي بخطبة رقيقة في أخوة التعلّم. ولم ترتفع لذلك بالتّدرّيج، ولكنها أدارتها مثل صنّبور ممسكة إياي بيد واحدة وبطرف عينها، بينما انتزعت اهتمام جمهورها بالأخرى. وقد رقّمت جُمْلَهَا بأصابع جميلة صغيرة محنّاة، مقتبسة من النّبي والقرآن والشّعراء - حيث أنها هي نفسها شاعرة، وكانت قد اشتركت في منافسات مفتوحة، وربحت طقم شاي كامل كهديّة. وقالت، كل يوم تتجمّع السيّدات هنا ويستمعن لواحد من الكتب الخمسة: القرآن، البخاري، مسلم وكتابين آخرين من كتب الحديث نسيْتُ اسمهما. وقد حدث أني عرفت القليل من البخاري وكدت أصل لنصف جملة عنه.. فحملتها، دون تردّد لحظة، إلى عوالم من الفلسفة والامتيازات في الدّين. قالت: «لماذا لا تعيشين هنا؟ يمكن أن نجتمع كل يوم ونفكّر».

لقد كنت أفكر كما كانت تفكر، لأنه لم يكن لدي شيء لأقوله، وبدأ الجمهور الآن الذي كان يحظى بمزية الاستماع للسيدة Sayyida كل يوم ولكن لديه فرص قليلة جداً لرؤية امرأة أوروبية، بدأ يبدى إشارات من التمرد، وأرسلت أخيراً رسالة عبر الغرفة بواسطة خادمة بثوب أخضر لتسأل إذا كنت أمانع بنزع قبعتي، حيث يمكن أن يروا إذا لم يستطيعوا أن يسمعوا. أزلتها وابتسمتُ لهن. فتح العديد منهن أفواههن، ولكن لم تتجرأ أي واحدة بقطع الجملة الثانية، والتي كانت تطير في طريقها مع سيل من الفصاحة والخيال. وكان عليّ قبل أن تنتهي أن أقف، لأن فترة بعد الظهر كانت تتناقص.

تركتُ السيدة بمشاعر ودّية في قلبي، لتحذلقها الذي يطفح للخارج بتلقائية ومرح، بسيطة في تلك المراعي اللاهوتية المُجذبة، مثل جدول جبلي في الصّخور. وأخبرتني بأنه كانت هناك نساء مثقفات أخريات في سيئون لأنها هي وتريم كانتا مدينتا الدّين والعلم - ولكنهما كانتا «متعصّبتين جداً». ولم تكن هي كذلك. فُتحت ذراعاها لمستمعة مسيحية، وهي مفعمة بوّد حقيقي، وأتت لرؤيتي عندما عدتُ عبر سيئون. كان زوجها قد توفي، وكان لديها العديد من الأطفال، وقد سكنت في منزلها الخاص. وأعتقد، بأنها كانت واحدة من أسعد النّساء في حضر موت، لأنها فعلت ما أحبت أن تفعله، وكانت فاضلة وذات شأن أيضاً، وأخبرني النّاس بأنها كانت كذلك طوال الوقت.

غادرتُ عز الدّين في الصّباح التّالي، في السّادس عشر من فبراير، أنا وحسّن في زيارة لمدة ثلاثة أيام إلى تريم.



الفصل التاسع عشر

تريم

قال يزيد بن مقسم الصّدي:

يا حضرموت هنيئاً ما خُصّصتِ بهِ من الحكومةِ بين العُجمِ والعربِ
في الجاهليّةِ والإسلامِ يعرفهُ أهلُ الرّوايةِ والتّفقيشِ والطلبِ

عندما نزلت إلى الفناء في الصّباح التّالي، كان في السيّارة التي أفلّتنا إلى تريم بدوي أزرق مغبرّ، استقرّ على المقعد الأمامي وهو يتعهّد سلاحه. كانت سيارتنا "saiaara" من قبيلة العوامر، الذين تمتدّ ديرتهم بين المدينتين. كنت ذاهبة لتصويره، وقد انحنى فيما بدى يشبه شال أمه، عندما تمتّم حسن أنّ الأفضل أن أنتظر. وحقيقة أنني لا أزال بحاجة لمرافقة تمضّني، ولا أحد يحب أن يؤكد ذلك، على الرّغم من أنها لا تزعج أحداً بشكل كبير. ولقد حلّ السّادة آل الكاف الأمر بإعطاء راتب دائم لبعض البدو ووضعهم في أيّة سيارة تسافر.

كان رجلنا العامري هادئاً ودوداً، ويتمتع بذاك العقل القانع والمباشر والبسيط الذي يجعل البدوي لطيفاً. عاملني باحترام، وذلك لأنني كنت قد استرقت السّمع لحسن وهو يبيّن له بأنني كنت «إحدى سلطانات إنكلترا». وعندما سمحت له بالتّظر من خلال كاميرتي إلى المنظر الطّبيعي ابتسم وعلّق قائلاً بطريقة مخيّبة: «إنها تجعل الأشياء تبدو أصغر».

لاحظت بأن عقب بندقيته لم يكن مغطى بجلد وعل أو غزال مثل بنادق البدو من

كور سيان. قال: «هذا ليس من طرازنا».

سألت: «إذاً ماذا تفعلون عندما تقتلون وعلاً؟».

«نصنع من قرونه أبواقاً للحرب. ويُحمل رأسه على رأسنا ونرقص به بينما يصيح رجالنا، ونسمي الرقصة الزّامل».

قال حسن: «كل شخص لديه رقصة، يدعو السّادة الأشراف رقصاتهم sherh، وهنا تسمّى رقصة شعر النّساء الرّفين zafin والنّعيش narsh في المُكلا».

قلت، بالعودة إلى الوعل: «ولكنكم الآن جميعكم في سِلَم، ويمكن ألا تكونوا بحاجة لأبواق حرب لمدة طويلة».

قال حسن معلّقاً: «عندما يحتاجون لمال، فإنهم يكمنون هذا الطّريق، ثم فعلى كل واحد أن يذهب فوق أو أسفل العقبة وعبر الجُول إلى تريم، من الطّريق الذي قام السّادة الأشراف بشقّه هناك في الشّمال قبل سبع سنوات، عندما اعترضت القبائل علاقاتهم». ابتسم العامري مرة أخرى، كما لو كنا نشير لحماقات فترة شبابه من زمن طويل، ولكن ليس مأسوفاً عليها بشكل كبير جداً.

كنا قد غادرنا ضواحي البساتين من سيئون، وأتينا لجزء من الوادي حيث شق الماء لنفسه قناةً أعمق على نحو هزيل في الشّمال، مسبباً لأن يكون الجانب الجنوبي جافاً وقاحلاً.

اجتزنا عبر مَرِيمة وهي بلدة حديثة في الغرب وقديمة في الشرق من قاعدة الجُرف النَّاتئ. يقولون بأنه يوجد حوض ماء في الصّخور بالأعلى، ويشير فان دن مولن M. Van den Meulen إلى طريق قديم إلى الجنوب. وكانت الطّريقة لسقاية حضر موت هي على نحو واضح بحجز هذه الوديان ضيقة الجانب، ومن المحتمل أن هذا تم في عدة أماكن في أيام خلت، تماماً كما كانت في اليمن، حيث من المحتمل أن البلدة كانت أكثر خصوبة من الآن وأشكُّ بذلك كثيراً. وبدوره فقد جعلت قيمته التّجارية بالإمكان رعايته من أجل ضمان حمايته وهذا مكّن من الحفاظ على سقايته بشكل

مستمرّ وزراعته؛ ويعلم كل واحد ما هي العناية المتواصلة المطلوبة لحماية هذه الأشياء الحيويّة في الأراضي المروية على نحو هزيل. وفي بلاد ما بين النهرين قد حوّل تدمير ضفاف القناة في سنوات قليلة جداً الخصوبة البابلية إلى صحراء تركيّة. تقول أسطورة بأن قحطاً جنوبي جزيرة العرب نتج عن خراب سدّ مأرب. وكان الذي حدث في الواقع على الأرجح هو انخفاض تدريجي في التجارة وعدم اهتمام إجمالي بريّ السدود وترميمها والصّهاريج، كما في وادي دام Wadi Dam الذي ذكره البكري قائلاً: «كان مزروعاً ذات يوم، ولكنه جفّ وهُجِر قبل الإسلام بقليل». حيث كانت القوافل دوماً تسير من حضرموت إلى اليمن عبر أراضٍ خصبة باستمرار، ولكني لا أصدّق هذا. وصلت الحملة الرومانية بإشراف إيلوس غالوس Aelius Gallus إلى مأرب وهناك كان عليها أن تعود، يتهدّدها الجوع والعطش. وكان هذا منذ عهد بعيد قبل هدم السدّ (الذي حدث في القرن السادس الميلادي)، ووفقاً لخيال العرب، في وقت عندما «كان الشّخص يستطيع السّفر في ظل مستمرّ لمدة شهرين عبر أراضي مأرب»! وإذا كان هذا حدث بالفعل ولو بخصب معتدل حسب مقياس العرب وحدهم لكان قادراً على الرّاحة وإرواء جيشه.

يذكر الجغرافيون المسلمون المبكرون بين مأرب وحضرموت «الصّحراء الخطرة إلى شَبْوة، أول بلدة في حضرموت» (أبو عبيد البكري)؛ أو «مفازة صَيْهَد، حيث الغربان فقط هي الملوك». وقد وصف طريق العبيد الليبي مؤخراً الكابتن باغنولد Bagnold، حيث سافرت القوافل، كلها خلال القرن الماضي مسافة 150 ميلاً في زمن دون ماء، مظهره المسافات والمتاعب والمخاطر التي يمكن التّغلب عليها في سبيل تجارة مريحة. وعلى الأغلب فقد ذهب طريق البخور القديم، كما تفعل قوافل اليمن الآن، من ماء إلى ماء، على الرّغم من أن الأماكن بقدر ما كانت خصبة في ذلك الوقت، كانت على الأغلب أكثر بُعداً واتساعاً.

حول كون عدد السّكان في اليمن الجنوبي على أية حال أكثر تعدداً تحت امبراطوريات جنوب جزيرة العرب ممّا هو عليه الآن، قد تم استنتاجه ربما من بعض

الأعداد التي ذكرت على النقش الحميري العظيم في صِرواح Sirwah، حيث أنّ تعداد 26,000 قتيلًا و 65,000 أسيرًا يدلّ على أنّ قطاع البلدة يمتدّ تقريباً جنوبي نجران إلى البحر، وعليه فإنه يتوجب أن يكون مكتظاً بالسكان بكثافة أكثر من الآن. ومن ناحية أخرى، يشير تعداد 200,000 من رؤوس الماشية إلى نسبة جيدة من الرّعاة البدو، الذين كانوا يقيمون هنا كما هو مرجّح في أرض سهبية غير محروثة، كما يفعلون حتى هذا اليوم.

لا يستطيع أحدُ الكفّ عن التفكير ملياً في هذه المشاكل، عندما يسير أسفل الوادي إلى أيّ مكان هنا، يمكنه أن يمرّ على المدن الحميرية⁽¹⁾. وتوجد هنا أطلال على صخرة جزيرة صغيرة قبل تارّبة، وفي قرية سنّه Qariat Sané أو Sanahiya خلفها، وهي مدينة مدمّرة تحت الجُرف؛ وكان هناك طريق قديم على الأرجح حيث ينتهي وادي عدم فجأة، والطريق الحديث إلى الشّحر والبحر، وربما كان هناك طريق قديم، طالما أنّ فان دن مولن M. Van den Meulen قد عثر هناك على أطلال سنّه Sune، ونسخ نقوشاً ومنحوتات شاهدهتها لاحقاً في حديقة سيّد أبو بكر في تريم، وأعطاني اثنين منها بكل لطف⁽²⁾.

فضلاً عن هذه الأشياء، كان لدينا كثير من المواضيع لتسلّينا ونحن نسير على طول الجانب الجنوبي للوادي.

اجتزنا المكان حيث يوجد قبر وليّة - الشّيخة سلطنة - مدفونة فيه، ويزوره الآن ليس النّساء فقط ولكن الرّجال أيضاً. وأبعد منه قبر لمصلح مسلم هو السيّد أحمد بن عيسى المهاجر، الجدّ الأكبر لجميع السّادة الأشراف في المنطقة. جاء من البصرة، واستقرّ أولاً في الهجرين ومن ثم هنا، حيث يرقد تحت قبة بيضاء شيّدت في حطام

(1) كتبت المؤلفة: استخدم عبارة الحميرية أو السّبئية كمفهوم عام، وأعتقد بأن هناك اسماً غير عام يضم عدّة إمبراطوريات في جنوبي الجزيرة ما قبل الإسلام.

(2) كتبت فرياً: وهما الآن، بالإضافة إلى تمثال صغير قمت بشرائه في شبّام ويقال إنّ مصدره وادي بيحان، موجودان في متحف الأشموليّان.

الجُرف. وقد أرشد أرض حضرموت، والسّادة الذين انحدروا منه هم الآن أحد أربع طبقات التي ينقسم إليها سكانها الآن: السّادة sayyids، والقبيلي qabilis وهم الأشخاص الذين الرّغم من استقرارهم في البلدات ينحدرون من إحدى القبائل، والمساكين meskin أو العمّال، وأمّا الضّعيف dha'if فهي الطبقة الأدنى من الكل. لا يحمل السّادة الأشراف السّلاح ويتمتعون باحترام كبير حتى الأزمنة الأخيرة، إلى أن بدأت حركة تحديث في الخارج بين المهاجرين الحضرميين في تقويض سلطتهم.

اجتزنا بعد هذه الأماكن المقدّسة عبر تارّبة في جانب الوادي، عاصمة العوامر، وهي مكان سيء وفقاً لما يقول حسن، على الرّغم أنه من الصّعوبة التّفكير بأي شيء أكثر براءة في الأشكال بين حداثتها من أشجار النّخيل الفتية في شمس الصّباح. كان الوادي قد ضاق قليلاً، ولكنه فتح بعض الطّريق خلف تارّبة في الجنوب إلى مسافات رملية منخفضة في وادي عَدم، الذي يؤدّي إلى الشّحر والبحر. كان خط قافلة جمال يتقدّم هناك، كما كان قد حدث منذ بداية حركة السّير؛ وكان هناك سائس جملنا، الذي أحضر أمتعتي من الهجرين، يجلس من جانب واحد على دابة لها تقرّح محمّر على ظهرها يهتز وهو يتسم مثل صديق.

التفّ وادينا الأساسيّ شمالاً بعد عبور مجرى سيل sail-bed وادي عَدم في رطوبة فيها وفرة التّباتات والقصب، وانعطف إلى الشّمال وضاق وتغيّر اسمه إلى وادي المَسيلة. وعبرنا فيها مجرى السّيل أيضاً، ببرك من الماء ما تزال لم تُمتص فيه بعد، والإثل أو أشجار الطّرفاء tamarisk المتدلّية. أطلّ علينا حصنٌ قديمٌ بأربعة أبراج ركنية مستديرة في الجهة اليسرى عندما سرنا على حافة ذاك الجانب من الوادي. كانت أشجار الإثل مألوفة هنا في التّربة الرّملية، يمتدّ ظلّها قرب بئر على أرض مرتفعة، يقوم ثلاث رجال وامرأة بسحب دلائه الجلدية؛ وقد صعدوا ثم ركضوا بعكس الاتجاه والجل في أيديهم أسفل منحدر طيني ناعم. وأخبروني، أنهم يقومون بذلك لمدة أربع ساعات في كل مرة.

اقتربتُ كي أنظر إليهم، وقد صرخوا عندما رأوني قائلين: «لا يُسمح بالتّصوير».

قلت: «السلام عليكم، الله يقوِّكم في عملكم».

ارتفع الدُّلو الجُلدي مقابل السَّماء الزَّرْقاء ورشرش رشاشاً من الماء عندما سقط فوقه. وعلى نحو مبدع أعدَّ حبل للسَّحب من الأسفل عندما يكون عالياً بما فيه الكفاية، لذا فإنه يلتفّ على نفسه وينصبّ الماء للخارج. أوضح الرّجال الثلاثة والمرأة بأنهم لم يرغبوا بأن يُروا في صورة من قبل كل العالم وهم يقومون بهذا العمل الوضيع: «ناحتي الخشب وساحبي الماء» - لا تزال المهانة ملموسة في الشرق.

في هذه الأثناء كان البدو المرافقون لي قد تمشّوا بتمهّل واستقرّوا من دون تذمّر أو تعليل من أجل أخذ نرجيلتهم في ظل الشجرة. نمت كمية كبيرة من أزهار صفراء متسلقة عند الحواف فوق البئر وجعلتها تبدو زاهية مقابل السَّماء. يمتدّ الوادي في الأسفل في روابٍ نُقِطت بأشجار الإثل، منعزلاً وهادئاً، باستثناء المكان الذي تصارع فيه حَسَن والسَّائق مع العالم الميكانيكي، عندما عبّر عن نفسه بثقب الدّولاب. وعندما أصليح دُعونا بحرارة وقوة من مكاننا في الظل والرّاحة، وسرنا في الحال إلى البوابة القديمة لتريم، بلونها القشدي في الشَّمس؛ وكان قطع من ماعز باللون الأبيض والأسود يرعى أمامها بتعاويد معلّقة حول أعناقها، وصُرتْ ضروعها في أكياس من الخام.

تريم مدينة قديمة، وثمة لوحة سبئية تحمل حروف A.L.M.'D. جعلت في درجات جامع الشّيخ علي، ووُجد أيضاً قبر أطلعوا السّيد والسّيدة إنغرامز Ingrmas عليه في الضّواحي الشماليّة للبلدة. كان المنزل للملوك من بني عمرو بن معاوية، أحد الذين ذهبوا إلى بلاط كسرى Chosroes، ويقال إنه في أيام الرّدة بعد موت النّبي كانت تريم هي وحدها التي حافظت على معتقد الإسلام في حضرموت.

ويعود معظم المرتدين لقبيلة كنده، والتي لا تزال موجودة في وادي عمَد، وقد التقوا وقاتلوا المسلمين في مكان يدعى مَحَجَر الزُّرقان. كان المسلمون بقيادة المهاجر بن أبي أمية، الذي جاء من صنعاء، وعكرمة بن أبي جهل الذي هزم مرتدّي عُمان، كان قد سار عبر المَهرة إلى أَيْين (غربي عدن تماماً) - ومن المحتمل على طول السّاحل،

حيث أن الأجزاء الداخلية كانت في أيدي المتمردين. وذكر أن بعض الرجال من الشجر لحقوا به. ومن أبين على أي حال انضم للجيش الإسلامي في مأرب، ومن ثم اجتازوا صيهّد (المفازة بين مأرب وحضرموت)، وهكذا على طريق شبوة. ومن المفروض أن يكون محجر الزرقان في مكان ما في هذا الطريق. وبعد هزيمتهم، اعتصم المرتدون ثم استسلموا أخيراً في حصن نجير، التي كنت سمعت عنه من أصدقاء في حضرموت أنه ما يزال موجوداً في مكان يدعى حجيل قرب مشتى، بين تريم وعينات.

تفتخر تريم بنفسها بهذا الإيمان القديم، ولا تزال مدينة الدين بامتياز في بلد اعتبر كله معقلاً لدين الإسلام. يقال بأنّ في تريم 360 مسجداً، أسّس المظفر أحدها في القرن الرابع عشر، فاتح ظفار من اليمن، ويقال بأنّ ستين مسجداً من هذه المساجد مستخدم الآن. ويمكن أن يعطي هذا أيضاً للزائر الأوروبي فرصة ضئيلة للنقاش مع الحلقات الدينية في تريم. والحقيقة هي أن السادة الأشراف من آل الكاف واسعوا الأفق ومتقدمون، ويجذب موروثهم النبيل من حسن الضيافة بشكل طبيعي جميع الأوروبيين إليهم، وصيتهم يطغى على حزب إسلامي عنيد، ضيق ومتشدد يتعين عليهم التعامل معه في البلدة. وهذا الحزب ينظر أيضاً بشكل تلقائي إلى أيّ أوروبي على أنّه ذو صلة بالحزب الحديث التقدمي المحلي، وهذا يزيد من صعوبة الاتصال مع الآخر. مرّ السادة الغرييون بي الآن وبأعين متغاضية، سحبوا عباةاتهم البيضاء بحذر بعيداً عن التلوث فيما لو حدث وكنا في شارع ضيق حيث يمكن لأثوابنا أن تتلامس.



كنت متلهفة لزيارة مدرسة الرباط التي أخبروني أنها بالفخامة والشهرة الدينية مثلها مثل الأزهر في القاهرة: وقلت لو أنهم أتاحوا لي رؤيتها بذات نفسي فمن الممكن أن أدحض وعن طيب خاطر الافتراءات الخاطئة والغريبة المكتوبة عنها من قبل الهر هلفريتس Herr Helfritz في كتاب ألماني جديد. ولم تستطع حتى هذه الفكرة إقناعهم للسماح لجنسي الدوني بتخطي عتبة التعلّم. وبقيت على الجانب الحديث من تريم، واستمتعت هناك في منزل سيّد أبو بكر، بكماليات الحضارة في غرفة ضيوف منحوتة

على نحو غني، محاطة بأربعة أبواب وثمانية نوافذ من الزجاج الملون، والتي جعلتني أفكر إما بمقصورة برايتون Brighton أو بكنيسة، حسب ظروف اللحظة.

زارني هنا محمود، صيدلي تريم الذي أنقذ حياتي في وقت لاحق. كان مواطناً عدنياً من سلالة أفغانية، وهو رجل صادق جداً ومحترم. أخبرني بأن والده كان قد تزوج امرأة عدنية واستقر في الحبشة Abyssinia يعمل كنجار، وكان الأجنبي الأول الذي يعيش في أديس أبابا. وقد أصبح صديقاً ومرشداً للإمبراطور تافاري Tafari، وعندما أرسلت الملكة فيكتوريا ملابس تشريفية من الهند كهدية، كان هو الذي طلب شراءها وأخذها. وأعطاه Tafari أرضاً بعد خدمة عدة سنوات، وعرض عليه أية جائزة يمكن أن يختارها.

قال محمود: «اختار والدي أن يطلب أن يكون المستشار البريطاني في أديس أبابا؛ قال الإمبراطور نعم، وقد كان. وتلقى والدي من الملكة فيكتوريا رسالة من التّشكّرات ومزهريتين من صنع الصّين مع السّلاح الملكي». ولكن فُقدت الرّسالة. وتوفي الوالد، وأخذت الأم العائلة عائدة إلى عدن. وما تزال تملك أرضاً في الحبشة، ولكن استحوذت عليها أخت الزّوج وكانت هناك دعوى قضائية. أخبرني محمود فيما بعد بأن طموحه الأكبر الخاص كان أن يكون واسطة لتأسيس قنصلية بريطانية في حضر موت لأنه شعر بنفسه، كما هو حقاً، أنه مواطن في الإمبراطورية.

وعندما حدّثني رجل بريطاني شاب في أحد الأيام بأنه يمكن أن نقلّص من مشاكلنا، ونتخلّص من ممتلكاتنا، ونتقاعد في حياة خاصة مثل أمّة صغيرة، رأيت فجأة الوجه المستدير والعينين المتوتبتين لوجه محمود، فاتحاً أفكاره لي في ذاك الوادي العربي البعيد، وتساءلتُ كيف أن الرّجل الشّاب، الذي ناقش وتحدث عن فصل الشّعوب كما لو كانت قفازات، يمكن أن ينجح في تفسير الأمر بما يروق له.

في هذه الأثناء ضرب محمود صدري وقال بأن هذا الخطر كان قد زال. وكنت ضعيفة جداً فقط.

قال: «بعد الحصبة... الالتهاب الشعبي؛ ثم الالتهاب الشعبي الرئوي، ثم...» لكنني قاطعت هذا؛ لقد قبلنا بأن الله قد حماني حتى الوقت الحالي، وبعد مدة من الراحة ذهبت لزيارة سلطان تريم.

يعيش سلطان تريم وأخوه في قصر ساحة القلعة عند طرف البلدة. وتعتبر منازل تريم، حيث لم يمّسها تأثير جاوة Java، مختلفة عن تلك في سيئون. ولكنهما بالتساوي من دون نوافذ، ودُعِمت الأرض الأخفض في تصميم أفقي مثل حديد مجعد، وقُطع الباب الأمامي في هذا الفراغ الكبير؛ وانحدرت قناة مفتوحة لمياه الصرف الصحي قريبة إلى جانبه في حوض مغطى، وتُعطي انطباعاً بوجود نصف شعرية التحصين بظلها الأسود الطويل. وأيضاً اللون البني هنا أكثر، وأقل بياضاً في هذه البيوت القديمة المقيمة أكثر منه بالنسبة للطرق في سيئون، ويعيش معظم الناس الأكثر ثراءً في تريم في حدائق بالخارج، في منشآت جديدة زُيّنت على نحو متقن في نموذج منزل ريفي صغير. وقلل الفرق بين القديم والجديد من شعور الانسجام والذي هو جاذبية سيئون، والوادي في تريم أضيق مع رقة أقل من الزراعة حول ضواحي البلدة. يذهب الشباب للاستراحة خارجاً ليستمتعوا بمنظر الغروب في فراغ مجوّف من الحجارة في حوض جرفين ضخمين. ولكن يوجد هناك حدائق مخفية ضمن أسوار، ويجتمعون في تلك الأماكن الممتعة بسجاد ووسائد وأكواب شاي.

يعتبر قصر السلطان من الطراز القديم، واستقبلني هناك السلطان وأخوه، وهما شابان ذوا أخلاق لطيفة بطيئا الحركة ارتدى أحدهما عمامة زرقاء شاحبة غير محكمة والآخر عمامة بيضاء محكمة، وكانا متشابهي الوجه إلى حدّ ما، ويستطيع الشخص أن يقرّر أيّ غطاء رأس أحبّه أكثر. سرعان ما تركاني لأنظر عبر نوافذهما الشبكية المنحوتة إلى حفل زفاف تجمع في الأسفل، بينما ذهبا هما نفساهما لوليمة مع الوجهاء في منزل العروس.

كان هذا كله قصراً ضخمًا على مسافة غير بعيدة عبر المكان المفتوح، وكانت كل تريم محتشدة هناك. وقفت السيارات قريباً مع حشد من النساء تحلّقن حولها في أثواب

تريم الصفراء والبرتقالية أو خضراء اللون، أو أحياناً زرقاء من شبام، وغطيت رؤوسهن بخُمُر سوداء اللون. كانت للسيارات التي أقلت السيدات ستائر، مزينة بأزهار منمنمة وورقية، ورُبِطت معظم المصاييح الأمامية بإحكام بقماش قطني مورّد أو زهري اللون. كانت فتيات صغيرات يلعبن بأذيال متألّثة وأحزمة وحليّ بالقرب من مجموعة أخرى، متحرّرات حتى الآن من قواعد اللياقة. وجثمت عبر الطريق جماعات من رجال، عبيد أو أبناء المدن؛ وقد رُبِطت الشالات حول ركبهم وفي الخلف من أكتافهم، وهي وسيلة تتيح لهم الجلوس بشكل مريح لساعات أكثر أو أقل في المكان. ولقد كانوا بدواً معهم أسلحة، ولكنهم قليلون جداً، حيث أنّ تريم ليست بلدة بدوية، مثل سيئون.

ظهر توأموكب الزّفاف، أو بالحريّ هو من أجل زيارة العريس. كان يلبس عمامة بيضاء ومشى ببطء، تحت مظلة خفيفة (پاراسول) نسائية إلى حد ما، بينما قام أحد ما بتهويته من الجانب. وتصدّرت ثلاثة مزامير وثلاثة طبول مسطحة أخدام السّقاف (Akhdam as-Saqqaf)، وجميع وجهاء البلدة. ارتدى هؤلاء كل نوع من أنواع أغطية الرّأس: قلنسوة بيضاء أنيقة بأغطية مطرزة ذهبية من جاوة؛ وجُذلت الأكثر تسطحاً بخيوط ذهبية بأشكال وزيّنت بعمامات صغيرة من مكة؛ سِدارات Sidaras من العراق؛ طرايش من مصر أو سوريا؛ وعمائم ضخمة ملفوفة من أي شال قديم، أو قبعات بيضاء ضيقة تبدو كأنها محبوكة بإبرة ولكنها ليست كذلك. وشوهد من نافذتي الشّبكية في الأعلى، بأن الرّؤوس أظهرت كم هي طويلة ومتعدّدة المسافات التي سافرها الحضارمة. يتجول الفلاسفة بثياب بيضاء، ويعتبر الأشخاص من الطبقات الأفضل نظيفين تماماً؛ وطراز الأشراف آل الكاف، إذا ارتدوا نوعاً أوروبياً من معطف بأي حال، فهم يلبسونه بأزرار ذهبية على طوله حتى الأسفل، كعادة الملوك.

بينما كنت أتأمل كل هذه الأشياء، مسبّية حماساً أكبر لحفلة الزّفاف في عرض وجهي من النّافذة، جاءني فتاة صغيرة إلى ورائي أحضرتها عبتها المرافقة. لقد كانت سلمى، ابنة السّلطان ذات العشرة أعوام، وقد ارتدت قماشاً مطرّزاً أحمر اللون بأربعة صفوف من خرزات ذهبية حول رقبتها وقمر هلال في الشّكل في الأسفل. وقفت تحدّق

بي خجولة وبهيّة، وقد زينت يداها الصّغيرتان بأشكال مزركشة ودوائر بلون نيلي مع زينة من الحنّاء؛ كان شعرها قد صُفر خمساً وسبعين ضفيرة على الأقل، ترغبت على كتفها في عقصات. وعلّقت تميمة في قمّة رأسها بمشبك. أدارت نفسها ببطء، مستديرة ليتسنى لي التّظر إليها، همهمت باسمها واختفت يداها الصّغيرة في يد الخادمة المسنّة العابسة.

نزلت لأجد حسن والسّلاطان أيضاً عند الباب، بسيارة صفراء منجّدة بقماش من جلد الفهد، ولخيبة أمني، أخذ حسن السيّارة منه وقادني إلى البيت.

دُعيت أيضاً، في وقت متأخر من المساء، إلى منزل العروس. كانت جبال من الأرز، وحشود من الخدم متجمعين قرب أسفل الدّرج؛ واستقبلتني زوجة سيّد أبي بكر حاكم تريم في الطّابق العلوي بكرم وأخذتني في الحال إلى غرفة كبيرة حيث كانت سيدات تريم يستمتعن في حشد صاخب. لكنها سمحت لي بالبقاء لدقيقة فقط، بسبب أن وصيفة الشّرف ذات الأربطة الضّيقة فرعت من يدي الممتدّة. شقّ لي طريقي لأعود إلى حيث جلس السيّد المسنّ مع بناته، وكنّ يرتدين جميعهن أثواباً حمراء - أخبرني أنّه اللون المخصّص لفترة المساء.

كنت متعبة جداً، ولا أستطيع البقاء، لأنّ الوليمة والرّقص لم يبدأ بعد، فيمكن أن يستمرّا حتى منتصف الليل، عندما يؤخذ العريس إلى عروسه. وهما يُتركان حتى مطلع الفجر، ثم يذهبان هو وهي وكل أصدقائهما من حولهما إلى دار العريس.

شعرت بعدم القدرة على تحمّل ذلك، ومشيتُ مع حسن إلى المنزل على طول الطّريق المقمّر. ورأيت هناك، في بركة من الظّل أسفل قصر السّلاطان، الموكب مع العريس يصلون كما من قبل؛ ولكنه كان الآن مضاءً بضوء الفانوس، ومرتدياً معطفاً ورديّ اللون، ولديه عُذبة مهذّبة متدلّية فوق أذنه اليسرى من عمامته. كانوا لا يزالون يروّحون له بالمراوح، ولا بدّ أنّه متعبٌ جداً. وقفنا في الظّل لمشاهدتهم. وبعد مدّة طويلة، سمعت في الليل صوت الطّبول وغناء بينما مرّت مجموعات من أشخاص، يرقصون الرّقص الذي يسمونه «شّواني» من عصر شَبُوة، قبل الإسلام بزمان بعيد.

الفصل العشرون

مغادرة الأصدقاء

ياضيفنا لو زُرتنا لوجدتنا نحنُ الضيُوف وأنت ربُّ المنزل
أيقظتني في الصُّباح التَّالي أصوات إطلاق نار، لقد كانوا يذهبون بعيداً ليعلنوا بأن
العروس قد أخذت لتناول الإفطار في بيت العريس.

ظهر حَسَن بعد هذا في الوقت المناسب وقادني في سيارة عبر الطُّرقات من البلدة،
مروراً بأطلال خربة من الحصن القديم، عند الضُّواحي التي تنمو بسرعة بسبب تجارة
البناء المزدهرة الآن في تريم، عند البوابة الشَّرقية من البلدة التي تفتح على حقول ذُرة.
الجدار محصَّن ويحرسه عبيد السُّلطان، ويُستخدَم حصن صغير في الأعلى كسجن.
صرخ رجل من الأعلى بأسئلة ليعرف كل شيء عني، واستدار ليكون السَّجين المنزوي
الذي يشمُّس نفسه براحة هناك. الجريمة غير معروفة عملياً في حضرموت، وقد تَمَّت
أشياء كبيرة مثل السَّرقة والقتل في الواقع تحت عنوان حرب شرعية وفقاً للقوانين
المرسومة.

حتى هذه الأشياء كانت ملغاة حالياً، ويحافظ السَّادة الأشراف آل الكاف على
السُّلم في الوادي، بتكلفة طائلة من الطَّاقة والذهب. أراني حَسَن وادياً حيث تتقابل
اثنتان من الضُّواحي الأخرى عبر مساحة ضيقة، وكانوا يخوضون حرباً صغيرة فيما
بينهم إلى أن أحلَّ سيد عبد الرّحمن السُّلم قبل شهر.

وعلى نحو دقيق ربما سُمِّي آل الكاف في الواقع بـ «عيال الله» فيما إذا كان صنع

السّلام يرخص بإطلاق هذا الاسم. أخبرني حسن بأنه يوجد ما يقارب أربعين فرعاً منهم الآن في تريم - تفرّعوا كلهم من بيت واحد، وكلهم أثرياء ومحسنون. وهم يديرون السّلاطين، والمدارس، والتجارة، والجيش - في الواقع كل شيء هناك يحتاج لإدارة. يركب رجالهم الشّبان هناك قرب البلدة على الدّراجات الهوائية، يتجولون بعباءات سابغة مثيرة من طراز المّلا القديم.

ولقد قاموا بسكّ عملة صغيرة تمتلك قيمة محلية. وبالنسبة لهم كل نوع من المشقة يرضيهم باستثناء الفقر، ولا يتّسم الأغنياء أنفسهم بسلطة كافية مع البدو لوضع قوانين تعمّ القبائل بالجوار. ويعتبر خمسمئة عبد أسود أو أكثر في تريم كمية مشاغبة. وقد ثاروا قبل سنة وتراجع قادة السّادة الأشراف آل الكاف لبرهة إلى سيئون تاركينهم ليختالوا بالجوار، متمرّدين ونصف عراة مثل الحرس الشّخصي praetorian guard بثوب مبتذل، وعارضهم البدو أحياناً لحفظ التوازن. أخبرني حسن بأنه حاول أن يدرّب كشافة ذكوراً وينشئ جنوداً من الفلاحين.

قال: «ولكن ماذا يمكننا أن نفعل دون أسلحة؟ فنحن عند نهاية العالم هنا، مثل فأر في مصيدة. ويمكنك في شِbam شراء الأشياء بثمان بخس، وتصبح غالية عند مغادرة بواباتها ومجيئها باتجاهنا».

هذا ما أوصلنا إلى سؤال ملحّ عن الطّريق إلى البحر، والذي تعتمد عليه أُمّيات تريم وتعتمد مشاعرها بشكل ثانوي تجاه البريطانيين بشكل عام. كان معظمه قد شقّ على نفقة آل الكاف، ولكن عليه أن ينتظر عند المرحلة الأخيرة إلى الشّحر الإذن المعارض للمكّلا، التي تخشى من فقدان استحواذها الخانق الآن على الوادي الدّاخلي. وفي حال كانت المكّلا مدركة فيمكن أن تشق طريقها الخاص إلى شِbam وتحافظ على تجارة المستقبل. وقد أمل تجارها بذلك، وأرسل السّلطان لهم بعد أن قام بزيارة المكان في الخريف الماضي أربعة آلاف طالر لبناء مئذنة وليبدؤوا الطّريق (الذي قُدّرت كلفته عشرة آلاف طالر).

لكنه التمس الهدية مرة أخرى في غضون شهر أو شهرين، وأجبروا على إرسالها

إلى الهند، حيث صرفت العائلة المالية معظم دخل حضر موت. وفي غضون ذلك لم يعتاد سكان تريم على الإجراءات الدستورية، معتقدين بأن كلمة منا يمكن أن تحلّ الخلاف حول طريقهم. وجرفت الأمطار الجزء الذي كان قد أُنجز، وهو طريق أبيض مثير للشفقة صاعد إلى الجول، بينما استمرت الجمال تتهادى في أيامها الثمانية إلى الشحر، ويحمل العمل الضخم ما وراء البحار (الخارجي) لتريم من قبل سعاة من بدو حفاة سريعين لمدة أربعة أيام حتى البحر.

يمكن في ساعات المساء المبهجة عندما يزداد اللون الزهري لقياب المقبرة في سماء فاتحة اللون، أن نتجه للخارج بين الحجارة ورقع من حقول الذرة، حيث تقوم فتيات قرويات بذيول وقبعات مستدقات الرأس، برمي كتل من تراب من مقاليع لإخافة الطيور وإبعادها عن الذرة. ومن الممكن أن تنتهي قرب حوض سباحة مطلي في جناح السيّد عُمر أو على سجادة في حديقة شجر رُمان مزهرة رائعة، لنأكل أكواز ذرة مشوية ونجلس في حلقة ونتكلم حول التاريخ أو الدين، وعن الحدود القديمة لحضر موت أو السياسة لعصبة الأمم، مع شعور سائغ بأن هذه الأمور كانت كلها حول بُعد متساوٍ من هدوئنا.

قابلت العديد من الأشخاص السارين هنا، ودُعيت في اليوم الأخير من إقامتي من قبل نادي الشباب، الذي يرأسه السيّد عُمر لأجلس على أريكة حمراء مخملية في الوسط من حدوة فرس من كراس امتلأت بالمستمعين، بينما قمت بأفضل ما لديّ - لإدراكي بضعف لغتي العربية - للإجابة على الأسئلة حول تعليم المرأة. ونهض رجل صغير متلهف ومثقف ليلقي خطبة. كان قد كتبها بلغة جميلة؛ خرجت من فمه كأنها عسل. اختار تعابير مناسبة من غناها للترحيب بي كأول سيدة أسافر لوحدي من أوروبا إلى حضر موت، حباً بالتعرّف عليها فقط. وفي الواقع فإنّ حب المعرفة هو التزام مبهج وعالمي، حيث أنه يتعامل مع الشخص وليس مع ما يملك. ولقد أثرت في مشاعري بلطف الكلمات المنتقاة بعناية، ولكنني خفت جداً من التفكير بأي شيء عدا الحقيقة بأنني أنا نفسي يتوجّب علي التكلّم بعد ذلك. جاءت اللحظة المحتومة، وجلس الرجل

الصغير. نهضتُ وأفسدتُ اللغة العربية بأقصر فترة ممكنة. يدرك الشخص عند نهاية الخطاب بأن انقطاع الألم يعتبر أحد المتع.

التقطنا أنا وأعضاء النادي من منزل سيد عمر صوراً لبعضنا على الشرفة، كانوا كلهم متناغمين قدر ما استطاعوا؛ وعادوا بي بواحدة من سياراتهم إلى ما وراء قصر السلطان، حيث المدفع - وهو شيء مثل تلسكوب بطول يقارب أربعة أقدام - وكان قد وضع جانباً في استعداد للزفاف التالي؛ وتركوني عند باب بيتي بنوافذه الملونة، التي كانت تلوّث تألّق السماء العربية الأبيض مثل تلويث الزمن للأبدية.

جاء جميع الأشخاص وخاصة أولاد آل الكاف الصغار لزيارتي، كل واحد مع عبده المرافق - حيث العادة أن يُعطى كل صبي عندما يولد عبداً من عمره تقريباً عندما يولد، وينموان معاً بإخلاص - أخبرني كل واحد منهم الكثير عن الذي فاتني لعدم رؤيتي المدفع وهو ينفجر. وصنعت لي الخسارة الخير ذاك المساء، وذلك بدعوة إحدى عائلات آل الكاف لرؤية سينماها الخاصة، ورأيت فيها المدفع ينطلق في دخان أبيض، بمناسبة سابقة وتم الترحيب به بهتافات من الحضور.

مضينا بعد الغداء للعرض، على أرض وعرة عبر أعماق أزمنة تريم من القرون الوسطى في ضوء القمر، وحتى تحت أضواء كهربائية، أسفل أعمدة كورنثية الطراز، انتقلنا في العالم الحديث جاثمين في القرب على وسائد في غرفة كبيرة مزخرفة.

كانت السينما هناك على قماشة عند طرف واحد، تعرض لنا الحياة في تريم تماماً كالتي رأيناها. جاء السلطانان يمشيان (على مهل) للداخل. لديهما ما يشبه أسلوب لا مبالاة السلطان في المشي، تنتج دون شك من عادة السير في المواكب التي لا تعد ولا تُحصى؛ ولكن قام كل شخص بتحيتها بصيحات من الضحك، حيث أننا كنا قد رأيناها للتوّ يذهبان عبر الحركات ذاتها، في فيلم بطيء. ولقد ضحكا أيضاً؛ إنهما سلطانان فيلسوفان ويتركان لعائلة آل الكاف مشقة الحكومة، وجلسا بلطف إلى جنبنا وشاركا في التعليق الجاري حول ما رأينا.

كان شقيق حسن هنا في زيارة من مكة، وهو فتى وسيم ذكي يشبه تلميذاً إنكليزياً، ومشغّل لاسلكي للملك ابن سعود، واعتنى مع الشباب من آل الكاف بآلة السينما، واختلط الرجال الشبان من جاوة Java، والزائر من مكة، والعبيد الأثيوبيون، جميعهم بسهولة ولطف؛ ولم أر أبداً رداء طبع في أي تجمع في حضرموت. شاهدنا صور الوادي ومن ثم عدنا إلى حدائق ومنازل العائلة في سنغافورة، بمروج بمظهر إنكليزي حيث ركض الأطفال مرتدين عباءات منشأة ومكشكشة من أوروبا. وعندما أشعلت الأضواء مرة أخرى، كانت سلمى الصّغيرة ذات العشرة أعوام نائمة بين ذراعي والدها، بثيابها الخضراء وقلاداتها الذهبية الخمسة. عدنا في العالم العربي ونادينا في الظلام خارج بيتنا. «يا عبد يا عبد» ليفتح لنا البوابة. قادني إلى غرفتي شخص نشيط حافي القدمين داكن البشرة معه مصباح عبر الطّرقات والدّرجات من أمام الدّيوان بصنادل مختلطة عند عتبة وقرب جلود ماعز معلقة في تيار الهواء للحفاظ على برودتها عبر الفناء العالي المفتوح في ضوء القمر.

كنت مشغولة في الصّباح التّالي لأنني لم أنوي المغادرة إلى أن كانت أفلامي المظهِرة جافة بما يكفي لتوضيها. كنت لحسن الحظ قادرة على تظهير كل ما كان لدي تقريباً من أفلام، بوجود الحوض وثرموس مياه الشّرب الباردة، وأصبح حسن في هذا الوقت خبيراً جداً، حيث استطعت ترك كل شيء في يديه باستثناء قراءة ميزان الحرارة.

بينما كانت لفافات الأفلام الصّغيرة معلقة لتجف، قمت بزيارة سريعة للمدرسة، لا للمدرسة الدّينية (الرّباط)، بل مدرسة حديثة لصبيان آل الكاف الصّغار. كان قد تم صنع مقاعد جديدة لهم وهي دون شك جاهزة للاستخدام الآن، ولكنني رأيتهم لا يزالون يجلسون في صفوف على الأرض بينما وقف ثلاثة رجال عقلاء مقابلهم يخبرونهم. يحصل هذا مرة في الأسبوع، أخبرني حسن عندما سألته: بأنّ التّعليم «يستمرّ طوال حياتهم». وفي تلك الطّروف يمكن اغتفار الحاجة للتّركيز، لأنّ لديهم العديد من السّنوات أمامهم والتي فيها سوف يعوّضونها. إنّ تّريم كما أظنّ كانت تثبت مكانتها المرموقة كمدينة العلم. نظر الرّجال الحكماء الثلاثة إليّ باستنكار؛ وقد

ضعف هذا تدريجياً عندما اكتشفوا بأنني علمت أشياء كهذه من الاختلاف بين «الرجل الذي يعمل» و«الرجل الذي يُعمل له»، ويشكلون شيئاً أساسياً بالتساوي في الحياة والقواعد. ولكن كان وقتنا قصيراً. وتم اختيار ضحية صغيرة نهض وطلب منه أن يُخبرنا من أين تأتي الكلمات.

قال: «من أيننا آدم، الذي أخبرها لأولاده».

سألتُ الرَّجل الحكيم الأقرب: «هل تظن أنها كانت من أيننا آدم؟ في بلدنا يقول البعض بأنَّ معظم الكلمات جاءت من أمنا حواء».

لاح طيف مثقف من ابتسامة على شفثيه. أسفت لأن عليّ أن أذهب لأنه سرعان ما أصبح أنسانياً. وعندما وصلنا لفناءنا، كان هناك ثلاث سيارات جاهزة ممثلة إلى أقصاها، لأن سيّد أبا بكر كان ينتقل أيضاً لبلدته المفضلة سيئون ورُبط الطّباخ والخدم وكل أشياء المطبخ ونبتة أثيرة على الظّهر تحت مظلة من ذاتها، منضّمة معاً في عملية الرّحيل.

كان الطّباخ هندياً، وقد كُفل من قبل حُسن وفادة آل الكاف لجعل المسافرين البريطانيين يشعرون أنهم في وطنهم وذلك بأطباقه الخاصة المألوفة. كان قد حضر إلى تريم مع أبناء من قدمومي، ولاحظت كم تحمّلنا من مسؤولية معاً مع إمبراطوريتنا، عندما سمحنا لأشياء مثل صلصات البَلَم (الأنشوفة) وپودينغ التايوكا لتنتشر دون سيطرة عبر قارات العالم. وفيما لو أنّ دوپليكس Dupleix انتصر وأخفق كلايف Clive، فيمكن لشخص أن يأكل عجة بيض لذيذة في أفريقيا وآسيا اليوم. فإذا كان المبشّرون قد سمحوا للطّيبة أن تفيض من دعواتهم في صنوف الطّبخ لكان أفضل لخلاص الإنسان العادي على المدى الطّويل، الذي كما يمكن أن تقول آية زوجة، يميل للخطيئة بسبب عسر الهضم ونادراً ما أنقذته التقوى منه.

كانت هذه الأفكار قد قاطعتها ارتباطات بتنوءات عدة قنوات مياه بارزة ونحن نقلب عائدين في رحلتنا إلى سيئون. ولمع الوادي مرة أخرى في الحرّ، وتوسّع ونحن

نلتف الانحناء خلف الطريق إلى الشَّحر. اجتزنا واحدة من سيارتي الأجرة الآتية من تَريم وقد تعطلت في قاع التَّهر مع «موسيقى العرفة 'Urfa» وفي داخلها أربع سيدات وثلاثة طبول عائدين من الرِّفَّاف. لم نقف لنلقي نظرة على المواقع القديمة، حيث أني أردت أن أدخر قوتي لَشَبوة: ولكنني خرجت بين بعض البدو المخيمين في الحرِّ حول السَّقاية، كانت أمتعتهم في الشَّمس وجمالهم ترعى، لا يلقون اهتماماً زائداً لأيِّ شخص أو أي شيء. لقد كانوا الكثيري من قبيلة السَّلطان علي، وتم التقاط صورتي، وراقب حَسَن بآلم عندما احتشدوا حولي وقد جعلتُهم ينظرون عبر تلسكوبي إلى المنظر.

كنا عند السَّاعة الواحدة عائدين بين الجدران المغبرة وحقول الدُّرة ذات الرِّائحة الجميلة، وصعدنا الدَّرجات البيضاء لدارة عز الدِّين مع شعور العودة إلى الوطن، وهي مشمسة وهادئة. واستطعت أن أدرك حب سيد أبو بكر لسيئون. لا بد أنها راحة له هنا، حيث يكون بعيداً عن الشَّعور بعدم السَّلام والغنى؛ ورؤية البيوت البنية والبيضاء، وجميع طرقات الخيالات الجميلة، دون أية تدخلات أجنبية.

جاء السَّلطان للتَّو، ماشياً بخفِّيه، وجلس وراح يتلو أشعاراً عربية في عدم ضرورة الثَّروات. وكان جميع الحضور مسرورين.

في برودة المساء اندفعت غيمة مثل سيف، مع نصف شعاع غروب الشَّمس خلف حافة الجُرف، حيث لا يرى الغروب بكامله من سيئون، زرت نساء أبي بكر، وكن يستمعن لموسيقا العرفة 'Urfa، التي كنا قد تركناها في قاع التَّهر. جلست الموسيقىات الأربعة مع طولهن متصالبات الأرجل عند الجدار، كانت واحدة منهن شابة واثنتان في منتصف العمر، وواحدة مسنَّة. كن ذوات أوجه خشنة وقاسية، لأنها ليست مهنة محترمة ولا يظن بهنَّ خيراً. يُقال بأن أحد ملوك القرون الوسطى في اليمن قد سمَّ نفسه لما أخذت مدينته من قِبَل الأعداء، وذلك عندما أجبر المحتلون محظياته على الرِّقص والغناء جهاراً على الجدار.

كانت الموسيقى بدائية مع إيقاع منحدر منخفض، مثل شلال الماء. غنَّت النِّسوة

في أدوار، متابعات القصّة من واحدة لأخرى، وكُنّ يضربن على ثلاثة طبول صغيرة بحركة عرضية على الطبل الأكبر. استمعتُ مفتونة، كشخص يستمع لتكسر الأمواج.

كان محرق البخور يمرّر بشكل مستدير ويُحمل للحظة إلى صدرنا ليعطر الثوب والشعر. بالإضافة إلى حبّات قهوة محمّصة، على بساط من القش لتفوح رائحته ويمرّر. وعندما جلسنا هناك لمدة قصيرة تم إحضار ثوبين جميلين بحزام فضي، وجوهرة هلالية فضية للعنق، هدية لي من زوجة السيّد، التي علّمت بأني أحببت هذه الأشياء.

وعندما كنا نبدى إعجابنا بها، جاءت الشريفة Sherifa المتعلّمة أيضاً، لتقول وداعاً، مع عبارة على شفيتها قبل أن تصل إلى عتبة الباب. كانت تجعيداتها الجانبية جذابة كما كانت دوماً عندما ظهرت بثوبها الأخضر وخمارها الأسود السّميك. كانت أناملها ملفتة للنظر على نحور رائع كما كانت من قبل كي لا تدع أي شيء بسيط من الحكمة يتشتت. وتلاشت بعيداً تحت تأثيرها الشّديد ثرثرات نساءنا اليافعات وخمدت. بدأت مباشرة بفضائل المعرفة الواسعة، وتابعت إلى أحرف الأبجدية والتي هي مقسمة إلى نار وماء وهواء. قالت: «أحرف نارية، ستحفظ الإنسان دافئاً إذا حدث أن عانى من البرد». وعلّقت «هذا هو العلم». ولم أعط وقتاً كافياً لأوافق، أو لأسأل ماهي الأحرف التي تمتلك تلك الخاصية المفيدة جداً، لأنها كانت قد أخبرتنا من قبل بأن الأنواع الثلاثة ممّا ينبغي تعلّمه هي: الدّين والطّب والنجوم. «وبالنسبة للغات أيضاً؛ فيوجد ألفان وسبعمئة وستون لغة في العالم». ولم تستطع البقاء، وقالت إنّ جمع نسائها ينتظر، وقد جاءت فقط بناء على لطف أخوي لتتمنّي لي رحلة موفقة. لفّت نفسها مرة أخرى وغادرتنا، مفعمات بالإعجاب ولكن عاجزات عن الكلام.

عندما وصلتُ إلى دارة عز الدّين، كانت ثلاث سيدات أخريات ينتظرن هناك من قصر السلطان. كان حديثنا هنا في مستويات فكرية أقل، حيث أنه كان لديهن جميع أشياء للنظر إليها ورشقات من خليط السّعال لتجربيهما؛ ووقفن برعب أمام طبق صابونتي لأنه لا يوجد أحد في حضرموت، بين النّاس ذوي الطّراز القديم، من يمكن

أن يفكر بالصّابونة في الأيام الحادية والأربعين الأولى بعد الحصبة.

سألن: «ألا تقول الرّائحة أي شيء لك؟ بالنسبة لنا إذا شممت أية رائحة عندما تكونين مصابة بالحصبة، فستموتين في ذلك اليوم فوراً. تندفع الرّائحة إلى رأسك، وبسبب جفاف الهواء فإنها تنتشر وتنفجر».

«هل هذا هو سبب انتزاع سيدة لطفلها بعيداً عني عندما اقتربتُ وصرخت: «الرائحة، الرّائحة؟»».

أكدن لي، بشكل فظّ أظنّ: «نعم بالتأكيد، وغالباً ما نسدّ مناخر الأطفال لحمياتهم من الخطر».

تركّني، مثل فراشات زرقاء يرفرفن أسفل الدّرجات البيضاء.

وفي الصّباح التّالي جاء شقيق السيّد أبو بكر السّلطان، وابن أخيه لتوديعي. كنت أسفة لتركهم كلهم، جلس علي البربري مع حسن مستعداً في سيارة من مقعدين وكان كبيراً جداً على المقعد الخلفي، وكان مظهره أكثر ابتهاجاً من العادة، نتيجة المجموعة من التّظاهرات القائمة مع قبعة ملفّنة للانتباه مع شرّابات كنت اشتريتها لتوّي من زوجة البستاني، وصادرها من أجل الظّل. كانت السّاعة التاسعة صباحاً، وكنا ذاهبين عبر البلدات الصّغيرة من الجانب الجنوبي إلى مسكننا المؤقت في شبّام، ومن هناك في اليوم التّالي بالسيارة إلى وادي عمّد - وهي رحلة اختبارية لمدة ثلاثة أيام لرؤية كيف هي قوتي قبل المحاولة إلى بلوغ شُبوة.



الفصل الحادي والعشرون

في وادي عَمَد

«جماعات المسافرين المرهقة في مزارات مظلمة

وسط رمال جزيرة العرب»

(وُردزُورث)

غادرت سيئون في الثاني والعشرين من فبراير، كان الربيع قد بدأ لتوّه يجعل أيامه تمنح الشعور الدّفء: وكانت الحرارة 88 في الظل في فترة الظهيرة.

كانت الرّقع من اللون الأصفر قد انتشرت في حقول الدُّرة، ورجال هنا وهناك يجثمون بمنجل من أجل حصادهم. وبدأ المنجل أداةً من نوع رديء، سكين معقوفة مع إنشآت قليلة من حد منشار في وسطها، وعمل الرجال في صفوف من ثلاثة أو أربعة، جالسين على كعوب أرجلهم. وتركوا بضع إنشآت من بقايا الزّرع بعد الحصد ليتم قلعها عند الجفاف، ومُزجت مع الطّين من أجل الطّوب. وكانت النساء أيضاً يزرعن البصل؛ وظهرن مثل صفوف من السّاحرات، بالتّيجان المستدقة لقبعاتهن على جميع الزّوايا وغطيت وجوههن بالأسود مع شق لوزي للعين في الأسفل. كان رجل في الحقل يحرق بثورين، الوحيدين الذين شاهدتهم - فهذا العمل فإنه يتم غالباً باليد. كان جانب الوادي الجنوبي وبلداته خصبة وتعيش في سلام.

هرول الفلاحون والمحصول على حمير ذهاباً وإياباً. وتفوح على المرء بين الحين

والآخر رائحة جميلة من الدُّرة. وقد بنيت بيوت مؤخراً في اللون الأخضر المغبر من بساتين النّخيل، مكشوفة ومفتوحة. ولا تزال ساحة القلعة أسفل جروف تلك البلدات الصّغيرة، التي مضى الآن خمس سنوات من السّلام فيها. ولقد قام كل من سيد أبو بكر والسّلطان علي صاحب سيئون باسئرائهم بسبعة أو ثمانية آلاف طالر، وحصلت هذه الضّاحية الحدائقية على جو من الأمن. واستطاع الرّجال الآن بناء منازل بأمان بين أشجار نخيلهم في السّهل.

لا تزال البلدات ذاتها، مثل غُرّة تعرض علامات الحروب - فمنازلها خاوية حيث بدأت ثقب الرّمي في الطّابق الثّاني، كل منزل حصّن لنفسه: وامتد من وسطها طريق مغطى، يغور في الأرض وحُجب بمجموعات من الأقواس. يسمح للسّكان الوصول إلى بساتين نخيلهم في السّهل، محميين من نار العدو. وحفر أعداء غُرّة الشّرقين خندقاً إلى الدّاخل قرب منازلهم بمئتي يارد، وبنوا حصناً صغيراً حيث حُفظ عشرة جنود لإزعاج البلدة بالغارات. كان الجنود ينزلون في النّهار، ولكن يضاف إليهم جنود أو يتغيرون عند الليل. واستمرّت الحرب تحت هذه الطّروف عشر سنوات.

لم نتوقف عند غُرّة ولكننا اجتزنا أسفل منها، والتفنا إلى وادي بن علي، حيث قصور عُقّدة بيضاء مقابل الجُروف، فوق قمم النّخيل التي تشبه النّافورة. كنت في هذا الوقت أقرأ رواية «موت آرثر» Morte d'Arthur ووجدتها متوافقة - بشكل غريب - مع الحياة في الوادي؛ تغيّراتها الفجائية، وروعة قلاعها، وحالة الشّك المنتشرة للأشياء من حولهم، الشّعور المبهج بأن أيّ شيء يمكن أن يحدث في أي مكان ولا يكون مفاجئاً. ويأخذ معدل السّكان في حضرموت الكثير من وجهة النّظر نفسها في الحياة كما فعل فرسان مالوري Malory في مسيرات كورنوال Cornwall أو ويلز Wales، فلدى الغريب تحت شجرة ذات الإمكانات النّشطة - موضوع ملائم إما لقتال أو لوليمة. ولا بدّ أن أفكار القرن الخامس عشر من النّقاهاة في إنكلترا هي نفسها إلى حد كبير مثل تلك التي في جزيرة العرب الآن، حيث تتوقع أن تنهض من فراشك مستعداً لأي شيء، مثل ما كان سير تريسترام Sir Taristrum، الذي كان يستلقي مريضاً، فقام أصدقائه بالتحرّش به ليتبارز معهم.

وعُقْدة الآن بفضل سلام خمس سنوات، هي مكان حداثق. ينمو التّخيل غير محاط بسور، في تَرْف مُدْغِل وفتي. علّقت سيارتنا بالقرب بالرّمال التّاعمة، ووقفنا تحت القبب البيضاء للقصر الذي بناه قيّم على فندق غني من جاوة Java، يقف وحيداً وغير محمي إلا بجدرانه الطّينية الخاصة.

احتشد السّكان في الخارج لتحيتنا، وهم يدعوننا للبقاء. ولكنني كنت متلهفة للوصول إلى شِباب، التي هي الآن مرثية في المكان المفتوح لالتقاء الوديان. كنا في اليوم التّالي ذاهبين لرؤية بدو شَبْوة في قصر القطن، وكنت أعلم بأن عليّ تحمل بعض الصّعوبات في ذلك مع الحاكم في شِباب.

واخترقنا ليس عاجلاً في الواقع، الحدّ المرصوف بالحصى من تلك البلدة وتوقفنا لننظر الحاكم في ظل ما يشبه البرج من منازلها، عندما بدأت الصّعوبة، قفز بدوي صغير، رشيق مثل جردز، من المكان حيث تمّدّد وسط بعض من حمولات جمل: أمسك بيدي وصافحني.

قال: «ثلاثة أيام، وأنا أنتظرك هنا في الغبار. وقد أرسلني سلطان القطن. لأننا نحن الذين سنأخذك إلى شَبْوة».

تقدّم الحاكم في تلك اللحظة، ملتفّاً بأجواخ مثل مركب تحت أشرعتها، حاملاً في مقدمة حضوره المهيب عصاه ذات الرّأس الفضي. وطرّد البدوي الصّغير بعيداً.

قال لي: «لا تفكري بأي شيء، يتوجب علينا إرسالك مع أفضل الأشخاص الموجودين. لذا عليك ألاّ تخافي».

لم يبدُ مكان السّوق المحتشد المكان الأكثر مناسبة لحلّ تلك المعضلة. استرجعت البدوي الصّغير الذي كان ينظر إلى كل فرد من فريقنا بالتّعاقب بأعين سريعة ومرتبكة، وقلت له أن يحيّي السّلطان، ويخبره بأنه من المفترض أن أكون في القطن في اليوم التّالي لتنظيم الأمور. ألحّ حسن علي بلطف للعودة إلى السّيارة وقد ملأته روح القتال بشكل واضح - لأنه كره شِباب وجميع سكانها - وعندما أخذنا أماكننا، دون أن نتورّط

فعلياً بخصومة، اجتزنا جميعنا إلى بنغل خارج البلدة، حيث سيكون سكني.

لقد كان مكاناً ساحراً، خارجاً في انفتاح الوادي، على الرغم من ارتفاع جدار الجُرف فوقه في الجنوب. وقف وحده، مطوّقاً بحديقتين مسورتين، من الرّمان والتّخيل، إلى جانب بركة من ماء نقي بنيت في صف أعمدة. فتحت غرفة الطّعام هناك بمصاريع خضراء اللون مقابل فروع التّخلة المندفعة. وعلى أية حال فقد سعدنا بتقدم للأعلى إلى غرفة كبيرة ومهوّاة بسبع نوافذ، وشرفة مفتوحة في كل جانب لظل الصّباح أو المساء. كان الطّراز أوروبياً تقريباً، مطلياً بالألوان زاهية، ومُلطّفاً بطلاء كلسي أبيض وأشعة الشّمس. إنه البيت الذي استقرّ فيه سلاح الجوّ الملكي R.A.F. عندما نزلوا في شبّام، وقد استضيفوا بحسن الوفادة؛ وكان قد فُرش بعناية بكراسي مخملية بلون أخضر وبالعديد من منفضات السّجائر.

دخلنا جميعنا وجلسنا عندما تم العثور هنا على المفتاح، مع يسلم الخادم الذي كان قد اختفى والمفتاح في حزامه: مضيفاي الاثنان، سعيد وحسين العجم؛ والحاكم، الذي تشبه لحيته الحمراء جداً هالة قد انزلت بشكل عرضي؛ وباعبيد الصّغير موظف وكالة A.B. وهو دود ومتلّهف لإسعاد كل شخص، وسيّدان من وادي العمّد علوي وعلي اللذان كانا في طريقهم إلى سيئون، ولكن لدى سماعهما عن نيّتي لزيارة منطقتهما، فقد غيّرّا كل خططهما فوراً بحُسن ضيافة حضرموت المعتادة، وذلك ليعودا معي ويستضيفاني. وعندما كنا قد استقرّينا إلى حدّ ما وبعد فاصل من لطف غير محدود، أتينا إلى موضوع شُبوة الدّقيق.

كان الحاكم خائفاً بأنه لو سمح لي بالذهاب تحت الرّعاية من سلطان القطن، فيمكن أن يُلام في المُكّلا. ولقد كان أحد أفراد عوائل الخدم في الأسرة الملكية هناك - ووفقاً لعُرف جنوبي جزيرة العرب، والتي يعدّ الكثير من الوزراء المشهورين بين عبيدها - فقد أصبح حاكماً قبل سنة خلت، عندما استقال سلطان القطن. ولا يزال علي سلطان القطن الرّجل الأكثر سلطة في أعالي حضرموت، وأخبرني حسنّ بأنه استقال بسبب أن اثنين من جنوده قُتلوا من قبل بدو الجابر عند بوابة شبّام، ولم يُسمح له أن يحضر

جنوداً وأسلحة لمعاقبتهم كما تمنى أن يفعل، وقد تم العمل من قبل حكومته للتخلص منهم بدفع المال.

والجابر أشخاص متمردون، قتلوا رجلاً وأخذوا جملين من قافلة شَبْوة خلال فترة وجودي في الوادي. وكان سلطان القطن محترماً في بلاده وما خلفها، قادراً على جعل اسم القعيطي محترماً في شِبابم - وهو شيء ممتاز على أية حال، ولكن القليل من الغرباء من استطاع أن يحققه فعلياً بين القبائل المحافظة. وأما فيما يخصني، فقد كنت قد توصلت تماماً إلى قرار بألا أغامر داخل الأراضي الحدودية الغربية دون دعم من أحدٍ ما يحمل اسمه سلطة خلف الحدود من شِبابم. وبمعزل عن هذا، فقد أحببت السلطان الذي كان قد سبق لي أن ربطتُ نفسي به، ولقد شرحت التَّقطين الأخيرتين بالحزم اللازم.

قال باعُييد متحمساً لاسترضائي: «لا يؤخذ هذا بالحسبان، سوف نرسل رسالة إلى السلطان لنشرح له، وعندما تأتي القافلة، سوف يرسلك الحاكم من هنا».

قلت: «أنا آسفة، كان من الممكن أن يحدث هذا من قبل، ولكنه الآن متأخر جداً، فقد أعطيت كلمتي لسلطان القطن. ولا يمكن لي أن أغيرها حتى لملك إنكلترا نفسه. تُعتبر الكلمة التي أعطيتها نهائية».

تركت هذه الآراء صمتاً موجعاً. وجلست حلقة صغيرة، تنظر إلى الأرض، غير معربين عن رأيهم في كلا الاتجاهين. إن استحالة التعامل مع عناد النساء بالحجة المجردة كان واضحاً للجميع، ونهض الحاكم بجهد وهو يتنهد. ولم يتمكن من أن يتولى مسؤوليتي، قال إنه يمكن أن يكتب ويقول هذا للحكومة في المُكَلَّا، ويمكن أن يطلب مني أن أكتب أيضاً، وأخبرهم بأنني فعلت هذا من قراري الفردي وعكس نصيحته.

بدا لي هذا مقبولاً. غادر الحاكم؛ وغادرت الحلقة الصغيرة أيضاً، مهزومين نوعاً ما. وعندما كان الجميع قد ذهب فُتح الباب وظهر مجدداً واحد منهم مع تعبير ودي جداً على وجهه.

قال: «لقد كنتِ على حق، إن السلطان هو الرّجل الأفضل في هذا المكان. إنه صديق لنا. وفيما يتعلق بالحاكم - الرّجل المسكين - فلا أحد يستمع له، فهو لا يعرف بالتّاريخ».

لذا فقد شعرت بالرّضى، ولو على نحو غير متوقع.

في الصّباح الثّاني عند الثّامنة والرّبع، بدأنا رحلتنا إلى حُريضة في وادي عَمْد أنا وحسن وعلي البربري، والسّيّدان في المقعد الخلفي.

كان السّيّدان الرّقيقين الأكثر جاذبية اللذين يتمنّاهما المرء. وقد صنعا تبايناً مضحكاً عندما جلسا في المقعد الخلفي: علوي سمين، حسن المحيّا وطيب، ودود وموثوق للوهلة الأولى، بينما كان صديقه بعمامة صفراء، فوق عين واحدة ووجه عربي معقوف، مستعدّ لأية نكتة أو أي مغامرة دون تحمّل أية مسؤولية، وكما قال لي هو بنفسه، بأنّه كان بمنزلة بين الشّيخ والبدوي. وقد صاحبا كلّاً من فان دن مولن M. Van den Meulen وفون فيسمان Von Wissmann في زيارتهما لوادي عَمْد وكانا لا يزالان مشبعين بكل الذي كان قد حصل لهما في ذلك الوقت: كان علي البدوي، مليئاً بهذه الذكريات، وبالنسبة لسيد علوي فقد كان لديه ذكريات أخرى، من ثمانية أشهر قضّاها في إنكلترا، وتحدّث ونحن نتجه إلى الوادي الغربي عن المتع في بادينغتون Paddington وفي ووكينغ Woking.

اجتزنا القطن وتركنا رسالة بأننا يمكن أن نقف في طريق العودة لننظم اليوم إلى شَبُوة. وكانت قافلة قادمة من صنعاء في اليمن تسير في الوادي بشاقل، مع حمير صغيرة تثب غير محمّلة قرب الجمال الضّخمة. كان الرّجال طوال القامة، لا يشبهون بدونا من الجُول، ملتحين ومعقوفي الأنف ودودين. وقالوا على نحو غير واضح بأنهم جاؤوا من اتجاه قبلة الصّلاة «قبلي»، كما يدعون الشّمال الغربي خلف المكان الذي تقع فيه مكة. ولقد فرقوا أصابعهم نحو مسافاتنا التي تغطيها الشّمس، بينما انتظرت قافلتهنم التي تحوي مئة جمل أو أكثر، والمحمّلة بأكياس من الدّخن، وقد رفعت رؤوسها البطيئة ورمشت أعينها في الشّمس. وتحدّثت عن السّلام الذي كان

منتشراً الآن على طول تلك الحدود الغربية، التي تصل إلى شِباب، «ضَفّة» حضرموت، كما سمّاها حسن. وتريّث جماعة الرّجال الطّوال الذين تحدّثوا وجمعوا الأخبار، كي يشاهدونا نبدأ - يحيط بهم كل الفراغ في صحاريهم.

انعطفنا الآن نحو الجنوب، على طول طريق الوادي الذي جئنا منه قبل أسبوعين - كانت الأراضي الرّأسيّة معتمّة في غشاوات من شمس أماننا، ولوّحنا لجدران ديار البكري Dhiar al-Buqri حيث يتسكّع العبيد في مراقبتهم، ليظهر بأنه لم يكن لدينا وقت للبقاء؛ ومن ثمّ انعطفنا غرباً من طريق دَوَعَن في وادي عَمْد.

يأتي الشّخص هنا، وبعد امتداد هائل في أرض قاحلة، مرة أخرى إلى قرى وواحات، ولكن من نوعية صحراوية أكثر من الوادي الكبير، وقد نبتت أشجار العلب أكثر من النّخيل. وهذا في الواقع قرب البداية من تلك البلدة التي يصفها المقرزي، حيث يبذرون الحبوب و«يعتمدون على المطر»، وحيث يوجد «كثير جداً من شجر التّبَق (العلب) حيث تنتج شجرة واحدة حمل خمسة جمال وتباع بعشر مثاقيل من الذهب، وإذا كان هناك نقص في المطر فإن الأشجار تذبل ولا يبقى بذار...». ويضيف المقرزي، بأنّ لدى هؤلاء الأشخاص القوة الفائقة لتحويل أنفسهم إلى ذئاب.

وفي الحقيقة قد نُسبت إلى الحضارمة قوى سحرية، ويطيّر الرّجال من بينهم ليلاً في الهواء من حضرموت ويتحولون إلى هيئة الطّيور مثل الرّخمة والحدأة إلى أن يأتوا إلى الهند؛ ولذلك فيمكن لقدراتهم في السّفر أن تكون موروثة في المحصّلة. وتقع البلدة التي وصفها المقرزي على هذا النّحو شمال غرب عَمْد ما بين الصّيعر Se'ar وتمتدّ دون الأحقاف (في الرّمال الصّحراوية الجنوبيّة) في الخلف أراضٍ «لا توجد فيها مياه أبداً»، ولكن إذا أمطرت فهناك حصاد كثير: «ثم تهبط إليها قبيلة وتبقى هناك مع جمالها ونسائها لمدة أربعة أشهر ولا تحتاج لمياه... ولكنها تعيش على الحليب».

لا يشبه وادي عَمْد أيّ شيء من هذا؛ فلقد بُعثر في قرى صغيرة ومزارع: ولكن فيه القرب من الصّحراء، مع نظافة قاحلة وجفاف. إنه وادي البدو، قسّم بين قبيلتي نهد والجعدة تحت سلطة سادة السّادة آل العَطّاس في بلدتهم في حُرَيْضة. ولا بدّ أنه كان

في الأيام الماضية أكثر كثافة سكانية من الآن، حيث عُرفت الحقول المخربة التالفة جنوب حُرَيْضة، ووفقاً لرواية ثانٍ من مولن M. Van den Meulen، بأنها الأكبر في حضرموت، ومقابل حُرَيْضة على درجة 18° من بوصلتي من منزل سيّد علوي تمتد عندل «البلدة الأولى في حضرموت». ولا بد أن الطريق العام للتجارة قد مرّ من هنا، في كلّ من الأزمنة القديمة وفي العصور الوسطى؛ ويمكن أن يكون وادي عمّد يستحق استقصاء بعناية أكثر. ولولا السّادة م. فانٍ من مولن M. Van den Meulen وفون فيسمان Von Wissmann والهَر هلفريتس Herr Helfritz لكنت اعتقدت أنها لم تتم زيارتها من قبل أوروبيين (حيث أن وصف فون فريده Von Wrede لهذا الجزء من رحلته كان غير أصيل بوضوح).

ترتّنا عند فتحة الوادي في ظلّ شجرة علب بين كُثبان رملية. أتت ثلاث راعيات يرتدين ثياباً سوداء بأحزمة فضية، عندما دعاهن سيّد علوي، لأننا كنا الآن في بلدة العطّاس، وكنّ يعرفنه. لقد كن فتيات شابات، لكن كلهن أرامل، فقد قتل أزواجهن في الحرب ما بين ديار البكري Dhiar al-Buqri والبلدة تحت الجُرف. أخبرني سيّد علوي بأن بلدتهن كانت الأجرأ من بين كل البلدات الصّغيرة المقاتلة، وكان سكّانها الآن يحفرون خنادق بنشاط هناك، وذلك لتكون جاهزة عند نهاية الهدنة التي تنتهي في غضون شهرين. وفي غضون ذلك سحبت الأرامل أوراقاً من شجر العلب بعصيهن الطويلة وقدّمن لنا الثّمار من سلال صغيرة مستديرة. نظرن إليّ، مهتمّات وخائفات، لأنهن لم يشاهدن أبداً امرأة أوروبية من قبل. لكنهن أتّين حالاً وجلسن إلى جانبنا، يتلمسن بأصابعهن بفضول النّسيج الذي صُنعت منه ملابسني.

قال سيّد علوي، وهو سعيد بشكل واضح لكونه عائداً بعد الكماليات الحضارية للوادي العظيم: «نحن هنا ديمقراطيون، ففي وادي حضرموت يتوجّب على الرّجل دفع خمسة آلاف طالر أو أكثر مهر الزّوجته، ولكن هنا في وادي عمّد فائنا عشر طالراً (ثمانية عشر شلناً) هو الحدّ الأقصى».

كانت الشّمس ترتفع وتميّنا أن نصل إلى حُرَيْضة قبل الظّهر. غادرنا الرّاعيات

وتابعنا غرباً، مستمرّين بين الانقراض الحجرية تحت الجُرف، الذي ينتأ هنا خارجاً مثل خرطوم في الوادي ويحوي عند قمته البئر القديم، بير غمدان، في الأسفل الذي تسلّقه فون فيسمان Von Wissmann ومرافقنا السيّد البدوي. ولقد أخبرني عنه إلى أن أربكتنا تباينات الطريق فوقفت المحادثة. استطاع علي البربري أن يجعل السيارة تقوم بأي شيء تقريباً، دخلنا القناة الجافة من نهر وأخذناها مثل موجة، وانحدرت في جانبها الأبعد بلدة حُريضة مقابل الجُرف عند الانعطاف من الوادي، محاطة بأمكن حجرية مفتوحة. وتمتدّ مقبرتها أمامها مع بعض القباب البيضاء، ومنزل جيد منحوت وأبيض اللون. ارتفعت مئذنتها باللون الأبيض برقة مقابل الجدار الصّخري، بينما امتدّت البلدة بنية اللون بينها، مقرّحة في ضوء الشّمس. وأرتنا قرونُ الوعل التي تزيّن أسطحها وهي منحنية مقابل السّماء بأننا هنا مرة أخرى في حضرموت قديمة الطّراز، بين تقاليد جزيرة العرب التي ما تزال مستمرة.



الفصل الثاني والعشرون

حُريضة في وادي عَمَد

«لن يمنع حرّاس سيّد مأرب موته، ولن تمنعه المعاقل التي تتحلّق حوله، سوف يتسلّق الموت إليه بعد نومه في أول الليل بواسطة سلّم كتّاني مجدول بإتقان». (Alqama، عَلَمَة)

لم يكن من المتوقع أن يتواجد السيّد علوي في منزله في طرف المدينة. أحيط بنا قدر كبير من الحفاوة والترّحيب، والسّجاد الذي لفّ في غيابه يجب أن يمدّ ثانية. أشغل نفسه بالتّفكير، حرصاً على راحتي، في كل ما يلزمني لاعتیاد العيش في مقاطعة پادینغتون Paddington وقد قام بذلك بكل طيبة قلبه. توفر الكثير من الفواكه المعلبة والحليب والبسكويت وأشياء كهذه، لا بدّ أن حضر موت من المستهلكين الرّئيسيين لها في العالم، أما بالنّسبة لكرم الضّیافة فحدّث ولا حرج. قبلت ضیافة السيّد في منزله بامتنان، وراقبته في جهده في التّدبير المنزلي، وكان يتوقّف بين الحين والآخر مبيناً كم أن النّساء عديّمات الفائدة، وغير قادرات على تقدير وفهم ما قد يحتاجه الأوروبيون.

لكن في الواقع كانت «جميلة» عوناً له. فقد استقدمت، وأتت لتعتني بي، مرتدية الزّي البدوي الأسود حاملّة مفتاحاً في حزامها - وهي امرأةٌ في منتصف العمر، تتمتع بعقل مستقل ووجه ساحر - وبفهم كبير كبير وبِعظام الوجنة البارزة التي يتميّز

بها الحضارمة غير المختلطين بالقادمين من جاوة Java. تجولت في المنزل حاسرة الرأس بحرية، وفي الحقيقة فقد كانت صديقة أكثر من كونها خادمة، وجزءاً لا يتجزأ من نسيج العائلة متماسك البنيان، مساندة وداعمة بهدوئها وطريقتها الخاصة، فلقد عدنا إلى البلد الإقطاعي بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

كانت هندسة دَوَعَن القديمة موجودة هنا أيضاً، فقد زُيِّنَت الأبواب بنوافذ علوية منقوشة بما يقارب السبع ياقات ومزاليجها معصوبة بسلسلة تمتد من طابق إلى آخر حتى أعلى المنزل. وكسيت الغرف بالمادة الحضرمية ذات اللون القاتم وحُفرت الأعمدة بنقوش حضرموت القديمة. اعتذر السيد علوي نيابة عنهم وجلس على الأرض ليشرف على نظافة الصّحون والملاعب التي وُضعت أمامي، وأمر بجلب ماء في جرّة فخار مضمّخة بالبخور لتطهيرها. «إننا نسم بالديمقراطية هنا في وادي عمَد»، قالها السيد علوي ثم أضاف: «إنها أفضل من الرّفاية في حضرموت»، معبراً عن فخره بواديه ولقد سرّ عندما أخبرته عن مدى إعجابي به، وعبر عن سروره بينما كان يفتح علبة صفيح أخرى.

نظراً إلى كل تلك الحفاوة والمودة التي أحطتُ بها، كان عليّ أن أكون في غاية السعادة، ولكن مرضي أخذ يزداد سوءاً. أوقفت جميلة سليل السيدات الوافدات وتركنتني بمفردي لأرتاح. أصابتنني أعراض مرضية شديدة لا توصف، فبحثت بين جميع الأمراض الموصوفة في أكثر الكتب قيمة وهو كتاب المجتمع الجغرافي الملكي فصل نصائح للمسافرين، متسائلة عن ماهية مرضي. لا بدّ أنها الملاريا، هذا ما خلصت إليه في نهاية المطاف. لم يذكر الكتاب شيئاً عن أعراض تضخم عضلة القلب، لا شيء غير الملاريا وأعراضها التي تطابقت بأدق جزئياتها مع ما شعرت به.

تميّت أن تكون الملاريا التي أصابتنني بسيطة، والتي كما ذكر الكتاب غير مميتة. نظرت إلى حجارة وادي عمَد الجرداء المشمسة الممتدة جنوباً، وإلى الطريق الموعّل في القدم والموصل إلى البحر، راودني الشك للمرة الأولى بقدرتي على مغادرة هذه الأرض الصحراوية المقفرة التي تحتجزني. بني المنزل في مكان مرتفع؛ جدران

الحصينة كانت بصورة مصغرة تحاكي جدار الصّخر القابع خلفها. أما المزاريب فقد تجمعت لتصبّ على طرف الهضبة السفلية، كان تحت كل نافذة هناك مزارب، وذلك مكنتني من التخلّص من مياه الحمام من غرفة الضيوف دون تكبّد عناء فتح مصاريع الباب.

بدا الوادي لا حياة فيه تحت أشعة شمس منتصف النهار المحرقة، يعمّه السّلام وبلا أيّ ظل. وصلنا في مثل هذا الوقت السّاعة الحادية عشرة إلى «خريضة» على بعد ثلاث ساعات تقريباً من شِباب. استلقيتُ محاولةً نيل قسط من الرّاحة؛ ثم شقّ الباب ببطء وأطلّ منه رأس صغير. تسلّل مخترقاً حراسة جميلة ساعياً لرؤيتي، وبدأ متردّداً كالواقف على بابٍ مفتوح لقفص أسد في حديقة الحيوان؛ رأيي مبتسمة، فجلس بجانبني.

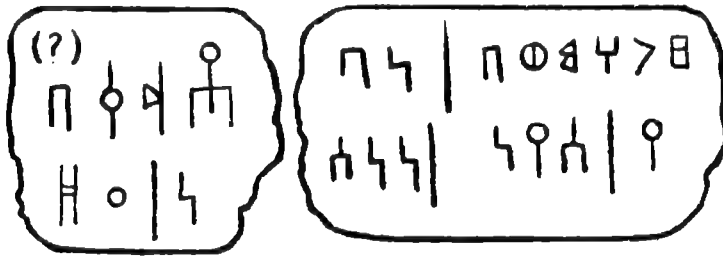
سألني: «من أين أتوا بك؟» فاتحاً يديه الصّغيرتين ليريني بوضوح كم أنا مميّزة في نظره.

كان اسمه جعفر، يبلغ من العمر سبعة أعوام كما يعتقد. ذهب إلى المدرسة وأدى دروسه وواجباته على لوح خشبي عوضاً عن الدّفتر. واهتم إن كنت نمت لأنه سمع أصواتاً. كانت جميلة الآن قد أذنت لسيدات الحريم بالدّخول. ارتدين ملابس محبّبة من نمط ملابس الحجريين، وشالات قطنية سوداء وحمراء حول رؤوسهن ابتعنّها من الباعة الهنود المتجوّلين. نشطت الحركة التّجارية في وادي عمّد بسبب اختفاء ظاهرة الباعة الجوّالين في بير علي ولأن رسوم الجمارك هناك أقل من تلك في المكّلا. لكن الأمن في الوادي العلوي ليس كما يجب، لذا فقد تحوّلت معظم التّجارة شرقاً لمنطقة دوعن وأيضاً إلى شِباب، عبر الجّول بدلاً من الوادي. إنه برهان إضافي آخر على بقاء طرق التّجارة المريحة والقديمة نفسها بشكل أساسي على الرّغم من تحوّلهما لأسباب أمنية مؤقتة.

لم تكن السّيدات مكثرثات بتلك الأمور. كان جُلّ همّهنّ - وهنّ اللاتي لم يركبن سيارةً بحياتهنّ كلها - السّماح لهنّ بنزّهة قصيرة فيها من أعلى الوادي نزولاً لآخره.

هذا ما وُعدن به عند وصول السيارة إلى حُرَيْضة، لكنَّ أحداً لم يفِ بذلك الوعد. طُلب مني أن أفعل ما بوسعي لتحقيق غايتهن، وأن أطلب ذلك من السيّد - الذي ابتسم لذلك بتسامح وسعة صدر. ولكن في اليوم الثاني وعند الطّلب ثانية، اكتشفتُ أن تلك الوعود ذهبت أدراج الرّيح. قال السيّد: «تفاهات، تلك الأمور التي تفكّر بها النّساء». تبادلّت نظرات خيبة الأمل مع النّسوة، ولكننا لم نتحدث عن الأمر أكثر لإدراكنا لمكانتنا عنده.

لقد كنت مريضةً للغاية لأذهب إلى حقل الآثار الذي زاره فون فيسمان Von Wissmann على بعد ميل أو أكثر من المدينة. لكنني تجوّلت عبر شوارع حُرَيْضة، كانت مساجدها الثلاث ومكبتها، وبيوتها البنيّة اللّون تتداعى على حواف الجُرف. المسجد الأقدم يقع في الأعلى مرتفعاً، وهو ذو مئذنةٍ مربعةٍ مشابهة لتلك التي تراها في الهجرين - ويوجد أسفل المئذنة، وليس بعيداً عن العتبة لوحان منقوشان باللّغة الحميريّة:



إنه لأمرٌ مزعج ألا نعرف ما يكفي كحالتنا هذه عن المخطوطة الحميريّة. فأصولها القديمة غير معروفة، على الرّغم من أن الأبجدية الأولى كانت واحدة من بين تلك الأصول. إن هذا الاكتشاف وحده بالغ الأهمية، بالفعل فالماضي في جنوب جزيرة العرب يستحق التّحرّي والاستكشاف. لكن الأيام الأخيرة للكتابة الحميريّة وقمع اللّغة العربيّة لها بقيت مجهولة حتى الآن. ثمّة كتابة من القرن الثّاني الميلادي (Nova Acta Eruditorum 1773) تذكر شخصاً باسم أوليوس كاستوراس M. Ulpus Castoras «الكتبي العربي» Librarianus Arabicus وتفيد في إثبات أن النّصوص

العربية كانت معروفة بشكل من الأشكال في هذا التاريخ المبكر. لكن الهمداني في كتابه، ظل يذكر الحميرية كلغة محكية في مناطق متعددة في القرن السادس عشر. ذكر كوندر Conder، في كتابه «العربية»، ودون إسناد، أنه «عند ظهور القرآن الكريم المكتوب بالحروف الكوفية، لم يكن باستطاعة قاطني اليمن قراءته». (ص 42)

أثبتت قصة قيسبة بن كلثوم حقيقة أن الكتابة الحميرية ظلت معروفة في حضرموت في أوائل الإسلام، وقيسبة هذا أسلم ولعب دوراً مهماً في فتح مصر. وبرواية كتاب «الفرج بعد السدة» (ج 1، ص 130) بإسناد ابن الكلبي، يرد كيف أن بني عقيل قبضوا على قيسبة في طريقه للحج قبل الإسلام (على الأغلب بجوار بيشة)، وساقوه أسيراً لديهم لمدة ثلاث سنوات، حتى ظن قومه أن الجن قد أهلكوه. لكنه نقش بسكينه رسالة باللغة الحميرية (المسند) على سرج جمل مسافر، ووصلت الرسالة بطريقة ما إلى قبيلته في حضرموت. وفي نهاية المطاف أفرج عنه بوساطة وفد من قبائل السكون وكندة.



قام عمّ المنسب الحالي (الزعيم الديني في المدينة) ببناء المسجد الحديث في حُرَيْضَة بصنعة جميلة متقنة، وبمساحة كبيرة مهيبة، وبساقية توزع الماء على صنادير متعددة، وعلى سقفه توجد المكتبة التي تحوي عشرة آلاف مجلد، حُفِظَت هذه المكتبة كما قالوا لي تحت القبة البيضاء. ولا يمكن إلا للتحرّي الدقيق والمطول أن يفصح عن أية معلومة ذات قيمة لم تكتشف بعد بين هذه المجلدات الفقهية. زرنا المكتبة، عند انصراف أطفال حُرَيْضَة من المدرسة الذين تجمّعوا خارجاً عند الباب. لقد كانوا في غاية الودّ والطف، كان جعفر من أصغرهم حجماً ولكنه كان مؤثراً فيهم بشدة، وبالتأكيد أخبرهم عن كوني إنسانة مثلهم ولكنهم أرادوا رؤيتي كلما سنحت لهم الفرصة بذلك. كان النزول للشارع بينهم يشبه النزول لحلبة المصارعة مع السيد البدوي بعصاه لا عباً دور المُجالد، وأنا في دور الشهيد المسيحي. لقد سعدنا بالعود لمنزلنا، الذي بدت الآن وبكل وضوح تعرّجات متاريسه وقرون الوعل المعقوفة تحت أشعة الشمس العصر.

ارتكبتُ غلطة في حُرِيضة وعليّ البقاء هناك مع المَنسَب، السيد محمّد بن سليم العَطّاس. رأينا بيته يعاد تنظيم هندسته في البلدة السفلى، بأيدي البنّائين الذين تدلّوا من منصّة بحذاء جدران الخارجية، يصنعون بأدواتهم نوافذ صغيرة حول السطح والتي من خلالها تنظر نساء الحريم إلى الشارع. لم يخبرني أحد أن سيد حُرِيضة كان هنا، حتى زارني كل من السيد محمّد وأخوه. كان هناك بعض الحساسية حول الأمر، ليس من جانبي ولكن من جانب مضيفي، فحسب رأيهم على الضيف الذهاب إلى شيخ العشيرة. لكن إجهادي كان سبباً كافياً للسّماح لي بالبقاء تلك الليلة حيث كنت. جلس الأخوان وتحدثا لمدة حول الكتب، كانا ودودين وذوا طلّة ساحرة حتى أنّ شكليهما يشبهان صورة فان ديك Van Dyck، كانا نيلين ولهما وجهان نحيلان وطويلان. إنهما من ارستقراطي حضر موت القدماء، سليلات السيد أحمد بن عيسى القادم من البصرة، وقبره هو ذاك الذي رأيناه في الطّريق إلى تريم. وعدتهما بتناول الغداء معهما في اليوم التالي، ثم غادرا وأرسلوا لي فراشاً من منزلهما لزيادة راحتي في الليل.

عند مغادرتهما أتت الحريم مرةً أخرى مع نساء أخريات من البلدة. جلبن دفاً لتسليتي بأنغام الموسيقى، وطلبن مني غناء بعض الأغنيات الإفرنجية. كل ما تمنّيته تلك الليلة الموت سريعاً وبمفردي إن أمكن وكان ذلك قدرتي - ولكن كوني المرأة الأوروبية الأولى التي رأيتها في حياتهن فكان عليّ الاستجابة بشكل ما لكل الجهد المبذول. غنّيتُ ما تذكّرت من أغاني الطّفولة والتي أثارت إعجاب السيدات، اللاتي تبادلن مواقفهن لرؤيتي من زوايا مختلفة.

فجأة تركت طفلةً صغيرةً أمّها ورمت بجسدها الصّغير في أحضاني؛ ارتدت تلك الطّفلة ملابس زاهية: ثوباً حريراً وتنورة خضراء من طراز الملابس في جاوة، رُبِطت بدبوس أمان؛ وحيث أننا لم نعتمد على لغة الكلمات في التّواصل بيننا، فقد خفّف تواصلنا مع ذلك المخلوق الحنون من بؤسي وتعاستي. كانت امرأةً مسنّة حاضرة أيضاً بشعرها الأصفر المحنّى؛ بدت طاعنة في السنّ، دون أسنان وبعيون زرقاء نادرة في ذلك البلد، فاتحة وضعيفة من جرّاء تقدّم العمر، امتلأتا بلطف ومحبة كبيرة عندما

أمسكت بيدي وحدّقت بي، لقد بادلتني الشّعور ذاته، كما تسلّل شعورٌ من الرّاحة إلى قلبي؛ ولكن بسبب مرضي الشّديد، وتحديق الجميع بي كأني مخلوق في حديقة الحيوان، جعلني هذا أشعر بوحدةٍ مريعة. دخل للتوّ السيّد علوي المضيف والقلق، وطرّد السيدات ودفوفهن بإشارةٍ من يده - ثم غادر لأنال أكبر قسط ممكن من الرّاحة في الفراش الذي قدّمه المنسّب في زاوية من زوايا الغرفة المزخرفة المليئة بالأعمدة.

لقد آتت راحتي في تلك الليلة أكلها، فاستيقظتُ صباح اليوم التّالي بشجاعة متجدّدة، ولكن مهزوزة، وبقناعة بأنّه في حال كان مرضي الملاريا، فعليّ البقاء ليوم أو يومين لأرتاح ثم لأعود إلى شِبابم قبل موعد الهجمة التّالية. شعرت أن ما فعلته هو الصّواب على الرّغم من رغبتني بالبقاء في حُرِيضة مدة أطول، وربما استعدت عافيتي بهوائها التّقي وبأشعة شمسها الدّافئة. قال السيّد علوي: «لا مرض هنا؛ فنحن إما أصحّاء أو موتى».

شربت حليب النّاقة ذا الرّغوة الذي قدّمه السيّد في كأس، ثم صعدت لسطح المنزل لأخذ اتجاه قرية عندل على البوصلة. لكل سيدة من نساء الحريم شقتها الخاصة بها والتي أقفلتها بمفتاح خشبي تحفظه في حزامها، وكل واحد من هذه الأوتاد الخشبية يناسب فتحة معينة، إنها مسألة وقت فقط للتّنقل من طابق لآخر للوصول لسطح المنزل الأبيض حيث قرون الوعل المعقوفة تطلّ باتجاه البلدة في الأسفل.

ها هو ذا السيّد علوي مرتدياً العباءة متجولاً تحت أشعة شمس الصّباح. أما الماعز فشكّلت خطوطاً بيضاء وسوداء في مسيرها نحو مراعيها؛ تلتف ذيولها الصّغيرة بمرح حول أردافها، وتخطو أرجلها ذوات الكواحل الأنيقة بثقة نحو المراعي الممتدة خلف الوادي، وامتدّ الوادي خلفها مفتوحاً ضحلاً وبنياً. كلما اتجهنا جنوباً تتضاءل سلطة السيّد، وعلى الرّغم من قوتها في القرى الصّغيرة، يحاول البدو تقويضها، بالإضافة إلى تقدّم الحزب المعادي للسيّد، جماعة الإرشاد من جاوة الذين ينشرون دعاية مغرضة ضد السيّد بين رجال القبائل.

هذا الموضوع هو الشّغل الشّاغل في وادي عمّد، ففي الطّريق إلى تريم سمعت

حول جماعة الإرشاد، عند جلوسي مع المنسب وأخيه بعد زيارة مدرستهما، أخبراني عن تاريخ عائلتهم. جدّهما هو الفقيه المقدّم محمد علي، والذي ينحدر مثل كل أسياد حضر موت من فقيه البصرة أحمد بن عيسى، الذي وضع القانون الذي يمنع الأسياد من حيازة السلاح. بعده بحوالي 300 عام مضت، أتى السيد عمر عبد الرحمن العطاس إلى خريضة وبنى فيها أول مسجد هناك - بنى حوالي الأربعة عشر مسجداً - وتوفي سنة 1074 هجرية الموافقة لعام 1663-1664 للميلاد، بعد التوصل لسبعة عشرة معاهدة سلام مع القبائل المحيطة. ومن السيد عمر وأبنائه الثلاثة تحدّر آل العطاس في خريضة. وأحدهم وهو علي بن حسن استقرّ في المشهد في العام 1172 هجري الموافق 1758-1759 ميلادي، ولا تزال الصّلات العائلية قائمة حتى الآن؛ وأصبح ابن آخر ملكاً في الملايو Malay.

بقيت هذه العائلة في وادي عمّد، وتجمّعت وُحِيت عبر التّقلبات العديدة التي مرّت بجميع الحضارات التي حواها الوادي. كذلك الحال في العصور الأوروبية المظلمة، عندما خبا نور التّعليم - نور ضعيف، ولكنه كافٍ ليضيء نوراً أكبر وذلك عند بزوغ النّهضة التي أرشدت العالم الحديث الآن. كم من البطولات التي لم تُعرف، وكم من الضّبر الذي لا يُحتمل والأمل الذي بُذل خلال تلك العصور الدّموية لحمل هذا الكثر التّادر من الحكمة!

لقد مللنا سماع علماء النّفس يكرّرون مراراً نظريتهم القائلة بأن الدّافع الجنسي هو المحرّك الأساسي في العالم. ولكنّ هناك دافعين أقوى من الشّهوة، وأعمق من الحب بين الرّجل المرأة، ومستقلان عنهما - إنه التّهم البشري للحقيقة والتّحرّر. في سبيل هذين الدّافعين، قدّمت تضحيات أعظم من تلك التي قدّمت في سبيل الحب للأشخاص؛ ولن يسود ضدهما شيء، فلقد أثبت الحب والحياة خفّتهما في الميزان؛ وأن المخلوق الإنساني جاهز دائماً ليدحض فكرة المذهب الواقعي وإحصاءاته، وليضحّي بكل ما يملك في سبيل فكرة مجرّدة من الحكمة أو الحرّية، غير الرّابحة في كل مقياس مادي.

ماهي المحاضرات الشعبية والأوامر الإلزامية والمعتقد الذي يتعلّمه المرء إن كان باستطاعته القراءة والكتابة، ننسى في بعض الأحيان في غمرة المحاضرات العامة والإرشادات الجبرية والمعتقدات التي نتلقاها، وجود هذا التّهم في أرواحنا. ولكن في وادي عمّد يصعب إرضاء هذا التّهم، فهنا إدراك حاضره أسهل، ولهذا السّبب لم يتفاجأ السيّدان برغبتني في السّفر من أوروبا لحضرموت للسّعي وراء علمهم القديم. كانا ينتظراني عند العتبة، واضعين الشّال الصّوفي على كتفيهما، مرتدين عباءتيهما البيضاوين النّاصعتين. قاداني عبر درج جامعهم إلى المكان الذي ترقد فيه بسلام عشرة آلاف مجلد تحت القبة البيضاء. قال السيّدان: «كان عليك القدوم لهذا المكان منذ أشهر، للبحث والدّراسة».

كان أطفال حُرِيضة في المدرسة بالغرفة المجاورة، تواجد حوالي أربعين طالباً من أصل ثمانين. جلسوا على حُصِر في صفوف منتظمة. إنهم بدو يتمتعون بروح عالية ويعيون أكثر بريقاً وسلوك أقلّ خضوعاً من أمثالهم في مدارس المُكَلّا. انعكست أشعة الشّمس عليهم وعلى السّبورة السّوداء في نهاية الغرفة. أعطى شقيق السيّد محمّد، الذي يعمل مدرّساً في هذه المدرسة، القصيدة التّالية لأحد الطّلاب الصّغار، والذي بدوره قرأها بصوت شعري معبّر، بينما ثبت أصدقاؤه أعينهم البتّة علي وأبقوها مفتوحة دون أن ترمش خلال فترة الاحتفال:

القصيدة

«السّلام عليك ورحمة الله وبركاته. أما بعد: فبمناسبة وصول المحترمة الحرّة وبمناسبة تشريفها فناء مدرستنا الغراء، أنهض الآن لأرحّب بزيارتها السّعيدة لمنزل الشّرفاء النّبلاء ولبلد الأحقاف، ولمكان إقامة أسلافنا المبجلين ولمكان ولادتهم. لقد أظهرت روحها وشجاعتها الرّاسخة بزيارتها هذه، فهي المرأة الأولى التي قامت وبمفردها بزيارة منطقة حضرموت دون أيّة رفقة من الإناث، ودون أيّة مساعدة من قومها، وتجوّلت وانتقلت من مكان لآخر وسافرت كل هذا السّفر بمفردها.

لم يخبرنا التاريخ يوماً، بقدوم امرأة من الغرب بهذه الطريقة لأرض حضرموت، فهي المرأة الأولى التي داست هذه الأرض ونجحت في السفر. لذلك فإننا نحتي الأمة التي أنجبت هذه السيدة النبيلة، والتي أسهمت في تكوين هذه النفس الزكية وهذه الروح الملهمة.

وأنا، الكاتب، أقف هاهنا لأمثل إخواني طلاب هذه المدرسة التعليمية، سائلاً الله عز وجل أن تحظى برحلة سعيدة وبعودة مظفرة وأن ترافقها السلامة أينما حطت وحلت، وختاماً أقدم أحرّ تحياتي القلبية».

عند نهاية القصيدة، غنى الجميع، وكاد يوقعني الهجوم المفاجئ تماماً فقد أخبرهم السيد للتوّ، بما أني المرأة الفرنجية الأولى التي قدمت حُرِيضة، فإن نصف يوم العطلة ستخصّص لهذه المناسبة، ولذلك، على الأغلب، فقد تسللت إلى أغانيهم قوة خاصة لحماس كبير. فقد حفظوا هذا الصّباح عن ظهر قلب، الطّرق الأربعة المختلفة التي تسمح للمرء بتنظيف نفسه - موضوع ضروري ولكنه غير جذاب؛ أما الآن فقد كان هناك إغلاق رائع للكتب؛ وتوقف للصّور؛ وكتب أخو السيد بيتين من الشّعر ترحيبين على السّبورة:

«بوصولك، قرّرت أعيننا وتحققت أمانينا، فريا ستارك أهلاً بك في منزلك، لك تحياتنا!

هذان السّطران لك من مدير المدرسة التّعليمية والتّثقيفية في حُرِيضة!».

بالفعل إنه شاعر مبدع، فقد ارتجل هذين البيتين للتوّ؛ اندفع طلاب مدرسة حُرِيضة في هذه الأثناء، وبصباحاتٍ مريحة للاستراحة تحت أشعة الشّمس الدّافئة، وسيتعفّرون في مدّة وجيزة بالغبار ويطبّقون ما تعلّموه من قواعد الموضوع. أما أنا والسيد فرجعنا للغداء بيت المنسب.

يال له من بيت جميل من الدّاخل، بلونه الأبيض وبيريقه ونظافته. وقد امتلأ الدّيوان في الطّابق السفلي مثل المَشْهَد بالدّفوف والدّعامات المعتادة ونباتات الرّيزة المورقة

التي تستعمل عادة في المواكب. جلسنا في الطابق العلوي في الغرفة ذات الأعمدة الممدودة بالسجاد، ونظرنا إلى الكتب الموغلة في القدم، ثم ناقشنا الرحلة إلى شَبوة، تلك التي وضع عم المَنسَب خطةً للسَّير إليها اختلفت مع كل الروايات التي رأيتها، ولكنني مع ذلك نسختها في نهاية هذا المجلد. حوت تلك الكتب أيضاً مخطوطةً متقنة فريدة عن أنساب أسياد عَمَد كتبت بخط جميل من قِبل المَنسَب نفسه.

قال لي: «هنا، سترين كيف كتب إمام اليمن، والجامع الأزهر في القاهرة ليؤكدوا لقابنا: ولكن يحاول هؤلاء اليافعيون في جاوة Java سلبنا إياها، فمن وجهة نظرهم أيّ إنسان سيُلقَّب بالسَّيد أو بالشَّريفة (إذا كانت امرأة) أو بالحبيب (إذا كان طفلاً)، بغض النظر عمّا إذا نُسب إلى الرُّسول أم لا. ولكننا هاهنا نملك البرهان أنها وصلت إلينا بحق الانحدار من سلالة بأننا من سلالة النَّبي وجميع المراجع تؤيد ذلك».

لقد بدأ نزاع الإرشاد لليافعيين في جاوة في عام 1918 حول مدرسة في سنغافورة، والتي وقفها الأسياد لعامة المسلمين واقتروا بأن يساهم الجميع بدعمها. ولكن الاقتراح رُفِض، فقرَّروا إبقاء المدرسة للأسياد فقط، ومن هنا بدأت العداوة. جاء اسم الإرشاد من اسم صحيفة كان الأسياد يُهاجِمون من خلالها من قبل العالم محمَّد بن عفش، صديق إمام اليمن، واسع التَّفوذ والمعادي للبريطانيين والذي - وفقاً لحسن، يزوّدنا بكل هذه المعلومات - وإذا قَدَّر له أن يحيى، فلن ترى معاهدة اليمن التور.

تلك التي أيدها الأسياد، ونشروا أمامي مستنداتها الممهورة بأختامهم وبتواقيعهم، والكتاب الذي يحوي أسماء الأسياد مكتوباً بالأَسود والأحمر. رحلوا في الماضي البعيد - دون أيّ شك بنفس وجوههم الطويلة والدَّقيقة، وبالحواجب البنية المرتفعة قليلاً عند الصَّدغين، وبأعينهم السَّاحرة النَّاعمة، وبشفاههم المكتنزة الحساسة، وبأصابعهم الطويلة وبلحاتهم الصَّغيرة أسفل الذَّقن، كما كانوا ربما عندما توجهوا كنبلاء قبيلة قريش للالتحاق براية النَّبي.

قال المَنسَب: «سلطتنا تُهدد الآن، ولكن من سيحلّ محلنا في هذا الوادي؟ من سيستطيع العيش بين البدو دون سلاح مثلنا؟ وماذا سيحدث عندما تقع كل السُّلطة

في أيديهم؟ هل سيعتنون بمدارسنا وكتبنا؟ كل ذلك سيصرف في الحرب واحداً ضد الآخر». وبالفعل فإن وادي عَمَد، والذي يعيش تقريباً مثل الحياة في انكلترا في عهد ألفرد Alfred، لم ينضج بما يكفي ليخضع لسيطرة الأديرة.

لم نتحرّك بعد على الرّغم من تناولنا الغداء. أردت أن أمرّ بعَدَل قبل العودة لشِباب مهما كان وضع صحّتي سواء أكنت مريضة أم صحيحة، وأدركت أن ما يبدأ في فترة ما بعد الظّهيرة في المنطقة العربية من الصّعَب انتهاءه في نفس اليوم. جلس حَسَن على السّجادة المقابلة بهدوء أولمبي ثقيل، مجيئاً على جميع التّساؤلات حول السّيارة قائلاً: «ستصل»، ولكنه لم يفعل أي شيء. أما السّيد علوي، الذي عاد معنا، فعليه تسوية بعض الأمور في منزله، وعلى السّيد البدوي الآتي أيضاً، توديع إحدى زوجاته قبل الرّحيل.

«سأذهب معكم إلى شَبْوة»، هذا ما قاله.

برّر لنا: «يستهويني أيّ شيء جديد، ولن ندع سيدة مثلك - تسافر في بلدنا - تذهب بمفردها. أعرف البدو، ولذلك سأتي».

كان هو من جلب السّيارة أخيراً. أقلني مع المَنسَب وأخيه بالسّيارة عند فناء بيتهم. أحضرا لي عباءة مطرّزة، بعد أن أخبرهم حسن عن مدى حَبّي لهذه الأزياء، كما أحضرا ستة أوعية فخارية للسّيدين في المقعد الخلفي. وكَرّس أطفال حُرِيضة هذا الجزء من نصف عطلتهم لتحيتنا بالهتاف والرّقصات. وعندما كنا نبدأ بالمسير تماماً، طلب مني أخو المَنسَب طلباً أخيراً - إن كان باستطاعتي إرسال الرّسائل المكتوبة باللغة الحِميرية مع ترجمتها للعربية، ليتسنى له قراءة الألواح الحجرية التي وجدوها في الجوار؟ لقد وعدته بذلك، متأثرة ومسرورة، عندها مرّ ببالي رهبان «جارو» Jarrow الذين نسخوا مخطوطاتهم لتصل لإخوانهم البعيدين عنهم في ظل عهد الظّلمة الإنكليزي. وأيضاً فكّرت بملك اليمن، في القرن الرّابع عشر، الذي أرسل مبعوثين لأفغانستان كمقرّئين ومعلمين للقرآن. كانت هذه عادات المنسوبين في حُرِيضة.

بعد انطلاقنا بمدة وجيزة، نظرت إلى بلدتهم الصغيرة ذات البدو ويجروفها الصخرية مثل سيف داموكليس Damocles فوقها وحقولها خاوية الأشجار في الأسفل، بدت كأنها رمزٌ وقورٌ للتعليم - هذه البقعة البتية اللون التي ستستمرّ بالعمران في المستقبل، المحاطة بالصحراء والحرب من كل جانب، تعيش إيماناً نزيهاً أكثر من معظم الديانات وبحبّ سامٍ راقٍ يفوق أيّ حب دنيوي.

* * *

الفصل الثالث والعشرون

عَنْدَل

«بنو كوش... شبا وحويلة وسبته (شبة)... ويقطان ولد... حضر موت ويارح،
وهدورام وأوزال (اسم صنعاء القديم)... وشبا وأوفير وحويلة... وكان مسكنهم من
ميشا عندما تذهب إلى سفار (ظفار؟) جبل المشرق»

(سفر التكوين، 10: 6-30)

رأينا عند مرورنا عبر رأس بير غمدان، حيث يلتف وادي عَمْد إلى الشرق، شريطاً
من الكشبان الرملية يفصلنا عن عَنْدَل على المنحدر الشمالي، على بعد حوالي ميل
ونصف الميل خلف قرية تدعى القحوم Lakhūm. لم يكن لدى أيّ من فريقَي أدنى
رغبة بالذهاب هناك، وتمنّوا دون شك، نظراً لتأخر الوقت، أن تمحى هذه الفكرة من
فكري: ولكنهم لم يُبدوا أيّ احتجاج، وتساءلت إن كان بمقدور أي سائق انكليزي
توجيه عجلة سيارته إلى المجهول بهذه البساطة دون اعتراض وتذمّر.

على أيّ حال، علي البربري يهوى ركوب الأخطار، مضيفاً إليها خطر احتفاظه
ببندقية المحشوة بجانبه، والقابلة للانفجار بطلقاتها الست تحتنا فيما لو ارتطمنا
بأيّ شيء. كانت بندقية أميركية الصنع - تُسمّى كما أظن رِمْنِغْتون⁽¹⁾ Remington
متعددة الطلقات. كانت تُعامل بلطف أكثر من معاملة معظم الأطفال، وهي دائماً آخر

(1) رِمْنِغْتون علامة مشهورة لأسلحة نارية أميركية تصنع في مدينة ماديسون بولاية نورث كارولينا.

من يركب السيارة وأول من يترجل منها؛ وعلى الرغم من أن علياً البربري كان رجلاً صامتاً، لا يتحدث أبداً إلا عند تزويدنا بالمعلومات، ولا يمكن معرفة مشاعره، فإنك ترى الرقي في وجهه عند تعامله مع الأشياء الثمينة.

ها هو ذا ينظر الآن إلى الرمل الأملس أماننا، الذي لم تدسه سيارة من قبل، ويتجه نحوه مباشرة. إذا كان باستطاعتنا الوصول إلى الطرف الآخر من الوادي، مارين بالرّمال الناعمة الطرية في منتصف الطريق، فكل شيء بعده سهل. قاد علي السيارة كخبير، مستفيداً من كل حافة صلبه وماراً بسرعة فوق الرّمال الهشة الصّفراء. كان علينا التوقف مرةً وتوقع الاتجاه، ولكن لم تحدث حوادث مؤسفة معنا، وما زال الوقت باكراً في الظهيرة عندما وصلنا لبضعة أكواخ طينية آلت إليها اليوم عندل «البلدة الأولى في حضرموت».

يقع القسم القديم في شرقي البلدة الحالية وقد ملأت أطلاله الخليج الواقع على الجرف؛ وامتد على روابٍ من الحجارة لحوالي خمسة فدادين أو ما يساويها. اعتبرها شپرنغر Sprenger موطن Antidal المذكور من قبل پلينيوس Pliny. وقد أشار إليها كل من البكري وياقوت (وكلاهما اقتبس من الهمداني)؛ وابن خرداذبه، الذي وصفها بأنها على تسع مراحل من مأرب؛ وربما ذكرها ابن المُجاور الذي تحدّث عن عنترة، على بعد تسعة فراسخ من شبام على الطريق الموصل لعدن، على أنها «المكان الذي سُكن وازدهر في الأيام الخوالي، وأصبحت الآن فقراً». كما شهد هنا امرؤ القيس، أمير كندة، العديد من الغارات، كما رأينا.

إن قاطنيتها الآن من بدو باجابر، من قبيلة «المشايع»، والتي كما يقال، لا تحمل السلاح. اندفعوا نحونا من أكواخهم المنخفضة، من دون ملابس تستر جسداهم تقريباً. بدا الكثير منهم كما لو أنهم ينتمون للعرق الدّاكن في الجنوب، مختلفين بشكل كبير عن العرب السّاميين. لُوَ حظ التّباين بينهم بطريقة طريفة من قبل رجال كندة في الأيام الأولى للإسلام كما أخبرنا المؤرخ الطّبري (ص 1220). فقد قاتل أربعمئة رجل من السّكون Sakun (قبيله من كندة) في الحرب ضدّ الفُرس تحت لواء قائدهم معاوية بن حُديج وحسين بن

نمير في جيش سعد بن وقاص. وعند استعراض الخليفة عمر الجيش وكما قال المؤرخ «لاحظ وجود شباب سود البشرة ذوي شعر سبط تحت راية معاوية بن حُديج، فتولّى عنهم الخليفة مرة تلو الأخرى، وعند سؤاله: «ما لديك ضدّ هؤلاء الناس؟» قال: «لديّ بعض الشك حولهم، وليس في العرب من لا يروني مثلهم». (تظهر هذه الحادثة وأمور أخرى قلبه التعامل والاتصال بين مكة وحضرموت في تلك الأيام).

قصة أخرى عن قيس بن كليب، حاجب عمرو بن العاص فاتح مصر. الذي سخر منه الشاعر أبو المصعب البلوي قائلاً:

وليسَ بماجدِ الجدّاتِ قيسٌ ولكنْ حضرمياتُ قماءُ

ولاختتام هذه المادة، سنورد ما قاله المقدسي (Bib. Geog. Ar. III, 87 and 103)، الذي ذكر ولع رجال حضرموت بالعلم وبشدة تعصّبهم ولونهم الداكن.

لكن نعود الآن إلى رجال عندل؛ اندفعوا الآن باتجاه سيارتنا، ورحبوا بنا بهدوء واتزان، وذلك لأن معظمهم سافر عبر الأراضي الصومالية والإريتريّة ورأى أوروبيين من قبل. لم تكن النسوة كذلك، فقد تجمعن بزيهن الأسود وبعثن برسول ليسأل عن إمكانية قدومي إليهن والسّماح لهن برؤيتي. اقتربت واحدة منهن إلى السيّارة، ورأت انعكاس صورتها عبر الطّلاء اللّماع فهربت صارخة: «توجد امرأة منقّبة هنا».

قدّم إلينا قائدهم؛ أظهر وقاره بين سرب الرّجال أنصاف العراة بلباسه التّام وعمامته الصّفراء، كان ذا لحية بيضاء خفيفة وعينين قاسيتين لاذعتين جعدتين. بحث جاهداً ليجد ما يغطّي به يده كي لا يلوّثها عند تماسها مع يدي عند المصافحة؛ فأمسك بأقرب مئزر - وجده غير كافية - وقام بأفضل ما يستطيع من عمل سيء، فصافحني وابتسم. أخذنا البدو بموكب صغير من بين بيوتهم التي تقارب العشرين منزلاً إلى الآثار، التي تقع على ثلاث هضاب صغيرة، لم يكن هناك الكثير ليرى سوى قطعة أو قطعتين من جدار، وحوض صغير، ثلاثة بخمسة أقدام، وثلاثة آبار كتلك التي في المشهد ولكن أصغر حجماً، واحد في الجوف قرب البلدة والاثنان الآخران على الرّابيتين القريبتين. أما الرّابية الثّالثة البعيدة فلم تحو أي بئر.

أخبرني البدو عن جرّة مملوءة بالذهب والمجوهرات اكتشفوها عند حفرهم تحت الجدران الأثرية في الرّابية القريبة، وباعوها في دَوْعَن: وقد عثروا عليها وهم يحفرون أسفل الجدار المهْدَم. كُسي المكان بأكمله بقطع وأجزاء من الفخار، أغلبها خشن للغاية ومن الصّعب تحديد زمنه. وجد سير أوريل ستاين Sir Aurel Stein في ساحل مكران Makran كسرتين صغيرتين ترجعان إلى القرن التّاسع أو العاشر مطلّيتين بطلاء أخضر يشبه ناتج الأفران. تبعثرت العديد من القطع الرّجائية الخضراء هنا وهناك، ولا يوجد أي أثر يدل بشكل قطعي على ما قبل العصور الوسطى الإسلامية؛ تتناسب حقول الآثار مع ما اقترحته مراجع الأدب الشّحيحة - بازدهار بلد إسلامية في مكان ما في القرن التّاسع أو العاشر الميلادي. قطعة طينية وحيدة ترجع للقرن الخامس عشر - وهو دليل ضعيف للسّعي والبحث وراءه⁽¹⁾. وجدت خرزة من العقيق ولؤلؤة صغيرة لها تجويف لتعقد من خلاله، كالتي ترتديها الفتيات في حلق أنوفهن. لكن يوجد هناك قليل من المزيّد؛ وما يحمله كنز عندل لا بدّ أن يكون مدفوناً تحت الأرض، بينما تكاد فترة ما بعد الظّهير تنقضي.

شكرت الرّعيم العجوز.

قال لي: «عليك أن تأتي ثانية، عليك المجيء والبقاء وسنحفر من أجلك».

قلت له: «وإذا وجدتم الذهب فهو لكم، وإذا وجدتم نحاساً تعطوني إياه».

لاقى اقتراحي ترحيباً وحماساً كبيرين. وغادرنا عندل باتجاه الشّرق عبر شاطئ الوادي الشّمالي، تجاه اتساع وادي حضر موت.

كان الوقت متأخراً للوصول إلى شبام، فقرّرنا قضاء الليله في بلدة هينن القديمة في الجانب الشّمالي من الوادي الكبير. عاش الأخوان ابن مرتق Ibn Martak، هناك ودعواني فيما مضى. لقد قاما قبل يوم أو يومين بزيارة عندل بالسيارة، وها نحن نفتفي آثار عربتهم موفرين على أنفسنا متاعب كثيرة.

(1) هذا التاريخ وفقاً لاعتبار السيد هوبسون Hobson في المتحف البريطاني.

عبرنا الزاوية الشمالية الغربية من الوادي، باتجاه الاتساع في وادي حضرموت، تحت جدران لخماس وشريوف، «البلدتان الأكثر شهرة بين البلدات المتناحرة» كما أخبرني السيد علوي. تم حفر الخنادق هنا، فهدنة الثمانية أشهر التي عقدت على شرف زيارة سلطان المكلّا تكاد تنقضي، والكل مشغولون بالتحضير للحرب القادمة. ظهرت لخماس بطرقها المغطاة وبأبراجها المبنية حديثاً كلوحة قديمة لبلدة من العصور الوسطى. كان في الكشبان التي حولنا أبراج مراقبة وخنادق، إنهم رجال لخماس الذين قتلوا أزواج الرّاعيات الثلاث الجميلات اللاتي قدمن لنا ثمار شجر العلب في طريق مغادرتنا. ابتسم السيد علوي بهدوء قائلاً: «دون جنود، ولا سلاح، ماذا باستطاعتنا فعله إزاء ذلك؟» كان فيلسوفاً. لم يؤرّق الأمر المحتوم مزاجه الهادئ اللطيف.

غادرنا ديار البكري Dhiar al-Buqri وأصداقنا من جاوة Java عن يميننا، وسرنا بينهم وبين أعدائهم تحت الجُرف الصّخري نحو الكشبان الرّملية المفتوحة لوادي حضرموت. عندما سلك علي البربري طريقاً جانبية منحدرّة صفراء على عجلتين، انفتح باب السيّارة ورماني بلطف على الأرض. اعتقدت أنّ السيّارة ستقلب فوقني فزحفت مستجمعة أفكارٍ للتّجاة. وعند وقوفي كان علي البربري قد استعاد التوازن وأوقف السيّارة. أما حسن فقد وثب خارج السيّارة لمؤازرتي بذراعيه، فيما حاول السّيدان الهائجان والعالقان في المقعد الخلفي الخروج.

كان الضّرر الوحيد الحادث ضياع لؤلؤة عندل، التي كنت أمسكها بيدي لحفظها ولكنها أفلتت عند سقوطي، هذا بالإضافة إلى الصّدمة الحادّة لشعور كل مهتم منهم إلا شعوري. تأسّف كل من السّيد البدوي وحسن لضياع اللؤلؤة، وعجبا من هدوئي ومن الطّريقة المحترفة التي سقطتُ فيها من السيّارة، عبّرا عن ذلك أثناء تلمسهما للأرض بحثاً عن اللؤلؤة؛ لكن السّيد علوي وبعد هذه المغامرة الأولى، استعاد رباطة جأشه واقترح بأن نعتبر اللؤلؤة بمثابة فدية وأن نتركها لجنّ الكشبان الرّملية. نثر المساء بعباءة من الضّوء الأصفر فوقنا؛ وبدت حواف الجُرف الصّخرية واضحة حادّة تحت أشعة شمس الغروب. صعدنا ثانية للسيّارة واقتفينا أثر عربة ابن مرتق Martaks نحو بلدته هينن، تحت الجدار الشّمالي.

خَيِّمَتْ فِي هَذَا الْمَكَانِ تَحْتَ ضَوْءِ الْمَسَاءِ قَافَةٌ مِنْ شَبُوءَ، بَرَكْتَ جَمَالُهَا قِبَالَ
الْمَنَازِلِ عَلَى الرَّمَالِ. خَيِّمَتْ سَكِينَةُ الصَّحَرَاءِ عَلَى كَثْبَانِ الْوَادِي، وَهَيْنِ هِيَ الْبَلَدَةُ
مَا قَبْلَ الْأَخِيرَةِ تَجَاهَ الْغَرْبِ، وَحَوْلَ مَنَازِلِهَا الْمَعْدُودَةِ وَأَشْجَارِ نَخْلِهَا الْبَاسِقَةِ يَرَاوِدُكَ
شُعُورٌ بِأَمَاكِنَ أَوْسَعِ وَقَوًى أَكْبَرَ مِنْ تِلْكَ الَّتِي تَمْتَلِكُهَا. تَتَضَاعَلُ مَعَ مَرُورِ الْأَيَّامِ جَرْفُهَا
الْغَرِيبَةِ فِي الْمَسَافَاتِ، وَتُضْمَحَلُّ تَحْتَ حَرَارَةِ السَّمَاءِ. تَقَعُ الْبَلَدَةُ الْقَدِيمَةُ وَجُزْءٌ مِنْ
الْحَدِيثَةِ أَيْضاً عَلَى خَلِيجِ الْجُرْفِ الْخَلْفِيِّ، وَلَكِنْ يَقَعُ مَنَزَلُ ابْنِ مَرْتَقِ الْمَرْبَعَانِ وَحَدَهُمَا
تَحْتَ جَرْفِهِمَا الصَّخْرِيِّ الَّذِي يَبْرُزُ عَمُودِيّاً وَيَزْدَادُ مَنَظَرُهُ غَرَابَةً فِي ظِلْمَةِ اللَّيْلِ خَلْفَ
وَأَجْهَاتِ الْمَبَانِي الْمَضَاءَةِ تَحْتَ شِعَاعِ الْمَصْبَاحِ الْكَهْرَبَائِيِّ فَوْقَ بَابِ آلِ مَرْتَقِ.

كَانَ أَبْنَاءُ مَرْتَقِ Martak هؤلاء أَرْبَعَةَ إِخْوَةٍ، وَقَدْ كَسَبُوا ثُرُوتَهُمْ مِنْ بَاتَاْفِيَا⁽¹⁾
Batavia. يَقِيمُ اثْنَانِ مِنْهُمْ بَعِيداً هُنَاكَ، بَيْنَمَا بَقِيَ اثْنَانِ مِنْهُمْ فِي أَرْضِ الْوَطَنِ، وَرَحَّبَ
بِنَا هَذَانِ بِحَرَارَةِ هُنَا، وَأَدْخَلَانِي غُرْفَةَ الضُّيُوفِ ذَاتِ الْخَمْسِ نَوَافِذَ وَبَابَيْنِ وَالْمَدْهُونَةِ
بِالْوَانِ مُتَعَدِّدَةً عَلَى طَرَازِ بَاتَاْفِيَا. كَانَ لَدَيْهِمْ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الضُّيُوفِ، فَسَّرَا ذَلِكَ، فِي هَذِهِ
الْمَحْطَةِ مِنَ الطَّرِيقِ الْغَرْبِيِّ، بِأَنَّهُمَا بَنِي هَذَا الْمَنْزِلِ لِهَذَا الْهَدَفِ، وَأَبْقَا حَرِيمَهُمَا فِي
الْبِنَاءِ الْمَرْبِعِ الْآخَرَ الْقَرِيبِ مِنْهُ.

سَأَلَا أَصْدِقَائِي آلَ السَّيِّدِ عَنِّي: «هَلْ سَتَمَانَعُ، التَّنَزُّلُ إِلَى الدِّيَوَانِ؟ فَالْبَدْوُ يُوَدُّونَ
رُؤْيَتَهَا».

قَالَ حَسَنٌ عِنْدَ ارْتِدَائِي حَذَائِي: «إِنَّهُمَا يَمْرَأَنِ بَوَقْتَ عَصِيبٍ، إِنْ أَبْنَاءُ مَرْتَقِ هُمُ
الْأَغْنِيَاءُ الْوَحِيدُونَ هُنَا، وَجَمِيعُ الْبَدْوِ مِنْ حَوْلِهِمْ. يَسْتَطِيعُونَ فِي أَيِّ وَقْتٍ الْهَجُومَ
عَلَيْهِمْ وَسَرْقَتَهُمْ، فَمَا بَوَسِعَ أَبْنَاءُ مَرْتَقِ سِوَى شَرَائِهِمْ عَنْ طَرِيقِ الْهَدَايَا وَمَعَامِلَتِهِمْ
بِلُطْفٍ دَائِماً حَتَّى وَلَوْ لَمْ يَرْغَبُوا بِذَلِكَ».

بِالْفِعْلِ، عِنْدَ نَزُولِي لِلدِّيَوَانِ، وَتَمَنَّيْتُ السَّلَامَ لِرِجَالِ الْقَبَائِلِ الْجَالِسِينَ حَوْلَ جِدْرَانِ
الدِّيَوَانِ الثَّلَاثِ الْوَاضِعِينَ رِجْلاً عَلَى رِجْلٍ، لَمْ أَسْتَطِعْ مَنَعَ شُعُورِي الَّذِي يَحْدِثُنِي

(1) بَاتَاْفِيَا هِيَ مَدِينَةُ جَاكَرَتَا الْحَالِيَةِ عَاصِمَةُ إِنْدُونِيسِيَا، وَكَانَتْ تَسَمَّى بَاتَاْفِيَا إِبَّانَ الْاِحْتِلَالِ الْهَوْلَنْدِيِّ
لِجَزَرِ إِنْدُونِيسِيَا.

بأن هذه المناسبة واحدة من تلك التي ربما لن يفضل فيها الشبان المرحان التصرف بلباقة وأدب. ينتمي البدو لقبيلة نهد، الذين عاشوا بروح من الوحشية وباختلاف كبير عن استقبال باضرة في دوعن. لا يوجد هنا شخص يمثل السلطة - كانت الهاوية التي فرقت البدو عن رجال القرى ظاهرة للجميع. يشبه هذا التجمع، كما فكرت، التجمع في قصر في أيام الثورة الفرنسية مع صاحب المنزل الغاضب.

رفع التهدي المتفاخر نفسه وجاء للجلوس بجاني. كان وجهه كريهاً ومليئاً بالبثور، وبدا الخنجر الذي في حزامه مؤثراً في معدته الضخمة العارية، وراح يتحدث بصوت عالٍ وأجش، بشكل مختلف عن كياسة رجال القبائل. لم يعجبني، وبدأت بالتفكير أنني، ومهما جرى، لن أكون مهذبة معه، خصوصاً بعد تباهيه ومحاولة التذاكي عليّ بأسئلته أمام الحاضرين من قبيلته.

سألته: «هل أنت أمير؟».. عندما فكرت بأن لدي إجابات وافية لسؤالي هذا. تراجع للحظة، كونه نصف عبد، وضحك بعض المستمعين.

قال: «لماذا تسألين هذا السؤال».

«دخلت وكأن البيت بيتك، وقدمت وجلست بجاني - فحسبت أنك إما أمير أو ملك، أو ربما فرد من بيت ملوك كندة؟».

عم الضحك الآن، وغادرت المجلس بعد أن كسبت عدواً واحداً، وأدبته بذلك. أعادني مضيفي الشاب لغرفتي بعد أن تنقست الصعداء.

إنه العريس نفسه الذي قابلته في الهجرين عندما مررت هناك، وزوجته معه الآن في البيت المجاور. لقد أتت على ظهر الجمل، حسب عادة الزواج، ولكنه قدم بالسيارة. صعدت للأعلى لرؤيتها، ووجدت طفلة جميلة في الرابعة عشرة، زينت زينة عروس بكل قلائدها وحلقها ومتألقة ومتميزة بين باقي السيدات الأخرى.

قلت لمضيفي عند ابتعادنا: «إنها عروس ساحرة الجمال».

تبسم وهز قليلاً بكتفيه.

قال لي: «ماذا باستطاعتك عمله معهن بعمر صغير كهذا؟ نساؤنا لا يتركوننا بسلام حتى نترؤج».

قال لي بعد العشاء، إننا هنا نستمتع للراديو الوحيد في حضر موت، ونسمع أخبار إذاعة لندن.

جلسنا في التراس المطل على غرفتي وجهزنا الراديو. كان البدو، الذين سُمح لهم بالدخول لرغبتهم بالاستماع، يجلسون القرفصاء مشكّلين حلقة دائرية عندما خرجت. بالكاد ترى أكتافهم الدّاكنة في ظلمة الليل - تلمع هنا وهناك بعض الأساور والخناجر. حاول الأخوان التقاط موجة إذاعة لندن بين ضجة الإذاعات المتنقلة في العالم. كان تحتنا لطخات الجمر وغرغرة جمل ضعيفة دلّت على مكان مبيت قافلة شبوة.

كسر الصّوت القادم من لندن الصّمت العربي. وبما أنها ليلة الأحد، كانت الإذاعة في نقل حي من كنيسة أو كتدرائية. جملة مبهمّة، جاءت بعدها كلمات مقدّسة وواضحة. «حفظك الله، ورعاك في جسدك وروحك». هذا كل ما سمعته، ثم ابتلعت ضجة غريبة كل شيء، وتركت صوت مبهم للصّلاة. ولكنني جلست اهتزازاً، حرّكت مشاعري راحة تلك الكلمات وملأني الشّعور بالوحدة. وفي جناح الظّلمة، استنفدت قواي، وبكيت. استمرّ الرّاديو ببث تلك الضّجة.

قال أحد البدو: «إن كانت هذه هي صلاتهم، فصلاتنا أفضل».

حرّك ابن مرتق Ibn Martak إبرة الرّاديو باحثاً عن إذاعة عاصمة أوروبية أخرى: صدعت خلاصات رهيبة هذه الليلة العربية. رجوته بأن يتوقف، ثم رجعت لغرفتي المليئة بالزّخارف الجميلة المبهجة. توقفت مولدة الكهرباء بعد ذلك فوراً، وأنا أفتح شبّاك واحدة من التّوافذ الخمس المضادة للرّصاص، وغرقت واجهة مبنى الحريم المضاءة في الظّلمة مع الجُرف خلفها. استلقت الجمال النّائمة تحت التّجوم، مشكّلة دائرة بنية وهبت خلفها أمواج بنية من الرّمال بفعل رياح الصّحراء العاتية.

* * *

الفصل الرابع والعشرون

الانهيار في شبام

نزلتُ على آل المهلب شاتياً غريباً عن الأوطان في زمن المحل
فما زال بي إكرامهم واقتفاؤهم والطفاهم حتى حسبتهم أهلي
(ديوان الحماسة)

لم يكثرث مضيّفاي المرحان والسّعيّدان بمشكلة البدو، بل هما يعيشان بابتهاج وفرح كما يعيش قاطنو المناطق المجاورة للبراكين أو المناطق القابلة للانفجار بأي وقت. طلبا مني العودة، فقلت لهما إني سأنام هنا في طريقي إلى شَبوة، وذلك لأنني مازلت أعتقد أنّ مرضي هو الملاريا، وآمل في التحسّن. دعانا الرّجل الهزيل النّحيل النّمودج التّقليدي للحضرمي صاحب النّادي، إلى قريته القريبة. أحبّ هذا الرّجل التّكلّم عن الأشياء التي تعلّمها وكان يجمع، كما أخبرني، الأسماء الإنكليزية للأمراض، وهو ما بدا لي نموذج بحث مملّ وغريب، واكتشفت أنه لا يملك أية فكرة أنّ مادة الكينين جيدة لمرض الملاريا، فاهتمامه لا يشمل أي شيء عن العلاج.

غادرنا في السّاعة الثّامنة صباحاً، واتجهنا شرقاً عبر الكثبان الرّمليّة على طول حافة الوادي. ملأَتْ أشجار النّخيل هذا المكان قبل ستين عاماً، ولكن الرّمال، مع المعارك المحليّة في الماضي، لم تبق لها أي أثر. تلك الرّمال التي جاءت للوادي من الصّحراء الغربيّة كأموّاج المدّ والعجزر بلونها الضّارب للحمرة وبملمسها النّاعم والذي يفوق بنعومته كل رمل شاهدته من قبل، فلا تشعر بخشونة حبيباته بين أصابع يدك، دُفن

حصن قبيلة نهد تحته حتى كوى الإطلاق، وبدت أوراق أشجار العُلب الممزقة والمشوّهة ميتة عند حوافه.

بدت في النهاية أغصانها الصفراء التّظيفة أكثر صلابة، ونمت عليها شجيرات الحمض (*Salvadora Persica*) ونبته الأراك الخضراء اللماعة الجيدة للجمال؛ تجمع كل أجمة تحتها الرّمال مشكّلة راوية خاصة بها. وتُقطع أغصان هذه الشّجيرات، وتفرّق عند نهايتها وتستعمل كفرشاة للأسنان. تختبئ بهدوء في مخبأ واحدة من هذه الأجمات، ثلاثة طيور على أرجلها الطويلة تدعى طيور السّمان، ولكنها بدت لي من نوع طيور الرّزّاق، ولكن عندما سحب علي البربري بارودته طارت في الحال بأجنحتها المرقطة.

«أغانيها» قال السيّد علوي: «تغريدها، أجمل من أي طائر آخر في حضر موت».

واجهنا بعض المشاكل مع محرّك السيّارة، وعند محاولة علي البربري إصلاحه تجوّلت حول بيت وحيد بحديقة نخيل مسوّرة. دخلت عبر أحد الجدران المتهدّمة. بدت أشجار التخيل فتية ومبهجة، تطعن أشعة الشّمس كالسيّوف. كان البيت نفسه حصناً، بنوافذ وفتحات إطلاق مرتفعة وبدعامات عند كل زاوية، ويوجد بالقرب منه بناء آخر مشابه ولكن كلاهما كان مغلقاً بجدار.

قدّم حسن الآن غاضباً. وقال لي بروح من التّضج يجب علينا ألا نلعب بالنّار، مؤكداً عدم وجود أي ثغرة للدّخول، ولكنني قد وجدت لتوي باباً خلفياً صغيراً، دخلت عبره لالتقاط بعض الصّور.

أطلت رؤوس من النّافذة مثل عفاريت العُلب عند شبكية النّوافذ صارخة: «اصعدي إلى الأعلى».

تردّدت قليلاً عندما أتى السيّد بدوي الذي كان غاضباً أيضاً، عبر الباب وصاح بالرّفض بصوت مؤدّب نحو النّافذة العليا، ورجاني بالإسراع لركوب السيّارة. التقينا عند مغادرتنا الحديقة الخارجية، بدوي عائد، بدا مندهشاً وسألنا عمّا كنا نفعل،

واندهش أكثر عندما مددت يدي لمصافحته.

سأل: «هل أتيت لأخذ كنوزنا؟»، وبدا مندهشاً ثانية لما ضحكت.

أخبرته عن التقاطي لبعض الصور لمنزله.

فقال لي: «عليك دفع ثمن ما فعلت».

فعلقتُ قائلة: «أنت الذي يجب أن تدفع، ألا تدفع للذين سيجعلونك مشهوراً؟».

بدا البدوي مشتتاً. كان بدوي يافع آخر، ذو شعر مسدول على كتفيه العاريتين، يقف بجانب السيارة التي أعاد علي البربري تشغيلها للتوّ. وعندما صافحته نظر مرة إلى يده ومرة أخرى إلي، وأهمل ردّ تحيتي وسلامي. تعتبر هذه إشارة سيئة دوماً، وبدأت أرى حماس رفاقي السادة يتزايد للرّحيل. ابتعدنا بالسيارة قبل أن يخلص البدويان لأية نتيجة حولنا.

وبخني السيد عند ابتعادنا قائلاً: «كان عليك عدم الدّخول، إن هؤلاء النّاس معروفون بعيشهم على نهب الماريّن وحدهم عبر الكثبان الرّملية. وقد استطعت الخروج سليمة من هناك، لكوننا معك ولكوننا سيّدين».

اعتقدتُ أن سبب نجاحنا في الخروج هو نتيجة لاندھاش البدوين لشكلي ولمصافحتي لهما، فالمصافحة لها وزنها في حضرموت، فهي إجراء تمهيدي لإنشاء علاقة ودّية. ولكنني لم أناقشهم بوجهة نظري، أما علي البربري فقد أسهم بنظرية ثالثة: كان البيتان المتجاوران، جزءاً من حصن واحد، ولكن دبّت خلافات بينهم، والآن كل حصن مشغول بالتّحضير لمحاصرة الآخر، فلا وقت للغرباء المارين. جوا Juwa هو اسم المكان.

سألتهم: «ماذا كان حدث لو دخلنا هناك؟».

قال السيّدان: «سيأخذون أموالنا. ولكن ليس الكثير جداً».

سلطنا الآن طريقاً مختصراً عبر الكثبان الرّملية حتى وصلنا القطن في الجانب

الجنوبي، دون حوادث أخرى سوى لقائنا مع ساع حافي القدمين ثبت مئزره، ويمسك عصاً بيده ورسالة باليد الأخرى. لم تكن الرسالة موجهة إلينا، بل إلى هينن. ذهب الرجل ذو الكتفين ذواتي اللون الأرجواني المتلألئ تحت أشعة الشمس. بهذه الطريقة، يُرسل البريد عبر المقاطعات، ولم أسمع أبداً عن أية رسالة أخطأت هدفها - على الرغم من صعوبة الحفاظ على السرية بهذه الوسائل. بعد مضي الساعي في طريقه، أمضينا وقتاً طويلاً نتساءل لماذا على سيئون أن تكتب إلى هينن، وما هي فحوى الرسالة؟

لقينا ترحيباً حاراً عند وصولنا للقطن.

«آنستُم anistu، لقد أسعدتمونا بقدمكم».

ابتسم لنا مدير التنظيم؛ ووقف لنا خادم ليصافحنا كلما نزلنا بمكان؛ حتى السلطان نفسه حيناً بتحية جليلة خجلة. أما علي البربري فقد رافقنا، بعد أن ركن السيارة، وقبل يده.

قال السلطان إنَّ البدو جاهزون للرحيل لشبوة. كان عليهم الانتظار لخمس أيام حتى شعرتُ بتحسّن؛ كانوا يطلبون الكثير من المال، الذي يشعروهم بتحسّن كي يلتزموا معنا وللتصرّف بعقلانية. قال سلطان القطن، أنهم سيأخذونني من شبوة إما إلى اليمن أو إلى عدن حسب رغبتني - رحلة تستغرق بمجموعها حوالي الشهر. فاقترحتُ اتباع الطريق الشمالي إلى نجران؛ وصلتُ للتوّ رسالة للسلطان من وكيل ابن سعود قائلة إنه كان آمناً، ويمتد هذا الأمان عبر بلدان غير معروفة لي. يخضع البدو هناك تارة لابن سعود، وتارة إلى إمام اليمن، ولم يجلب الهدوء لطرق الصحراء سوى السلام الحالي.

قال السلطان: «يبقى لدينا بعض الخوف، لا يمكنك الذهاب هناك».

بهدوء وودّ، كانت كلمته نهائية لا رجعة فيها، وتساءلت عن ماهية هبة السلطة، والتي تجعل كلمات رجل ما تعني أكثر من كلمات رجل آخر. ربما الحزم الداخلي والشجاعة لمواجهة وتحمل المسؤوليات والقدرة على اتخاذ القرارات باستقلالية؟ إنها مزية تقبلها حتى الحيوانات وترضخ لها. تركنا أمر الطريق ما وراء شبوة وتحدثنا

نظرياً فقط عن تلك الرمال الغربية.

قال لي السلطان، سنجد خليطاً عظيماً من الأديان بين القبائل بين حضرموت ونجران. يقبع بعض الجعفرين أو الإسماعيليين هناك - من بقايا الزمن الذي أرسل فيه رئيس الحشاشين، شيخ الجبل، دعاة الضلالة إلى اليمن. كما لا يزال هناك جماعة الإباضية المتشددين.

إنّ للإباضيين تاريخهم في حضرموت. اشتق اسمهم من الرجل الغامض في القرن التاسع عبد الله بن إباح، وطائفتهم موجودة بشكل رئيسي في شمال أفريقيا وعمان، وهم مترقنون باعتدال ويرتبطون كما يبدو بعقيدة الخوارج. في القرن الثامن، سنة 129 للهجرة أخذ أحد أتباعهم، والمؤمن بأن لديه رسالة، بمشورة رؤساء الطائفة في البصرة، وقدم إلى حضرموت. كان اسمه عبد الله بن يحيى ويُعرف بطالب الحق، امتلك هو ونائبه أبو حمزة الجنوب الغربي لجزيرة العرب حتى المدينة ووادي القرى، حيث خاضوا معركة وهُزموا فيها أمام أربعة آلاف رجل تحت لواء ابن عطية⁽¹⁾، المرسل من قبل الخليفة مروان. قُتل طالب الحق وأبو حمزة في المعركة، ولوحق وذبح العديد من أتباعه الإباضيين، واستطاع بعضهم الهرب إلى حضرموت ولجأوا إلى عامل طالب الحق، المحتفظ بالسلطة في ذلك الوقت. ولكن ابن عطية طاردهم، فخرج المتمردون لملاقاته على بعد أربع مراحل من حضرموت، على الأغلب غير بعيد عن شُبة، لكونه الطريق الرئيسي؛ لكن ابن عطية زحف ليلاً وطوّقهم واستولى على شبام من خلفهم، وعلى جميع مخازنهم. كان همّه الأكبر وشغله الشاغل تهدئة أمور المقاطعة، حتى أتاه أمرٌ ملحٌ من الخليفة أجبره على الاتجاه شمالاً وبسرعة مع قليل من الجُند، فقتله بعض أفراد قبيلة مُراد في الجوف، الذين بقوا يجوبون الأرض المدمّرة، انتقاماً لموت أحد أقاربهم.

لا بدّ أن الإباضيين الذين ذكرهم سلطان القطن قد انحدروا ربما من أولئك المتمردين قبل ألف ومئتي عام، والذين بسببهم بقي هذا الجمود غير العادي في هذه الأرض العربية. التي لم تتغير بدخول السيارات إليها بعد، ولا تزال خرائط الجغرافيين القدماء أكثر كفاءة

(1) هو عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي، قائد جيش الخليفة الأموي مروان بن محمد.

من تلك التي وضعها المعاصرون. أمضى الأخوان مرتق Martak ليلتهما في هينن بالتسخ من كتاب الهمداني خاصتي كمرجع لعائلتهم يعود لما يقارب الألف عام مضت. أخبرني سلطان القطن أنَّ أجداده عندما قدموا من مرتفعات قبيلة اليافعي قبل أربعمئة عام، استقروا في البداية في القحوم Lakhûm القريبة من عَنَدَل ولذلك عاملوا عَنَدَل «كالبلدة الأولى لحضرموت»، كما فعل أجدادهم من قبلهم. كما أخبرني عن قبيلة جعدة التي تقطن الآن وادي عَمَد، بأنها قبيلة متحضرة للغاية ولقد قدمت من اليمن قبل قرنين فقط.

غادرتُ السلطان على أمل العودة في غضون خمسة أيام. قال لي حسن: «سيذهب عنك مرضك الآن، فلا شيء أفضل للحمى من صدمة مفاجئة كالسقوط من سيارة». لاحظتُ أن الحادث لم يُذكر أبداً خارج أفراد مجموعتنا. لقد اعترفت بخطأي، بعدم الانتباه بشكل كاف للباب، وهذا ما أمتعهم، وأشار إليهِ السيّد البدوي بتعجب مراراً - ولكن فقط عند اجتماعنا لوحدا؛ فقد احتفظنا بسر تأسفي فيما بيننا. على الرغم من سقوطي وقيمتة الدوائية فقد انهرت حالما وصلت شِبابم.

تركني حسن هناك. إنه ينتمي لقبيلة الكثيري، وكل دقيقة يمضيها وسط أراضي وضيافة منافسيهم قبيلة القعيطي تسبب ألماً له. نظر حول البنغل الهادئ والمفعم بالهواء المنعش وكأنه كمين. «غير متحضّر»، هذا ما قاله وانتزع منشفة وجهي ليمسح بها كأسّي. أمّا مضيّفاي، حسين وسعيد الهادئان والودودان، فقد تحمّلاه بصمت. وقرّر صديقاَي السيّدان قبل أن يتسبّب بأية مشاكل أخذه إلى سيئون. سيعودون جميعهم في غضون بضعة أيام. لقد غادروا وكتبوا لي من سيئون شهادة ودودة، أقدرها للغاية:

«هذه شهادة للآنسة فرياستارك، الإنكليزية والمسافرة في حضرموت، المطلعة على القانون والمهتدية بالدين، والمترتبة في منزل شريف، المرأة الأولى التي سافرت وحدها من إنكلترا إلى حضرموت - وهي سيّدة التّحمّل والثبات في السّفر وفي المعاناة من الرّعب والخطر. نشكرها شكراً جزيلاً».

«سيّد علي العّطّاس البدوي»

في هذه الأثناء، كان كلٌّ من حسين وسعيد، يحيطانني بكل مودة ولطف. «ألسنا نحن بريطانيين؟» هذا ما كانا يقولانه كلما شكرتهم. «لقد ولدنا في سنغافورة. ملكك هو نفسه ملكنا».

كانا يأتيان كل يوم لرؤيتي في منزلي أحادي الطابق (البنغل)، حيث أرقد مع مرضي المتزايد سوءاً. اكتشفت أخيراً أن مرضي لم يكن الملاريا بل كان هذا الشيء خلافاً متعلقاً بالقلب. عالجتة بين الفينة والأخرى بحقن الكورامين، فكنت أستلقي بعدها بهدوء؛ ولكن تأثيرها بدأ يضعف تدريجياً.

قدم لي مضيفي خادم حسين الشخصي، يسلم Iuslim. لقد تربّيا سوياً كما هو متعارف عليه في حضرموت، وكان حتى عند تحدّثه عما شاهد أو فعل فلا مكان لكلمة «أنا» ولكن دائماً يقول «أنا وحسين». إنه مكرّس له، كما أنه كان مرحاً، محبباً، وحنوناً ولا يعتمد عليه وفاتن؛ بني اللون وذا حركات جميلة وسريعة كقط، وفم كبير ويضع رأسه بجانب واحد منه عندما يتكلم، وله عينا ناعمتان تلمعان عند سماع طليقة أو صراخ في الوادي؛ عندها يندفع إلى الشرفة ويأمل بنشوب معركة. له صوت جميل، أيضاً، يشبه الأوروبيين أكثر من العرب، ويغني عن استحمامه أو عند غسيل أطبائي في الحوض أسفل نافذتي.

أخبرني بأنه يخدم الضيوف في البنغل والطيارين البريطانيين الذين غالباً ما يحطون بطائراتهم في شبام. استحسنهم على الرغم من أنهم «لا يتكلمون بشكل لائق عند ذكر النبي أو رسول الله (محمّد)».

فقلت له «أحياناً، ربما لم يترّبوا تربية دينية جيدة».

قال يسلم: «الأمر كذلك، عبّر، العبد الأسود أسفل الدرج، يتوارى عن أنظارهم عند قدومهم، خوفاً من خسارة دينه. ولكنه لا يمانع وجودك»، أضاف قائلاً: «فأنت لا تشربين ولا تدخنين، ولا تذكرين رسول الله دون قول «صلّى الله عليه وسلّم»».

في اليوم الثالث، عند اشتداد مرضي، أرسل خادم آخر يدعى سالم للمساعدة.

لقد استلقيا وهما يتدثران بالبطانيات خارج باب منزلي، وقدّما لي القهوة بين الفينة والأخرى خلال الليل.

كنت أفقد قواي شيئاً فشيئاً. لم يكن بمقدوري رؤية الساعة، ولكنني استمع إلى النبضات الضعيفة في أذني كموجة حياة تتكسر على شاطئ مجهول، وانتظرها حتى تتوقف.. عندها، لن أكون هنا لأعلم ذلك. الفكرة بحدّ ذاتها كانت مرعبة وغريبة، كما يجب أن تكون كل مغامرة جديدة. لم تكن ذنوبي تلك التي ندمتُ عليها في ذلك الوقت؛ بل عدم إنجاز أمور عدّة - حتى تلك الحماقات التي ربما اقترفها المرء ولم يكن عليه ذلك. لم أتجشّم عناء التوبة أو الأسى، ولكن بدلاً من ذلك، انشغلت بضوء هادئ، رأيت من خلاله خريطة حياتي كما هي، وجمال بعض لحظاتها الصغيرة المنسية:

الشاي على مرج إنكليزي في الصّيف، وزهور الجنطيانا في الهضاب، والروائح العطرة الجميلة لغابات الصنوبر في الجنوب - كل الأشياء الحميمة والصغيرة التي تنتمي بحلاوتها وجمالها لهذا العالم. حاولت التفكير بها لأحافظ قدر الإمكان على صفاء عقلي وهدوئه. يرفع سالم بين الفينة والأخرى رأسي لإطعامي، وبقدر كبير من اللطف كأبي ممرّض متمرّس؛ كان خادماً مثالياً، مخلصاً ومتفهماً. لديه وجه دميم ساحر، طويل بذقن ضيق، والفم الكبير الحساس الشائع في حضرموت، وجبهة عريضة جعلتها قبعته البيضاء المنزلة للخلف لأبعد نقطة من رأسه الحليق، تبدو أكثر عرضاً. كان ينظر إليّ بحنان لا محدود ويتحرّك بهدوء.

ظننت أنه لم يبقَ لي على قيد الحياة إلا القليل. كنت خائفة أيضاً من الغيبوبة وأن أدفن وأنا على قيد الحياة. يحدث هذا أحياناً، هذا ما شرّحه لي يسلم؛ فمنذ مدّة وجيزة تعرّض واحد من الملالي لنوبة إغماء ودُفن؛ لم يكن خادمه الخاص موجوداً حينها، وعندما عاد ووجد أنّ سيده قد أصبح لتوه تحت الأرض، أصرّ على فتح القبر، واكتشف أنّ الملاً جالساً داخله؛ فقبر المسلمين فيه متسع، إذ يأتي ملكان ويُجلسان الميت بعد دخوله القبر مباشرة ليسألاه، ولكن لن تكون جلسة سعيدة حسب اعتقادي.

أخبرت يسلم أن يتحقق بأنهم انتظروا نصف يوم قبل فعل أي شيء بي، وعلمته كيفية حقن الكورامين في حالة إصابتي بالإغماء؛ فلم يكن بمقدوري فعلها بنفسي بعد الآن. كان ذلك أداءً مؤلماً، استمتع به يسلم وحده. علّق ساخراً: «الآن»، بعد وخزي بما يشبه سيخ شوي كما شعرت به في ذراعي «ربما أستطيع القول إنني مثل طبيب». أمسك بكراسي لي ووجه يدي من سطر لآخر؛ كتبت ملاحظة قصيرة، وتمددت بعدها بعد أن أخذ مني الإرهاق كل مأخذ، ورأيته يحدّق بارتباك.

قال لي: «لقد أعطيتك الجانب الخاطيء، إنها ورقة ملطّخة بالحبر. عليك إعادة الكتابة مرة أخرى». كان كالفراشة فوق سرير الموت، بهيجاً ولكن ليس له علاقة به.

نمت لثلاث ساعات حتى الصّباح، واستيقظت من أحلام سعيدة؛ لقد كنت مع والدي في مدينة ما في البحر المتوسط، مضيئة في بحر من الأوبال؛ قدم إليّ صديقي ضاحكاً في الغرفة ذات الموقد؛ استيقظت ومعني هذه الصّحبة ورأيت أشعة الشّمس على الأوراق الإبرية للنّخيل عبر النّافذة. كان هناك صوت تغريد العصافير وهواء نقي قادم من الحديقة داعب الحصر المفروشة فوق طاولتنا الصّغيرة؛ إنها أول ساعة ساحرة بعد الفجر. ونسيت للحظة أنني كنت مريضة؛ وأدركت بعدها بالفعل أنه يومي الأخير، إلا إذا وصل محمود الكيميائي من تريم مع بعض الأدوية الجديدة. فشلت كل أساليبي وسقطت جميعها واحدة تلو الأخرى؛ قلبي الآن ضعيف للغاية حتى أنني لا أشعر بأيّ نبض. بدا الأمر كله غير منطقي، رهيباً، ولا يمكن تجنّبه، مع العالم حولي وعقلي حيّ بسرور؛ لا بدّ أن الأمر يبدو كذلك للناس المحكوم عليهم بالموت في يومهم المحدّد. لقد أنقذني، كما أعتقد، محمود.

إن صعوبات الاتصال بين السّلطانيين وقيام العرس في تريم ورحيل حسن بغضب، كل ذلك شرح تأخير الأيام الثلاثة التي كادت تقضي عليّ، لكن نداء الاستغاثة الأخير جعلهم مدرّكين كم كانت الحاجة ملحة. انطلق مضيّفي سعيد بنفسه بعد هذه الليلة الفظيعة نحو سيئون بسيارته والتقى الفريق المنقذ، وحوالي السّاعة التاسعة، عندما

تخلّيت عن كل تفكير بهم جاء يسلم بعينين لامعتين براقتين ليخبرني عن سماعه
لصوت سيارة. وقف عند النافذة وأخبرني عن رويته لنقطة قريبة نوعاً ما تثير غبار
الوادي.

وصلوا بعد فترة وجيزة - مضيّفاي وسيداً عمّداً، وحسن المنتحب مع محمود. إنه،
رجل طيب، تحسّس نبضي وأخبرنا أنها ذبحة صدرية مترافقة مع سوء هضم، تركيبة
فاجأتني، وبادر إلى حقن وريدي باللوكونول loconol؛ الذي كان له تأثير ناعم وكأن
إكسير الحياة يسري مرة أخرى في قلبي المتعب.

أخذ محمود الأمور على عاتقه، والتي كان ثقلها على كتفي كثقل مرضي، ثم
نمت بامتنان. قال مضيّفاي بأنهما سيُظهرا ن صداقتهما ببقائهما بالبنغل حتى تتحسن
صحتي، وأمرّا بتحضير وليمة لجميع الأطراف. عمّت حالاً أصوات الفرح المكان
وجعلتني أشعر أنني والعالم حولي، مهما كان حالنا، لم نكن بأيّ حال ميّتين.



الفصل الخامس والعشرون

الزّوَار

«ربما أصل بالرّغم من ذلك بسرعة إلى المكان الذي تعلّقت فيه روحي الهائمة، ولكن القدر يقيد الأوتاد المندفعة ويحشر نفسه بينها».

(أندرو مارفل)

تحسّنتُ ليوم، وانتكست بعده. كتبت تحت وطأة الأزمة لأصدقائي في عدن وطلبت منهم إرسال طبيب في حال حطّت طائرة من سلاح الجو الملكي في أرض حضر موت. من المتوقع كما أخبروني وجود رحلة إلى شبام والفرصة مواتية للغاية لعدم تفويتها.

اقترب العيد الكبير، عيد الأضحى السنوي، سيستمرّ لأسبوع ولن يذهب أيّ ساع للساحل خلال ذلك الوقت. وفي جميع الأحوال سيستغرق وصول الرّسالة لعدن بين الأسبوعين للستّة أسابيع. اغتنمت الفرصة وكتبت، وأرسل مضيّفي - كما علمت بعدها - تلغرافاً على حسابهم الخاص عن طريق نفس السّاعي ورسالة مختصرة: «الرجاء إرسال طائرة». لتسلّم لأية سفينة فيها لاسلكي قدّر لها أن تمرّ هناك. أنا ممتنة لأقول لم تأت فرصة لإرسالها، وأعفي الطّيران الجوي الملكي من من أيّة مفاجئة يمكن أن تحدثها.

بينما كان محمود يمرّضني، وأنا مستلقية غير مبالية، دون أيّ شيء لأفكر به في

التهامة. تصيّد عبر كتابه المليء بكل مرض ممكن أن تتخيله والذي رفضت الاكتراث به. لقد أمضى مع طبيب في عدّنين سنتين خلال وباء الطاعون، هذه التجربة، بالإضافة لطبيعته الجادة وذكائه الباهر، مكّناه من مساعدتي. جلس أسفل الدّرج طوال الليل، ومن دون نوم، «يدعو» كما أخبرني، «أن يحفظك الله».

في اليوم الثالث بعد قدومه، أصبحت دون أيّ شك أفضل، وبعد مدّة وجيزة بعدها غادرني للعودة بين الفينة والأخرى من سيئون.

في أحد الأيام بينما كنت مستلقية ومريضة للغاية، أتى بدوي من القطن لرؤيتي. دخل لوحده في فترة ما بعد الظّهيرة عبر بابي المفتوح وألقى عليّ تحيّة السّلام. كان عولقيّاً طويلاً من سكان الهضاب، مرتدياً لباساً فضفاضاً، وحزاماً للطلقات حول خصره، ومثكثاً على بندقيّة. وبغض النّظر عن هذا كله، كان له شكل المسيح في بعض صورهِ القديمة - بحاجبيه العريضين ولحيته ذات اللون المائل للحمرة، سمات مباشرة، وعينه الهادئتين ومشيته النّبيلة.

لمرتين لم يُمنح الإذن بالدّخول، كما أخبرني، ولكنه انتظر حتّى لم يتبقَّ أيّ أحد بالأسفل، وأتى الآن ليلقي تحية الوداع. فلم يتبقَّ له ولرفاقه المزيد من الوقت للانتظار: فعليهم العودة لبلدهم.

قلت بأسف: «لن أستطيع الدّهاب، أنا مريضة».

«الله يعافيك؛ الله يحفظك ويحيطك بكل خير. لا خير إلا من عند الله تعالى. له الحمد والشّكر».

يا لها من دعوات جميلة، قالها بكل إخلاص، صاحبها قبول جليل وجو الحياة الشّجاعة الرّحبة. وحتى عند طلبه هديّة بسبب انتظاره عديم الفائدة، كانت كلمته نبيلة: «إكرام»، شيء «يُعطى للتّكريم».

لم يكن بإمكانني تقديم أي شيء له، لعدم استطاعتي التّهوض، كما أخبرني مضيفاي أنّ سلطان القطن سوف يفعل ذلك عني وسيعلمني بذلك. ولكن عندما حان الوقت،

لم يسمح لي أبداً ببرد الدين له، وكل ما استطعت عمله هو ترك نسختي من كتاب الهمداني له. ولكن خلال ذلك الوقت بقيت سعيدة ومرتاحة بزيارة البدوي، وفكرت عند استلقائي أن سحر جزيرة العرب، والذي شعر به الكثيرون، هو ربما نتيجة بشكل أقل لأرضها الجافة الجعدة المشمسة من الجمال والتبل الداخلي المتميز لأهلها.

عند ذلك الوقت، قبل استطاعتي مغادرة فراشي، أحضر والي خبراً عن المسافرين الألمانى إلى شَبُوة⁽¹⁾.

كان رجلاً في مقتبل العمر زار هذا البلد من قبل، وكتب عنه كتابين، والتقط صوراً جميلة. ولكنه كره بسبب تقرير ذكر فيه أن بدو الصَّيْعَر Se'ar كانوا من آكلي لحوم البشر. هذا، بالطبع، من الغباء قول شيء كهذا عن أمة قبيلة عربية، والذي أثار مشاعر الامتعاض في الوادي الذي أحسن ضيافته. ولديه أيضاً جرائم أخرى يدفع ثمنها كمسافر، فقد وصل فعلياً عند بوابة شَبُوة، التي طرده البدو عندها، فزاد المسافة من شَبام لسبعة أيام بدلاً من أربعة؛ وصنّف نفسه كأول أوروبي في دَوَعَن في الوقت الذي كان فيه الوادي بأكمله يتحدث عن زيارة فان دن مولن M. Van den Meulen وفون فيسمان Von Wissmann؛ وظهر وكأنه لم يسمع أبداً بالزَّوجين بنت Bent؛ وبدأ وكأنه هُدّد بإطلاق النار عليه وبالموت مرات عدة بشكل غير منطقي حتى مع أكثر السباح عديمي اللباقة.

عندما قدّم نفسه، دون توقع، للسادة الأشراف آل الكاف في تَريم، كانوا محرجين ليقرّروا ماذا يفعلون به. رغب الشباب في الوادي التعبير عن مشاعرهم بكل وضوح، وشاركهم في السخّط الحزب المتدين وقديمو الطراز. وهذا بسبب إهانتهم بقوله إن مدرسة الرباط، مركز التعليم الديني في حضر موت، تُقدّم «آينه فراو» "eine Frau" (أي امرأة بالألمانية) لطلابها مع مظاهر متعة أخرى.

كان الكتاب موجوداً في سيئون، وطلب مني أن أترجم المقطع المُعترَض عليه،

(1) تقصد بكلامها هنا الرَّحالة المغامر هانز هيلفريتس Hans Helfritz الذي ذكرناه أعلاه في الفصل التاسع.

والذي استمع إليه الرّجال المتعلّمون بصمت وبنقمة. سألو الشّاب الألماني عن معنى كلماته تلك عند قدميه؛ فشرح لهم بأن عبارة "eine Frau" في هذه الحالة تعني الفتيات الصّغار اللاتي سُمح لهن بالحضور للمدرسة (والحقيقة تقال، ليس كذلك فلم يكن يُسمح للفتيات بالحضور للمدرسة).

أتى كلّ من حسن ومحمود بهذا الكتاب بين يديهما ليسألاني عمّا إذا كان تفسيره صحيحاً: ربما، هذا ما تمنّياه، لم أكن أعرف الألمانية بشكل جيد، من المحتمل أن تعني كلمة "Frau" الطّفل الصّغير في سن العند؟ ولكنني رفضت الحنث بقسمي في سبيل ألماني غير معروف: فقلت، Frau تعني Frau ولا شيء سوى Frau. وعندما استعجل مضيفي ودائرة كبيرة من الأسياد في زيارتي وأخبروني أن الألماني الشّاب كان في طريقه إلى شُوة قلبي، وللتعبير عن الصّداقة تأملوا بأن يحدث مكروه أو موت مفاجئ له في الطّريق... كانت مشاعري كابتسامتي المجرّدة للفكرة.

أتى الآن أحدهم جالِباً أخباره اليومية، بينما أنا مستلقية أستشيط غيظاً. لقد ذهب إلى سيئون وبقي عند السيّد أبي بكر. لن يتحرّك، كما قالوا لي، حتى بعد العيد الكبير، لأنّه الوقت الذي يحتفل فيه الجميع بعقود القران، يزوّج البدو بناتهم خلال هذا الأسبوع، ولا سفر عملياً في هذا الوقت. وعند نهاية العيد، سيكون باستطاعتي على الأغلب السّير ثانية، وأرسل السيّد أبو بكر رسالة فحواها أنّه يتطلّع لبدئي بداية جليّة. سيبدل ما بوسعه ليُبقي الألماني هادئاً. أرحت ضميري بتذكّر خطاياها، وتظاهر يسلم ببعثرة الطّعام بأصابعه الطويلة لكلاّب متخيّلة، مفسّراً بأنّ هذا الذي سيحصل للرّجل عديم الضّمير إذا زار القاطنين الغاضبين في شبّام. «أكلو لحوم البشر» دمدم بين الحين والآخر، بينما كان يكنس غرفتي بسعفة نخيل.

بعد حين، وصلت الأخبار، بعيد وبغير عيد، بدأ الألماني رحلته. اختار بدوياً من السّوق في سيئون ورَتّب ليأخذه مباشرة، على الرّغم من جهود السيّد أبي بكر لثنيه عن ذلك. أعجبتُ بتصميمه، ثم سمعت من محمود أن ذلك كان بسبب حسن، الذي حثّه على الإسراع، وإلا فإنني سأبدأ الرّحلة قبله.

لم أعرف ما حدث بالضبط، ومازلت أكره التفكير بسوء تجاه حسن. لقد كان مخلصاً ووفياً للغاية قبل أن يرميني المرض تحت رعاية محمود، الذي يكرهه. وربما كرهه له أو ربما مجرد حب الأخذ والرد، جعله يتكلم. يا لها من حقيقة محزنة في الشرق، بأكمله، إنهم مخلصون لكرههم أكثر من حبهم، حتى الآن سأظنّ به خيراً. دبّ الخلاف في وادي حضرموت، واستلقيتُ بلا حيلة، كانت رحلتي تنهار كبيوت ورق الكوتشينة حولي؛ وشعرتُ بالخزي أن يكون لديّ مانع إذا وصل الآخرون إلى مدينتي قبلي - بالنسبة لهذه المسألة وهي الوصول أولاً لم تكن ذلك الشَّغف المهم. وضع يَسلم الواثب بخفة ومرح حول الغرفة، إصبعاً وإبهاماً حول عنقه، وأشار إلى السَّقف، وفتح يده ليُظهر أن كل شيء قد انتهى، وبوجهه تلك النظرة الصَّارمة المعتادة في ما يتعلق بالعدالة تجاه الآخرين، يرى بأن النَّاس الخائنين لأصدقائهم يجب أن يُشنقوا.

وصل الألمانِي إلى القَطَن واستمرَّ في التَّقدّم. وصلت رسالة من السُّلطان هناك يقول أنه قد مرَّ فيها ولكن البدوي المرافق له، على الرّغم من وصولهما القرية الحديثة، لن يكون باستطاعته اصطحابه لموقع المدينة القديمة، على بُعد مسيرة يوم: اعتبرتُ إرسال رسالة كهذه لطفاً من جانب السُّلطان ولكنها أصبحت حقيقة.

وصلتني بعد أشهر، عند وصولي تَوّاً لأوروبا، رسالة من حسين في شَبام:

قال: «عاد الألمانِي من شَبوة والتقينا في القَطَن في قصر السُّلطان وسألناه عن الآثار هناك، فأخبرنا بوجود منجم ونفط وذهب يجب التَّنقيب عنها، وأحضر صورة لصنم هناك. لم يكن سعيداً، فلقد كان لديه نصف يوم فقط، بسبب القبائل التي هاجمته. وها هو ذا قد أتى وذهب للسَّاحل؛ كما مضى لى ضواحي شَبوة ولكنهم منعوهُ من دخولها كلها».

كان ظن السُّلطان في محلّه، فالمدينة القديمة ومعابدها السَّتُون ما تزال بانتظار الرّخالة.



الفصل السادس والعشرون

مغادرة شَبُوة

«ماذا لو لم أعد أعيش تلك الأيام الملكية؟

ما تزال لياليها حاضرة معي.

حلمت بأقدامي تسير فوق طرق النجوم؛

استراح قلبي في الهضبة.

ربما لست نادماً على الأشياء القليلة التي لم تُنجز؛

أمسكت بالعلا، واحتفظت بالأحلام التي ربحتها».

(«أبريل وأمطار» ج. و. يونغ)

حضرت كل الخطط التي استطعت للوقت الذي ينتهي العيد فيه. قرّرت أن أُحمل على نقالة إلى الشاطئ، كما فعل بمضيّفي عند مرضه في السّنة الفائتة. ستستغرق ثمانية أيام أو أكثر تبعاً لطول مراحلنا وسيحملني ستة رجال مقابل خمسة عشر طالراً لكل واحد؛ أما مشكلة الطّعام فستحلّ بشراء ثلاثة رؤوس من الماعز، والتي ستحمّل العبء الأكبر من الرّحلة فستسير معنا وستزودنا بالحليب بين الفينة والأخرى. كان الكلّ متفائلاً حول المشروع، على الرّغم من عدم استطاعتي التوقف عن التّفكير في الصّفحات الأخيرة لكتاب بنت Bent، والتي انتهت بشكل مأساوي تماماً كرحلة على

نقّالة⁽¹⁾. لكن الجو الحارّ قادم عمّا قريب، ويجب عليّ مغادرة الوادي بطريقة ما.

ها أنا ذي الآن مستلقية خلال فترة من الهدوء المملّ، لا يقطعه غير كلام يَسلم يأتي ليثرثر في المساء، بينما سالم يقول القليل وهو يحضن ركبتيه على كرسي من الكراسي المخملية أسفل سريري، مطأطئاً رأسه البنيّ من وقت لآخر.

اقترحوا عليّ تجربة طراز الطّب الحضرمي وعرضوا إحصار رجل حكيم لرؤيتي. كنت سأقبل ربما لولا أنني أجربّه حالياً، استمعت لقائمة يَسلم العلاجية القاسية كما هي. يُمزج ويؤكل العسل والإثمد، كما أخبرني، لعلاج الإسهال. أما الرّيح «والتي تهاجم نصفك الأسفل»، تعالج بقضاء أسبوعين في الظّلمة الدّامسة، «حيث لا ينمو شيء» - عادة في كهف في الهضاب؛ والطّعام الخفيف فقط مسموح وربما هذا يشرح نجاح العلاج. تعالج لدغات الأفعى، كما قال، بدائرة من الرّجال يغنون حول المريض بينما يمتصّ واحد منهم السّم؛ ولدغات العقرب تعالج بالضغط بالقطعة النّقدية فوق الجرح. «كما للسعال الذي يأتي بعد الحصبة، أنت محظوظة بالتخلّص منه، والذي غالباً ما يخنق المرء في حلقه فيموت، أكثر من مئة رجل مات في الشّهرين الأخيرين في شبام».

أستطيع رؤية شبام من نافذتي ببيوتها الخمسمئة المتجمّعة كالحصن فوق النّخل. تدوس الجمال فوق حبات الشّعير في الجهة الأمامية. يجرّ الرّجال جذوع النّخل في حلقات دائرية، وكلّما جمعوا القش في حزم غنّوا معاً.

يُصنع كل شيء في حضرموت مع الغناء. تُبنى البيوت بمصاحبة الغناء من أول خلط للطين والقش لصنع القرميد إلى آخر لمسة من التّكليس والتّبييض. حتى الجمال لها أغانيها الخاصة؛ يدندنها البدوي برفق كلما تمايل للأمام والخلف، وتمشي معها

(1) أصيب الرّحالة البريطاني ثيودور بنت بالمalaria في آخر رحلاته في البحرين وجنوبي اليمن وعمّان وشرقي السودان وسُقطرى، ثمّ ما لبث أن توفي في بريطانيا بعد أربعة أيام من عودته في شهر مايو 1897، ممّا اضطر زوجته ماييل إلى تدوين وقائع الرّحلة بنفسها. انظر كتاب «جنوبي جزيرة العرب» الذي نشرناه مؤخّراً في هذه السّلسلة.

الجمال وتهز رأسها برضى من جهة لأخرى. يشكّل كلاهما صورة للسعادة الأليفة كلما سارا خلال عزلة حياتهما المشمسة، ولذلك غالباً ما أتساءل: كم زوجاً من الأزواج يفهمان بعضهم بهذه الحميمية كما يفعل هؤلاء.

كلما استلقيت ونظرت هائمة عبر النافذة، يأتي يسلم بأخبار هنا وهناك. أخبرني أنّ شبام في طريقها للحرب، «مع البيوت القابعة هناك» - بيوت صغيرة وغير عدائية تبدو متواضعة عبر الوادي الذي ستنقضي مدة هدنته بغضون شهر واحد.

تملك شبام حاميه قوامها حوالي ستين جندياً عبداً، على الرغم من أن سلطان القطن يملك لنفسه العديد من اليافيين بمعزل عن حكومة المكلّا. حتى الآن في وقت السلام، تغلق بوابات المدينة في الساعة الثامنة مساءً حتى الفجر (ساعتان عربيتان حتى الفجر). طلب مني يسلم الذي يرغب بحضور عرس في المساء بعد الظلمة، مصباحي الكهربائي. قاربت عمر البطاريات من نهايتها، فاقترحت استخدام الفانوس. قال يسلم: «لن يكون له أيّ فائدة، سيطلقون النار علي».

«من سيطلق النار؟»

«الجنود عند البوابة».

اعتادوا إظهار ضوئين هناك عبر الليل، كما يظهر ضوء شمعة صغير وحده عبر الأبنية، ولولا ذلك لبدت البلدة كحشد من الظلال برؤوس مكتظة بجانب بعضها، ويقع سواد الجرف والوادي حولها، حتى يطل القمر فوق الجدار الشرقي، لتبدو الخطوط الرئيسة للمدينة مخملية وعميقة تحت جمالها المنعزل المبهّم. وجاعلاً الأشواك القاحلة وأجمات النّخيل على الرّقع الرّمليّة تبدو ودیعة كمستنقع غربي. عند غياب القمر، يعود الظلام ليحلّ كالبحر ثانية، حتى يكسره الصّباح برفق يخطو سريعاً فوق جدران الوادي من أرض البخور، وحوالي العشر دقائق هي المدة التي بين الظلمة والفجر. يظهر عبر نافذتي الجنوبية، ضوء يشبه الهالة خلف الجرف الذي يحملنا، ويصيب برج المراقبة المربع ويظهر صخور الجلمود الأربعة القابعة هناك

لتبدو كرجال الكمين عندما أطلق البدو من الأسفل تجاه شِبام. ومن التّافذة الغربية، تعاود بيوت شِبام الظّهور تحت ضوء الشّمس فوق مصارف مياهها، التي عندها كما قال يَسلم، تُضرب بعض التّساء حليقات الرّأس المُقادات على حمير عبر البلدة.

مبادئ العدالة بسيطة. يوجد بئر قديم وسط المدينة حيث يوضع أسفله أسوأ المجرمين ويُرسَل لهم الطّعام من الأعلى. أما بالنّسبة للسّارق، فتقطع يده. إنّ يَسلم من مؤيدي العدالة، وأخبرني بإعجاب كبير قصة قاضي ابن سعود والرّجل الذي أضاع علبة طحين. طالب به الرّجل بعد مضي سنة ووجده في مركز الشّركة. أمر القاضي بفتحه أمامه؛ وكان أحد الجنود قد أدخل إصبعه في ثقب المفتاح ليرى ما يحويه الصّندوق، وما زال أثرها في الطّحين جلياً للجميع. قيسَت أصابع الجنود عليها، وعندما عُثر على الأصابع المذبذبة قُطعت.

كان يَسلم نفسه أرقّ من أن يؤذي ذبابة، ولكنه مؤيّد لهذه القسوة. ولكن يوجد سبب صغير لها في حضرموت. فالجرائم تُرتكب، ولكن عادةً من قبل البدو، الذين يعودون بسرعة إلى جُولهم بعيد المنال - بالضبط كالرّجال الذين حملوا حماراً من حديقة ضاحية عُقدة على مرأى من بنغلنا - الحدث الذي كسر رتبة توضيب المنزل وأبقى يَسلم سعيداً ومرحاً لبعض السّاعات.

في بعض الأحيان يلقي البدويون القبض على العبيد عندما تتاح لهم الفرصة، ويبيعونهم لأسياد جدد، ولا يغامر عبيد الوادي حتى عند عتقهم بالذهاب إلى الجُول وحدهم، لخوفهم من أن يُخطفوا ويأخذوا لمنطقة بعيدة ليباعوا هناك.

أخبرني محمود كيف أغري صبيان من كالكوتابوعد بالعمل من بحارة عرب من صُور في عُمان. وعند وصولهم البر، باعهم العربي مقابل 700 طالر لبدو صيغر Se'ar الذين أخذوهم للشّمال الغربي، وأبقوهم هناك ينقلون الماء لستين. في التّهاية، حدث أن أحضرهم السّيد لسيئون لقضاء بعض الأعمال فهربوا منه وسألوا رجال البلدة عن وجود رعايا بريطانيين أو هنود هناك. أرسلوا لمحمود الذي بدوره نقل القصة للسّيد أبي بكر، فأرسل وراء السّيد بدوي. هرب أحد العبيدين، لكن الآخر باعه السّيد مقابل

500 طالر (طلب البدوي 1,100)؛ وأرسله بعدها إلى وطنه. جرت هذه القصة قبل عشرة أشهر من قدومي.

يُخطف الأطفال أحياناً ويباعون. اشترى السيد أبو بكر، الذي لا يقصد أحد فضله ويردّه خائباً، أحد هؤلاء الصّبيان الصّغار مقابل 400 طالر (30 جنيهاً). وأخذ عناء البحث عن مكان قدومه وكتب لوالديه البعيدين في نجد، ولكن الصّبي لم يرغب بالرجوع إليهما، ورأيته بين الذين اعتنوا بي في البيت في تريم.

بسماعي لهذه القصص، ومع مرور الأيام بهدوء، بدأ وادينا وحركته يبدو في عيني كما في عيون قاطنيه، قرية صغيرة مسالمة وحياة سعيدة.

اعتدت الاستلقاء على فراش في الشّرفة وقراءة أعمال فرجيل Virgil، في ظل ظروف ممتازة - استمتاعي بالنصوص الكلاسيكية ضعيف - وأنا ميّالة لتركها إذا توفرت أي مادة أكثر سهولة للقراءة في المكان حولي.

يعتبر فرجيل Virgil واحداً من أكثر النصوص الكلاسيكية راحة لتمرّض معها. لا يوجد شاعر آخر أعرفه لديه هذا الكم من صور التّوم الجميلة، في هدوء الليل وراحة الأرض. ووجدتُ أيضاً بعض الملهمات العظيمة في لا مبالاته والثّبات الوثني للموت.

من ذا الذي لا يتشجع بمثل هذه الكلمات؟ يرن ايقاعها الجليل في أذنيّ مع جلبة صرير الآبار النّاعسة، التي يوجد ثلاث منها في الجوار. يعمل واحد أو آخر باستمرار، وبمقدوري التّظر من نافذتي لأرى حوض السّباحة يعاد ملؤه كل يومين تقريباً. أستطيع رؤية القرب الجلدية ترتفع ببطء من أعماقها، تتعلّق للحظة أو اثنتين، ثم تغوص في الحوض، تلتوي حول أطرافها الرّاشحة الممتلئة، وتصبّ الماء. يستمرّ خريير الماء طوال النّهار، يتضاءل ويتزايد كلما صعد الدّلو ونزل. تعتبر الآبار أماكن جميلة تحت الأشجار، مرّقة بالظلال؛ وتلك هي المياه الجارية الوحيدة في البلد.

نظرت وأنا على فراشي تحت الجدار المبيّض إلى السّماء الرّرقاء بغيومها التي تشبه

ستائر مطوية رقيقة. تنظر إليّ طيور صغيرة من حواف السطح. بياقات سوداء وبرؤوس سوداء مسطحة. بينما يتجمّع الهدهد بين أزهار أشجار الرّمان. للرّمان في شِباب ثمار، كبيرة بالحجم، وزهور، في نفس الوقت. لقد لقيت تشجيعاً كبيراً من قائد سرب الطّائرات ريكاردز Rickards الذي علّم يسلم كيف يشدّبها، والذي كلّما ذكر اسمه مُدح أينما لقي الرّمان الإعجاب. اسمه واسم الكولونيل بوسكاون Boscawen هما الاسمان الأكثر محبّة في الوادي. هناك العديد من الطّيور، التي لم أتعرف منها سوى على طائر الدّعلة، وطائر الحدأة أو التّسر الأبيض والبنّي اللون، وسرب الحمام في الجروف، التي تملأ المكان بأصواتها النّاعسة، والغربان السّوداء «التي تغدو وتروح بحبّات الدّرة والبلح».

غربت الشّمس عند إشارة ساعتني للسّاعة الخامسة (لم تعد موثوقة أبداً). تلوّنت السّماء بالأصفر والأخضر كسماء عدن. برزت الجُروف تجاه الوادي، توزّدت مثل النّار المستعرة؛ ووقفت مثل الأسطول عند الرّسو، واحدة تلو الأخرى، متشابهة ومتطابقة، وكلُّ منها يلقي بظله قطرياً عبر الخلف حتى المسافات البعيدة في الوادي⁽¹⁾.
“Maioresque cadunt altis de montibus umbrae”

بقيت أزهار غامضة خضراء وزرقاء من خلجانها، وحدها عند أطراف الجُول المسطحة نمت وأومضت بفتور وماتت. أمّا نحن فبانظارنا ليلة طويلة أخرى.



(1) المقطع اللاتيني التالي للشاعر فرجيل، وهو تتمة لمقطع آخر:

Et iam summa procul uillarum culmina fumant,

Maioresque cadunt altis de montibus umbrae.

ومعناهما: والآن يعلو الدّخان من أسطح دور المزارع البعيدة، واعلى منه ترتفع ظلال الهضاب العالية.

الفصل السابع والعشرون

مغادرة الوادي جواً

«سأضع حزاماً بعكس الأرض بغضون أربعين دقيقة».

«حلم ليلة منتصف الصيف»

«فقلت: ليت لي جناحاً كالحمامة، فأطير وأستريح».

مزامير داود، 55

كان العيد أكثر شيء حيرني في حياتي على الإطلاق.

يحضر الكل له، والكل يتحدث عنه ولكن عند اقتراب بدءه لا يستطيع أحد أن يحدّد بدءه، يقول البعض يومين وآخرون يقولون اثني عشر. ولكن إشارات اقترابه بدأت تتزايد أخيراً. بدأ البدو بإطلاق النار بينادقهم مرحّبين عند دنوهم من شبام - شكّل مكلف من الترحيب، فكل أربع طلقات تكلفهم طالراً كاملاً، ومنعت الحكومة هذه التسلية في الشوارع الضيقة للبلدة.

استأذن سالم للغياب. لديه زوجه، دفع ستين طالراً (4 جنيهات و10 شلنات) مهراً لها، لأنها بكر (لولا ذلك لكان مهرها ثلاثين فقط) وصنّعتة أيضاً جزّار، وسيحتاج لذبح مئات الخراف يوم الجمعة. هذان السّبيان كافيان، فغادر سالم ليوم أو يومين، بينما قدم يسلم بين الفينة والأخرى، وبقي العبد الأسود عنبر يحرس في الأسفل.

بدأ العيد يوم الثلاثاء، اليومان الأول والثاني هما يوما الأطفال، يشتري الناس

الألعاب. اليوم الثالث هو زلفة الكبار، والتي يؤكل فيها طبق 'asi، مزيج من البلح والشعير وحبّ الحيدوان من الجُول، تطبخ سوياً لخمس ساعات. اليوم الرابع هو يوم الجمعة، يوم الحج، ويأكلون فيها الهريسة، عصيدة الطّحين واللحم التي تذوّقتها في دَوْعَن. في اليوم الخامس، يزورون الحَوطة في شبّام، قبر أحمد بن حسين بن أحمد، خارج المدينة وراء بنغلنا. وفي السادس، تُزار الشّيخة سلطانة، وهي وليّة خلف سيئون وقد مررنا بقبرها في طريقنا.

سألت يسلم لماذا هي وليّة، شرح لي بأنها كذلك لعدم زواجها على الإطلاق. قلت: «بعدئذ، إذا متُّ في اليوم التالي، ودفنتني كما وعدت بجانب أرض الهبوط تحت القبة البيضاء، سأكون وليّة أيضاً، وسيكون لي يوم لأزار فيه؟». لم يُبدِ يسلم أيّ تعليق.

«من الجيّد أنك لم تموتي»، علّق قائلاً «ماذا يتوجب علينا عمله بأشياءك؟ كل الوقت، عندما كنت شاحبة للغاية، كان هذا ما كنت أتساءل عنه. قرّرت جمع أشياءك كلها، حينها لن يستطيع أحد التفكير بأنّي أخذت أي شيء بنفسِي».

يعرف يسلم جميع الأعياد في البلاد، ويوجد العديد منها. واحد من الأعياد الرّئيسة حولنا في القطن، في الثّاني عشر من شهر ربيع الآخر، ويشمل زيارة خمسة أيام لقبر الحبيب عمر الهدّار. لكن البدوي قال إنهم يعيرون انتباههم فقط للعيد الكبير، وحتى عيد نهاية رمضان، الذي يسمّى هنا شربة الماء، فنادرًا ما يحتفلون به.

في الرّابع عشر من مارس، اليوم الثالث من العيد، عندما كنت مستلقية لمدة أسبوعين في غرفتين حسبت أنني شعرت بقوة كافية لأمشي قليلاً تحت أشعة الشّمس. لم يوجد أحد حول البنغل عدا العبد الأسود عنبر، الذي أتى معي، وكلب نحيل اتخذه صديقاً - نحيل للغاية حتى أن الذّباب حطّت عليه وهي لا تفعل أبداً عندما تكون الكلاب بدينة، قال العبد.

مشينا سوياً برّفق وجلسنا عند السّقاية قرب الطّريق تحت التّخل. كانت أشبه بالطّريق

إلى مملكة كاميلوت، وشعرت - بعد سجن أسبوعين - بأنني لست مختلفة عن الليدي شالوت Shalott ناظرة بعيون غريبة لحركة السير في الغبار، الفلاحون على الحمير، يجلسون على المنتجات أو مع جلد خروف ممدود عبر السرج، السادة ببياضهم الناصع، البدوي والجمال، النساء التي ترفرف شالاتهن خلفهن، مع إبريق صغير أو سلال صغيرة متوازنة فوق رؤوسهن، جنود زنوج، عارين تماماً إلا من المثز مع حزام الطلقات، أناس يحملون الزيت أو السمن في قرب جلدية صغيرة، حمير تكاد لا ترى تحت حزم القصب الجافة للعلف، وبجانب قبتنا الصغيرة توقفت الحيوانات للشرب، أما سياسهم فقد شربوا من الحوض السطحي الذي تصبّ الماء فيه عبر الساقية.

أتى الناس من الحقول المجاورة للترحيب والسؤال، فقد سمعوا بمرضي، وتحدّثوا حول الأسعار كما يفعل أهل المدن. من الصعب التجارة في الوادي، فلكل بلدة أوزانها ومقاييسها الخاصة، ففي شبام الأوقية، وزن طالر واحد، الرطل، وزن اثني عشر طالراً، والمصري، وهي تسعة وعشرون، ولكن في الغرفة «المصري» وزنها أكثر، وفي سيئون قيمتها أقل منها في شبام. والأسعار أيضاً متنوعة مع الأزمة العالمية، فملح سيئون الذي اعتدنا على شراء 60 مصرى منه مقابل طالر قبل أربع سنوات، ارتفع ليصبح أربع مصارٍ مقابل طالر واحد، وانحدر مرة ثانية الآن ليصبح ثلاثين.

قدم الآن سعيد مضيبي على حمار أبيض صغير مُسرج بسجادة، وترجل عند رؤيتي ومشى معي في طريق العودة للبنغل. جلب لي عطر خشب الصندل الهندي وتحدّث عن العنبر، الذي يتواجد حتى الآن في شواطئ الشحر. عند مغادرته، استلقيت على فراشي في ظل التراس ورحت أقرأ ملحمة الإنيادة Aeneid، كنت أفكر بأسى، بأنني استنفدت كل شيء آخر، يجب عليّ الآن البدء بالجزء المملّ، بعد الكتاب السابع، عندما ظهر صوت أزيز وتزايد تدريجياً، وفي نهاية الأمر لفت انتباهي. كانت في السماء تحلق أربع طائرات قاذفة من سلاح الجو الملكي البريطاني، قادمة من الجهة الجنوبية الشرقية، وتملأ الوادي بأكمله، فيما يشعّ معدنها المكوّن من الألمنيوم تحت الشمس، أكثر جمالاً في عينيّ من أية طائرة أخرى شاهدها على الإطلاق.

حلّقت بشكل دائري وحطّت شرقي جدران المدينة، توجه للقائها الوجهاء كسرب
من النمل، ومن أحد قمرات الطائرات ترجل الدكتور هايشورن ثوايت Haythorne
Thwayte وشق طريقه تجاه بنغلي.

وجدني مريضة جداً لأنقل عبر هواء بعد الظهيرة الساخن، فانتظرنا حتى الفجر
التالي. في تلك الساعة الباكرة حزموني بنقالة ووضعوني بسيارة سعيد وساروا بي إلى
مهبط الطائرات القريبة. لم يكن بمقدوري إدارة رأسي، فقد حُزم للأسفل، ولكن كان
باستطاعتي رؤية قمة الجرف، التي بدت كسيف أحمر تحت أشعة الشمس.

بدت وجوه كل من سعيد وحسين والحاكم العجوز ويسلم وآخرين، واحداً بعد
الآخر فوق أفق قمري لتقول وداعاً. كنت في حلم جميل لا يحتمل. أيدٍ قادرة ومسؤولة
أخذت عناء اتخاذ القرار عني. لقد ارتفعنا، نأت وتلاشت جدران الوادي وسجن تلك
الحجارة الرملية. عند طيراننا أخبرني الطبيب عمّا نمرّ فوقه، رأيت في عقلي الجول
وطرقاته المشعة بحركة السير فيها، والحدّ الفاصل الطويل والضخم لكور سيان.

أعدنا تعبئة الوقود في قوّة، ومرة ثانية هنا صعدت وجوه ودودة قدمت للتّرحيب بي
حيث تمدّدت. والملازم الطّيار غُست Guest الذي يقود طائرنا، أبقاها عالية وثابتة
في الهواء العلوي البارد، وبعد خمس ساعات ونصف بالتّمام والكمال كنّا في عدن.

«لم يتسنّ لها التّجوال

بعيداً عن الرّجال الوقورين

ولكن تلوح هناك جزيرة

في الرّمال إن لم تكن في البحار

فكرتُ بها مرة ثانية».





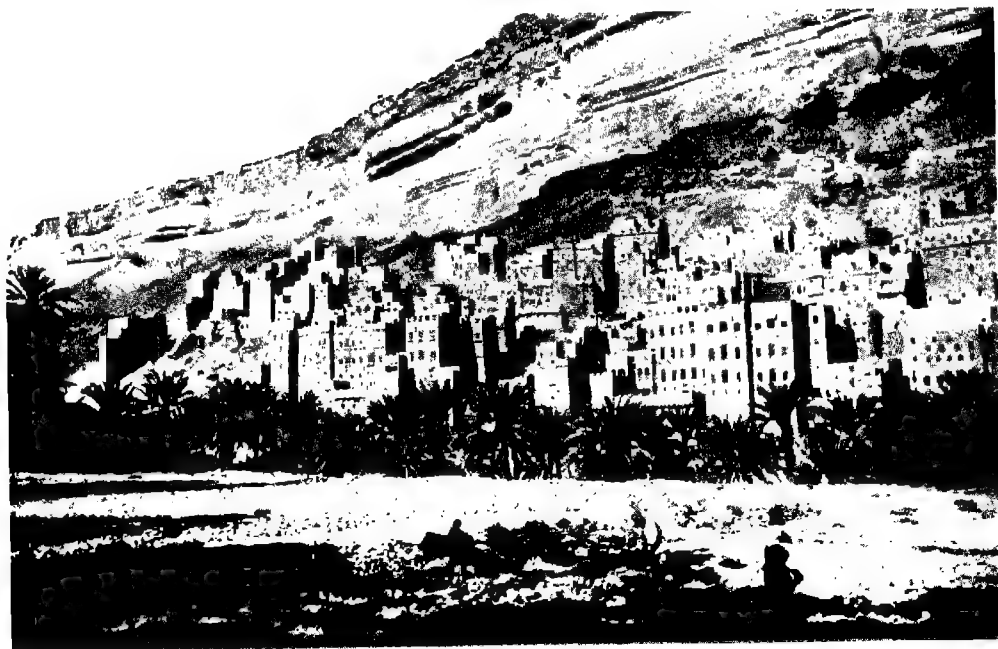
خليج المكلا



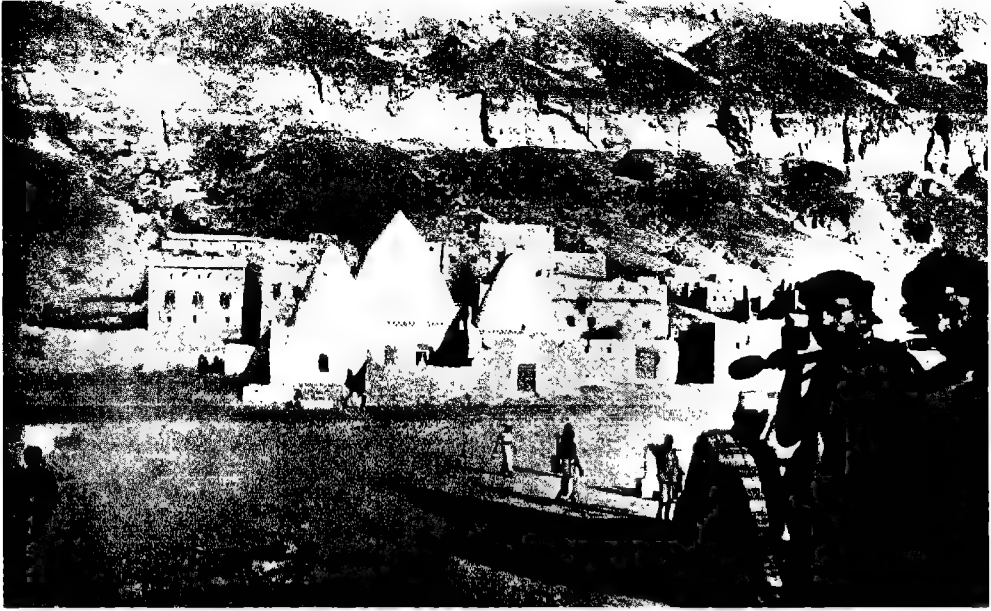
سليم في المخيم



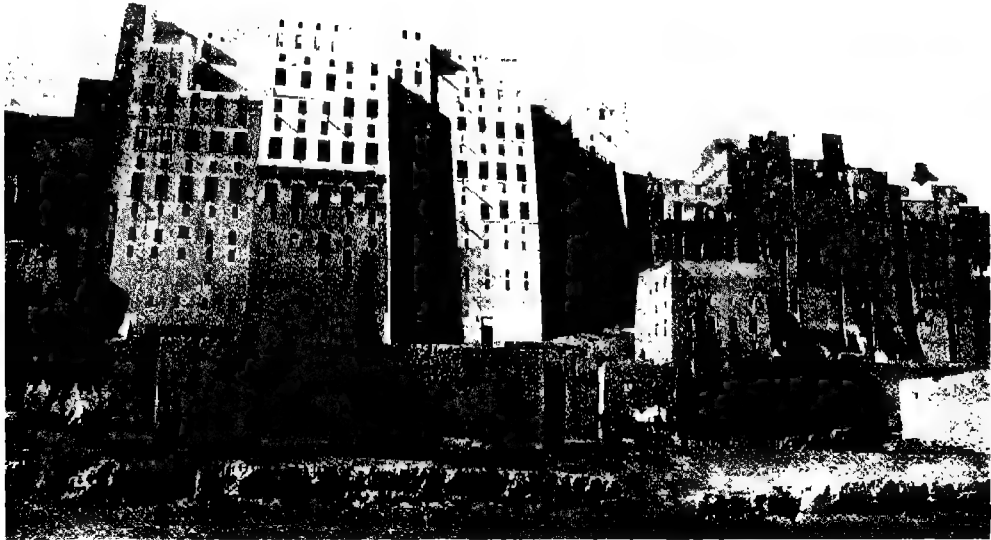
فرجة بين التخيل في دُوْعَن



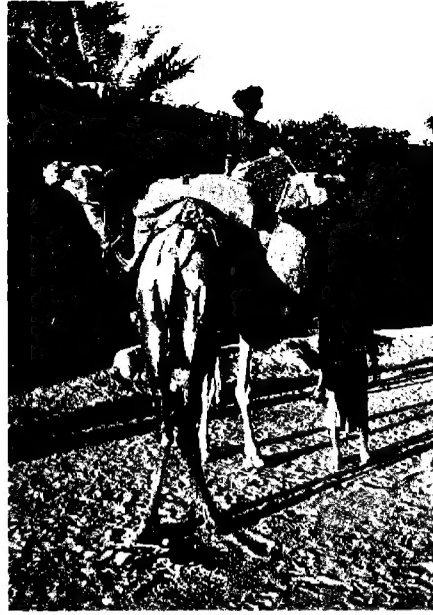
بلدة في وادي دُوْعَن



قِباب المَشْهَد الثَّلَاث



شِبَام، «ومالت المنازل بعيداً إلى قممها المبيضة بالكلس»



أرباض سينون



ساحبو الماء

فهرس الكتاب

5	سلسلة رواد المشرق العربي
7	هذا الكتاب
11	نقاط حول الترجمة
23	فريا ستارك ورحلاتها
35	شكرٌ وعرفان
37	مقدمة: طريق البخور
45	الفصل الأول: الساحل العربي
57	الفصل الثاني: رسو السفينة
65	الفصل الثالث: معسكر البدو عند بوابة المُكلا
71	الفصل الرابع: الحياة في المدينة
83	الفصل الخامس: مغادرة إلى البرّ الداخلي
89	الفصل السادس: مُنسب ثلة
99	الفصل السابع: لطريق إلى الجول
111	الفصل الثامن: بدو كور سيان
121	الفصل التاسع: الجول
133	الفصل العاشر: ليالٍ على الجول
145	الفصل الحادي عشر: الحياة في دوعن
157	الفصل الثاني عشر: الخريبة والرباط
165	الفصل الثالث عشر: مرض في حصن مصنعة

175	الفصل الرَّابِع عشر: الركوب إلى الهجرين
185	الفصل الخامس عشر: مَنَسَب المَشْهَد
197	الفصل السَّادس عشر: في وادي حضرموت
211	الفصل السَّابع عشر: شِبَام
219	الفصل الثَّامن عشر: سيئون
229	الفصل التَّاسع عش: تَريم
241	الفصل العَشرون: مغادرة الأصدقاء
251	الفصل الحادي والعشرون: في وادي عَمْد
261	الفصل الثَّاني والعشرون: حُريضة في وادي عَمْد
275	الفصل الثَّالث والعشرون: عَنْدَل
283	الفصل الرَّابِع والعشرون: الانهيار في شِبَام
293	الفصل الخامس والعشرون: الزَّوَار
299	الفصل السَّادس والعشرون: مغادرة شَبْوة
305	الفصل السَّابع والعشرون: مغادرة الوادي جواً



البوابات الجنوبية لجزيرة العرب

أبحرت الرحالة البريطانية المثيرة للجدل فريا ستارك في البحر الأحمر في نوفمبر 1934. ونزلت في عَدَن المرفأ الرئيسي للمحمية البريطانية في جنوبي جزيرة العرب. كانت المكتشفة النشيطة الجذابة الصغيرة قد حازت على شهرة. واختارت اليمن وبشكل خاص وادي حضرموت النائي مسرحاً لمغامرتها التالية. ثار جدل كبير حولها في لندن. فتوقعوا أنها ستهبط بطايرتها الخاصة. أو ربما تأتي وهي تقود قافلة جمال. كان بعضهم على ثقة من أن وصولها لم يعن أي شيء سوى المتاعب. ولكن مع ذلك احتشد الجميع للقائها في مقر الإقامة البريطاني.

كان هدفها أن تجد مدينة "شبوّة" الخفية، عاصمة مملكة حضرموت القديمة المسماة في الأسفار (حبس الموت). وقد سماها بليتيوس سابوتا وهي المدينة التي زوّدت قوافل البخور التي تمر عبرها، وكتب أنها احتوت على ستين معبداً وثروة لا توصف. لم يحصل أن وصل مستكشف أوروبي لتلك الواحة المفقودة منذ عهد بعيد في رمال الصحراء، وكانت نية فريا أن تكون أول من يصل إليها. كانت خطتها أن تتسلق الجول العالي، وهو جرف فسيح يفصل ساحل المحيط الهندي عن وادي حضرموت، وهو الأطول والأخصب في جزيرة العرب، تطوّقه جُروف نمت على جوانبها نباتات البخور. فكانت حصيلة ذلك كله مغامرة ممتعة شائقة، لم يكن أقلها وقوع فريا في الحب بعَدَن.

السعر 65 درهماً



إصدارات
esdarat

دار الكتب الوطنية



هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY